كان التاريخية

أول دورية إلكترونية - مُحكمة - ربع سنوية
متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

تأسست غرة جمادى الأول 1429 هجرية

www.kanhistorique.org
www.historicalkan.co.nr

السنة الرابعة - العدد الثالث عشر | سبتمبر (أيلول) 2011م/ شوال 1432هـ

الترقيم الدولي المعياري للدورية ISSN: 2090 – 0449

Kan historique periodique

مناحة للقراءة والتحميل عبر

دار ناشري | الأرشيف العالمي | ويكيميديا كومنز | الراصي الرسمي

Historical Kan Periodical
كان التاريخية
إلكترونية محكمة ربع سنوية
تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية

المشرف العام

بهاء الدين ماجد
مدير إدارة الخرائط "السابق"
دار الكتب والوثائق القومية المصرية

الهيئة الاستشارية

أ.د. عبد العزيز غوردو
أستاذ باحث وإطار في الإدارة التربوية
أكاديمية الجهة الشرقية – المملكة المغربية

أ.د. عائشة عبد العال
أستاذ الحضارة والآثار القديمة
رئيس قسم التاريخ بكلية البنات
جامعة عين شمس – جمهورية مصر العربية

أ.د. خليف مصطفى غرايبة
أستاذ الجغرافيا التاريخية السياسية
نائب عميد كلية عجلون الجامعية
جامعة البلقاء التطبيقية – المملكة الأردنية الهاشمية

أ.د. نهلة انيس مصطفى
أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد
كلية الدراسات الإنسانية
جامعة الأزهر – جمهورية مصر العربية

أ.د. خالد بلعربي
أستاذ التاريخ الوسيط
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الجيلالي ليباس– الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

أ.د. فتحي عبد العزيز محمد
أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الباحة– المملكة العربية السعودية

أ.د. بشار محمد خليف
كاتب وباحث في تاريخ العالم العربي
خبير دراسات حضارة المشرق العربي القديم
الجمهورية العربية السورية

أ.د. عبد الرحمن محمد الحسن
عميد الشئون العلمية
جامعة بخت الرضا – جمهورية السودان

كان التاريخية

أول دورية عربية مُحكّمة ربع سنوية متخصصة في الدراسات التاريخية تصدر في شكل إلكتروني ، تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية ، وصدر العدد الأول منها في سبتمبر / أيلول ٢٠٠٨

دورية كان التاريخية

- تدعو كل المهتمين بالمحافظة على تاريخ الوطن العربي إلى إثراء صفحات الدورية بالموضوعات التاريخية.
- ترحب هيئة التحرير بإسهامات الأساتذة ، والباحثين ، والكتاب المتخصصين ، من مقالات ودراسات وبحوث تاريخية.

موضوعات الدورية

- الدورية متخصصة في المواضيع العلمية و الأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العرب ، وأصحاب الدراسات العليا ، والباحثين في الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة ، والمهتمين بالقراءات التاريخية.
- الموضوعات المنشورة بالدورية تعبر عن وجهة نظر كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية ، أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمّل دورية كان التاريخية أيّة مسؤوليّة عن الموضوعات الّتي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكُتاب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين ، أو تنتهك حقوق الملكيّة ، أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.

الإشعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي ، إنما هي منبر علمي ثقافي مستقل يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

أعداد الدورية متوفرة عبر:

دار ناشري للنشر الإلكتروني – الكويت
أول دار نشر ومكتبة إلكترونية عربية مجانية
تأسست يوليو ٢٠٠٣
www.nashiri.net

أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية (سان فرانسيسكو)
www.archive.org

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

هيئة الاستشارية

أ.د. محمد عبد الرحمن يونس
كاتب وباحث وقاص وروائي وأستاذ جامعي
عضو هيئة التدريس في عدة جامعات عربية ودولية
الجمهورية العربية السورية

أ.د. ناظم رشم معتوق الإمارة
أستاذ مساعد التاريخ المعاصر
قسم التاريخ – كلية الآداب
جامعة البصرة – جمهورية العراق

أ. أنور محمود زناتي
مدرس مساعد التاريخ الإسلامي
كلية التربية
جامعة عين شمس - جمهورية مصر العربية

أ. ريهام عبد الله المستادي
كاتبة وصحفية بجريدة المدينة
جدة - المملكة العربية السعودية

د. آية المنسي
المستشار الثقافي
مفتش صيدلي بوزارة الصحة المصرية

م. عبد الله مصطفى
مستشار المعلومات وتطوير النظم
مدير مشروعات - مؤسسة نت سيرفكس

د. وليد سامي
المستشار القانوني
محكم دولي ومدير مكتب النسر للاستشارات القانونية

رئيس التحرير

أشرف صالح
عضو هيئة التدريس
الجامعة الاسكندينافية - النرويج

هيئة التحرير

أ. إسراء عبد ربه
أ. حسن علي سالم
أ. مروة محمود مهدي
أ. إيمان محي الدين

الإشراف اللغوي

أ. محمد عبد ربه
موجه اللغة العربية
وزارة التربية والتعليم – مصر

الإشراف الفني

أ. أسماء صلاح
باحثة في علم الاجتماع
كلية الآداب – جامعة القاهرة

الترقيم الدولي المعياري للدورية

كان التاريخية مسجلة وفق النظام العالمي لمعلومات الدوريات ، وحاصلة على الترقيم الدولي المعياري الموحد للدوريات:

ISSN: 2090 – 0449 Online

الراعي الرسمي

سلسلة المؤرخ الصغير ، هي سلسلة كتب علمية تاريخية ، تهدف إلى توفير المعلومة العلمية حول الموضوعات التاريخية التي تهم الباحثين ، بأسلوب أكاديمي موثق يتوافق مع متطلبات البحث العلمي. وتستهدف السلسلة الطلاب والباحثين لإرشادهم في طريق البحث العلمي ، والإعلامي والمُعلم والمثقف العربي لمساعدتهم على نشر الوعي التاريخي.

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك ، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية ، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.

النشر الورقي

- يحق للكاتب إعادة نشر المقال (البحث) بصورة ورقية أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير.
- يحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.

المراسلات

توجه المراسلات والاقتراحات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com

موقع الدورية على شبكة الإنترنت

لمزيد من التواصل بإمكانك مطالعة الدورية والأرشيف بالكامل على الموقع الإلكتروني بالإضافة إلى مزيد من التفاعل .. نحن بانتظاركم

www.kanhistorique.org
www.historicalkan.co.nr

جميع الحقوق محفوظة © دورية كان التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١١

ترحب دورية كان التاريخية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة ذات الصلة بالدراسات التاريخية، مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح، مع الالتزام بالضوابط التالية:

نشر البحوث والدراسات العلمية

- تقبل الأعمال العلمية التي سبق نشرها أو التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في دورية أو مطبوعة أخرى.
- اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع.
- التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.
- يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر. وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها، أما إذا كانت تعديلات طفيفة فتقوم الدورية بإجرائها.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر أو القديمة.
- أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- أن يعرض الكاتب ملخصًا وافيًا لمحتويات الكتاب مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور.
- ألا يزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- يُراعى في الأطاريح (الرسائل) الجامعية موضوع العرض أن تكون حديثة وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد الموضوعات التاريخية.
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث.
- ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته.
- خاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا يزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- تنشر الدورية التقارير العلمية عن الندوات والمؤتمرات ذات العلاقة بالدراسات التاريخية التي تعقد في دول الوطن العربي، ويشترط أن يغطي التقرير فعاليات الندوة أو المؤتمر مركزًا على الأبحاث العلمية وأوراق العمل المقدمة ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

Posting Rules

Historical Kan Periodical

ISSN: 2090 - 0449

A specialized journal devoted to historical studies and research, issued quarterly by: Junior Historian Series.

Kan exists to bring together people of all communities who have an interest in the past.

Our mission is to promote, develop and support the study and teaching of history at all levels: teacher, student, amateur and professional.

In accordance with this mission, we publish a range of material for a wide variety of readers that encompass:

- Historical studies and research.
- Book reviews.
- Thesis reviews.
- Reports of seminars and conferences.

Kan Editorial Board invites all those interested in preserving the history of the Arab World to enrich the periodical. Those interested in historical studies are also invited to publish their useful writings in Kan.

Remarks

- Researches should be in a “Word format“
- Basic Information about the author is required, which is to include: Name, Degree, specialization, e-mail, personal site, personal blog, a personal photo for publication with the article "if possible".
- Correspondences, and questions should be addressed to the Chief Editor on: mr.ashraf.salih@gmail.com

هيئة التحرير

- تعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي.
- الحقوق المتعلقة بالأعمال العلمية المنشورة تعود إلى الدورية، ويحق لأصحاب المقالات والأبحاث والعروض والتقارير إعادة نشر أعمالهم في أي دورية مطبوعة أو إلكترونية أخرى.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسباً للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

قواعد عامة

- تُرسل كافة الأعمال بصيغة برنامج "Word".
- يرفق مع العمل نبذة عن الكاتب تتضمن: الاسم، الدرجة العلمية، التخصص الدقيق، البريد الإلكتروني، الموقع الشخصي، المدونة الشخصية، صورة شخصية للنشر مع المقال"إن أمكن".
- المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج".
- تُرسل الأعمال المطلوبة للنشر على البريد الإلكتروني لرئيس التحرير mr.ashraf.salih@gmail.com

محتويات العدد

8 الحياة الاقتصادية والاجتماعية في العقبة (١٨٦٤ - ١٩٢٥)
د. مأمون عبد الله أصلان بني يونس - الأردن

21 موارد إيالة الجزائر المالية في مطلع القرن التاسع عشر
فاطمة الزهراء سيدهم - الجزائر

29 الإسكندرية عند ابن جبير
د. فاتن محمد الشيخ - مصر

36 الآراميون-الآشوريون-الكلدان-الكنعانيون-العرب: الألف الأول قبل الميلاد
أ.د. بشار محمد خليف - سوريا

44 موقف بريطانيا من الخلاف الحدودي بين البحرين والسعودية حول فشت أبو سعفة (١٩٤١ - ١٩٥٨)
د. حيدر عبد الرضا حسن التميمي - العراق

49 العلاقات العثمانية – المغربية خلال القرن السادس عشر
أحمد سالم علي - مصر

55 مفاهيم جغرافية عند المسلمين في العصر الوسيط
محمد قويسم - الجزائر

62 المناظرات والمناقشات العلمية لعلماء تلمسان في بلاد المغرب الإسلامي خلال ق ٨- ٩هـ / ١٤ – ١٥م
نبيل شريخي - الجزائر

66 ملامح شخصية الخليفة العباسي عبد الله المأمون في حكايات ألف ليلة وليلة: سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا
أ.د. محمد عبد الرحمن يونس - سوريا

74 اللغة العربية ودورها في التواصل الحضاري بين الشعوب
أنور محمود زناتي - مصر

78 دور السلطة الأموية في دعم وتشجيع النشاط الصناعي في بلاد الأندلس خلال القرنين (٣ – ٤هـ / ٩ – ١٠م)
تواتية بودالية - الجزائر

85 أضواء على العلاقات التجارية الجزائرية الأوروبومتوسطية خلال النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد: مدينة قسنطينة وضواحيها أنموذجا
خالدية مضوي - الجزائر

91 دخول المذهب المالكي إلى الأندلس وعوامل انتشاره فيها
صفي الدين محي الدين - الجزائر

96 القصيدة الأندلسية: صدى الإنجازات والانتكاسات
آمنة بن منصور - الجزائر

101 الجيش الرستمي: دعوى الغياب ومقتضى الحضور
علي عشي - الجزائر

110 عرض كتاب: موقع بناصا الأثري من الأصول إلى الجلاء الروماني
د. سيدي محمد العيوض - المغرب

115 عرض أطروحة: الحركة الصوفية بالمغرب الأوسط في القرنين(٨- ٩هـ/ ١٤ -١٥م)
عبد القادر بوعقادة - الجزائر

117 ملف العدد: التربية الجهادية عند المرأة المسلمة في صدر الإسلام (١ – ١٣٢هـ / ٦٢٢ – ٧٥٠م)
د. خالد يونس عبد العزيز الخالدي - فلسطين
أحمد محمود الجدي - فلسطين

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

التفسير السيكولوجي للتاريخ

يتفق علماء النفس على أن للإنسان جانبًا ظاهرًا من السلوك يحكمه عقله الواعي، وهذا الجانب قد يبدو غريبًا أو متناقضًا أو غير مفهوم إذا نظرنا إليه وحده مقطوع الصلة عن جذوره الكامنة في ما يسمى بالعقل الباطن (اللاشعور) الذي اختزنت فيه الذكريات، والأماني، والرغبات، والمخاوف، والدوافع والحاجات، فشكلت قوة مستترة ولكنها هائلة التأثير على السلوك الظاهر للفرد.

وقد امتد هذا الأمر ليشمل الجماعة فثمة ما يطلق عليه العقل الباطن الجمعي (اللاشعور الجمعي)، وهو يحوي أرشيفًا لتاريخ الأمم والجماعات يؤثر بوعي أو بدون وعي في طرق تفكيرها ووجداناها وسلوكياتها، وبدون هذه المنطقة الكامنة في أعماق النفس يصعب فهم الكثير من سلوكيات البشر أفرادًا وجماعات، لأن سلوكياتهم حينئذ ستبدو كقطاعات عرضية في فروع شجرة مدفونة في الرمال لا نرى جذرها، لذلك تبدو لنا أجزاء هذه الفروع في تعدديتها وتناثرها وكأنه لا يوجد بينها رابط، أما إذا أزلنا الرمال ووصلنا لجذر الشجرة فإننا نرى تسلسل الفروع منها بشكل منطقي ومنظم ومفهوم.

من هنا تأتي أهمية "التفسير السيكولوجي للتاريخ" في قراءة وتفسير سلوك البشر أفرادًا وجماعات، فقد فطن المؤرخون إلى أهمية توظيف علم النفس في دراساتهم وأبحاثهم التاريخية، ففي مقال له حول "تاريخ الذهنيات" أوضح المؤرخ الفرنسي جورج دوبي Georges Duby (١٩١٩ – ١٩٩٦) أهمية توظيف منهج التحليل النفسي في الدراسات التاريخية، والفائدة العلمية الكبيرة التي يحرزها البحث التاريخي بفضله. لقد أدرك المؤرخون أهمية علم النفس الاجتماعي في تفسير وتحليل كثير من الوقائع والأحداث التاريخية كتاريخ: العادات والتقاليد، والطقوس والأفراح والأعياد، والحروب والصراعات الأهلية والطائفية والثورات الاجتماعية...الخ، وذلك من خلال محاولة كشف اللاشعور الجماعي في مجتمع ما.

إن الوقائع التاريخية هي في جوهرها سلوكيات فردية وجماعية، وعليه فهي نتاج بنية نفسية تعكس في جوانب كثيرة منها المكبوتات الداخلية للمجتمع والتي تحتفظ بها الذاكرة الجماعية. والحقيقة؛ إن اعتماد المؤرخين المعاصرين على المقاربة السيكولوجية في الكتابة التاريخية الحديثة ساعدهم كثيرًا في توجيه تفكيرهم نحو مجالات مغمورة، وطرحوا أسئلة جديدة لم يكن من الممكن طرحها لولا الآفاق الجديدة والواسعة التي فتحها توظيف مناهج التحليل النفسي في البحث التاريخي الحديث.

بقلم

رئيس التحرير

دورية إلكترونية، محكمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الحياة الاقتصادية والاجتماعية في العقبة

(١٨٦٤ – ١٩٢٥)

د.مأمون عبد الله أصلان بني يونس
أستاذ التاريخ الحديث
كلية الآداب واللغات والعلوم الإنسانية
جامعة جدارا
المملكة الأردنية الهاشمية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
مأمون عبد الله أصلان ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في العقبة (١٨٦٤ – ١٩٢٥).- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث عشر ؛ سبتمبر ٢٠١١. ص ٨ – ٢٠ .
(www.historicalkan.co.nr)

مقدمة

لعل أهمية الدراسات الحديثة العربية وغير العربية لجنوب بلاد الشام في العصر الحديث تندرج في إطار الاهتمام في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لهذه المنطقة. وقد كانت دراستي لمنطقة شرقي الأردن في العهد العثماني من خلال ظاهرة الحاج الشامي[١] ، قد ألقت الضوء على النواحي الدينية والاقتصادية والاجتماعية ، وأبرزت مستوى السكان على اختلاف أدوارهم من خلال المعطيات التي قدمها المجتمع المحلي في شرقي الأردن في تلك الفترة.

وقد لفت الانتباه وقتها أن "العقبة" في جنوبي الأردن ، كانت خارج إطار الدراسة ، وإن تناولتها على مستوى أحداث ظاهرة انتقال الحج والمواصلات ، وذلك بفعل التقسيمات الإدارية في المنطقة ، فهي كانت تتبع مصر منذ عام ١٨٤١م وحتى عام ١٨٩٢م ، ثم تم إلحاقها بالحجاز حتى عام ١٩٢٥م حينما أتبعت لإمارة شرقي الأردن. لذلك وقع اختياري على دراسة هذا الموضوع ضمن هذه الفترة التاريخية ، في محاولة لمعرفة البنية الاجتماعية والاقتصادية للعقبة ، والتي شكلت خلفية تاريخية لكيان الدولة الأردنية الحديثة.

الواقع إن المتتبع للدراسات التاريخية ، ربما يجد أن تاريخًا عريقًا للعقبة منذ القدم وحتى نهاية العصر المملوكي ، تختفي العقبة بعدها من صفحات الكتب التاريخية المتداولة ، حتى الحرب العالمية الأولى ، عندما أصبحت قاعدة لجيوش الثورة العربية التي كان يقودها الملك فيصل. وهنا كانت تكمن صعوبة البحث واستقصاء المعلومات بسبب ندرة المصادر ، وقلة الدراسات حولها ضمن هذه الفترة ، ومن هنا جاءت أهمية دراستها كوحدة عضوية بشرية ، وهي القرية ذات البيوت المتواضعة ، تحف بها أشجار البلح ، والمستندة على البحر الأحمر الذي يربطها مع العالم. وكانت رقيبة على التحولات الكبرى في كل من مصر والحجاز ، وقيام الحركة العربية ، وميلاد حركة نهضوية جديدة في بلاد الشام.

وقد جاءت المحاولة في استخلاص المعلومات الدقيقة من خلال حقول المعرفة الموجودة في المصادر والمراجع المتعلقة بمنطقة البحث ضمن إطارها الجغرافي والإداري ، إذ لا يمكن فصلها عن الأقاليم التي تجاورها بفعل تأثير الجغرافيا البشرية Anthropogeography للمنطقة ، فتناول البحث الحياة الاقتصادية في العقبة ، مبرزًا أهم النشاطات الاقتصادية لفئات السكان ، وأثر ذلك على العقبة والمنطقة ، مشيرًا إلى أنواع السلع والأوزان والمقاييس وأنواع العملة المتداولة وبرامج الإصلاح الاقتصادية.

وكذلك الحياة الاجتماعية فيها ، وفئات السكان المقيمين والمهاجرين ، وأثر حركتهم في استتباعهم والسيطرة عليهم.وجانباً من بعض مظاهر الحياة الاجتماعية للسكان في العقبة وارتباطهم بالدولة العثمانية والحكومة المصرية ، والسياسة العامة تجاه السكان الذين شكلوا قوة ممانعة منذ تباشير التنظيمات العثمانية وحتى شروق شمس إمارة شرقيّ الأردن.

دورية إلكترونية محكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الحياة الاقتصادية في العقبة

أولاً: النشاط الاقتصادي في العقبة وأثره على المنطقة

تمثل مدينة العقبة نموذجاً لمدن الموانئ الصحراوية، في موقعها على رأس خليج العقبة، وكان ازدهارها في فترات مختلفة، كعقدة مواصلات برمائية بين دمشق والصحراء الداخلية العربية من جهة، والبحر الأحمر وإفريقيا من جهة أخرى وبخاصة في عهدي الأنباط والرومان[٢]، بسبب البضائع المنقولة بالسفن من آسيا وإفريقيا، لتضع حمولتها في العقبة، ومنها تحملها القوافل إلى البتراء وغزة ولبنان عن طريق عمّان وجرش[٣].

وقد عبر المقريزي عن نشاطها التجاري "وأهلها أخلاط من الناس"[٤]، بين فئات السكان المختلفة المصري والمغربي والشامي والحجازي والبدوي، في حركة تجارية رائجة، ذكرها الورثيلاني (ت ١١٩٣هـ/١٧٧٩م) في رحلته عام ١١٥٣هـ/١٧٣٩م، بأنها حصن حصين في سفح جبل، وآبارها الكثيرة، وسوقها الذي يحضره أهل غزة، وتأتيه الإبل والغنم والعسل والدواب[٥]. ولعل ذكر بعض الطرق المؤدية إلى العقبة ومنها المناطق المجاورة، يعطي إشارة واضحة إلى النشاط التجاري فيها:

- فطريق البتراء في شرقي الأردن هي طريق التجار والمسافرين من مصر إلى العقبة والحجاز، وهي تبدأ من السويس إلى طور سيناء فوادي الغزالة، ووادي العين فالنويبع إلى العقبة فالبتراء.
- وطريق درب النبك، هي درب تجار الإبل والغنم في الحجاز إلى مصر، عبر ميناء الشيخ حميد وتعبر بها خليج العقبة، ثم بالمراكب إلى ميناء النبك وعبر الطريق في سيناء إلى السويس[٦].
- درب الطور إلى العقبة القادم من مدينة الطور مخترقة سهل البقاع، ثم وادي حبران إلى وادي الشيخ قرب الوطية، ثم طريق البتراء إلى العقبة فالبتراء. ويشير نعوم شقير إلى أن عشائر الحويطات، كانت تشرف على معظم الطرق المؤدية إلى العقبة، وكانت تتقاضى رسوم الجمرك والمحاجر. فهي تأخذ ٤.٥ قرش عن كل رأس ماعز، ٥,٥ قرش عن كل رأس ضان، ٤٣ قرش عن كل جمل. كما كان لهم جُعْل يدعى الفرس، وهو رطل من كل ما يباع في سوقي نخل والعقبة، كما كان للتياها رطلان من كل ما يباع من المأكولات، وربع كيلة من كل صنف من الغلال. وإذا كان دليل الحج المصري من الحويطات فإن الشيخ سليمان الباسلي أبو عودة شيخ الترابين، كان يتقاضى جعلاً معلوماً من التجار نتيجة مرورهم من منطقته التجارية[٧].
- درب غزة أو الشامية، وهي من العقبة إلى غزة، ومسافتها تسعة أيام بسير القوافل، قدرت المسافة فيها من العقبة إلى رفح ١٣٢.٤ ميل، تميزت بأهمية تجارية كبيرة وخاصة قبل انقطاع درب الحج المصري عام ١٨٨٤م[٨]. فكان تجار غزة يأتون إلى العقبة بأنواع الملابس والحبوب والفاكهة، وكذلك بدو الحجاز وشرق سيناء، لبيع الإبل والغنم والسمن وشراء الأقمشة وسواها[٩].

وللعقبة طريقان قديمتان إلى البتراء:

-طريق وادي اليتم، وكانت تؤدي إلى معان ودمشق.

-طريق وادي العربة، وهي الطريق المعتادة إلى البتراء.

أما طريق العقبة إلى القدس الشريف وطولها ٨١ ساعة بسير الحملة، فهي من العقبة إلى نقب الغراب ثم بئر السبع إلى الخليل فالقدس. وقد اتخذ هذه الطريق رجال كوك، الذين رافقوا لجنة الحدود المصرية عام ١٩٠٦م، والتي قطعوها بتسعة أيام في كل يوم تسع ساعات[١٠].

وقد كان شيوخ العربان يذهبون إلى العقبة لعرض خدماتهم، كالشيخ مسماح الخليفي، الذي كثيراً ما يعرض خدماته عند حاكم العقبة، وفي فترات مختلفة. ويجب الإشارة إلى أن الحكومة المصرية حاولت التردد في تسليم الأراضي المحاذية للعقبة ونخل، وخاصة التي تحتوي آبار الماء، مقابل تزويد السكان بكميات من القمح والزيت، وبالتالي كان على الشيخ الخليفي وسواه استلام آبارهم وأراضيهم الزراعية، وبعد ذلك يعلنون ولائهم للدولة العثمانية[١١].

وقد سلك هذه الطرق، التجار من عرب الوجه، وضبا، والمويلح، والعقبة، ومعان، والكرك. وأكثر أنواع التجارة كانت في الإبل والخيل والغنم، وكانت أكثر إبل سيناء في بلاد التيه عند التياها والأحيوات. ويبين الجدول التالي ما دخل مصر من الإبل والخيل والأغنام من بلاد الشام والحجاز عام ١٩٠٦[١٢]، في إشارة إلى الثروة الحيوانية عبر مدينة العقبة.

إبل	بغال	خيل	غنم	ملاحظات
٩١٨٧	١٣٠٣	٤٥٧	٢٢٤٩١	عن طريق القنطرة من الشام
١٦٧٨٧	٤٥	٣١٦	١٨٧٢٩	عن طريق الإسماعيلية من الشام والعقبة
١٦٣٥	٠٣	٠٠٤	١٣٦٤٠	عن طريق السويس من النبك والعقبة
٢٧٦٠٩	١٣٥١	٧٧٧	٥٤٨٦٠	الجملة

غير أن طريق البحر كانت تنقل ما يعرف بالبضائع المحزومة والحبوب، أما البضائع المحزومة، فهي الحرائر القطنية من بيروت وساحل لبنان وطرابلس الشام، وأهم أنواعها: الشاهي والكرمسوت والديما والغزلي والملس والزنار والحبال والمرس والخيطان. ومن حمص وحماه ولبنان وساحل سوريا: القمح والشعير والترمس والصنوبر والجوز واللوز والفستق والكمون والزعتر والمشمش المجفف والزبيب والسمن وزيت الزيتون والصابون وسكر نبات والدخان وبذور التقاوي.

أما من مصر إلى الشام والحجاز عبر العقبة، فكانت صادراتها: الفول والعدس والأرز الرشيدي والحصر، وفي بعض السنين القمح والشعير، ومن القدس التي كانت تصدر الصابون عبر مينائي غزة والعقبة[١٣]. فكانت نخل والعقبة على هذا النحو يقام فيها وخاصة زمن الحج، أسواق تتمتع برواج تجاري، بمختلف السلع المنتجة محلياً، أو من خلال انتقال السلع من الصادرات والواردات، أو كونه سوق لإبل وغنم العرب ومنتجاتها من السمن والعسل[١٤]. غير أن قوافل التجارة كثيراً ما كانت تتعرض لاعتداءات بعض القبائل البدوية في أماكن تواجدها، كما حدث عام ١٨٧٧م، حينما خرجت سرية من المعازة لغزو الأحيوات، فالتقوا عند بئر القريص بقافلة من التجار ذاهبة إلى العقبة، وكانت القافلة خليطاً من الحويطات وأهل نخل والعقبة والسويس[١٥].

دورية إلكترونية محكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

وقد اشتهر كثير من التجار الذين كانوا على اتصال مستمر بأسواق العقبة وتجارتها، فعرف من التجار السوريين جبيلي وقناعة وشركاهم، ومصطفى حماض وأولاده، وسمان إخوان، وحبيب وإلياس زيات. ومن بيروت همبري وعفرة، وفي مصر من الشام عرف الحاج عبد الله الكحال، وأحمد بك توكل، وحصني أبناء عم، واشتهرت في المنطقة تجارة البقالة الشامية، كالزيت والزيتون واللبنة والبرغل والتين، والتي غالباً ما اشتهر بها التجار المسيحيون، أشهرهم الخواجات شهدان وأمين متري وخليل دياب، وإبراهيم صغير وأديب شعيا وغيرهم[١٦].

ويجب الإشارة إلى مساهمة البدو في النشاط التجاري في العقبة، وخاصة أن وقوع العقبة وسط حديقة متسعة من النخيل، تمتد شمالاً وجنوباً ما يزيد عن الميل، وما يزرع فيها من أنواع الخضر مثل البامية والملوخية والباذنجان والطماطم. ففي عام ١٩٠٥ خرج محمد الهنداوي وأخوه إبراهيم من بلدتهما نخل في طريق الحج المصري، قاصدين العقبة، للاتجار ومعهما جملان يحملان بضاعة من البن والسكر والزيت والحنطة والأقمشة ما يزيد قيمته عن ١٥ جنيه، وقد رافقهما رجل من نخل (ترباني) وعبد من العقبة معه جمل يحمل بضاعة لسيده[١٧]. وفي إشارة براملي مفتش سيناء، إلى أماكن تواجد البدو في جيراد (جيرود)، ووادي القرايا ونخل وجزيرة فرعون، تبين توفر المياه وخاصة في نبع القصيمة، الذي منه كانت تنقل المياه على جمالهم إلى مزارع أشجار الفاكهة والتي وصفت بأنها بخير لتوفر المياه وجودة التربة[١٨].

واللافت للانتباه، أن الآبار والمناطق المنوي ضمها إلى مصر قبيل تسوية الحدود عام ١٩٠٦، كانت تستغل بشكل كبير بزراعة الأشجار، واستغلال الآبار الموجودة فيها، الأمر الذي كان ينال رضا السكان والعربان الموجودين فيها. فعلى سبيل المثال في ٣١ آذار ١٩٠٦م زرع ٣ فدادين خلال أسبوع، ومثلهم خلال الأسبوع الثاني الذي يليه[١٩].

وربما كان وراء مشاركة البدو للسكان في النشاط التجاري وخاصة الزراعة، شراكة النخيل، فقد كان البدوي يغيب عن نخله عاماً كاملاً، ليعود في موسم الإنتاج وأخذ نصيبه منه، فارتبط البدوي بالمدينة وسكانها Anthropogeography. ويبدو أن زراعة النخيل في العقبة، كانت تمثل السلعة الاقتصادية الأولى، وقد زاد اهتمام البدو بزراعتها، فقد أكد الجزيري أن تسمية بدو الحويطات بهذا الاسم، يرجع لاهتمامهم بالنخل وبناء الحيطان عليه، والتي شملت حدائق واسعة في الوادي والساحل ومعظمها لبني عطية والحويطات[٢٠].

وقد ذكر لويس موزيل، الذي زار العقبة عام ١٨٩٨، بأنه يوجد في العقبة حوالي ٣٥٠٠ نخلة، وأن بعض أهالي العقبة يستأجرون أراضي زراعية في وادي العقفي من الأحيوات ويزرعونها بالحبوب والخضروات[٢١]. وكذلك شراء الأراضي لزراعتها، فقد أشارت حجج الأرض حق الملكية لعربان العقبة عن طريق الشراء، فعلى سبيل المثال ورد في حجة الأرض "أنه في يوم الثلاثاء ٢٤ العقدة سنة ١٣١٩هـ (١٨٩٩م) الواضع اسمي وختمي فيه أدناه مصلح بن عودة بن حسين من عربان التياها ... قد بعت بيعاً شرعياً .. قطعة الأرض التي برأس عودة بوادي العريش، وقدره ثلاث معاني ونصف، أعني ١٧٥ خطوة بالوادي، وحدودها الأربعة من جهة الغرب .. وصارت قطعة الأرض المبينة حدودها، ملكاً إلى محمد بن جمعة القاطن بنخل، يتصرف فيها كيف يشاء، وأنا قد استلمت ثمنها عداً ونقداً وقدره خمسة عشر جنيهاً مصرياً بالعرف والتمام، والضامن على البيع إبراهيم بن حسن من عربان التياها .. والله خير الشاهدين"[٢٢].

ويبدو أن منطقة العقبة ونخل عرفت ضريبة الويركو[٢٣]، وقد فرضت بعد عام ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م على الأراضي الزراعية بقيمة ٨.٠% على الأراضي المزروعة بالأشجار، وعلى الأملاك والأبنية التي تقل قيمتها عن ٢٠.٠٠٠ ليرة بنسبة ٨.٠%، وإذا زادت قيمتها عن ذلك، ارتفعت الضريبة عن هذه النسبة، وقد أضيف لها عام ١٩٠٨م ٦% للتجهيزات العسكرية، وارتفعت هذه الضريبة بعد عام ١٩١٢ بنسبة ٥% لسد العجز المالي، و ٢٥% كإعانة للأسطول العثماني[٢٤].

فالقبائل البدوية لعبت دوراً اقتصاديًا بارزاً في الزراعة، وتسويق المنتجات من اللبن والسمن والفحم والصوف في العقبة وسواها، وشراء الأرز والصابون والملابس، إلى جانب تجارة الأغنام والمواشي. ولعل الصلة الوثيقة بين هذه القبائل وسكان العقبة، تعود في أن بعض العائلات العقباوية، تعود في أصولها إلى هذه القبائل قبل أن تستقر، وهي تلجأ لحفظ وثائقها وأوراقها الخاصة أمانة لدى أهالي العقبة من شيوخ وتجار[٢٥]. فالعقبة على هذا النحو تعتبر نموذجاً لانصهار البداوة في الحضارة وقبولها Acclimatization، والتي أنتجت مجتمعاً، ربما يكون فريداً في تفاعلاته الاقتصادية، جعل من موقع العقبة أهمية كبيرة، وخاصة في فترة الانتداب البريطاني، وبعد تأسيس الإمارة الأردنية، وأصبحت العقبة الميناء البديل لمينائي حيفا ويافا بعد النكبة عام ١٩٤٨[٢٦]. إذ ان نشاط مختلف فئات السكان التي مارست تطوراً ملحوظاً على صعيد البداوة وسواها قد مكن من الحصول على استغلال مختلف مصادر الإنتاج ومرور السلع التجارية الداخلية والخارجية[٢٧]. مما أبرز بدقة أهمية الدور الممكن للعقبة، كجزء أساسي للبنية التحتية للتجارة والنقل والتطوير بشتى صوره.

ثانيًا: مظاهر من النشاط الاقتصادي للبدو والسكان في العقبة

تبين مما سبق بروز دور العقبة الاقتصادي، كونها كانت سوقاً تجارياً، وخاصة منذ انتظام قافلة الحاج المصري على الدرب البري عام ٦٧٧هـ/١٢٦٨م في العهد المملوكي، الذي شهد إصلاح طرق الحج وإنشاء الخانات والقلاع، وتحصينها بالعساكر، وحفر الآبار والبرك[٢٨]. وربما استمر هذا الدور نتيجة مرور القوافل حتى عام ١٨٨٤م، عندما اتخذت طريقاً بحرياً على السويس وجدّة، فقد التزم البدو في هذه الفترة بتقديم إبلهم وخدماتهم في الأمن والحماية، مقابل الأعطيات الممنوحة لهم، وقد أشارت المصادر إلى أن الحويطات وسواهم من بدو المنطقة، كانت تقدم ٤٠٠-٥٠٠ جمل لحفظ المحامل والقوافل إلى العقبة وأحياناً مرافقتها إلى مكة، وكانت أجرة الجمل للحملة في اليوم في العقبة ونخل وسواها ١١٠ مليم[٢٩].

كما أن قافلة الحاج الشامي وهي بالضرورة قافلة تجارة أيضاً، كثيراً ما سلكت الطريق الغزاوي، وفي طريق عودتها كانت محملة بالبضائع من الحجاز، فكان من يريد اللحاق من الشاميين بقافلة الحاج المصري، لا بد من المرور والإقامة في العقبة[٣٠]، مما يزيد من خدمات القبائل البدوية ونشاطها التجاري.

وقد أبدى فالين اهتمامه بنشاط هذه القبائل بين نخل وغزة والعقبة في رحلة نيسان/إبريل ١٨٤٥، فهو يذكر قبيلتي بني الرشيد

والحكوك واهتماماتهم بالزراعة، إلى جانب قيادة قوافل الحج من نخل إلى العقبة وحتى غزة[٣١]. بحسب أقسام المناطق أو ما يسمى بالدركات الملزمة للقبائل بحمايتها. ولكن عندما أهملت الدرب، وسلمت مصر آخر القلاع الحجازية سنة ١٨٩٢م إلى الحكومة العثمانية، قطعت رواتب المشايخ ضمن هذه القلاع، وأبقت رواتب الأحيوات والتياها القاطنين سيناء، والجدول التالي يشير إلى بعض الذين قطعت رواتبهم من الوجه وحتى العقبة منذ عام ١٨٩٣م.

مليم	جنيه		
٩٩٠	٩٨	محمد حسين جاد	شيخ عربان العلويين
١٠٠	١٢٨	سالم حسن محمد رشيد	من مشايخ العلويين
١١٠	٥٧	عواد نصار جازي	من مشايخ العلويين
٩٧٦	١٣	حسن سليم	شيخ عربان بني عقبة
٧٩٥	٢٥	عليان رفيع	شيخ عربان السواعدين
٢٢٥	٥٠	خضر مقبول	شيخ عربان العمران
٦٦٠	١٣	سلامة هليل	شيخ عربان العصابين
٨٥٦	٣٨٧	المجموع	

وكان يعطى هؤلاء المشايخ من الفول والدقيق والأرز والعدس والشعير والقمح والبقسماط عيناً ما قيمته ٢٩٢ جنيهاً و ١٤٤ مليماً. أما من أبقت الحكومة على رواتبهم في سيناء فهذه بعض أسمائهم ورواتبهم:

مليم	جنيه		
٢٧١	٢٦	سليمان سالم نجم	شيخ الأحيوات من النجمات
١٦٥	٢٦	قاسم الخليفي	من الخلايفة الأحيوات
٨٧٥	١١	حمد مصلح	شيخ التياها من الصقيرات

وفي سنة ١٩٠٧، قطعت الدولة راتب قاسم الخليفي، لأنه خرج من التحديد الأخير من حكم سيناء، ودخل في حكم الحجاز، وأبقت على راتب الشيخين الباقيين من قبل محافظ سيناء[٣٢]. ويجب الإشارة إلى أن مرتبات الدولة للعربان، بما فيها سكان العقبة، كانت حسب أفراد البيت الواحد، فالبيت الذي فيه ثمانية أنفار، يأخذ مائة آقة دقيق في الأسبوع، إلى جانب احتياجات السكان المعيشية الأخرى، كون الدولة لم تسمح أو تصرح لأحد الدخول أو الخروج من منطقته[٣٣].

واللافت للانتباه أن هذه الرواتب والاعطيات الممنوحة للعربان من الدولة، كانت تحملهم المسؤولية في تعويض المسروقات، إذا لم تتم حماية القوافل والتجار المارين بدركاتهم[٣٤]. ويظهر ذلك من خلال التعهدات المكتوبة، والنموذج التالي يشير إلى الالتزام بنتائج عدم الحماية: "أنا الواضع اسمي وختمي فيه، أدناه شيخ قبيلة (كذا) أقر وأعترف أنه حيث كان معين لنا راتب سنوي من الحكومة المصرية، وفق طلوع المحمل الشريف نظير حفظ دركنا ودوام الأمن، وملازمتنا لخدمة المحمل "طلعة رجعة" .. وأحسنت علينا بصرف الراتب المذكور، رحمة منها بنا ... قد تعهدت أنا وجماعتي بقيامنا بهذه الواجبات جميعها، مع الشكر لأفضال الحكومة. وإذا لا سمح الله حصل بدركنا ما يغاير ذلك ... فنكون مسؤولين ومدانين بكل ما يحدث ... وملزمين باسترجاع كل ما يفقد بدون غدر منا ... فضلاً عن قطع رواتب القبيلة من نقود وغيره..."[٣٥].

كما تأثر الوضع الاقتصادي للسكان، عند فتح قناة السويس ١٨٦٩م، لانقطاع السير على الطريق الصحراوية عبر سيناء إلى العقبة، حيث تحول السفر بواسطة السفن، فانخفضت موارد الرزق والمخصصات المقررة، وقد عمد البدو عام ١٨٩٨م إلى العصيان، وأعلنوا رغبتهم الانضمام إلى مصر بدلاً من الدولة العثمانية، مما دفع الدولة إلى إعادة الرواتب إلى الحويطات وشيوخ بئر السبع[٣٦]. وذلك في محاولة احتواء هذه القبائل، خاصة وأن البعض منها، مثل قبيلة بني صخر كانت تلقى الدعم والتأييد من قبل الوهابيين، وهي من أكثر القبائل قوة في شرقي الأردن، والممتدة من البلقاء وحتى وادي السرحان بقيادة شيخها مثقال باشا الفايز[٣٧]. فارتباط القبائل البدوية بكيان الدولة وأنظمتها الإدارية، لم يحل دون ممانعتها نحو تحقيق مصالحها[٣٨]. وعدم القدرة في اختراق بنيتها، وبالتالي بالتفاعل الاجتماعي والاقتصادي الذي يربط الحاكم بالمحكوم.

وبعد تأسيس الإمارة الأردنية في ١١ نيسان عام ١٩٢١، والاهتمام بالقبائل البدوية، عمد الأمير عبد الله، إلى تقديم الأعطيات من الأراضي الأميرية، والتي منحت بشكل اسمي، للاستفادة منها واستصلاحها على أساس ١٠ قروش للدونم الواحد[٣٩]. الأمر الذي ساهم في زراعة الأرض وإنتاجها.

ومن خلال ما ورد في الوثائق الشرعية في سجل معان[٤٠]، الذي حمل عنوان ضبط المرافعات والمحاكمات وغيرها بمحكمة العقبة لعام ١٣٣٦هـ/١٩١٦م. يمكن استعراض مراكز الفعاليات ونماذج من النشاطات الاقتصادية، مثل مقومات الدخل والثروة، وعمليات البيع والشراء، والديون وأسعار السلع والمكاييل والأوزان في العقبة لهذه الفترة. فقد حفلت العقبة بكثير من بيع العقارات، وتوفر السلع في المحال التجارية المعروفة بالدكاكين المؤجرة من أهالي العقبة، كما عرفت أجرة فتح الباب (الخلو)، والتي قد تصل عشرة جنيهات، سبعة منها أجرة الدكان، وثلاثة لفتح الباب[٤١].

وفي إطار علاقات العقبة التجارية مع العالم الخارجي، يلاحظ أن تجار العقبة قدموا من مكة وجدة والمدينة ونخل والشام وبيروت وسواها[٤٢]. وأن بعض التجار كانوا يحصلون ديونهم من الأوصياء على تركات المتوفين الذين وكلوا ببيع سلع مختلفة، فنجد أن أحمد سيف الدين بن محمد شروان من سكان الشبيكة بمكة المكرمة والمقيم في العقبة، أدعى أنه أعطى عبد الله سالم عتيق بضائع شملت لوزهندي، وزيت سمسم وتمر ينبعاوي وعدس وملح، إلى جانب مصاريف وأجرة نقل البضائع المذكورة من ثغر الوجه إلى ثغر العقبة. وذلك بجعل ثمنها رأس مال لشركة مضاربة يكون فيه ثلث الربح لعبد الله سالم، والثلثان لصاحب البضاعة. فعندما مات عبد الله سالم، أصبح رأس المال ديناً على محمد بن صادق بن أحمد الوصي على تركته[٤٣].

كما يلاحظ في التركات، أن الثروات الكبيرة جمعت من الديون والتجارة والزراعة، وأن الديون في معظمها فردية عند ضبط التركات لدى المحكمة في العقبة، والتي تتقاضى رسوماً (إخراجات) على ضبطها وتوزيعها. فنجد ذلك في "تركة حسن بن علي الحنيني المدني الخياط، المتوفى بثغر العقبة في ٧ ذي الحجة ١٣٣٦هـ/١٩١٦م، وانحصرت في زوجته فاطمة وأخيه محمد، وشهادة الشيخ أحمد بن محمد عابد المدني مدير مكتب العقبة، ونوري بن أحمد، وإبراهيم بن عبد الله وكلاهما من المدينة. فقد انحصرت التركة في أربعة أسهم، سهم واحد للزوجة فاطمة، و٣ أسهم للأخ أحمد، ونقد موجود ٣٥ جنيه إنجليزي، ودين تحصل من قاسم المغربي ٥ ريال مصري، ودين تحصل من حميد الشرقي ٨ جنيه إنجليزي، ودين تحصل من حمزة عقلجي ٢٦ ريال مجيدي أبيض، وقدر نحاس قيمته ٦٩.٢٠ غرش،

دورية إلكترونية محكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

وبطانية بـ ٧٣.٣٠ غرش ، وملبوس المتوفي ١٠١ غروش وخاتم فضة وزمرد ٢٢ غرش ، ومواد أخرى بقيمة ٤ جنية إنجليزي و ٢٠ غرش بيعت على حميد بن حمدان الحويطي بـ ١٥ ريال مصري. فكانت مجموع التركة ٦٤٠٣ غروش منها رسوم ٢٢٠٦ غروش والباقي ٤١٩٧ غروش للقسمة. موقعة من قاضي العقبة عبد الرحمن ... وكاتب المحكمة الشرعية محمد صادق والشهود"[٤٤].

وكان هناك تعاون بين محكمة العقبة الشرعية ، ومحكمة الوجه الشرعية ، وخاصة فيما يتعلق بالشهود إذا كانوا من جهة الوجه ، فتؤخذ شهاداتهم في محكمة الوجه ، ثم ترسل إلى محكمة العقبة[٤٥] ، تخفيفاً وتسهيلاً لهم. ونلاحظ أن الدور المبنية من الحجر والطين ، إلى جانب الحوش ، الذي يشتمل على قطعة أرض ، فيها الحجرات ، كان يؤجرها السكان من أهالي العقبة إلى المقيمين والتجار لفترات مختلفة ، والتي حققت لهم بعض الثراء. كما عرفت الحفيرة التي تشتمل على النخل المثمر والحواصل لخزن الحبوب[٤٦].

وقد اشتهرت بعض العائلات بامتلاكها الأراضي الزراعية والحفائر المليئة بالنخيل ، كعائلة الكباريتي التي انتقلت أملاكهم إلى الورثة الشرعيين مثل سلامة صالح الكبريتي ، وعلاوي صالح الكبريتي[٤٧]. كما أشارت السجلات إلى دور البدو في النقل والأجور التي يحققوها لقاء استخدام جمالهم ، فقد ادعى محمد بن أحمد بن سليمان الطوري[٤٨] ، على محمد حوات بن سطوحي العقباوي ، أنه استلم أجور اثني عشر جملاً ، منها خمسة جمال لخميس بن موسى وثلاثة جمال لحنين بن حسين ، وجملين لجمعة بن سليمان ، وجملين لخميس بن موسى. وأجرة كل جمل منها أربعة جنيه ونصف. إضافة إلى أربعة وخمسين جملاً من التجار ، كون محمد سطوحي هو الواسطة بين الجمّال والتجار. فهو يحضر الجمال ويؤجرها ، ويقبض أجورها من التجار ليوزعها على الجمالين[٤٩].

ويبدو أن عملية النقل بواسطة الجمال وما تدره من أجور دفعت بعض العاملين في العقبة لمزاولتها. حيث نجد في محاضر المحكمة ، أحمد عزت بن عبد الوهاب بن أحمد البيروتي ، وكان وكيلاً بالمستشفى العربي في العقبة ، قد أحيل عليه بعض الجمالين ، لاستيفاء أجورهم منه لدى المحكمة[٥٠].

ويمكن الاستدلال على العملات التي استخدمت في هذه الفترة التي عالجتها سجلات محكمة العقبة الشرعية ، والأدوات المستعملة والسلع والثروة ، من الديون المستحقة على أصحابها. فيلاحظ في تركة حسن بن محمد العشي المصري ، المتوفي في العقبة في ٨ ربيع أول ١٣٣٧هـ/١٩١٦م ، أنه انحصر إرثه في أخيه لا بوين أحمد ولا وارث له غيره ، من النقد ٢٤ جنيه إنجليزي ، ٤ جنيه عثماني ، ١ جنيه بنيتو ، ٨٧ ريال مجيدي أبيض ، ١٥ ريال مصري ، ٢٤ روبيه ، ٢١٠ غروش هلل ... ومن الأدوات المباعة وهي ديون على أصحابها. ثلاثة جلال بخيطانها ٢٩٧ غروش ، وحلتين كبار بغطيانها ، وثلاثة حلل بلا غطيان ٢١١ غروش ، حلة كبيرة وحلة صغيرة ١٨١ غروش وفانوس ٥٥ غروش ، تنكتين ٧ غروش ، ساطور ٣٣ غروش ، وصاج وثلاثة طواحين ٨٤ غروش ، وسيجارة وفناجين قهوة ٨٥ غروش ، فناجين شاهي ١٩٠ غروش ، ثوب أزرق ٣١٠ غروش ، ثوب أخضر ٨١ غروش ، ثوب أسود ٥٢ غروش ، عباية حلبي ٦١ غروش ، زبادي وصحون ١٢٢ غروش ، شال كشميري ... لباس وفنيلة ٤١ غروش ، تمر سلة ٣٩٠ غروش[٥١].

كما يلاحظ انتشار سلعة الدخان المسمى أبو جمل ومكياله بالصندوق وهو ثمانون أُقة[٥٢] ، سعر كل أُقّة ثلاثة ريالات مجيدي ، فيكون سعر الصندوق ٢٤٠ ريال مجيدي أبيض ، وعرف حسب جودته بالطيب أو البطّال[٥٣]. كما بيعت النخلة المثمرة على قطعة الأرض والعائدة للشيخ علاوي بن صالح بن أحمد الكباريتي ، من أهالي وسكان العقبة ، والمستملكة للحكومة بخمسة جنيهات إنجليزي ، لأجل إنشاء جمرك بها ، وكان ناظر الجمرك بالعقبة الشيخ محمد الأسد بن أحمد الحموي[٥٤]. فالنخلة المثمرة كانت تعادل مهر الزوجة المعجل المقبوض ، حيث كان مهرها كاملاً بحدود اثني عشر جنيه إنجليزي ، تدفع معجل مقبوض منها ست جنيهات ، والمؤجل الباقي بالذمة ست جنيهات[٥٥].

ويصعب الحكم على هذه الأسعار كما هي ، ولو قارناها بأسعار السلع ذاتها في فترات سابقة أو لاحقة ، وأخذنا بعين الاعتبار التبدلات في سعر القرش وقوته الشرائية ، لأمكننا معرفة نسبة الغلاء أو الرخص في فترة معينة. ومع ذلك يبدو من مقارنة أسعار هذه السلع وأسعار العقارات ، أن تكاليف الحياة الأساسية من سكن وشراء ارض زراعية وكذلك الزواج ، كانت متدنية بالنسبة لأسعار بعض السلع. فنلاحظ أن ستة أكياس سكر وزنها ٣٣٩ أُقّة ، سعر الأقة ٩ غروش صاغ ونصف غرش[٥٦]. فيكون سعرها ٣٠٥١ غرش ، ويكون سعر الكيس الواحد ٥٠٨.٥ غرش ، أي بحدود ٤.٢٥ ليرة مجيدي تقريباً ، إذا علمنا أن الليرة المجيدي تساوي ١٢٠ غرش صاغ ، وكانت سلعة السكر تستورد من الساحل السوري.

ويمكن الاستدلال أيضاً على الأوزان والمكاييل وبعض الأدوات المستخدمة ، من خلال حقوق المرأة التي على الزوج أن يقدمها لزوجته عند قبولها بالعودة إليه ، كما وردت في ضبوطات المحكمة ؛ وهي تشتمل مد ونصف المد من القمح ، بالمد المعاني ، وأُقّة من السمن ، وأقة من الزيت ، وأقتي لحم ، ونصف أقة صابون ، وخمسة وثلاثون تنكة ماء ، وحمل من الحطب ، وأقتي سكر ، وخمسين درهم شاهي. وفي كل شهر يدفع الزوج ريالاً مجيدياً للمتفرقات من ثوم وبصل وفلفل وخلافه ، وبيتاً للسكن ، وجيران أمناء يوانسوها ، وكسوتها الشرعية ، من مدورة ومسفع (ملفع) ، وكرته وسروال وسدرية وملأه وجزمه وقبقاب في كل ستة أشهر ، ولحاف وفراش وبساط[٥٧].

ويتبين تعدد أنواع النقود الذهبية العثمانية والأوروبية في العقبة ، وكذلك تنوع الأوزان والمكاييل التي استخدمت فيها. فقد عرفت الأُقة ، وربما هي أوقية والمعروفة في مصر ، إذ أن كل ١٢ أوقية تعادل رطلاً[٥٨]. كما أن كل ثمان أقق تساوي فراسلة واحدة (جمع فراسل)[٥٩] ، كما استخدم الحمل كمكيال ، وقد قدر حمل الحطب بـ ٢٥٠ كغم ، المد المعاني لم تبين السجلات كميته ، وربما كان معادلاً للمد المصري ، الذي قدر بأنه يعادل رطلاً وربع الرطل. كما استخدمت الليرة المجيدية نسبة إلى السلطان العثماني عبد المجيد وسعرها ١٢٠ قرشاً ، والليرة بنيتو أو بنيته وسعرها ١٠٥ قروش ، والليرة الذهبية الإنجليزية وسعرها ١٢٠ قرش ، والمصرية سعرها ١٢٥ قرش ، والقروش كلها قطع فضية ، وأشير إلى القرش الصاغ ، ليدل على القيمة الرسمية لهذا القرش[٦٠]. وهو يساوي أربعين قطعة فضية مصرية ، اختصرت أحياناً إلى فضية أو مصرية ، باسم بارة ، ومنها قطع بخمسة ، وعشرة ، وعشرين. فالريال المجيدي يساوي ٨٠٠ بارة (عشرين

دورية إلكترونية. محكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

قرشاً)، وكان سعره في دمشق ٢٢.٥ قرش في حين أن الريال المصري يساوي ٢١ قرش في غزة لنفس الفترة[٦١].

ويجب الإشارة إلى التغير في بعض مظاهر الحياة الاقتصادية بعامة في العقبة، عند انضمامها إلى إمارة شرقي الأردن منذ ٢٥ حزيران عام ١٩٢٥. فقد صدر أول قانون للنقد في شرقي الأردن في ١٥ شباط/فبراير ١٩٢٣، تضمن إحلال القرش المصري في البلاد بدلاً من التعامل بالقرش السوري وسواه، اعتباراً من ١ نيسان/إبريل ١٩٢٣، في جميع المعاملات الرسمية. وحدد القانون قيمة العملات الأخرى إليه مثل الليرة الإنجليزية الذهبية التي تساوي ٩٧.٥٠ قرشاً مصرياً، والليرة العثمانية الذهبية بـ ٨٧.٧٥ قرشاً مصرياً، والليرة الذهبية الفرنساوية ٧٧.١٥ قرشاً مصرياً[٦٢].

وبهدف تحسين الحالة الاقتصادية لشرقي الأردن ومن ضمنها معان والعقبة، عقدت الحكومة الأردنية اتفاقية مع البنك العثماني[٦٣]، في ٣١ تشرين أول/أكتوبر ١٩٢٥م، أصبح بموجبها البنك الوحيد الذي يقوم بمعاملات الحكومة المصرفية[٦٤]. وقد كان صدور أول موازنة مالية منتظمة للإمارة في الجريدة الرسمية سنة ١٩٢٥، يندرج في محاولة حكومة الانتداب البريطاني، التوفيق بين الواردات والنفقات، خوفاً من الوقوع في اضطراب مالي[٦٥]. فقد أسهمت بريطانيا من خلال مستشارها المالي هنري كوكس، من تخفيض عجز الموازنة في الإمارة، ولكنه لم يغير من اعتمادها على المساعدات المالية البريطانية التي وصلت إلى معدل ثلث الدخل السنوي[٦٦].

وقد شملت ميزانية مصروفات حكومة شرقي الأردن، إدارة مقاطعات معان ومن ضمنها العقبة، والتي بلغت في كانون أول عام ١٩٢٦م ١٧٦٦ جنيهاً. أي بعد مرور عام على انضمامها إلى الإمارة. في حين أن المبلغ المصروف لإدارة مقاطعات عمان كان ١٠١٢ جنيه لنفس العام[٦٧]. وقد كانت الإيرادات العامة، لحكومة شرقي الأردن بمقتضى المادة ٦٣ من القانون الأساسي، تتألف مما يقبض من الضرائب، وأجور الأراضي العامة، والإعانات والمناجم والمعادن[٦٨].

ونتيجة لمعاناة السكان في العقبة وسواها من مناطق شرقي الأردن، بسبب تشدد المتنفذين والمشايخ في تحصيل ضرائب الويركو، والعشر، وبدل الطريق[٦٩]، وتعرضهم للضرب والسجن في حالة امتناعهم عن دفعها[٧٠]، فقد أعلنت حكومة الإمارة في أيلول/سبتمبر ١٩٢٣، في أول برنامج زراعي، تقدمت به للأهالي، انها سوف تعمل على إصلاح نظام الضرائب، وطرق جبايتها، بصورة تكفل مصلحتي الخزينة والأهالي، وإنها سوف تولي الزراعة عنايتها التامة[٧١]. وكانت قد تعرضت الزراعة والغابات في شرقي الأردن إلى الاعتداءات المتواصلة في العهد العثماني، إذ لم يكن في ذلك العهد، نظام أو قانون يحمي الحراج والغابات، إلى جانب دخول الأتراك الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤-١٩١٩م، وعدم حصولهم على الفحم الحجري، دفعهم إلى التوجه نحو قطع الأحراش واستعمال حطبها وقوداً لتسيير القطارات العسكرية[٧٢].

وقد نشرت جريدة الكرمل، تقريراً عن شرقي الأردن عام ١٩٢٥، جاء فيه أن المنطقة الجنوبية من شرقي الأردن، لا شجر فيها على الإطلاق، وسبب ذلك هو عدم عناية الحكومة العثمانية بها، من حيث توطيد الأمن وترغيب الناس بالغرس[٧٣]. كما أن الحروب التي دارت بين القبائل البدوية، وأهل القرى، أواخر العهد العثماني، وخاصة في جنوبي شرقي الأردن، كانت سبباً في إعراض الفلاحين عن الاهتمام بالزراعة، نظراً لما تلحقه من ضرر بالمزروعات نتيجة الرعي أو الغزو[٧٤]. فاستحدثت الحكومة مكاتب لدائرة الزراعة والحراج، لوقاية المزروعات من الآفات النباتية[٧٥]، وأصدرت القوانين، لصيانة الغراس والمزروعات، كان الأول منها في آذار/مارس ١٩٢٥. وقانون الحراسة الذي صدر في ١٨ آذار/مارس ١٩٢٥م، بهدف توطيد الأمن والنظام في البلاد، وحماية الأبنية والمزروعات في القرى والمدن[٧٦].

فعلى الرغم من الدور الاقتصادي الذي قامت به العقبة، كونها في ملتقى الطرق التجارية، إلى جانب نشاط مختلف فئاتها السكانية في الحياة الاقتصادية، والتي جعلت منها سوقاً رائجة لمختلف السلع، وانتشار العملات التي ضبطتها التركات، إلا أنها كانت تعاني من مخلفات الصراع بين القبائل البدوية والسكان Underdevelopment أواخر العهد العثماني، الذي تمثل بالضرائب المرهقة والغزو والسلب، وكان سبباً في عدم استقرار السكان في العقبة، وهجرهم الزراعة، نتيجة انعدام الأمن. وقد واجهت العقبة كغيرها من مناطق شرقي الأردن، عند انضمامها للإمارة شكلاً من التجديد، وتنفيذ برامج الإصلاح الاقتصادي، وتطور أجهزة الحكم والإدارة، في تحقيق الأمن والنظام. بالرغم من الصعوبات المالية التي واجهتها أيضاً حكومات الإمارة عند نشأتها، بعد أن أخفقت الحكومة العثمانية، في كسب ثقة البدو، وبناء علاقة تقوم على التأثير، فألّف ذلك خير شاهد على الحياة الاجتماعية للسكان وفئات المجتمع ومظاهره الاجتماعية.

الحياة الاجتماعية في العقبة

أولاً: السكان وفئات المجتمع

يصعب إعطاء رقم دقيق لتعداد السكان في العقبة وذلك لغياب الإحصاءات الرسمية الدقيقة. لذا فقد جاء اعتمادنا في ذلك على إحصاءات تقديرية، وردت في بعض المصادر، إلى جانب ما أورده عدد من الرحالة، الذين زاروا العقبة وأطرافها، وأقاموا فيها بعض الوقت. وهي تقديرات قريبة من الواقع، وإن كانت غير دقيقة. فعند زيارة لويس موزيل للعقبة عام ١٨٩٨، وصفها بأنها تحوي ثلاثين كوخاً، يسكنها تسع عشرة عائلة، بما فيها العائلات المهاجرة، وبقايا الحجاج[٧٧]. منها عائلة ياسين، وعائلة ماضي، وعائلة الشيخ القباني والبسيوني والكباريتي والعسيلي عبد السلام، والسطوحي وعيد والهنداوي والبدري وأبو عياط وأبو يونس وعبد الجواد والفاخري والعايد وأبو إسماعيل وأبو عبد الله[٧٨]، وسواها.

وفي عام ١٩٠٦م ذكر نعوم شقير أن ٣٥٠ نفساً يسكنون في مئة كوخ، مبنية بالحجر الغشيم والطين، ومعظمهم من متخلفي العساكر الذين أرسلتهم مصر لحماية القلعة، وشيوخهم من الحويطات والعلويين[٧٩]. ولا نتوقع زيادة عدد السكان في الفترة التالية، والتي تضمنت قيام الحرب العالمية الأولى، وتعرضت فيها العقبة للقصف البحري من البواخر الإيطالية والبريطانية والفرنسية[٨٠]. إذ ربما هاجر منها بعض السكان إلى معان وتبوك وسواهما.

ومما يؤكد إشارتنا تلك، ما جاء في بعض المصادر، عندما كانت العقبة، تشكل مديرية ناحية لقضاء معان، في الفترة بين ١٣٢٨/١٣٢٩هـ - ١٩١٠/١٩١١م، أن عدد سكان القضاء حوالي ١٥.٠٠٠ نسمة[٨١]. في حين جاء في الإحصاء العثماني لسنة أن عدد سكان القضاء ٦.٠١٢ نسمة[٨٢]. أي أن الهجرة من قضاء معان

دورية إلكترونية محكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

بما فيه العقبة، كانت بحدود تسعة آلاف نسمة أبّان الحرب العالمية الأولى. على أنه بدخول جيوش الثورة العربية إلى العقبة عام ١٩١٧م، وما حملته معها من جنود وتجار حجازيين، وهجرات عربية متلاحقة، ضاعفت عدد السكان، وشكلت بمجموعها نواة سكان العقبة الحديثة، التي تراوح عدد سكانها ١٠.٢٨٥ نسمة.[٨٣]

أما **العشائر البدوية** التي كانت تقطن العقبة خلال فترة الدراسة، وتقيم في سكن الخيام (بيوت الشعر) والأكواخ المبنية من الحجر والطين، وارتبطت بالسكن والأرض وزراعة النخل هي: الحويطات والأحيوات والتياها والترابين، بلغ تعدادها ١٢.٩٠٠ نفراً، من مجموع القبائل البدوية في سيناء كلها، والذي قدر بـ ٤٠.٠٠٠ نفر[٨٤]. وهذه الأرقام ربما تكون غير دقيقة، لغياب الإحصاءات الرسمية للدولة، وللحركة الدائمة لهذه القبائل، والتي يصعب معها ضبطها.

أ- الحويطات: من أكبر وأقدم القبائل البدوية في العقبة، وقد آل إليهم درك العقبة منذ بداية العهد العثماني، وكان لهم الصرّ لقاء حمايتهم قوافل الحج[٨٥]، وقد اتجهوا في عملهم إلى الزراعة وتربية الماشية والإبل، وكثيراً ما اصطدموا مع السلطة لممانعتهم دفع الضرائب والخدمة العسكرية. ومناطق نفوذهم شملت جنوب العقبة ثم توسعوا شمالاً حتى القطرانة ومعان، وتفرقت بطونهم ضمن الأنحاء الواسعة من جنوب شرقي الأردن، ومصر، وشمال السعودية، حيث نجد حويطات تهامة شرقي ساحل خليج العقبة، وحويطات ابن شديد في مصر. أما حويطات الشمال فقد استقر منهم العلاوين في العقبة وما حولها، وعرفوا بعشائر النجادات والمحلف. وكان ابن جاد شيخ الحويطات، إلى جانب عربان الشيخ الخليفي، في المنطقة التركية عند ترسيم الحدود عام ١٨٩٢م[٨٦]. وقد قدر عددهم ليتمن Littmann في سنة ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م بـ ٥٠٠٠ نسمة[٨٧].

ب- الأحيوات المساعيد: قبيلة سعودية، هاجرت من جنوب الحجاز، وبلاد اليمن، وقد أشار إليها فالين في رحلته عام ١٢٦٤هـ/١٨٤٨م[٨٨]. وتنتشر المساعيد بفروعها المختلفة، في أنحاء شتى من بلاد الحجاز ونجد والشام ومصر. وذكرت المصادر أن قسماً منهم يقطن الشوبك جنوب الأردن في الفترة بين عامي ٩٣٢هـ/١٥٢٥م وعام ١٠٠٥هـ/١٥٩٦م[٨٩]. كما استوطنوا ناحية الغور من منطقة الكرك، والقدس والخليل[٩٠]. وفروعهم: مساعيد الليث، وآل مسعود، ومساعيد عتيبة، والهذليون، البدع والجبل والفارعة، ومساعيد غزة، ومساعيد مصر، ومساعيد الأحيوات الذين يقطنون العقبة ووادي عربة[٩١]. وكان قسم من قبائل الأحيوات الذين يتبعون شيخهم مسماح كثيراً ما يدعون إلى الثورة على الأتراك، ويوجهون ولائهم إلى الحكومة المصرية، مقابل المنح والأعطيات التي تقدم لهم، قبيل ترسيم الحدود بين مصر والحجاز[٩٢]. فقد كانت الحكومة المصرية ترسل جنوداً من الأحيوات، يستطلعون الأمر على الحدود، وأوضاع الناس، ومدى ولائهم للحكومة المصرية[٩٣].

ج- عشائر العمارين: سكنوا ساحل خليج العقبة. وهاجر قسم منهم إلى مصر، قرب القاهرة. وقسم إلى فلسطين، باسم عمارين بئر السبع[٩٤]. وذكر الجزيري أنهم خفراء منطقة نخل في سيناء، ونسبهم إلى قبائل بني عطية[٩٥]، التي ظهرت في السالنامات العثمانية، بأنها تتبع إدارياً إلى قضاء معان[٩٦].

د- الترابين: انتشروا في أطراف العقبة، وسكن قسم منهم النويبع جنوب سيناء، وبئر السبع، وعرف أن وجودهم أصلاً في تربة، جنوب الحجاز[٩٧].

ويبدو أن تغييراً طرأ على مناطق نفوذ بعض القبائل وابتعادها عن العقبة، كتوسع نفوذ الحويطات في المنطقة، وزحفهم نحو الشمال، وربما أدى ذلك إلى التنافس في القبيلة الواحدة أو بينها وبين قبائل أخرى في المنطقة في شرقي الأردن. فقد ظهرت حويطات الشمال وشيخهم ابن جازي وحويطات الجنوب وشيخهم ابن جاد، كما ظهرت تحالفات عشائرية في سنة ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م أدى إلى الحروب بين تحالفين. الأول تزعمه بنو عطية، ويتألف من أهالي الكرك ومعان الشامية والشوبك والسلايطة والفايز والحامد والعليين. والثاني تزعمه الحويطات، ويتألف من أهالي معان الحجازية والطفيلة ووادي موسى والمناعين والترابين والتياها، وظل العداء مستحكماً بينهما على شكل غزوات حتى سنة ١٣١٠هـ/١٨٩٢م، عندما عقد الصلح بينهما[٩٨]. كما جرت معارك مماثلة بين عشيرتي الحويطات والشرارات في سنة ١٣٢٢هـ ١٩٠٤م[٩٩]. إلى جانب المعارك التي وقعت بين عشيرتي الحويطات وبني صخر في منطقة العقبة ومعان في سنة ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م، والتي راح ضحيتها ٧٠٠ فارس من بني صخر[١٠٠].

وينبغي الإشارة إلى أن العشائر البدوية، كان لها حضورها أبّان ترسيم الحدود المصرية-التركية. فقد أشار براملي مفتش سيناء في رسالة إلى أوين حاكم نخل، في آذار عام ١٩٠٦، إلى عدم احتمال حرب بين مصر وتركيا حول الحدود، وأن الدولتين تنتظران إعادة ترسيمها، فقد كانت المهمة على براملي هي إقناع عرب التياها تزويدهم بالجمال الضرورية للنقل، وتزويد الجنود بالمؤون وخاصة في ثمد Themed. إذ كان الجنود يطالبون بمصاريفهم الضرورية في مناطق الحدود لشراء حاجاتهم، وفي تأكيد مفتش سيناء على أن القصيمة، من ضمن حدود مصر، وفيها عربان التياها المصريون، الذين يطالبون بها عندما يأتون إلى نخل، واعتبر أن حدود بئر بيرين، وتشرف عليها تياها الأتراك إلى جانب الترابين، يمكن أن تضم إلى تركيا[١٠١]. فكان من سياسة براملي تهدئة الشجار بين عرب الترابين المصريين والترابين التابعين للأتراك، والمحافظة على الهدوء والاستقرار أبان ترسيم الحدود.

وقد أشار براملي، مفتش سيناء في جولته على الحدود التركية المصرية، قرب العقبة، إلى الخلافات التي كانت تجري بين العربان، وخاصة التياها والترابين، التي كان لها أجزاء من الأراضي الحدودية، وقد كان لهم دور بارز في نقل المواد عبر الحدود، فقد جهزت قبيلة التياها سنة ١٩٠٦م ١٢٠ جملاً، لإحضارها إلى سيناء، لحمل مواد البناء بعد تسوية الحدود.[١٠٢] وقد ذكرت السجلات الشرعية لمحكمة العقبة، أن قسماً من قبيلة الترابين من أهالي غزة هاجر إلى العقبة وأطرافها[١٠٣].

وقد ورد ذكر عشيرة العثامين، الذين سكنوا العقبة واشتهروا بهذا الاسم لكثرة جنودهم لدى الجيش العثماني، وعشيرة الخلايلة وأصلهم من الحجاز ويقيمون على شواطئ خليج العقبة، وعشيرة المداهين، وكان لهم صرة من مصر لقاء حماية القافلة المصرية، وزعيمهم حمدان الذي هاجم حرس القلعة وأخرج من فيها من المساجين، نتيجة منع الحكومة المصرية دفع الأعطيات له ولقبيلته[١٠٤].

دورية إلكترونية. محكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

أما العشائر الحضرية التي كانت تقطن العقبة منذ بداية العهد العثماني وحتى عام ١٩٢٥م ، فقد شملت عشائر قادمة من مصر وغزة ، وعشائر مغربية وحجازية ويمانية.

أ. العشائر المصـرية: فهي آل البدري ، البسيوني ، آل ماضي ، آل البراوي ، آل البيومي والجارجي ، والخوجة ، آل رضوان ، السطوحي ، الشحاته ، الشناوي ، آل عبد الجواد ، آل عدوي ، أبو عبد الله ، أبو العز ، والعسلي عبد السلام ، وأبو عياط ، وآل الفاخري ، الفيومي ، آل الكيال ، آل الهلاوي ، آل ياسين ، وآل أبو يونس [١٠٥].

وقد عملت هذه العشائر في تجارة الماشية بين الحجاز ومصر ، وعمل أبناؤها جنوداً في قلعة العقبة[١٠٦] ، وكان إسماعيل أحمد البراوي بكباشي في قلعة العقبة عام ١٨٨٢م ، وكثيراً ما كانوا يمولون الجيش التركي بالارزاق ، حيث امتلك أبناؤها أراضي وحفاير زراعية ، واشتهروا بشراء وبيع هذه الحفاير ، وقد شجع على ذلك سياسة الدولة العثمانية ، فعند قدوم المصريين إلى العقبة منذ سنة ١٢٨١هـ/١٨٦٤م ، قامت الدولة بتفويض الأراضي ، تحقيقاً للاستقرار والعمل في الزراعة ، ضمن سياساتها الاحتوائية ، فقد أشارت صحيفة البشير ، إلى طلب المصريين من متصرف معان في ١ آب ١٣١٢هـ/١٨٩٤م منحهم أراضي خاصة بهم[١٠٧].

كما ساهمت بعض العشائر في مجال التعليم لدى الأتراك ، ولقبوا باسم آل الخوجا ، لأن الخوجا لقب كان يطلق على المعلم[١٠٨] . واشتهرت بعض هذه العشائر في أعمال البناء في القلعة ، وصيد الأسماك ، وأسهمت في أعمال كيل الحبوب وسموا بذلك آل الكيال ، وعند قدوم الشريف حسين إلى العقبة عام ١٩٢٤م ، عين الشيخ خالد المنزلاوي آل ياسين ، رئيساً لبلدية العقبة ، وإماماً لمسجدها[١٠٩] . وقد كانت دار البلدية عبارة عن إحدى غرف دار الحكومة الموجودة على الشاطئ غربي القلعة حتى عام ١٩٢٤م ، ثم انتقلت إلى مبنى مستقل بجوار تل جرمي قرب منازل آل فرحات حتى إلغاء البلدية عام ١٩٣٥م.[١١٠] ففي ٢٠ تموز ١٩٣٥م ، قدم مختار ووجوه أهالي مدينة العقبة عريضة إلى رئيس الوزراء يسترحمونه فيها إلغاء بلديتهم ، بحجة أن بلدهم صغير وفقير. وقد أكد ذلك قائد الجيش لتلك الفترة ، الذي زارهم ، بأن طلبهم هذا معقول جداً نظراً لصغر القرية.[١١١] وبقيت البلدية ملغاة حتى عام ١٩٥١م ، حين أعيد تأسيسها.

ب. عشائر غزة: آل الضابط ، وعرفوا بالتجارة في العقبة وشيخهم عبد الحفيظ الضابط كان قد تزوج ابنة صالح الكباريتي ، وآل الكباريتي اشتهروا بتجارة غزة قبل استقرارهم في العقبة[١١٢] .

ج. عشـائر مغربيـة: آل درويش ، رافقوا قوافل الحج من تونس والمغرب إلى مصر ومنها إلى العقبة ، وآل المغربي ، قسم منهم استقر في العقبة ، وقسم آخر وصل إلى معان.[١١٣]

د. عشائر حجازية ويمانيـة: أما الحجازية ، فهي العائلات التي قدمت حديثاً إلى العقبة ، مع الشريف فيصل بن الحسين ، خلال أحداث الثورة العربية عام ١٩١٧م ، ومنها آل هديب ، وآل الغريب ، وآل الغامد ، والبياشة ، والجهنان ، وآل أبو إسماعيل ، وآل السنوسي ، وآل المدني ، وآل حجازي.

واليمانية: وإن قدمت خلال أحداث الثورة أيضاً ، إلا أنها تجتمع في أصلها اليمني ، واستقرت في العقبة وسواها من مناطق شرقي الأردن ، وهي عائلة النعمان ، وعائلة البريهي ، وعائلة الحبيش[١١٤] . فجيوش الثورة دخلت العقبة حاملة معها الجنود والتجار ، فكانوا النواة لهذه العائلات الجديدة ، التي استقر معظمها في العقبة ، وسموا فيما بعد حسب أصولهم بالحجازية واليمانية[١١٥] . فلا غرابة إذن ، من استقرار هذه القبائل والعائلات الكبيرة ، والعودة إلى جذورها التي تشكلت ، رغم الهجرات المتلاحقة من العقبة ، بفعل الظروف والتقلبات التي طالت العقبة ، والتي حالت دون أن تكون كمثيلاتها من كبريات المدن في المنطقة العربية.

ثانياً: مظاهر من الحياة الاجتماعية

لعل ارتباط القوى البدوية بالعقبة والسكان لا يمكن تفسيره في ضوء اعتماد الدولة صيغاً معينة للتعامل معها ، فقد أوجدته الحركة التجارية النشطة ، وما كان يوفره البدو من إنتاجهم لتسويقه ، ثم يشترون حاجاتهم من مردودها. كما أن بعض العائلات العقباوية الحضرية ، تعود في أصولها إلى تلك القبائل ، فكانت الصلة وثيقة بهم ، فالبدو وهم لا يقرأون بعامة ، يعمدون في حفظ وثائقهم وأوراقهم ، أمانة لدى أهالي العقبة[١١٦] .

وتجدر الإشارة إلى ؛ أن العربان كانوا أكثر ارتباطاً بشيوخهم من الولاء للحكومة المصرية أو لتركيا ، فنجد أن عربان نخل والعقبة ارتبطوا بشيخهم علي القصير ، دون إجراء أية ارتباطات مع الحكومة المصرية ، أو والي تركيا ، رغم تقديم المساعدات العينية ، كالطحين مثلاً ، وبالتالي كانت الحكومة تتابع تحركات الشيوخ ، وخاصة ابن مقبول من شيوخ الحويطات عندما وصل إلى العقبة ، وقدمت له عشرة شوالات من الطحين ، وثمانية شوالات من الأرز لإعالته[١١٧] . إضافة إلى ما كانوا يتقاضونه سنوياً من القوافل ، فقد كان الشيخ كليب بن قبلان الحويطات يتقاضى ١٠٨ غروش ، ونصف أردب شعير من موكب الحاج الشامي كل سنة[١١٨] ، والشيخ عرسان بن ذياب من الحويطات يتقاضى ٤٠ غرشاً ، والشيخ مقبول بن إبراهيم العمران ، أربعة أردبات ونصف من قافلة الجردة سنوياً[١١٩] .

وقد تبين لنا بناء على ما سبق ، أن سياسة الدولة العثمانية تجاه العشائر البدوية عامة تمثلت بما يلي:

أ- جنحت إلى مهادنتهم واسترضائهم ودفع مبالغ سنوية لهم.

ب- لجأت أحياناً إلى تجريد حملات عسكرية ، وأخذت الرهائن لحمل العشائر على الطاعة ، والانقياد لسلطة الدولة[١٢٠] .

ج- أثارت العشائر ضد بعضها بعضاً ، وأوقعت الفتنة بينها لإضعافها والسيطرة عليها.

د- وعندما وجدت أن هذه الأساليب ألحقت أضراراً بالغة بالحياة الاقتصادية ، عادت إلى حل الخلافات بالطرق السلمية ، ودعت إلى حياة الاستقرار ، واستغلال الريف[١٢١] . وهذا ربما جعل براملي مفتش سيناء حريصاً على متابعة تحركات العربان والأتراك في المناطق من العقبة وحتى العريش ، والتي وصفها بأنها مليئة بالقبائل في آذار عام ١٩٠٦م رغم غزارة الأمطار[١٢٢] .

ويبدو أن كثيراً من حالات الزواج تمت بين البدو وأهل العقبة ، حيث نجد في عائلة ياسين مثلاً ، أكثر من عشرين حالة زواج ، ومن مختلف القبائل البدوية[١٢٣] .كما كان شعورهم مشتركاً بوحدة المصير ، من خلال المشاركة في الغزوات ، حيث نجد أن إسماعيل أحمد ياسين من أهالي العقبة غزا مع قبائل الأحيوات ، وعندما تعرضت العقبة لأحداث الحرب العالمية الأولى ، فر أهالي العقبة إلى الجبال المحيطة جنوباً عند أصدقائهم وشركائهم البدو في أم نصيلة ووهيدة والقويرة[١٢٤] .

غير أن أكثر ما كان يزعج هذه القبائل، استخدام الجنود لجمالهم في النقل من معان إلى العقبة ونخل، رغم أن الطريق الأفضل كانت إلى نخل عن طريق السويس. وأن جميع مواد البناء متوفرة فيها، وتم الاستغناء عن جزيرة فرعون، وإرسال جميع ما يحتاجه الجنود والعربان من الطعام والطحين إلى ثمد[١٢٥]. مما زاد من حاجتهم إلى البحث عن المؤون من مصادر أخرى. فالحياة الاجتماعية سادها الاستقرار النسبي في العقبة، أكثر مما عرف في غيرها من المناطق التي عجت بالغزوات والاعتداءات على الأهالي والقوافل، فلم يخاطر البدو بعلاقتهم مع السكان، بل ساهم الجميع في تحقيق حالة من الأمن كان لها تأثيرها على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المنطقة[١٢٦].

وعند قيام ثورة الكرك في ذي الحجة سنة ١٣٢٨هـ/كانون أول ١٩١٠م، ضد سياسة الأتراك في تحرير النفوس، وتسجيل الأملاك لزيادة الضرائب، وأخذ العسكر للقتال في المناطق النائية Conscription كالروملي والأناضول والقفقاس وغيرها، اتبعت الحكومة العثمانية أسلوباً عنيفاً في معالجتها، وأخمدتها بقسوة بالغة، مما أدى إلى نفور السكان في العقبة وجنوبي شرقي الأردن. فما أن سمعوا بالحركة التحررية، التي قادها شريف مكة، حتى تنادوا إلى نصرته، والانضمام إليه[١٢٧].

وقد استقبل أهل العقبة الأشراف، وأنزلوهم في منازلهم، وأعطوهم أموالهم، حيث نجد الأمير فيصل قد نزل في العقبة في بيت الفاخوري، وأن تجار العقبة أعطوا الأمير أربعة آلاف ليرة[١٢٨]. وقد استقبل أهل العقبة الشريف حسين عام ١٩٢٤م، عندما قدم إليها، وناصروه وأيدوه ورفضوا فكرة نفيه من العقبة لولا موافقته مرغماً[١٢٩]، الأمر الذي نال إعجاب الأمير عبد الله، إذ تعاطف وتعامل مع البدو عامة[١٣٠]. ومع قدوم الأمير إلى الأردن في شباط ١٩٢١م، استقبلت شرقي الأردن أعداداً كبيرة من المهاجرين السوريين، كان معظمهم محكوماً عليه بالإعدام من قبل الفرنسيين، وهم على درجة عالية من الخبرة والمعرفة، وقد عاشوا بين فئات السكان المختلفة[١٣١].

أما من حيث شريعة البدو وأحكامهم وطرق الصلح بينهم، فكانت العشائر ترجع إلى قضاتها في فض المنازعات حسب الأعراف والتقاليد المتبعة لديها[١٣٢]، التي كانت ترمي إلى العدل والمساواة. إلا أن في مبادئها الأساسية من أسباب الخلل ما يستحيل معه استتباب الأمن، وتعميم السلام في البادية، والتي حصرت العقوبات معظمها في المال، فقد أجازت البشعة والوساقة، والأخذ بالثأر، والإجحاف بحقوق النساء[١٣٣]. وقد عرف في بلاد نخل والعقبة أكثر القصاصين من السلالمة الحويطات، وهو قاضي العقوبات، كما عرف العُقْبي القاضي المختص في قضايا العِرض. وربما سمي كذلك، لأن أكثر القضاة من هذا النوع من بني عقبة، إحدى عشائر التياها[١٣٤]. لذلك عندما انضمت العقبة إلى إمارة شرق الأردن في سنة ١٩٢٥، كان لا بد لبدو المنطقة أن يخضعوا لقانون محاكم العشائر، الذي صدر في تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٢٤م، وذلك بتأسيس محاكم عشائرية، تحت إشراف ناظر العدلية، للنظر في الدعاوى الناشئة عن الاعتداءات والاختلافات بشأن الأموال ومسائل الدم ودعاوى العِرض والديّة وسواها[١٣٥].

وقد عرف سكان العقبة حرفة صيد السمك، وكانوا يجففونه غالباً للتجارة، وأخرجوا اللؤلؤ من الخليج، واتقنوا بعض الحرف اليدوية، مستفيدين من المواد المتاحة، فصنعوا من سيقان النخيل القوارب والسواري، والأخشاب اللازمة لبناء سقوف بيوتهم، ونسجوا من ليفها حبالاً وخيوطاً، ومن الجريد سلالاً ومقاطف وحصر[١٣٦]. وبمجموعها تعتبر هذه الأدوات تراثاً قيماً يستحق الاهتمام.

وقد استخدم السكان بعض الأدوية، والتي توفرت في العقبة، وخاصة تلك التي يستخدمها المسافرون، وربما كانت مرافقة للتجار والقوافل، مثل الكينا للحمى، وحبوب خلاصة الكسكارة لمنع الإمساك وزيت الخروج أو عرق الذهب أو ملح إنجليزي لتنظيف المعدة، ومسحوق دوفر الكلوردوين لمنع الإسهال ووجع المعدة، وكلورات البوتاس لالتهاب الحلق، وروح النشادر للسع العقرب، وعصير الليمون، وحزام صوف للتدفئة ونفتالين لوقاية للثياب والكتب من العث، ومقصات وقطن وأربطة لضمد الجروح[١٣٧]. كما أن اتفاقات كانت تتم بين مدير سيناء ومشايخ العربان في العقبة حول أجرة الإبل والميعاد وأجرة الشيخ وأجرة الترجمان والشروط الصحية الواجب توفرها، مثل خلو الإبل من الأمراض، وأن تكون لائقة للسفر، وكان التياها متخصصين في تجهيز إبل السياح، ويتقاضون نصف جنيه عن كل جمل[١٣٨].

والبدو بعامة أميون، فكانوا لا يقرأون ولا يكتبون، وإن وجدت بعض المدارس في مدن سيناء، إلا أنه يندر من يتعلم فيها من أهل البادية فهم يعبرون عن الأعداد بأصابع اليدين، وهذا يؤكد ما أشارت إليه بعض الدراسات[١٣٩]، إلى أن الحركة العلمية ازدهرت في منطقة جنوب الأردن في العصرين الأيوبي والمملوكي، في حين لم تبلغ أو تحافظ على هذا الدور بعد ذلك، أو لم تكن على الأقل مواكبة له في بقية المدن في شرقي الأردن كمعان وعمان مثلاً في فترة الدراسة. وهذا الذي يفسر إجراءات السفر والتنقل من العقبة إلى سوريا أو مصر والقدس الشريف وحتى البتراء، فكان لا بد من الحصول على الإذن من السفارة العثمانية في القاهرة أولاً، وإلا منعت العساكر على الحدود من استمرار السفر[١٤٠].فبعد انضمام العقبة إلى الحجاز عام ١٨٩٢م وحتى تبعيتها لقضاء معان عام ١٩٠٩م[١٤١]، أشارت السالنامات العثمانية إلى وجود مدرسة ذكور ابتدائية مدة الدراسة فيها أربع سنوات في معان الحجازية في عام ١٣١٥هـ/١٨٩٧م، بلغ عدد طلابها سنة ١٣١٧هـ/١٨٩٩م ٣١ طالباً[١٤٢]. غير أن ناحية العقبة، لم تنل حظها من التعليم في مثل هذه المدرسة التي أقيمت في مركز القضاء، بسبب بعد المسافة، إذا علمنا أن هذه المرحلة من التعليم من سن ٧-١١ سنة للذكور، ويجب الإشارة إلى أن تكاليف إنشاء وصيانة المدارس كان على الأهالي، إلى جانب مخصصات المعلمين فيها[١٤٣]. على أن سجلات معان، أشارت في سنة ١٩١٦ إلى وجود مدرسة للمرحلة الابتدائية في العقبة، وأن الشيخ أحمد بن محمد بن عابد المدني، من سكان المدينة المنورة، والمقيم في العقبة، قد عين لهذه المرحلة لما عرف عنه من الأمانة والقدرة والصلاح لهذه المهمة[١٤٤].

أما بالنسبة للمرأة عند البدو، فقد أسهمت في الأعمال الحرفية إلى جانب الرجل، وعرف أن أحب خصال المرأة عند البدو هي الخصال التي اشتهرت بها وضحة، زوجة نمر بن عدوان، من قبيلة العدوان ببر الحجاز، فكانت لا تنام قبل رجوع زوجها، ولا توليه ظهرها ما دامت في حضرته، ولم تقترض شيئاً من جيرانها مهما اشتدت الحاجة .. وما قالت لزوجها لا طول عمرها، وما زارت أهلها إلا برأيه وإرادته ...[١٤٥]. إلا أنها لم تتمتع بالاستقلالية في العمل، فوليها والدها، يزوجها صغيرة، ولا يتوقف الزواج على خيارها عند بلوغها لوقوع عقد النكاح

دورية إلكترونية. محكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

من قبل الأب[١٤٦]. فقد شاع الزواج بين الأطفال الصغار، من خلال الإيجاب والقبول بين الوالدين، فيبارك الرجل لآخر، لأن زوجته وضعت ولداً، ويبادر الرجل الذي عنده بنت صغيرة قائلاً: أنكحتها لولدك هذا، فيجيبه بالقبول التام، ويتم هذا الزواج في المستقبل خاصة إذا شاع في العائلة اتفاق الطرفين المسبق بأن هذه البنت لذلك الولد[١٤٧].

غير أن وصية الزوج بأمواله وعقاراته، تكون غالباً لزوجته بعد مماته[١٤٨]، وأن هذه الحالة ليست بالمطلق، إذ يلاحظ أن المرأة توكل عنها رجلاً لتحصيل حقوقها في المحكمة بعد إقرارها بتوكيله. "إني وكلت عن نفسي، وأنبت مناب شخصي هذا الحاضر معي بالمجلس ... في جميع المحكامات والمخاصمات، مع أي شخص كان وفي أي حق كان وفي أي محكمة كانت..."[١٤٩].

وقد أشارت السجلات الشرعية إلى أن عائلات مصرية كانت مقيمة في قصبة قضاء العقبة، وتمتلك بساتين وآبار مياه، وأن بعض هذه العائلات كثيراً ما تجري عمليات البيع مع عائلات أخرى مقيمة في العقبة، فالعقارات كثيرة وواسعة، نصفها من الميراث، والنصف الآخر تم شراؤه فيما بعد[١٥٠].

وقد شاع عند بيع العقار، أن يسجل في محكمة العقبة الشرعية من خلال حجة البيع والشراء التي توقع من قبل البائع والمشتري وقاضي العقبة، إلى جانب معرفين غالباً ما يكونوا من سكان وأهالي العقبة[١٥١]. كما أن الديون وهي في معظمها فردية، يكتفي بإقرار المدعى عليه لحكم المحكمة بالمبلغ للمدعي، وكثيراً ما يتبع الديون رهن الأرض الزراعية، واستغلال الدائن لإنتاجها، لحين سداد الدين. إذ اعتبر أن الإنتاج نظير أرباح الدين، والذي يطول عدة سنوات أحياناً. فقد أشارت بعض الوثائق إلى أن الدائن يستفيد من ثمرة الأرض في كل سنة حتى يوفى الدين[١٥٢]. ولعل شيوع القضايا الفردية التي تطالب في معظمها بالديون من المتوفين، دليل على طول مدة الدين، وعندها تلجأ المحكمة من خلال الشهود للحكم باستلام المبالغ من أصل ميراث المتوفى[١٥٣].

كما يلاحظ أن بعض الدائنين، ممن هم في مراكز إدارية في العقبة، ويتمتعون بمستوى دخل يمكنهم من توظيفه في القروض والربح. فقد ورد أن محمد الأسد الحموي مدير جمرك العقبة، المولود في حلب يشتري بساتين في قصبة العقبة من السيد علي بيومي، بحضور معرفين مثل محمد صالح الكبريتي، وحوات سطوحي، وعلي الجارحي ومحمود أبو بكر وجميعهم من أهالي العقبة. وأن حمدي بك طبيب مستشفى العقبة من أهالي الشام، كان له ديون على متوفين، حصلها من المحكمة من أصل ميراث المتوفى بشهادة الشهود منهم توفيق من أهالي القدس، والسيد بشير أفندي من أهالي بيروت، ومحمد حوات رئيس بلدية العقبة[١٥٤].

ويبدو أن العقبة شملت في سكانها الجواري والعبيد. وقد أشارت السجلات إلى وصايا باعتاق العبيد واعتبارهم أحراراً عند وفاة شيوخهم[١٥٥]. وقد أودع في دائرة الشرطة، من خلال أوراق تحقيق تتضمن ضبوطات أشخاص معهم زجاج من الخمر، وقد حولوا إلى المحكمة بعد إعطائهم رابور طبي من طرف الطبيب يؤكد شربهم الخمر، وعند الإقرار في المحكمة بتعاطيهم لها، حكم بجلدهم ثمانين سوطاً ضرباً وسطاً مفرقاً على أبدانهم[١٥٦].

فيلاحظ أن فئات السكان شاركت في الفعاليات الاقتصادية والاجتماعية إلى جانب أهالي العقبة، ولعل الفئة التي فاقت ما عداها هم المصريون، ولا غرابة في ذلك، نظراً للعلاقة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في المنطقة، وتبعية العقبة لمصر. إلى جانب السكان المغاربة الذين رافقوا قوافل الحج. غير أن الفئة السكانية الرئيسية في ريف العقبة كانت البدو، والتي اعتمدت عليها الدولة العثمانية من جهة، والحكومة المصرية من جهة ثانية في نقل المؤون، ملتزمين بأصول الشرع في لجوئهم إلى محكمة العقبة لفض المنازعات أو إبراء ذمتهم من ديون أو تحصيل حقوقهم.

خلاصة

لقد عانت العقبة من مخلفات الصراع بين القبائل البدوية والسكان. وانعدام الأمن في أواخر الحكم العثماني، كان سبباً في عدم الاستقرار والتحضر، الذي رأيناه يتلاشى عند تنفيذ برامج الإصلاح، وتطور أجهزة الحكم والإدارة عند انضمامها لإمارة شرقي الأردن عام ١٩٢٥. والتحول الكبير لحياة البدو نحو الاستقرار والتوطين بزراعة الأرض، وتربية الثروة الحيوانية، وكونها ثغراً بحرياً هاماً أثرى الحياة الاقتصادية والاجتماعية كبقية مدن شرقي الأردن مثل الرمثا والمفرق والزرقاء وعمان ومعان، دخلت ضمن اهتمام حكومات شرقي الأردن فيما بعد.

وإن ظهور فئات سكانية مختلفة انصهرت في مجتمع العقبة، وشاركت في الحياة العامة من المغاربة والمصريين والحجازيين، والفلاحين الذين قدموا من الشام والقدس ونابلس، إلى جانب السكان المحليين، وأصبح هذا الخليط جزءاً من نواة المجتمع الأردني الحديث.

غير أن قدوم التجار والحرفيين وسواهم واستقرارهم في العقبة، نتيجة الصلات التجارية بينها وبين أسواق القاهرة والمدينة وعمان ودمشق وبيروت والقدس ونابلس، وكانت هذه الصلات في تنامٍ مستمر. مما زاد في وارداتها من الضرائب والرسوم بأنواع العملات الرسمية، وأنواع النقد التي عرفتها العقبة، إلى جانب المقاييس والمكاييل والأوزان المستخدمة فيها، مما أبرز بدقة أهمية الدور الممكن للعقبة، كجزء أساسي للبنية التحتية للتجارة والنقل والتطوير بشتى صوره. هذا الدور الذي أدى إلى اهتمام الحكومات الأردنية بها، مما جعل العقبة "منطقة اقتصادية خاصة" في الوقت الحاضر.

دورية إلكترونية محكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الهوامش:

(١) مأمون أصلان بني يونس: قافلة الحاج الشامي في شرقي الأردن في العهد العثماني ١٥١٦ – ١٩١٨، طبع بدعم من وزارة الثقافة، ط١ ٢٠٠٠م، مؤسسة حمادة ودار الكندي، اربد، الأردن.

(٢) صلاح الدين بحيري، يحيى فرحان: جيومورفولوجية جنوب الأردن، ط١، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٩، ص١٨٢.

(٣) الدباغ: بلادنا فلسطين، مرجع سابق، ص٦٤٢.

(٤) المقريزي: الخطط، ج١، ص١٨٤.

(٥) الحسن بن محمد الورثيلاني (ت ١١٩٣هـ/١٧٧٩م)، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، المشهورة بـ (الرحلة الورثيلانية)، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، ص٥٤٨.

(٦) نعوم شقير: تاريخ سيناء، مرجع سابق، ص٢٦٧.

(٧) نعوم شقير، مرجع سابق، ص٢٦١ وما بعدها.

(٨) أحمد البديري الحلاق: حوادث دمشق اليومية ١١٥٤-١١٧٥هـ/١٧٤١-١٧٦٢م، تحقيق أحمد عزت عبد الكريم، مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ص١٨٦-١٨٧.

(٩) نعوم شقير: المرجع السابق، ص٢٧٠.

(١٠) نعوم شقير: المرجع نفسه، ص٢٠٣. ورجال كوك: اصحاب شركة كوك بمصر، كانت الحكومة المصرية قد عهدت لوكالة الشركة في القدس، بتوفير الخيام والمؤون والمهمات اللازمة للجنة تعيين الحدود في اللعقبة. نعوم شقير: المرجع السابق، ص٦٠٦.

(11) [R.G.S. London] P. B. 1833-1947, Vol. 1, p. 323.

(١٢) نعوم شقير: تاريخ سيناء، مرجع سابق، ص٣٠١، ٣٦٣.

(١٣) كامل جميل العسلي: القدس في التاريخ، منشورات الجامعة الأردنية، عمان ١٤١٣هـ/١٩٩٢، ص٢٣٩.

(١٤) الورثيلاني: الرحلة، ص٣٣٥.

(١٥) نعوم شقير: تاريخ سيناء، ص٥٧٥.

(١٦) نعوم شقير: المرجع السابق، ص٧٥٤.

(١٧) المرجع نفسه: ص٥٧٥.

(18)[R.G.S. London] P.B. 1833-1947, Vol, 1, p. 324-325.

(19)[R.G.S. London] Op. Cit, p. 336-337.

(٢٠) الجزيري: درر الفرائد المنظمة، ج٢، مرجع سابق، ص١٣٣٩.

(21)Alois Mosil, Northern Hijaz, The American Geographical Society, New York, 1926, p. 4.

(٢٢) نعوم شقير: تاريخ سيناء، مرجع سابق، ص٣٦٠.

(٢٣) الويركو: كلمة تركية الأصل، تعني الضريبة التي تدفع لخزينة الدولة. شمس الدين سامي: قاموس تركي، أقدام مطبعة سي، در سعادت ١٣١٧هـ/١٨٩٩م، ص١٥٠٠.

(٢٤) عبد الكريم غرايبه: سوريا في القرن التاسع عشر، ١٨٤٠-١٨٧٦م، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، ١٩٦٢م، ص٦١.

(٢٥) عبد الله المنزلاوي: عشائر العقبة، مرجع سابق، ص٤٣.

(٢٦) صلاح بحيري: جيومورفولوجية جنوب الأردن، مرجع سابق، ص١٨٢.

(27)Ahmad Diab-Ali, Aqaba in the Economic Development of Jordan, University of Wales, United Kingdom, Aug. 1990, p. 585.

(٢٨) العبدري أبو عبد الله الحيحي: رحلة العبدري المسماة الرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي، جامعة محمد الخامس، الرباط، ١٩٦٨، ص١٥٧. سيد عبد المجيد بكر: الملامح الجغرافية لدروب الحجيج، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، تهامة، جدة، السعودية، ص١١.

(٢٩) كبريت: الرحلة، ص٢٠. نعوم شقير، مرجع سابق، ص٢٦٣، ٣٣٢.

(٣٠) عبد الكريم رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث، جامعة دمشق، ١٩٨٥م، ص٦. مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، ص٩٧.

(٣١) فالين: صور من شمالي جزيرة العرب، مرجع سابق، ص١٤-١٥.

(٣٢) نعوم شقير: مرجع سابق، ص٢٩٨.

(33)[R.G.S. London] Op. Cit, p. 321.

(34)Uriel Heyd, Ottoman Documents on Palestine, p. 99.

(٣٥) نعوم شقير: المرجع السابق، ص٢٩٨.

(36)Alois Musil, The Northern Hajaz, The American Geographical Society, New York, 1926, p.4.

(37)[CO 733/45] Amir Abdullah's Administration, October 1921 to December 1923, Vol. 1, p. 79-81.

(38)Charles, M. Doughty, Travels in Arabia Deserta .., p. 94.

(39)[CO 733/45] Amir Adbullah's Administration, p. 80.

(٤٠) سجل معان، رقم ٣٢ وعدد صفحاته ١٩٤ صحيفة (صفحة) ٣٠ رجب ١٣٣٦هـ/١٩١٦م-٣٠ شعبان ١٣٤٣هـ/١٩٢٣م، وصفحاته من القطع المتوسط، مصور على ميكروفيلم في مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.

(٤١) سجل معان، ٢٢ ذي الحجة ١٣٣٦هـ/١٩١٦م، ص١٠.

(٤٢) سجل معان، ١٣ محرم، ١٣٣٧هـ/١٩١٦م، ص١٤-١٥.

(٤٣) سجل معان: ١٧ محرم، ١٣٣٧هـ/١٩١٦م، ص١٦.

(٤٤) سجل معان، ٢٤ محرم، ١٣٣٧هـ/١٩١٦م، ص١٩.

(٤٥) سجل معان، ٢١ محرم، ١٣٣٧هـ/١٩١٦م، ص١٨.

(٤٦) سجل معان، ٤ ربيع أول ١٣٣٧هـ/١٩١٦م، ص٢٦. ٢٤ ربيع أول، ١٣٣٧هـ/١٩١٦م، ص٢٩.

(٤٧) سجل معان، ٤ ربيع أول ١٣٣٧هـ/١٩١٦م، ص٢٩.

(٤٨) ورد في السجلات، أن كثير من أهالي وسكان الطور قضاياهم لدى محكمة العقبة الشرعية. سجل معان: ١٦ ربيع أول ١٣٣٧هـ/١٩١٦م، ص٢٨.

(٤٩) سجل معان، ٢٨ ربيع أول، ١٣٣٧هـ/١٩١٦م، ص٣٠.

(٥٠) سجل معان، ربيع أول، ١٣٣٧هـ/١٩١٦م، ص٣٢.

(٥١) سجل معان، ٢٨ ربيع الآخرة، ١٣٣٧هـ/١٩١٦م، ص٣٣.

(٥٢) الأُقة: وحدة وزن عثمانية تزن ٤٠٠ درهم، كل درهم ٣.٢٠٧ غرام = ١.٢٨٢٨ كغم. فالتر هنتس: الأوزان والمكاييل الإسلامية، ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، آب، ١٩٧٠، ص١٩.

(٥٣) سجل معان، ١٤ صفر ١٣٣٧هـ/١٩١٦م، ص٢٤.

(٥٤) سجل معان، ١٦ صفر ١٣٣٧هـ/١٩١٦م، ص٢٤.

(٥٥) سجل معان، ٨ ربيع أول ١٣٣٧هـ/١٩١٦م، ص٢٨.

(٥٦) سجل معان، ١٥ ربيع أول ١٣٣٧هـ/١٩١٦م، ص٣٤.

(٥٧) سجل معان، ٢٣ جمادى الآخرة، ١٣٣٧هـ/١٩١٦م، ص٤١.

(٥٨) عبد الكريم رافق: بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، مرجع سابق، ص٨٥.

(٥٩) سجل معان، ١٥ ربيع الآخر، ٣٧هـ، ص٣٤.

(٦٠) عبد الكريم رافق، بحوث، مرجع سابق، ص٨٦.

(٦١) للمزيد حول النقود الذهبية والفضية العثمانية والأوروبية، ينظر: عبد الكريم رافق: بحوث، مرجع سابق، ص٨٦ وما بعدها.

(٦٢) الشرق العربي (الجريدة الرسمية للإمارة): السنة الأولى، عدد ٣ (١١ حزيران ١٩٢٣)، ص٢.

(٦٣) كان نظام البنك العثماني، قد صدر في ١٤ شباط/فبراير ١٨٦٣، عندما منحت الدولة العثمانية مؤسسي البنك من الإنجليز والفرنسيين واليهود، امتياز إنشاء بنك باسم البنك العثماني، بلغ رأسماله عند تأسيسه ٢.٧

دورية إلكترونية. محكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

مليون جنيه استرليني ، وخولته الحكومة إجراء معاملاتها المالية. ينظر: عبد العزيز عوض: الإدارة العثمانية في ولاية سوريا ، ١٨٦٤-١٩١٤م ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩م ، ص٢٠٨.

(٦٤) الشرق العربي: السنة الثالثة ، عدد ١١٧ (٥ تشرين ثاني ١٩٢٥) ، ص٨.

(٦٥) الشرق العربي ، السنة الثالثة ، عدد ١١٠ (٣ كانون ثاني ١٩٢٥) ، ص٥.

(66)Mary Wilson, King Abdullah, Britain and the Making of Jordan, Cambridge University Press, 1987, p. 85.

(٦٧) الشرق العربي: السنة الرابعة ، عدد ١٤٥ ، ١٥ كانون أول ١٩٢٦ ، ص١.

(٦٨) الشرق العربي: السنة الخامسة ، عدد ١٨٨ ، ١٩ نيسان ١٩٢٨ ، ص٨.

(٦٩) ضريبة بدل الطريق: صدر نظامها في ١٨ جمادى الأولى ١٢٨٦هـ/٢٧ آب ١٨٦٩م ، وقد فرض هذا النظام على كل شخص ذكر صحيح الجسم يتراوح عمره ما بين ١٦-٦٠ سنة ، أن يعمل أربعة أيام في السنة بشق الطرق وإصلاحها ، وبقي هذا النظام حتى عام =

= ١٣٣٢هـ/١٩١٤م ، حيث صدرت الإرادة السنية بالموافقة على تعديل القانون ، بحيث أصبح بدل الطريق يجبى نقداً خلال شهر آب وفقاً لقانون جباية الأموال. الدستور ج٢ ، ص٢٦١-٢٦٧. المقتبس ، دمشق ، عدد ١٤٤٦ ، ٢٨ ربيع الثاني ١٣٣٢هـ/٢٥ آذار ١٩١٤م ، ص٢.

(٧٠) عبد الكريم غرايبه: سوريا في القرن التاسع عشر ، مرجع سابق ، ص١٣٤.

(٧١) الشرق العربي: السنة الأولى ، عدد ١٦ (١٠ أيلول ١٩٢٣) ، ص١ وما بعدها.

(٧٢) الشرق العربي: السنة الثانية ، عدد ٨٧ (١٤ كانون الثاني ١٩٢٥) ، ص٣. الكرمل: العدد ١١٢٧ (١ آب ١٩٢٥) ، ص٣.

(٧٣) جريدة الكرمل: حيفا ، عدد ١١٢٧ (١ آب ١٩٢٥) ، ص٣.

(٧٤) بيركهارت: رحلة في سوريا الجنوبية ، مرجع سابق ، ص٧٧ ، ٨٢. جريدة الكرمل: حيفا ، عدد ١١٢٥ (٢٥ تموز ١٩٢٥) ، ص٤. والعدد ١١٥٢ (٢٨ تشرين أول ١٩٢٥) ، ص٤.

(٧٥) الشرق العربي: السنة الثالثة ، عدد ١٢٧ ، ١ أيار ١٩٢٦ ، ص١٤.

(٧٦) الجريدة الرسمية: السنة الثالثة عشرة ، عدد ٥٠٤ (١ كانون الأول ١٩٣٥) ، ص٥٠١. والسنة الثانية: العدد ١٠٢ (٤ أيار ١٩٢٥) ، ص٤.

(77)Alois Musil, The Northern Hejaz, The American Geographical Society, New York, 1926 p. 4.

(78)Ibid, Arabia Petraea, 3 Bands, in Kommission bei Alfred Holder, Wien, 1908, p. 47.

(٧٩) نعوم شقير: تاريخ سيناء ، ص١٩٣. وقد زودني الشيخ عبد الله المنزلاوي ، من مواليد العقبة وسكانها ، بوثائق تشير إلى بعض قبائل وعائلات العقبة ، ينظر الملحق رقم (٢٢).

(٨٠) إحسان النمر: من السويس إلى العقبة عبر سيناء ، ص٤٨.

(٨١) خليل رفعت الحوراني - مراسل جريدة المقتبس الدمشقية في لوائي حوران والكرك. المقتبس ، العدد ٥٥٨ ، ص١.

(82)Meir Zamir, Population Statislies of the Ottoman Empire in 1914 and 1919. Middle East Studies, London, Vol. 17, N.I, 1981, p. 85-97.

(٨٣) حسب تقديرات المركز الجغرافي الملكي الأردني لعام ٢٠٠٠م ، منشورات الصندوق الأردني الهاشمي للتنمية البشرية لعام ٢٠٠١م ، خريطة بيانات ومعلومات عن محافظات المملكة.

(٨٤) نعوم شقير: المرجع السابق ، ص١٣١. وقد ورد أن الحويطات ١٥٠٠ نفر ، والأحيوات ٤٢٠٠ ، والتياها ٤٢٠٠ ، والترابين ٣٠٠٠.

(٨٥) الجزيري: دور الفرائد المنظمة ، مرجع سابق ، ص١٣٤٢ وما بعدها.

(86)[R.G.S. London] Op. Cit, p. 329. Alois Musil, Arabia Petraea, Op. Cit, p. 111.

(87)Littmann, Enno, "Eine Amtliche Liste der Beduinenstamme des Ost Jordan Landes" ZDPV, XXIV (1901), p. 31.

(٨٨) فالين: صور من شمالي جزيرة العرب ، مرجع سابق ، ص١٤٦. مقابلة للشيخ هايل السرور شيخ المساعيد ، في جريدة الدستور ، عدد ٩٢٦١ ، تاريخ ٦ حزيران ١٩٩٣ ، ص٩.

(٨٩) محمد عدنان البخيت: دفتر مفصل لواء عجلون ، طابو دفتري رقم ١٨٥ (أن) ، استانبول ، ١٠٠٥هـ/١٥٩٦م ، منشورات الجامعة الأردنية ، عمان ١٩٩١ ، ص١٣ وما بعدها.

(٩٠) الجزيري: درر الفرائد المنظمة ، مرجع سابق ، ص١٣٦٨-١٣٦٩.

(٩١) محمد أبو حسان: تراث البدو القضائي ، ط٢ ، وزارة الثقافة ، ١٩٨٧ ، عمان ، ص٥٥٣.

(92)[R.G.S. London] Op. Cit, p. 329.

(93)Ibid, p. 330.

(٩٤) أحمد أبو خوصة: بئر السبع والحياة البدوية ، ط١ ، ج١ ، المؤسسة الصحفية الأردنية ، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦ ، عمان ، ص١٨٠.

(٩٥) الجزيري: المرجع السابق ، ص١٣٤٢.

(٩٦) سالنامة ولاية سوريا ، سنة ١٢٩٩هـ/١٨٨١م ، ص٢٣٥. سالنامة ولاية سوريا ١٣١٧هـ/١٨٩٩م ، ص٤٠٧.

(٩٧) أحمد أبو خوصة: المرجع السابق ، ص١٤.

(٩٨) جريدة البشير ، بيروت ، عدد ٤١٠ ، ١٩ تموز ١٨٧٨ ، ص٢. فروربك بيك: تاريخ شرقي الأردن وقبائلها ، مرجع سابق ، ص٢٤٦.

(٩٩) المرجع نفسه ، عدد ١٦٤٩ ، ١٦ أيار ١٩٠٤ ، ص٤.

(١٠٠) بولس سلمان: خمسة أعوام في شرقي الأردن ، مرجع سابق ، ص٤٧.

(101)[R. G. S. London] 1833-1947, Op. Cit. P. 327-328.

(102)[R.G.S. London] 1833-1947, P. 329.

(١٠٣) سجل معان ، ٢٣ جمادى الآخرة سنة ١٣٣٧هـ/١٩١٦م ، ص٢٩.

(١٠٤) عبد الله المنزلاوي ، عشائر العقبة ، مرجع سابق ، ص٦٩ ، ص٧٩ وما بعدها.

(105)Alois Mosil, Arabia petraea, Band 111, p.47.

(١٠٦) بيركهارت ، رحلات بيركهارت في سوريا الجنوبية ، مرجع سابق ، ص١٦٩.

(١٠٧) البشير ، عدد ١١٣٦ ، آب ١٨٩٤ ، ص٣.

(108)Lois Mosil, Arabia petraea, p.47.

(١٠٩) بيركهارت: رحلات ، المرجع السابق ، ص١٦٩ .سليمان موسى ، رحلات رحلات في الأردن وفلسطين ، دراسات وترجمات ، دار ابن رشد للنشر والتوزيع ، عمان ، ١٩٨٤ ، ص٧٤.

(١١٠) عبد الله المنزلاوي: مرجع سابق ، ص٦٤.

(١١١) محمد صلاح: الإدارة في إمارة شرقي الأردن ١٩٢٠-١٩٤٦ ، ص٣٥٦.

(112)Alois Mosil, Ibid, p.47.

(١١٣) عبد الله المنزلاوي ، عشائر العقبة ، مرجع سابق ، ص٨٣ ،٧٧.

(١١٤) عبد الله المنزلاوي ، مرجع سابق ، ص٨٤-٨٥.

(١١٥) محمد صلاح: الإدارة في إمارة شرقي الأردن ١٩٢١-١٩٤٦ ، منشورات جامعة اليرموك ، ص٣٠٦.

(١١٦) أشارت سجلات محكمة العقبة الشرعية من خلال سجل معان في أكثر من صفحة إلى ظاهرة حفظ البدو لحججهم وأوراقهم لدى سكان العقبة. ينظر سجل معان رقم ٣٢.

(117)[R. G. S. London] 1833-1947, Op. Cit, p. 324.

(١١٨) كان الأردب يساوي في القاهرة ١٨٤ لتراً ، أو أربعة جالونات ، وعرف بأنه ثلاث قفات مصرية: هاملتون جب ، هارولد بوون: المجتمع الإسلامي والغرب ، ج٢ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧١م ، ص١١١. يوسف جميل

نعيسة: أوضاع الفلاحين في دمشق وصناجقها، دراسات تاريخية (مجلة)، دمشق، العدد ٢٣-٢٤، أيلول-كانون الأول ١٩٨٦م، ص٦٤.

(١١٩) سجل معان، ج٢، ١٣٢١هـ/١٩٠٣م، ص١٢٣. ١٣١٩هـ/١٩٠١م، ص٥٥.

(١٢٠) هاملتون جب وهارولد بوون: المجتمع الإسلامي والغرب، مرجع سابق، ص٩٩.

(١٢١) محمد سالم الطراونة: تاريخ منطقة البلقاء ومعان والكرك، مرجع سابق، ص٢٧٢ وما بعدها.

(122)[R. G. S. London] Op. Cit. P. 336.

(١٢٣) نعوم شقير: تاريخ سيناء، ص١٩٣. عبد الله المنزلاوي: عشائر العقبة، مرجع سابق، ص٤٣.

(١٢٤) المرجع نفسه، ص٤٤.

(125)[R. G. S. London] Op. Cit, P. 337.

(١٢٦) عبد الله المنزلاوي: عشائر العقبة، المرجع السابق، ص٤٤.

(١٢٧) جريدة المقتبس، دمشق، سنة ٢، عدد ٥٤٧، ٩ ذي الحجة ١٣٢٨هـ/١١ كانون أول ١٩١٠م، ص١-٢. العدد ٥٦٥، ٣ محرم ١٣٢٩هـ/٤ كانون الثاني ١٩١١م، ص٣.

(١٢٨) سلمان موسى: وجوه وملامح، صور شخصية لبعض رجال السياسة والقلم، منشورات وزارة الثقافة والشباب، مطابع دار الشعب، عمان، ط١، ١٩٨٠، ص٩٤.

(١٢٩) المنزلاوي: عشائر العقبة، مرجع سابق، ص٢٩.

(130)[CO 733/45] Amir Abdullah Administration, Vol, I, p. 63.

(131)Ibid, p. 63.

(١٣٢) عودة القسوس: القضاء البدوي، المطبعة الأردنية، ط٢، عمان، ١٩٨٢، ص١٠ وما بعدها. محمد أبو حسان: تراث البدو، نظرياً وعملياً، مرجع سابق، ص٢٥.

(١٣٣) البشعة: عملية اختبار المتهم بواسطة قطعة حديدية ملتهبة. والمبشع: هو القاضي الذي يقضي في الجرائم المنكورة، التي لا شهود لها باختبار المتهم بالنار بواسطة المحماسة الحديدية التي تستعمل لتحميس القهوة. بعد أن يكون قد تكونت لديه الأخبار الأكيدة عن المتهم، فيكوي لسانه بشدة، ليبين أنه اقترف الجريمة. والوساقة: رهائن الإبل تؤخذ خلسة للحصول على حق ممطول، وهي تقابل الحجز التحفظي بالإصطلاح القانوني. ينظر: أحمد أبو خوصة: بئر السبع والحياة البدوية، مرجع سابق، ص٢٩. محمد أبو حسان: تراث البدو القضائي، مرجع سابق، ص١٩٣، ٤١٢. نعوم شقير: تاريخ سيناء، مرجع سابق، ص٤٢٣.

(١٣٤) محمد أبو حسان: تراث البدوي القضائي، المرجع السابق، ص٥٥٩. أحمد أبو خوصة: مرجع سابق، ص١٣٠.

(١٣٥) محمد أبو حسان: مرجع سابق، ص٤٦٣.

(١٣٦) نعوم شقير: مرجع سابق، ص١٠٦. المنزلاوي: التراث الشعبي في العقبة، مرجع سابق، ص٢٤.

(١٣٧) المرجع نفسه، ص٣٣٧.

(١٣٨) المرجع نفسه، ص٣٢٦-٣٣٠.

(١٣٩) يوسف درويش غوانمه: الحياة العلمية والثقافية في الأردن في العصر الإسلامي، دار هشام للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٨٤. أيلة (العقبة) والبحر الأحمر، مرجع سابق، ص١١٠.

(١٤٠) نعوم شقير: المرجع السابق، ص٣٣٤.

(١٤١) نوفان الحمود: عمان وجوارها، مرجع سابق، ص٩٥، حاشية ٤.

(١٤٢) سالنامة ولاية سوريا سنة ١٣١٥هـ/١٨٩٧م، ص٢٢٢. سالنامة ولاية سوريا سنة ١٣١٧هـ/١٨٩٩م، ص٢٣٣.

(١٤٣) الدستور، ج٢، مرجع سابق، ص١٥٦-١٥٧.

(١٤٤) سجل معان، ١٥ ذي الحجة ١٣٣٦هـ/١٩١٦م، ص٦.

(١٤٥) نعوم شقير: سيناء، مرجع سابق، ص٣٩١.

(١٤٦) سجل معان، ١٧ شوال ١٣٣٦هـ/١٩١٦م، ص٤.

(١٤٧) المرجع نفسه.

(١٤٨) سجل معان: ١٣ ذي الحجة ١٣٣٦هـ/١٩١٦م، ص٤.

(١٤٩) سجل معان: ٢ جمادى الآخرة، ١٣٣٧هـ/١٩١٦م، ص٣٧.

(١٥٠) سجل معان: ٢٩ محرم، ١٣٣٦هـ/١٩١٦م، ص١.

(١٥١) المرجع نفسه.

(١٥٢) سجل معان: ٢٥ رجب ١٣٣٦هـ/١٩١٦م. ٣٠ رجب ١٣٣٦هـ/١٩١٦م.

(١٥٣) سجل معان: ٩ شوال ١٣٣٦هـ/١٩١٦م، ص٢.

(١٥٤) سجل معان: ٩ شوال ١٣٣٦هـ/١٩١٦م. ٣٠ رجب ١٣٣٦هـ/١٩١٦م، ص١، ٢.

(١٥٥) سجل معان: ١٣ ذي الحجة ١٣٣٦هـ/١٩١٦م، ص٤.

(١٥٦) سجل معان: ٢٧ ربيع الأول ١٣٣٧هـ/١٩١٧م، ص٣٠.

الدكتور مأمون عبد الله أصلان في سطور:

ليسانس تاريخ، جامعة بيروت العربية ١٩٨٢. ماجستير في التاريخ الحديث "عنوان الرسالة: قافلة الحاج الشامي في شرقي الأردن في العهد العثماني"، الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٩٥. بلوم إدارة وإشراف تربوي، جامعة اليرموك، الأردن ١٩٩٧. دكتوراه في التاريخ الحديث "عنوان الأطروحة: العقبة دراسة اجتماعية واقتصادية ١٨٦٤ — ١٩٢٥"، جامعة الروح القدس — الكسليك — لبنان ٢٠٠٢. مدرس التاريخ الإسلامي والتاريخ الحديث في مدارس الأردن وسلطنة عمان. مدير مدرسة ضمن مدارس مشروع التطوير الحضري التربوي ١٩٩٧ — ٢٠٠٠. مشرف تربوي مختص في التاريخ والتربية الوطنية في مديرية التربية والتعليم / اربد. محاضر غير متفرغ في جامعة اربد الأهلية ٢٠٠٢/٢٠٠٣. أستاذ مساعد — جامعة جازان — المملكة العربية السعودية ٢٠٠٣-٢٠٠٨. محاضر في مراكز تعزيز الإنتاجية (إرادة) — وزارة التخطيط والتعاون الدولي. محاضر في جامعة جدارا / اربد — الأردن.

دورية إلكترونية. محكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

موارد إيالة الجزائر المالية في مطلع القرن التاسع عشر

فاطمة الزهراء سيدهم

أستاذ مساعدة "أ" مكلفة بالدروس— قسم العلوم الإنسانية

كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية

جامعة معسكر — الجزائر

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

فاطمة الزهراء سيدهم ، موارد إيالة الجزائر المالية في مطلع القرن التاسع عشر.-دورية كان التاريخية.-العدد الثالث عشر سبتمبر ٢٠١١.ص ٢١ — ٢٨.

(www.historicalkan.co.nr)

مقدمة

بنشوء إيالة جزائر الغرب عمل الحكام العثمانيون على تقوية الأسطول البحري ليجعلوا منه وسيلة دفاع عن المسلمين وثغورهم من هجمات النصارى الحاقدين على الديار الإسلامية ، ولما تغيرت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بالقارة العجوز ، وحدث تطور لم تواكبه الدول الإسلامية ، وبدأت مراكب رياس البحر تشهد تقهقرا في عمليات الغزو البحري الأمر الذي أثر على ميزانية الإيالة ، وفرض على الحكام إحصاء موارد الجزائر المالية لاستخلاص الضرائب منها والسماح للدولة بمزاولة نشاطها.

أصول الموارد المالية

المال لله الواحد القهار والناس مستخلفون فيه ، وهو وسيلة لقضاء الحاجة ، والملكية الخاصة ما هي إلا وظيفة اجتماعية يستعملها الفرد في الإنفاق في سبيل الله في أوجه الخير حتى لا تتجمع الثروة في أيدي أقلية من الناس. المال بمنظور الإسلام فيه حق للسائل والمحروم:[1] {وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} المعارج:٤ ٢-٢٥ .

وأهم ما يميّز النظام المالي في الإسلام هو وجود بيت المال الذي هو بمثابة خزينة الدولة والإدارة المالية في الوقت الحاضر، وأول من أنشأ بيت المال هو الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ،إذ كان الرسول ﷺ وأبو بكر الصديق من بعده يوزعان الموارد في حينها ، ولما تدفقت الأموال من كل جهة أيام الفاروق ، وكثر المستحقون لها ، وزاد عدد المجاهدين ، وتنوعت الموارد العينية ، أمر سيدنا عمر باتخاذ بيت المال ، وجعل لكل ولاية أمينا لبيت المال.

ولا شك أن جباية الضريبة من الأفراد فيها استيلاء على جزء من أموالهم ، وحرمان لهم من التمتع به ، وهذا الحرمان إنما رخّص فيه لأن الضرورة قضت به ، إذ لا يمكن القيام بالمصالح العامة بدونه. ومن القواعد المقررة أن الضرورة تُقدّر بقدرها ، فيجب ألا تتجاوز بالضرورة القدر الضروري ، وأن يراعى في وضعها وطرق تحصيلها مما يخفف من وقعها.

دين الجزائر في العهد العثماني الإسلام ، ومذهب حكومتها حنفي ، وأصول الموارد المالية هي ضرائب شرعية كالعشور ، والزكاة ، والخراج ، والجزية ، وضرائب محلية كالحكور ، واللزمة ، والغرامة ، والخطية ، وضيفة السلطان و غيرها ومنها ما هو مستحدث لضرورة ، أو غرض اجتماعي دون أن تتعارض عادة مع الشارع الحنيف. الضرائب في بلاد الإسلام واجب ديني لأن الأموال المتأتية منها تنفق في صالح المجتمع بصفة عامة.[2] وعند دراسة أ وجه النشاط الاقتصادية والحياة الاجتماعية للجزائر العثمانية يلاحظ الطابع الزراعي والرعوي المتمركز أساسًا في الأرياف وأطراف المدن ، في حين أن الحواضر تنفرد بالنشاط الحرفي الذي يهدف إلى تلبية الضروريات المنزلية وتصريف ما زاد عن الحد في الأسواق الأسبوعية ، ويقوم على الاكتفاء الذاتي في الأرياف. أما فيما يخص أشكال النشاط الزراعي والرعوي فإنها كانت موزعة على أربعة مجالات طبيعية ، تتمثل في: المرتفعات الجبلية ، والتلال ، والسهوب ، وأطراف الحواضر ، وتشكل في مجموعها وحدة اجتماعية واقتصادية تميز الريف الجزائري والامتدادات الريفية التابعة للحواضر. وكان الانتماء إلى الجماعة شرط ضروري لاستمرار الحياة الاجتماعية لتنوع هذه المناطق من حيث المساحة والملكية الجماعية

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

لتداخل عوامل اجتماعية ودينية قدؤثر على الفرد والجماعة ، وهذا ما يؤثر سلبًا على جباية الدولة لتفكك العقار.

أصبحت وضعية الأراضي الزراعية في العهد العثماني تتميز بظاهرة الصراع الخفي بين أسلوبين مختلفين من الإنتاج ونمطين من المعيشة ، يرتكز أحدهما على الارتباط بالأرض وحيازتها وخدمتها في كل الظروف ، والآخر يمتهن الرعي لظروف اجتماعية وسياسية مرت بها الأيالة. ويلاحظ الكتاب أنه لم يبق من المناطق الزراعية المحتفظة بطابعها الزراعي والمتمسكة بالتقاليد الفلاحية الموروثة عن الأجداد سوى فحوص المدن الكبرى ، وبلاد القبائل ، وشمال قسنطينة ، والتيطري ، وسهل متيجة ، وسهل غريس.

الضرائب المفروضة على الملكيات الزراعية

هذا الصنف من الموارد المالية للدولة في العهد العثماني يأتي أساسًا من الإنتاج الفلاحي للريف ، وتربية المواشي ، والمناجم ، والأبقار ، والإبل. وتتم معالجة ضرائب ورسوم هذا القطاع حسب وضعية الأراضي من حيث كونها ملكيات خاصة ، أو أملاك البايلك ، أو أراضي عرش ، أو مناطق مستعصية على نفوذ البايلك لصعوبة تضاريسها وبعدها عن المراكز الإدارية.

ويعتبر العشور من الضرائب الشرعية المباشرة التي تمس أراضي الملكية الخاصة التي تخضع لمراقبة إدارة البايلك.[٣] والتي لا تسقى بآلة ، لأن الأراضي المسقية يدفع صاحبها نصف العشور. إلا أن الإدارة تطبق في الغالب العرف المعمول به آنذاك والمعتمد أساسًا على التقديرات المعتمدة على مبدأ (الزويجة) أو (الجابدة) التي هي عبارة عن أرض زراعية يستخدم في حرثها حيوانان ، وتقدر مساحتها في المتوسط ما بين (٨) إلى (١٠) هكتارات. فبهذا الاعتبار تحدد كمية المحاصيل الزراعية المأخوذة كعشور على الأرض الزراعية لعدد الزويجات المحروثة دون اعتبار كمية الحصاد الحقيقية.[٤] وتكون التقديرات النهائية التي يُطالب بها المزارع هي التي يُقدّرها قائد العشور بالتفاهم مع خوجة المعونة وكاتب مخزن الزرع الذي يكون ملزمًا بتوفير المخازن في المدن والبوادي لإيداع كمية العشور. وترجع أهمية عائدات العشور إلى المساحات الشاسعة التي كانت تُجبى منها ، فثلث أراضي بايلك الشرق الزراعية كانت ملكيات خاصة تخضع لنظام الجباية. وكانت هذه الضرائب والعشور تعسفية وغير عادلة ، فهي لا تخضع لأي نظام قانوني ، وإنما تحدد كمياتها بقوة المحلة الفصلية وفعاليات فرسان المخزن.[٥]

وكانت التنظيمات الخاصة ببايلك الشرق التي أقامها صالح باي (١٧٧١-١٧٩١م) - وظل العمل بها حتى بعد مقتله - تعطي فكرة واضحة عن كيفية الحصول على مداخيل العشور ، وذلك لدقة نظام هذه التنظيمات وملائمة إجراءاتها لأوضاع المنطقة الشرقية من البلاد. فقد عمل صالح باي بعد توليته على استتباب الأمن وإقامة علاقات تجارية ، وشجع الصناعات والحرف كالدباغة والحياكة ، وعمل على بناء طواحين في مختلف أنحاء البايلك ، وقام بعدة تجارب في ميدان الفلاحة ، وشجع غرس أشجار الزيتون وباقي أنواع الأشجار المثمرة ، وفلاحة الأرز. كما استحدث شبكة من قنوات الري لإيصال المياه إلى المزروعات المسقية خاصةً بالحامة وسيبوس بنواحي عنابة ، ونقل جنود الزمالة إلى سهل عين مليلة على طريق باتنة وأسكنهم هناك ، وملّكهم أراضي خصبة في عين كرشة وبرج الفسقيا ، وأمرهم باستصلاحها وزراعتها وممارسة تربية الخيول لصالح إدارة البايلك.

وكانت من بين مهام جنود الزمالة في سهل عين مليلة مراقبة أعمال الحرث والحصاد ، وجمع المحصول ، واستغلال الشعير لعلف الحيوانات والقمح للمتاجرة به في الأسواق ، وتزويد جنود الزمالة بحاجاتهم الغذائية. وبذلك أصبح الشرق الجزائري المنطقة الأولى في الإنتاج الزراعي.

كما ملّك الأراضي في كل أرجاء البايلك وعمّ الخير كل العباد ، وكسب من الأموال والخيول والأبقار والإبل والقمح والشعير ما لا يحصى ، وبنى دولة رخاء مهابة الجانب بالشرق الجزائري. ومن جملة ذلك أصبحت البقرة السمينة تساوي (٨) فرنكات ، والفرد (١٢) فرنك ، والكبش السمين فرنكًا واحدًا ، والعود الأنيق لركوب الصبايحية يساوي (١٠٠) فرنك ، والصاع من القمح ٢ف ، والصاع من الشعير فرنك. كما فجر المياه بالصحراء وربط الينابيع ببعضها في شبكة من القنوات المجموعة بكيفية هندسية محكمة العمل لسقي البساتين والحقول من النخيل ، أو غيره من المغروسات والمزروعات موزعة على الفلاحين بدقة كل حسب مساحة أرضه.

كما حلّ صالح باي مشكلة الري ببسكرة الذي لم تتمكن منه القايدية المرتبطة بنبع عين الحامية. وقد استعان بإرشادات عبد الله بن سيدي عبد الواحد المتخصص في المجال ، والإمام خليفة بن سيدي حسن المقيم بزاوية سيدي ناجي. كما بنى الباي حصن برج الترك بشمال بسكرة برأس الماء لإيواء سرية مراقبة مكلفة للقيام بدوريات على طول مجرى الماء وفرض الطريقة المحكمة لتوزيع مياه الري على الفلاحين.

ونظرًا لأن الماء هو أساس الفلاحة وركيزة العمل الزراعي ، فكانت السواقي منتشرة في كل أنحاء البلاد في العهد العثماني ، وقد اكتشف مؤخرًا بفيلا "عبد اللطيف" بالجزائر العاصمة معلم تاريخي يتمثل في نظام للسقي يعود إلى القرن ١٧م. ويقول المهندس المعماري (زكار عبد المؤمن) صاحب مشروع ترميم الفيلا الذي اكتشف المعلم أثناء قيامه بالترميم في شهر جوان ٢٠٠٦م أن مياه الأمطار والينابيع كانت تتجمع داخل حوض أقيم لهذا الغرض بموقع "الرياض" وسط الفيلا ليتم بعد ذلك توزيع المياه عن طريق ممرات خاصة تصل إلى غاية حديقة التجارب بالحامة ، وفندق السوفيستال ، وهذا النظام شبيه بنظام "الفوقارة" في الجنوب الجزائري ، وهو من أدق ما يكون من حيث التقنية والحداثة لما توصل إليه الجزائريون في العهد العثماني من إيصال الماء إلى الحقول والبساتين لما يعود ذلك بالخير على الجميع.[٦]

وبهذه المواقف الجريئة والجهود الكبيرة لنهوض صالح باي بالقطاع يمكن القول بأن القطاع الزراعي كان مزدهرًا في عهده في كل مقاطعات البايلك ، حتى أنه كان يُصدّر لبعض الدول الأوربية بسبب الفائض والإنتاج الوفير ، حيث كان لميناء عنابة دور كبير في تصدير المحاصيل الزراعية وخاصة القمح.[٧] كما اهتم بالصناعة وشجع الحرفيين على اختلاف مهنهم وحرفهم ، وأصبحت قسنطينة في عهده تعج بالورش المختلفة والأسواق المزدهرة ، كما عمل على أن يكون مردود البايلك كبيرًا حيث أقام (٢٨) سوقًا ، و(٧) تربيعات يتجمع بها صناع النسيج ، و(٣) رحاب لعرض السلع حيث تباع فيها مختلف السلع والبضائع. وقد عرفت قسنطينة بعدة رحبات مثل رحبة الزرع التي تتوسط المدينة وتقام فيها عدة نشاطات تجارية كبيع الحبوب ، والتمور ، والزيوت. ورحبت الشيرليين ، وسوق الحرازين ، وسوق

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

العطارين ، ورحبة الجمال التي كانت مبركًا للقوافل التي تأتي من مختلف الجهات محملة بالبضائع والسلع. كما أقام (٥) أفران للخبز ، و(٢٧) مطحنة رحى لطحن الحبوب ، منها (٥) داخل عاصمة البايلك تعالج يوميًا (٤٨٤) تليسا من الدقيق.

كما ازدهرت في هذه الفترة صناعة الجلود والنحاس والحدادة والحلي والنسيج والحياكة والخشب والمجوهرات والأدوات الحديدية والنحاسية. وجعل صالح باي من قسنطينة المدينة الثانية بعد العاصمة من حيث النشاط التجاري ، وأصبحت قسنطينة ملتقى القوافل التجارية التي تجوب أنحاء الشرق الجزائري ، وتربط مقر البايلك بالجزائر العاصمة وتونس وقدامس. وكانت القافلة المتوجهة إلى تونس مرة في كل شهر تتألف من (١٥٠) إلى (٢٠٠) جمل كلها محملة بالمحاصيل الزراعية والسلع المصنوعة بالمنطقة. وأثناء ذلك عرفت الموانئ التي كان يتم تصدير الإنتاج عن طريقها مثل: عنابة ، والقالة ، وسطورة ، توسعًا ملحوظًا في حجم المبادلات التجارية. وجعل صالح باي في كل ميناء وكيلاً مكلفًا باستلام حقوق الديوانة التي تعود إلى الخزينة مباشرةً. كما أسس مرسى سكيكدة بجوار سطورة القديمة الذي خصصه لتصدير القمح للخارج. وكانت هذه الموانئ تزود الخزينة بمداخيل محترمة لسنوات عديدة لما كان الفرنسيون وشركة اليهود بالجزائر يصدرون كميات هامة من الحبوب إلى فرنسا وغيرها من الدول الأوربية. وبعدما تعمرت خزائن الباي طلب من المتعاملين التجاريين أن يجعلوا الضبلون فيه (١٠٠) ضبلون. كما شجع التجارة الداخلية والخارجية حيث كانت بعض القوافل التجارية تتجه نحو الجهات الإفريقية والمشرق العربي ، وأقام مركزًا تجاريًا كبيرًا.

ولكي تزدهر التجارة والصناعة والزراعة ويعم الرخاء ، فقد أقام نظامًا دقيقًا للضرائب يلاءم أوضاع البايلك ، وظل العمل به إلى أن سقطت البلاد في قبضة المستعمر الفرنسي. كما قسم بايلك الشرق إلى جهة شرقية ، وجهة غربية يفصلهما وادي الحمام ، ويخضع كل قطاع لقائد جبري يأخذ العشور من الجوابرية ، وهو تابع لقائد الدار. وكان قائد جبري يقوم بجولتين في قطاعه ، الأولى في الخريف والثانية بعد الحصاد لتقدير وتعيين ما يتوجب على كل فلاح من عشور وضرائب بحضور قائد القبيلة وشيخ الدوار والفلاح المعني بالأمر. وكان القياد يلتجئون إلى الاستعانة بالمحلات العسكرية حتى يسهل عليهم الحصول على مداخيل العشور المطلوبة ، ويُضفون على العملية هالة التبجيل والتعظيم لإدارة الباي ، وتخويف الرعية وإرهاب مَن يجرؤ على الممانعة.

الجدير بالذكر ؛ أن الأراضي الزراعية الشاسعة في العهد العثماني هي الملكيات الخاصة ، وملكيات الدولة ، والأراضي المشاعة ، والموقوفة.

الملكيات الخاصة:

هي الأراضي التي يستغلها أصحابها مباشرةً ولا يتوجب عليهم إزاء البايلك ، إلا فريضتا العشور والزكاة. كانت هذه الأراضي تتصف بعدم الاستقرار وبصغر المساحة نظرًا لخضوعها لأحكام الوراثة والبيع ، ولتعرضها في كثير من الأحيان إلى المصادرة من قبل الإدارة العثمانية. كما أن معظمها يقع في المناطق الجبلية الوعرة المكتظة بالسكان ، مثل الملكيات الواقعة بمدن جبال الأطلس التلي. وقد بلغت مساحة الأراضي بالقطاع القسنطيني (١١,٢٥٠هكتار) ، يُستغل منها (٩,٠٠٠ هكتار) في زراعة الحبوب ، و(٤,٠٠٠ هكتار) لإنتاج الفواكه والخضر.

وكان يأخذ منها البايلك (٢٠,٧٦٢) قيسة حبوب ، كما كان بايلك التيطري يجمع من زكاة الأراضي للخواص(١,٣٣٠) حمولة جمل سنويًا.[٨]

ملكيات البايلك:

هي الأراضي التي استحوذت عليها الإدارة عن طريق مصادرة الأراضي التي كانت تتبع للقبائل المعادية للعثمانيين وتم طردهم منها وإبعادهم إلى مناطق نائية بالجبال أو الصحراء ، أو أراضي شاغرة هاجرها أصحابها لجذبها أو خوفًا من بطش الحكام ، أو عند ترحيل السكان المقيمين عليها عند امتناعهم من دفع ما تقرره الدولة من ضرائب ، أو عصيان قبلي. وتوجد أخصب أراضي البايلك بمنطقة دار السلطان ومناطق قسنطينة ووهران وسهل غريس بمعسكر.

كانت أراضي البايلك بدار السلطان يتراوح عددها في كل حوش بين (٦٠) و (٨٠) زويجة .أما أراضي البايلك بالشرق الجزائري المعروفة بالعزل فكانت تقدر بـ (٦٠) ألف هكتار ، يستغل منها (٤٨) ألف هكتار في زراعة الحبوب ، و(١٢) ألف هكتار لإنتاج الخضر والفواكه ، وهي مقسمة إلى ٨ آلاف جابدة ،كل جابدة يستغل منها زراعيًا (٧,٥) ألف هكتار ، ويترك (١,٥) ألف هكتار لرعي الحيوانات. وقد وضع الفرنسيون يدهم عليها بمجرد احتلالهم للبلاد ، وقدروها سنة ١٨٦٧م بما لا يقل عن (١٤٦,٦٩٣ هكتار) ألحقت بأملاك الدومين.[٩] أما بنواحي وهران فقدرت ملكية البايلك بـ (١١,٢٥٠ هكتار) يقع أغلبها بمسرغين ، بوتليليس ، العامرية ، حمام بمحجر ، عين تموشنت ، مغنية ، غريس ، وغيرها. وكان الحكام يستغلون هذه الأراضي مباشرةً عن طريق الخماسة ، أو يفرضون على قبائل الرعية "التويزة" ، أو تعطى للمرابطين وشيخ القبائل والعشائر المتعاملين مع البايلك . كما يلجؤون إلى كرائها لسكان الدواوير ، ويعرف هذا الكراء بالحكور ، مقابل دفع (١٢) صاعًا من القمح ومثله من الشعير على الجابدة الواحدة ، أي نصف محصول الأرض أو أكثر بقليل ، وفي حالة الجفاف وقلة المردود فإن الفلاح يتحمل الخسارة لوحده.

الأراضي المشاعة:

يعود حق التصرف فيها إلى سكان القبيلة أو الدوار ، وتعرف بالنواحي الغربية بأراضي السبيقة ، وتعرف بالجهات الشرقية بأراضي العرش. وتفرض الدولة غرامة سنوية على مستغلي هذه الأراضي تدفع نقدًا ، أما المعونة واللزمة فتستخلص من الإنتاج وتضاف إليها بعض الضرائب الفصلية مثل: العوائد ، وضيفة الدنوش ، وحق البرنوس وغيرها من المعونات والضرائب التي تفنن العثمانيون في فرضها على الأهالي. وكانت قبائل الزيبان بالصحراء الشرقية يقدم نيابة عنها شيخ العرب معونات مختلفة تربو عن (٢١,٨٥٠ ريال) بوجو.

أراضي الوقف:

هي الأراضي التي حبسها أصحابها لـ لإنفاق على الأعمال الخيرية ، والمؤسسات الدينية ، وطلبة العلم ، وأوكل التصرف فيها لناظر الأوقاف على المذهبين الحنفي والمالكي. وقد قدرت الأراضي الصالحة للزراعة الخاضعة مباشرةً للبايلك ثلاثة أرباع الأراضي الصالحة للزراعة. وكانت هذه الأراضي غير خاضعة للضرائب ، ولكن الدولة تستفيد من دخلها للإنفاق على الطلبة والفقراء وترميم المساجد والزوايا.

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

أراضي الموات:

هي الأراضي التي تركت بدون استغلال لعدم استثمارها من قبل الأهالي بعد تحول الكثير من الأهالي من ممارسة الفلاحة إلى امتهان الرعي بسبب فداحة الضرائب وتنوعها ، وعدم ملائمة الظروف المناخية ، وكثرة الفتن والثورات في العهد الأخير من الوجود العثماني بالجزائر.[١٠]

محاولة التحكم في الإنتاج الزراعي

من أجل التحكم في الإنتاج الزراعي حاول الحكام الاستيلاء على الأراضي المنتجة للحبوب وتسخير الفلاحين لإنتاج كميات كبيرة من المحاصيل قصد تصديرها إلى الخارج عن طريق وكلاء البايلك وكبار التجار اليهود ، وبعض الشركات الأوربية. ونتيجة أسلوب الاحتكار ومحاولة خلق زراعة موجهة من قبل البايلك بعد أن تضاءلت موارد الجهاد البحري التي كانت عند استقرار العثمانيين بالجزائر قد تحولت إلى مؤسسة ، حيث نظمت طرق التوظيف والتمويل والعمليات الحربية ، وأصبحت الطريقة الجزائرية مثالاً يقتدى به.[١٢] فقد أنشأت الإدارة مطامير البايلك في مراكز الحاميات ، وأقيمت المطاحن بالقرب من المدن ، وخصصت ما بين (٨) و(١٠) مخازن بالقرب من الجزائر لحفظ الحنطة سعتها الإجمالية من (١٦٠) و(٢٠٠) ألف قيسة. وقد أدت هذه السياسة الاحتكارية إلى اضطراب في الإنتاج وانخفاض في أسعار المحاصيل الزراعية الأساسية كالحبوب التي يشتريها البايلك من الفلاحين بسعر (٨,٨٠ قرش) للصاع ويعيد بيعها للأجانب بـ (٢٦,٣٠ قرش) عام ١٨٠٨م ، وقد نتج عن هذه السياسة حدوث مجاعة وانتفاضات ، وتمرد أقطاب الصوفية ، وثورات الإنكشارية ، ومقتل الداي مصطفى باشا سنة ١٨٠٥م.[١١]

كانت علاقة باي قسنطينة ومناطقه التي تضم وادي سوف تدار بواسطة شيخ العرب الذي يشرف على عملية الضرائب ، وفي حالة العصيان يرسل البايلك حملات عسكرية تأديبية لأخذ الضرائب عنوة من الأهالي. وكانت وادي سوف تابعة صوريا لسلطان تقرت (إمارة بني جلاب) ، وعندما امتنعت بعض القرى عن دفع الضرائب أرسل سلطان تقرت حملتين كانت الأولى بقيادة الشيخ أحمد بن عمر محمد الجلابي. ونظرًا للصراعات الكثيرة من جهة بين عائلتي بني قنة وبوعكاز على منصب شيخ العرب ، ومن جهة أخرى بين أسرة بن قنة وبني جلاب على حكم تقرت ، فكانت قرى وادي سوف في تجاذب بين هذه الصفوف ، تؤازر طرفًا ضد الآخر بحسب الولاء الذي اختارته تلك القرى والمصالح التي تنتظرها قبائلها من التحالف.

وقد توالت الحملات إلى وادي سوف من قبل سلطان تقرت وبايلك الشرق الذي كلفه السلطان بجمع الضرائب. كما أن الباي أحمد المملوك أتى بنفسه سنة ١٨٢١م وجمع أموالا كثيرة. وبسبب بعد المنطقة عن دار الحكم في قسنطينة ، وعدم اهتمام السلطة بتطوير المنطقة بقيت وادي سوف على حالها لا تخضع فعليًا لأيّ حاكم إلا في فترات قصيرة عندما تجتاح المنطقة قوات قبائل المخزن لجمع الضرائب ، وهذا ما يؤثر على مداخيل البايلك ويرهق كاهل السكان من فرض ضرائب وغرامات جديدة بفعل العصيان والتمرد.

تجوب المحلة الأرياف لمدة طويلة قد تصل إلى ستة أو سبعة أشهر تستخلص الضرائب وتوقع العقاب على الممتنعين. وكانت محلة الشرق تنطلق من قسنطينة وتنقسم إلى فيلقين ، أحدهما يجوب الهضاب العليا والتل الجنوبي ، وأخرى تقصد مناطق التل الشمالية المتاخمة للساحل وتقوم بإحصاء الأراضي المزروعة ، كما تحصي عدد رؤوس الماشية والأبقار والإبل لتعود عند الحصاد في الخريف لجمع الغلال والحبوب والبهائم. وتنطلق محلة الغرب من معسكر أو وهران وتجوب نواحي غريس ووادي مينا وجهات السرسو. وقد تصل في بعض الأحيان إلى الجهات اليعقوبية بالهضاب العليا الغربية. ومن هذه الحملات حملة محمد بن عثمان الكبير سنة ١٧٨٥م بنواحي الأغواط لتوسيع نفوذ البايلك وإخضاع المناطق النائية.[١٢]

أما نظام الجباية في هذا العهد ، فلم يكن يطبق نظام العشور كما ينص عليه علماء الفقه ، بل كان الحكام يعتمدون على العرف المتداول والمتمثل في تطبيق مبدأ الزويجة ، وعلى هذا الأساس تحدد مسبقًا كمية ونوعية المحاصيل التي تفرض عليها الزكاة ، وهي حملا جمل (تليسين) أحدهما من القمح ، والآخر من الشعير. والتقديرات النهائية هي من اختصاص قائد العشور(قائد جبري) وخوجة المعونة الذي عليه أن يوفر المخازن لإيداع كميات العشور. وهذه التقديرات لا يراعى فيها كميات التساقط والجفاف والعوامل الطبيعية الأخرى المؤثرة في الإنتاج من قبل القائد إلا قليلاً. وتعود أهمية عائدات العشور والزكاة إلى المساحة الشاسعة المزروعة على المستوى الوطني ، فثلث أراضي بايلك الشرق الزراعية كانت تخضع للعشور.

نظام الخماسة:

هو أسلوب تلجأ إليه الدولة من تمكين الفلاح من العمل في الأرض لفائدتها مقابل خمس الإنتاج ، بعدما توفر له وسائل الحرث والبذور اللزمة. وقد عم هذا الأسلوب لعدم تملك الفلاح للأرض. ويوفر هذا الأسلوب من العمل في أرض البايلك والاشتغال بمهن أخرى مدة ثلاثة أرباع السنة مبلغًا محترمًا يسمح للشخص بعيال أهله. وفضلاً عن نظام الخماسة فكثيرًا ما كانت الدولة تلجأ إلى تسخير الفلاحين في أعمال السخرة التطوعية (التويزة) ، وترغم قبائل الرعية الخاضعة لخوجة الخيل ، أو البايات على العمل لصالح الدولة بعدة جابدات.

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

كراء الأراضي الزراعية:

يتم كراء الأراضي الزراعية مقابل منافع عينية تسلم للجباة آخر السنة الزراعية دون اعتبار للخسائر التي تتعرض لها المزروعات، وتكون على حساب المزارع، فتأخذ الدولة (١٢) صاع من القمح ومثله من الشعير على الجابدة، أي ما يعادل (٢٥) فرنك للجابدة.[١٣]

حكور الترضيات:

تسلم أراضي البايلك للفلاحين مقابل خدمات وأعمال، أو تقدم أموال ومكافآت لبعض المرابطين والموظفين مثل قبائل عبد النور والتلاغمة وسلاوة وأولاد كباب. وقد التجأت الدولة إلى هذا الأسلوب لاستمالة المرابطين وعدم تمكن الإدارة من فرض السلطة المباشرة عسكريًا على بعض مناطق الجبال النائية والصحراء، وتستفيد الدولة بتكليف بعض القبائل بتغذية وتربية قطعان البايلك مقابل الحصول على الأرض والإعفاء من الضرائب باستثناء العشور.

الضرائب المفروضة على أراضي العرش

الغرامة:

تفرض على أراضي المناطق الخارجة عن سلطة البايلك، بالهضاب العليا والمناطق الجبلية والصحراء وبلاد القبائل الكبرى ومناطق أخرى من البلاد، عوضًا عن العشور الشرعية. وتؤخذ الغرامة إما نقدًا، أو عينا في شكل مواشي ومواد زراعية من إنتاج أهل البلد. والغرامة المفروضة على الأهالي لا تستند إلى إحصاء أو سند قانوني، لأن القائد يقوم بتوزيع الغرامة على كل دوار حسب عدد الخيام والبيوت. وتعتمد الإدارة في جمع الضرائب على المحلات العسكرية التي توجه إلى مناطق محددة، أو تكتفي بمراقبة الأسواق والمناطق الحيوية التي يتردد عليها سكان المناطق الخارجة عن حكمهم لاستبدال منتوجاتهم المحلية بما يحتاجون إليه من مؤونة ومواد غذائية. وكان الأهالي يدفعون حق المرور لقوافلهم دورو إسباني واحد على كل حمل، وعلى كل قطيع يدفعون خروفًا واحدًا.

المعونة:

وتستند شرعًا على مبدأ المحافظة على قوة الجماعة الإسلامية لتموين الجند بما يلزمهم من سلاح ودواب، فهي بمثابة الخراج باعتبارها ضريبة قبائل الرعية. وهي رسوم عينية أو نقدية تتراوح كميتها حسب المناسبات ويتقاضاها القياد كلما دعت الضرورة بتكليف شيوخ الدواوير بجمعها.

معونة بلاد القبائل:

وهي تتكون من كميات من التين المجفف وكميات من الحبوب، وعدد من رؤوس الأغنام والماعز والأموال تساهم بها قبيلة فليسة بـ ٥٠٠ ريال بوجو، وقبائل قيادة بوغني بـ ١٢٥ ريال،[١٥] والقبائل المتعاملة مع قائد برج سباو التي توفر للبايلك ما قيمته (٨,٨٥٠) بوجو، جزء منها يدفع نقدًا والباقي زيت زيتون وتين مجفف. وقد قدر آخر وكيل تركي ببرج سباو ما تقدمه منطقته للبايلك بـ (٢,٠٠٠) صاع شعير، و(١,٠٠٠) صاع قمح، و(١٠٠) حمولة زيت زيتون، و(١٠٠) حمولة تين، و(٦٤) كبشًا سمينًا و(١٠٠) خروف.[١٥]

ضيفة الباي:

وهي أموال لشراء حاجيات الباشا، وهي تقدم كل ستة شهور، ويساهم فيها الأهالي[١٦]، مما يوفر لخزينة بايلك التيطري وحده (٢٤٨,٠٠٠) بوجو سنويًا.

البشارة:

وتقدم للبايلك بمناسبة تولي الباي أو تثبيته من جديد في منصبه، أو بإحدى المناسبات السعيدة، وهي توفر للبايلك بقسنطينة (٢٠,٠٠٠) بوجو.

خيل الرعية:

وتلتزم بها قبائل الرعية بالناحية الغربية خصوصًا، وهي عبارة عن مساهمة الأهالي في اقتناء عدد من الخيول لركوب الفرسان ونقل الأمتعة لتعويض ما يموت من خيول المخزن.

الدنوش:

في كل ثلاث سنوات يتوجه البايات الثلاث وجوبًا إلى الجزائر للمساهمة بكميات معتبرة من الأموال والثروات، منها ما يذهب إلى الخزينة، ومنها ما يحظى بهم موظفو الأيالة في شكل هدايا وترضيات نقدية وعينية، وتسلم في مواعيد محددة وحسب طرق متعارف عليها. كما يأتي خلفاء البايات إلى العاصمة كل ستة أشهر[١٧] في فصلي الربيع والخريف، ويطلق عليها لفظ العوائد أو الدنوش الصغرى. وهي بمثابة عشور يقدمها البايات والقياد عن رعاياهم.[١٨] ويعتبر الدنوش وسيلة تفتيش ومراقبة الباشا للبايات الثلاث وقائد سباو، الذين قد يرضى عنهم ويثيتهم في مناصبهم، أو يأمر بعزلهم، أو قتلهم إن دخله شك أو ريب في معاملتهم. وتتفاوت عائدات الدنوش من بايلك لآخر، ومن سنة لأخرى، فقد بلغ مجموع ما دخل خزينة الداي سنة ١٨٩٠م (٦,٦١٣,٠٠٠) قرش مع هدايا قدرت بـ (٧٥٠,٩٠٠) قرش للداي وحاشيته. كما قدرت قيمة دنوش باي الشرق سنة ١٨٢٢م بـ (٢٩٤,١٥٠) فرنك، ودنوش باي الغرب بـ (٣٠٢,٤٨٢) فرنك.[١٩] وقد أحصى شالير قنصل أمريكا محصولات بيت المال سنة ١٨٢٢م بـ (٢٦٨) ألف دولار ضرائب على البايات، ومبلغ (١٩٢,٨٠٠) دولار جزية الدول الأوربية.

عائدات بيت المال

التنظيم المالي مهم في تنظيم وإرشاد مصاريف الدولة، وقد أفرد لصندوقها الملحق بخزينة الداي ثلاث سجلات رئيسية يحتفظ بها كل من السايجي والعادل والخوجة. وهي تساهم بقسط وافر في المصاريف الكثيرة للدولة، وتعود مداخيلها إلى عدة مصادر أهمها:

الأملاك العقارية: التي تعود مباشرة للبايلك، وهي توفر قسمًا كبيرًا من ثروات بيت المال حيث تقدر إحصاءات مدينة الجزائر بـ (٥,٠٠٠) بناية، وتدر على الميزانية (٤٠) مليون فرنك سنويًا.

التركات والودائع: وقد تأسست في الأيالة هيأة يسمى رئيسها التركي بيت المالجي يساعده قاض وموثقان وكاتبًا ضبط ومسجلون. وتتولى هذه الهيأة مراقبة تركات جميع الأشخاص الذين يتوفون، وبعد تنفيذ الوصية تباع التركة بالمزاد العلني ويحتفظ بالقيمة كوديعة، ويودع المبلغ في صندوق عمومي، وتستعمل تلك

دورية إلكترونية، محكمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الأموال في دفن الفقراء والأجانب ، وفي مساعدة المعوزين ، ودفع أجور المعلمين العموميين ، وبمجرد ما تجمع خمسون ألف فرنك في هذا الصندوق تحول إلى الخزينة العامة نظرًا لمصاريف الدولة المرتفعة. سنة ١٨١٧م زمن الطاعون الذي لم يختف إلا سنة ١٨٢٢م وقضى على حوالي سدس سكان البلاد ، كان لإدارة بيت المال نشاط ملحوظ حيث قامت بإحصاء ودفن الموتى وعدّ التركات للمتوفين.[٢٠]

الأوقاف

هناك مورد آخر يزيد في رصيد بيت المال يتمثل في عائدات الأحباس والأوقاف. والحكمة من الأوقاف المختصة بالمساجد هي جعل الدين حرًا ومستقلاً غير تابع لأية وصاية حكومية.[٢١] ويتطلب هذا العمل عناية تامة بما يدره من أموال وثمار وغلال. وتقوم الهيئة الشرعية بالإشراف وضبط وتسيير الأوقاف. والوقف أنواع كثيرة منها: المساجد والجوامع والكتاتيب والزوايا التي تختص للعبادة وتحفيظ القرآن الكريم وتدريس بعض العلوم الدينية والحساب وغيره. كما يستعمل الوقف في العناية بدور العبادة والعناية بالطلبة ، وكذلك سبل الخيرات الذي أسس بالجزائر سنة ٩٩٩هـ/١٥٩٠م من قبل شعبان خوجة ، وهو من قبيل المشاريع الخيرية العامة كإصلاح الطرقات وإجراء قنوات الري ، وإعانة المنكوبين وذوي العاهات وتشييد المساجد والمعاهد العلمية ، وشراء الكتب للطلبة. ويدير هذا المشروع منظمة متكونة من (١١) عضوًا منهم (٨) مستشار ووكيل وخوجة وشاوش ، وينتخبون من أهل العلم عادةً. وقد بلغ دخل هذا المشروع سنة ١٨٣٠م (١٥٠,٠٠٠) فرنك حسب التقرير الذي رفع إلى قائد الحملة الاستعمارية.[٢٢] وبعد استسلام الداي وسقوط العاصمة بشهرين أصدر (دوبورمون) مرسومًا يوم (٨) سبتمبر ١٨٣٠م يقضي بمصادرة الأوقاف الإسلامية والاستيلاء عليها. وفي اليوم الموالي أصدر قرارًا ثانيًا يعطي لنفسه حق التصرف في الأملاك الدينية بالتأجير والكراء ، على أن الحكومة الفرنسية هي التي حلت محل الحكومة الجزائرية في إدارة الأوقاف وأنها المسئولة عنها وعن توزيع ريعها على المستحقين ، لكن الفرنسيين صرفوا تلك الأموال في غير محلها حتى أن كاردينال الجزائر ناله من تلك الأموال (٣٠) ألف فرنك سنويًا.

الأسواق التجارية

تعد الأسواق التجارية مصدرًا مهمًا من مصادر ميزانية الدولة المركزية ومراكز حاميات بايلكات الأيالة لما تدره من أموال وسلع على الدولة. وهناك عاملان شجعا التجارة في الأيالة أولهما تشجيع الحكومة لإقامة السواق لفرض نفوذها على سكان الأرياف ، وثانيهما مرور القوافل عبر الأراضي الجزائرية نحو المشرق العربي وبلاد السودان وإفريقيا. وقد أقام الأوجاق مراكز عسكرية في مناطق متعددة من الوطن ، وعند مفترق الطرق ، ومراكز تجمع سكان قبائل المخزن الموالية للسلطة ، وعند بعض الوهاد لمراقبة القوافل العابرة للصحراء والهضاب نحو التل. وكانت الطرق التجارية المتعددة توصل القوافل المحملة بكل أنواع المحاصيل الزراعية والحيوانات والسلع المختلفة إلى الأسواق التجارية التي اشتهرت بحسب الفصول التي تمر بها بفعل تأثير المناخ على العباد والحيوانات. ومن هذه الأسواق سوق قورارة ، وتوات ، وعين صالح ، والبيض ، وبسكرة ، وقسنطينة ، وتلمسان ووهران وغيرها من الأسواق الموسمية والأسبوعية التي تخضع لمراقبة جباة الضرائب.

وكانت القوافل التجارية تواجه تعدّد ضرائب المرور والزيادة فيها باستمرار ، خاصةً بعد أن ظهرت المزاحمة الإنجليزية التي عملت على تحويل التجارة من طرابلس إلى مياه المحيط الأطلسي غربًا عبر أراضي نيجيريا إلى كانو.[٢٣] كانت تجارة القوافل مربحة رغم الأتعاب واعتداءات اللصوص وقطاع الطريق والمشاق التي يتكبدها التجار. وكان التجار يدفعون ضرائب النقل في الذهاب والإياب حسب كيفيات مختلفة ، منها ما يدفعه التاجر من غدامس إلى غات من (١٢) إلى (١٥) قرش تركي للحمولة أي (١١,٢٥) فرنك. ومن توات إلى تمبوكتو ما بين (١٢) و (٢٤) مثقال ذهب للحمولة ، أو (٤٥) محبوب لحمولة (٧٠) قطعة قماش مالطية تزن ثلاثة قناطير وهو ما يعادل (١٩٠) فرنك ويتم الدفع من توات إلى تمبوكتو حيث يدفع التجار(٥) محبوبات لتوارق الهقار ، و(١٠٠) محبوبا لعرب البرابش.[٢٤]

تعيّن الإدارة على كل سوق قائد يُنَصّبُ لاستخلاص رسوم المكوس وتنظيم جبايتها ، وتقدر هذه الرسوم بـ ١٠% من ثمن البضاعة الداخلة للسوق ، فقنطار الكتان رسمه (٢٥) درهم ، وحمل التمر (٥٠) درهم ، وكذلك يدفع عن حمل الزيتون. أما قنطار الأرز فيدفع عنه (٢٠) درهم[٢٥]. وتعتبر إجراءات رسوم الأسواق وسيلة هامة لاستخلاص الضرائب من المناطق المستعصية على نفوذ البايلك. وقد التجأ الحكام إلى هذه الوسيلة لتشديد المراقبة على الأقاليم النائية ، وهي عامل أساسي في إشعار الأهالي بوجود سلطة مركزية ذات تأثير قوي في الحياة الاقتصادية. وبزيادة الضرائب في القرن ١٨م بعدما انكمشت موارد القرصنة جعلت القبيلة تبحث لها عن قوة جديدة تحميها وتلتف حولها ، فوجدت هذه القوة في الطرق الصوفية التي يتألف أتباعها من عشرات القبائل.[٢٦] وكان هذا التعسف في جمع الضرائب من العوامل التي زادت من فقر الفلاح وسوء أحواله المعيشية. وقد اشتكى إبن الشريف الدرقاوي إلى مبعوث سلطان المغرب ما نال الفقراء والمنتسبين وسائر الرعية من تعسف الترك وجورهم.[٢٧]

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

أما حقوق الجمارك التي يتقاضاها لصالح الدولة قائد المرسى وبعض الموظفين الآخرين ، فهي متنوعة منها حقّ التوقف بالموانئ المقدرة ب ٢٠ قرش على السفينة المنتمية للأيالة والدولة العثمانية ، و ٤٠ قرش على سفن الدول المسيحية الصديقة ، و ٨٠ قرش على سفن الدول التي لا تربطها بالجزائر معاهدات ، وتقدر الضريبة المفروضة على السلع والبضائع المقدرة بـ ١٢,٥% على الواردات ، و٢% على الصادرات.

غنائم الجهاد البحري

لم يكن الجهاد البحري منذ نشأته في حوض البحر الأبيض المتوسط يهدف إلى الاعتداء والنهب ، لكنه كان ردّ فعل قام به المسلمون ضدّ القراصنة المسيحيين الذين كانوا قراصنة حقيقيين يقومون بنهب الشواطئ الإسلامية تحت ستار الاستمرار في خدمة الصليب ،[٢٨] وكان هدف الجزائريين الجهاد والدفاع عن وطنهم الذين هم أسياده.[٢٩] وأما العمليات الحربية فكانت موجهة ضد أساطيل الدول التي تعتدي عليهم وتستولي على سفنهم ، ولم تكن الغاية من الهجمات على السفن الأجنبية الحصول على الغنائم فقط ، بل الدفاع عن الذات كذلك[٣٠] وكانت " القرصنة " سلاحًا لجأ إليه المسلمون وغيرهم ، فكما كانت السفن الإسلامية تعتدي على سفن الدول الأوربية كانت سلاحًا شهّره الأوربيون بعضهم على بعض.[٣١]

اختلف الكتاب على اختلاف انتماءاتهم حول تسمية الجهاد البحري ودوره في البحار ، وهل هو أداة عرقلة التجارة البحرية ، أم هو وسيلة للدفاع عن حدود الدولة الإسلامية وصدّ هجمات جحافل النصارى المعتدين على الثغور الإسلامية. وعلى كل الأحوال فدور الجهاد البحري في الحياة الاقتصادية مرتبط عضويًا بالتجارة ، إذ لا سبيل لوجود "قرصنة" بدون أن تكون هناك غنائم تجارية يقع الاستيلاء عليها ثم العمل على تسويق بضاعتها.وكان الغزو البحري يوفر للقطاع التجاري بضائع مختلفة وعبيد وأسرى تدرّ على الأيالة مبالغ مالية طائلة بسبب ما تفرضه الدولة من رسوم على الواردات والصادرات. وكانت عمليات افتداء الأسرى والعبيد من العمليات الرابحة للدولة والأسياد ، إذ أنها كانت فرصة لتحويل الأموال من منطقة لأخرى. وقد استغلها التجار الأوربيون واليهود الذين انغمسوا فيها بكل قوة في معاملاتهم التجارية.

ويمكن القول أن الغزو البحري كان ردّ فعل اقتصادي وعسكري بتحول الطرق التجارية الكبرى من البحر الأبيض المتوسط وتهميش دول المغرب في الدورة الاقتصادية والتجارية بين شرق وغرب المتوسط والبحر الأحمر. وبعدما كانت غنائم البحر تملأ خزائن الدولة لما تذره من سلع ومراكب ورقيق ، أصبحت في القرن١٨م قليلة الدخل بسبب ازدياد قوة الدول الغربية وفتور قوة البحرية الوطنية وخاصةً بعد حملة اللورد اكسموث سنة ١٨١٦م على الجزائر التي نتج عنها إطلاق سراح جميع الأسرى بدون مقابل ، كما أدى تدمير السفن الجزائرية في معركة نافارين وفرض الحصار البحري الفرنسي على السواحل الجزائرية سنة ١٨٢٧م أدى إلى تدهور أرباح الغزو البحري ثم انخفاض نشاطها.

الصادرات

تحتل الجمارك موقعًا هامًا في عملية مراقبة الحركة التجارية والمداخيل المتأتية عنها ، ويعطيها الحكام قيمة فائقة ويعينون موظفًا مرموقًا للإشراف على الجباية لكونها المصدر الهام لعائدات الأيالة المستخدمة في دفع رواتب الحكام والإنكشارية. كانت كل موانئ البلاد مهيأة لاستقبال السفن التجارية ، حيث يقوم القائد وأعوانه بمراقبة كل عمليات التفريغ والشحن وذلك قصد استخلاص رسوم الجمارك.

لكون الصناعة الجزائرية كانت ضعيفة ولم تكن ترقى إلى مستوى الصناعة الجيدة التي تجد لها مكانا في الأسواق العالمية ، فقد اكتفى التجار بتصدير القليل من البضائع ، منها الصوف المقدر بـ (٢٥) ألف فروة حيوان المقدر ثمنها بنحو (١٠٠) ألف ليرة. وفي سنة ١٧٨٨م صدر للخارج عبر ميناء عنابة وأرزيو ودلس (١٥٠) ألف حمولة من مختلف أنواع الحبوب والخضر والفواكه.[٣٢] وفي سنة ١٧٩٣م تم شحن ١٠٠ سفينة من ميناء وهران قدرت حمولتها بـ٧٥ ألف قنطار من القمح ، و(٦) آلاف قنطار من الشعير.[٣٣] كما تم تصدير خمس مراكب محملة بالجلد ، ومثلها من الصوف والشمع ما يقدر بـ (٤٠٣ ق) ، وحمولة أخرى من الزيت. وقد بلغت المراكب المتوجهة إلى أوربا نحو (١٥) مركب سنة ١٧٨٩م. وفي سنة ١٨١٤م تم تصدير (٤٠٠) ألف رأسًا من البقر إلى الجيش البريطاني في جبل طارق.[٣٤] وبلغ ثمن الصادرات سنة ١٨٢٢م (٢٧٣,٠٠٠) دولار إسباني ، منها (٨٠٠) ألف فرنك في مقابل الصوف المصدر إلى مرسيليا وليفورن وجنوة.

الهدايا

تمثل الهدايا التي ترسلها الجزائر إلى الأستانة إحدى مظاهر ارتباط الأيالة بالدولة العلية ، ولهذا أحدثت في غالب الأحيان طابعًا دبلوماسيًا في تجديد وإحياء الصلات العريقة بين الوجاق ودار الخلافة روحيًا وحضاريًا رغم كون أهميتها ترجع إلى روابط اقتصادية تُرضي الأستانة وتمكّن الجزائر من الحصول على فوائد عديدة ، منها تسهيل الحصول على قفطان تولية الداي ، وتعزيز جهاز الأيالة الحربي والاقتصادي بما تمدها به من أسلحة وسفن ومتطوعين وترضيات. وكانت هدايا السلطان ذات أهمية وأثر حربي على الجهاز الدفاعي للأوجاق. وقد تسلم سليم آغا سنة ١٧٨٥م هدية من السلطان تشمل على ٤٥٠ قنطار من البارود ، و ٣٠٠ قنطار من الرجينة ، و ٢٠٠بندقية ، و١٧ عود مثلث لصواري المؤخرة ، و ٥٠ مجداف ، و ٥٠ قنطار من النحاس ، و ٢٠ ألف قنبلة ، و ١٠مدافع.[٣٥] وفي سنة ١٨١٩م تسلم الداي حسين من السلطان العثماني كربيط ومدافع مع جميع الآلات الحربية.[٣٦]

أما الهدايا والمنح التي كان يقدمها القناصل الأوربيون عندما يُحضون بقبول التمثيل بالجزائر ، أو أثناء إبرام المعاهدات ، أو تحرير الأسرى الأوربيين فقد تعدّدت وتنوعت ، وكانت مصدرًا مهما لتدعيم رصيد الخزينة العمومية ، ونسوق على سبيل المثال ما كانت تدفعه الولايات المتحدة الأمريكية وذلك بعدما وقعت إحدى عشر سفينة أمريكية سنة ١٧٩٣م في قبضة رياس البحر وعلى متنها ٢١٧ أمريكيًا ، وتقدمت حكومة الرئيس جورج واشنطن بطلب عقد معاهدة سلم مع الجزائر مقابل تعهدها بدفع ١,٥ مليون ، واعتمد الرئيس الأمريكي ٤٠,٠٠٠ دولار لفدية الأسرى ، ودفع ٧٢٥ دولار كجزية سنوية إلى الجزائر ومن بينها معدات حربية ، وظلت هذه الضريبة تدفع إلى الجزائر إلى غاية سنة ١٨١٠م.

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

خاتمة

إن الوضعية المزرية الاقتصادية التي عاشتها الجزائر في أواخر العهد العثماني لم تنتج من عدم ، وسببها الرئيسي هو عدم وجود سياسة اقتصادية واضحة لدى الوجاق ، وتشبث البايات بنظام اقتصادي عقيم انعكست نتائجه على الأوضاع العامة في البلاد ، وأصبحت الحركة الاقتصادية شبه مشلولة بسبب احتكار الدولة وشركة اليهود والأوربيين للتجارة الخارجية ، وفرض ضرائب عالية على البضائع المستوردة ، الأمر الذي دفع كثيرًا من القوافل التي كانت تأتي من إفريقيا جنوب الصحراء لا تدخل أسواق مغنية وتلمسان ووهران ، وتحول طريقها وتدخل البلاد المغربية حيث المرونة في التعامل التجاري وفرض المكوس والضرائب. كما كانت الضرائب المسلطة على كاهل الأهالي ضربة قاسية ، وعقاب شلّ كل حركة تجارية ، وزاد من هموم الأهالي.(٣٧)

الهوامش

(١) سورة المعارج-آية ٢٤-٢٥.
(٢) خوج حمدان —المرآة-تقديم وتعريب وتحقيق: الزبيري محمد العربي. ش-و-ن-ت. الجزائر ١٩٨٢-ص: ١٤٤.
(٣) سعيدوني ناصر الدين-النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية ١٨٠٠-١٨٣٠ . الجزائر ١٩٧٩-ص: ٨٨.
(٤) خوجة حمدان —نفسه-ص: ١٢٥-١٢٧.
(٥) سعيدوني ناصر الدين-العوامل المتحكمة في النشاط الاقتصادي والاجتماعي-الجزائر في العهد العثماني-م-و-ك. الجزائر ج ٤.ص:٣٢.
(٦) الشيرازي كامل-جريدة إيلاف الالكترونية-العدد:٣٠٠٣-الثلاثاء ١١-٨-٢٠٠٩-وكذلك جريدة الفجر الجزائرية ليوم:١٣-٤-٢٠٠٨.
(٧) المدني توفيق-مذكرات الشريف أحمد الزهار نقيب أشراف الجزائر-طبعة ١٩٨٤-ص:٤٥.
(٨) سعيدوني ناصر الدين —النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية —نفسه —ص: ٥١.
(٩) سعيدوني ناصر الدين-نفسه-ص: ٥٢.
(١٠) عباد صالح-الجزائر خلال الحكم التركي ١٥١٤-١٨٣٠-الجزائر ٢٠٠٥-ص: ٢٠٢.
(١١) عباج صالح-نفسه —ص: ٢٠١-٢٠٢.
(١٢) سعيدوني ناصر الدين-نفسه —ص: ٣٧.
(١٣) سعيدوني ناصر الدين —نفسه-ص: ٩٣.
(14) ROBIN notes sur l'organisation militaire et administrative des Turcs dans la grande kabylie/r.a. n 17-1873 /p :200.
(١٥) سعيدوني ناصر الدين-نفسه —ص .٩٨.
(١٦) قداش محفوظ —المصادر المالية للبايلك-الجزائر ٢٠٠٣-ص: ١٥٤.
(١٧) عباد صالح-نفسه —ص ٢٣٢.
(١٨) المدني أحمد توفيق —نفسه —ص: ١٤٢-١٤٣.
(١٩) خوجة حمدان —نفسه —ص ك ١٠٢.
(٢٠) خوجة حمدان —نفسه-ص:١٣٤.
(٢١) الجيلالي عبد الرحمن- تاريخ الجزائر العام ج٣-ديوان المطبوعات الجامعية-الجزائر-١٩٩٤-ص: ٤٢٣.
(٢٢) الجيلالي عبد الرحمن —نفسه ص: ٤٢٣.
(٢٣) بوعزيز يحيى —مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية-د.م.ج-الجزائر-١٩٩٩-ص: ١١٥.
(24) STUCKLI henri — le commerce de la France avec le soudan- paris-challamall-1864-p :18 .
(٢٥) مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية رقم ١٣٧٨. ص: ٦٨.
(٢٦) العيد مسعود — المرابطون والطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني- مجلة سيرتا- السنة السادسة- العدد١٠-أبريل ١٩٨٨-ص: ٣٠.
(٢٧) الناصري أحمد السلاوي —الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى —دار الكتاب ج ٨ —ص : ١٠.
(٢٨) الميلي مبارك
(٢٩) بوحوش عمار-
(٣٠) جلال يحيى-
(٣١) الجيلالي عبد الرحمن —تاريخ الجزائر العام ج ٤ —١٩٩٤ —ص : ٣٥
(٣٢) الجيلالي عبد الرحمن-نفسه —ص:٤٩٨
(33) RINN louis —le royaume d'alger sous le dernier bey / r.a/1897-1899-pp :41-43.
(٣٤) الجيلالي عبد الرحمن-نفسه —ص:٤٩٨.
(٣٥) سعيدوني ناصر الدين-نفسه-ص: ١٥١-١٥٩,
(٣٦) المدني أحمد توفيق-نفسه —ص:١٤٤,
(٣٧) هلال عمار- أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة ١٨٣٠-١٩٦٢.ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر-١٩٧٥-ص: ٣٤.

الأستاذة فاطمة الزهراء في سطور:

شهادة البكالوريا : سنة ١٩٨٩م من وهران . شهادة الليسانس : جوان ١٩٩٦م من جامعة وهران. شهادة ماجستير تاريخ حديث ومعاصر ، أطروحة بعنوان: "العلاقات الدولية في حوض البحر الأبيض المتوسط ما بين القرنين ١٨ و ٢٠." تحت إشراف الأستاذ الدكتور : بلقاسمي بوعلام ، من جامعة وهران سنة ٢٠٠٦م. مسجلة سنة خامسة دكتوراه أطروحة بعنوان: "علاقة دايات الجزائر بالدولة العلية ومحمد علي باشا مصر ما بين ١٧٩٢- ١٨٣٠م" تحت إشراف الأستاذ الدكتور : مجاود محمد . رئيس قسم التاريخ بجامعة الجيلالي اليابس بسيدي بلعباس . الجزائر. عضوه في مخبر تاريخ الجزائر ، تاريخ ومجتمع في الحديث المعاصر بجامعة الجيلالي اليابس بسيدي بلعباس.

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الإسكندرية عند ابن جبير

د.فاتن محمد الشيخ
أستاذ مشارك – قسم السياحة
المعهد العالي السياحة والفنادق
"السيوف" الإسكندرية- جمهورية مصر العربية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
فاتن محمد الشيخ ، الإسكندرية عند ابن جبير.-دورية كان التاريخية.- العدد الثالث عشر ؛ سبتمبر ٢٠١١.
ص ٢٩ – ٣٥. (www.historicalkan.co.nr)

مقدمة

عرف المسلمون في العصر الإسلامي الأسفار والرحلات ، والتي تعرف في عصرنا الحديث بالسياحة والسفر. هذا وإن تعددت الأغراض من السفر والرحلات قديما[١] وإن اختلفت المسميات ، فلقد اشتهر منها ما يعرف في الوقت الحاضر بالسياحة الدينية ، وهي من أهم مقومات صناعة السياحة ، وعلى أساسها يتوجه العديد من السياح بغرض الرحلات الدينية ، وفي مقدمتها التوجه إلى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج[٢] ، ولزيارة مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة ، كذلك يتوجه المسيحيون إلى الأماكن المقدسة ، وغيرها من الكنائس الشهيرة والأديرة المعروفة.

وكانت رحلة ابن جبير من بلاده بالأندلس "أسبانيا" وبالتحديد[٣] وبالتحديد من غرناطة ، بغرض الحج ، وقد توجه للحج ثلاث مرات ، الأولى سنة ٥٧٨هـ \١١٨٢م وعاد منها سنة ٥٨١ هـ \ ١١٨٥م لتستغرق رحلته ثلاث سنوات. أما الثانية فكانت عند استرداد بيت المقدس من يد الصليبيين على يد صلاح الدين الأيوبي في موقعة حطين الشهيرة ، فقرر ابن جبير القيام برحلته الثانية للحج في سنة ٥٨٧ هـ\١١٩١م إي بعد أن مكث في بلاده ست سنوات. أما رحلته الثالثة فكانت بعد موت زوجته "عاتكة"[٤] وعن ذلك يذكر ابن الخطيب: ثم رحل الثالثة بعد موت زوجه عاتكة .. وكان كلفه بها جمًا فعظم وجده عليها فوصل مكة وجاور بها طويلاً ثم بيت المقدس ، ثم تحول لمصر وإسكندرية فأقام يحدث ويؤخذ عنه إلى أن لحق بربه"[٥].

وتهتم الدراسة بالفترة التي عاشها ابن جبير بالإسكندرية وقوله فيما شاهده بها ، من أماكن وآثار ، والفنادق التي كانت تعد أماكن لإقامة السياح التي تعرف "بنزل الغرباء"[٦] في ذلك الوقت. لذا كان علينا إلقاء الضوء على ابن جبير نفسه من حيث أصله ونشأته وتعاليمه ومشيخته وتعريف بأهم وأشهر تلاميذه ومن روى عنه من السكندريين ، كذلك توضيح أهم مؤلفاته وأشعاره لنكون على بينة ممن تقوم الدراسة على أقواله ، وما شاهده في رحلته ، خاصة وأن رحلته الثالثة والأخيرة أستقر بعدها ليقيم بالإسكندرية إلى أن مات ودفن بها ٦١٤هـ \١٢١٧م[٧] ، ويوجد ضريح ابن جبير بالإسكندرية بالمنطقة "المعروفة بسيدي جابر الشيخ" حيث عرف ابن جبير عند أهل الإسكندرية بهذا الاسم.

تعريف بابن جبير

هو: أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير. وهو من أبناء ضمر ة بن بكر بن مناه ابن عبد كنانة أندلسي شاطبي بلنسي مولده ليلة السبت عاشر ربيع الأول سنة ٥٤٠هـ وقيل سنة ٥٣٩هـ \١١٤٤م ببلنسية[٨] ، المعروف بسيدي جابر الشيخ الأندلسي وبضريح ابن جبير الموجد في منطقة سيدي جابر حاليا لوحة توضح أصله ونسبه كما جاء في كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وكتاب بغية الملتمس في تاريخ أهل الأندلس عن ابن جبير الأندلسي المعروف باسم سيدي جابر الأنصاري ، المتوفى بالإسكندرية. عن نيف وسبعين سنة.

وكان ابن جبير أديبًا بارعًا وشاعرًا فاضلاً نزيه الهمة كريم الأخلاق له مؤلفات عديدة فكتب وهو في مدينة سبته عن أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن ، وكتب وهو في غرناطة لعدد من ذوى قرابته ثم رحل إلى المشرق ودار بينه وبين أدباء عصره كثير من المخاطبات[٩] تظهر فيها براعته وإجادته وعظيم نظمه ، كذلك كان نثره بديع سلس المعاني.

دورية إلكترونية محكمة.ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

ومن أشهر من صحبه في رحلة الحج من الأندلس للحجاز "الحجة الأولى" صاحبه أبي جعفر بن حسان[١٠] سنة ٥٨١ هـ\١١٨٥م.

علمه ومشيخته:

روى بالأندلس عن أبيه وعن أبي عبد الله بن عروس، وتعلم العربية من أبي الحجاج ابن يسعون، ومنحه الإجازة أبو الوليد ابن سبكة وغيره من العلماء فكان من أشهرهم: ابن الجوزي ورئيس الشافعية بأصبهان وهو صدر الدين أبو محمد عبد اللطيف الخجندي والأصبهاني من أئمة[١١] الكتاب. ومن أشهر من تتلمذ على يد ابن جبير من علماء أهل الإسكندرية هو "رشيد الدين أبو محمد عبد الكريم ابن عطاء الله السكندري[١٢]، وأبو إسحاق بن مهيب وغيرهما من العلماء.

شعره ومؤلفاته:

تنسب أشعار لابن جبير بحجم ديوان أبي تمام، وكان جزء من ديوانه هذا قد سماه "نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح" وذلك رثاء لزوجته، وجزء من أشعاره سماه "نظم الجمان في التشكي من أخوان الزمان"[١٣]، وقصائد أخرى منها ما كتبها عند مشارف مكة المكرمة والمدينة المنورة وغيرها من الأشعار.

ومن مؤلفاته كتاب رحلته الشهيرة المعروف "برحلة بن جبير"، كما أنه اشتهر ببراعته في الفقه والحديث والأدب، وعن ذلك يذكر بعض المؤرخين: "ثم تحول لمصر والإسكندرية فأقام يحدث ويؤخذ عنه إلى أن لحق بربه. كما سبق ذكره[١٤]. وبالإضافة إلى رحلته المشهورة، اشتهر أيضاً بقصيدتان للسلطان صلاح الدين الأيوبي، هذا إلى جانب ما كتبه من حكم وأقوال في أبيات شعرية.

نذكر منها:

وشاهدت في الأسفار كل عجيبة ... فلم أر من قد نال جدًا بجده
فكن ذا اقتصاد في أمورك كلها ... فأحسن أحوال الفتى حسن قصده
حظوظ الفتى من شقوة وسعادة ... جرت بقضاء لا سبيل لرده[١٥]

وقصيدته التي وجهها إلى صلاح الدين الأيوبي مادحًا له وشاكيا من عسف الحرس مع الحجاج ومن هذه القصيدة:

رفعت مغارم مكس الحجاز ... بإنعامك الشامل الغامر
وأمنت أكناف تلك البلاد ... فهان السبيل على الغابر[١٦]

وفي أبيات أخرى توضح المقارنة بين أحوال الحجاج بمصر والحجاز يذكر ابن جبير:

وما نال الحجاز بكم صلاحًا ... وقد نالته مصر والشام[١٧]

ذلك لأن صلاح الدين الأيوبي قد أزال الرسوم المفروضة على الحجاج والتي تعرف "برسم مكث المضروب على الحجاج" وقد أوردها بن جبير من جملة تفاصيل رحلته، فكان يستعرض ما شاهده من معاناة من قبل الحرس والقائمين على تحصيل رسم الحج وغيرها من التفتيشات والأمور المتعلقة بذلك، والمتتبع لأمر رحلة أبن جبير يجده يشرح بالتفصيل مسار رحلته حتى وصوله إلى مدينة الإسكندرية وهنا لنا ملحوظة هامة: فمن المعروف أن ابن جبير قدم من الأندلس راكبًا البحر ومارًا بالعديد من المدن المطلة على البحر الأبيض المتوسط. وعن بداية سفره يذكر: " ابتدى بتقييدها يوم الجمعة الموفي ثلاثين لشهر شوال سنة ثمان وسبعين وخمسمائة على متن البحر بمقابلة جبل شلير .. منه على سبته .. وألفنا بها مركبًا للروم الجنوبيين مقلعًا إلى الإسكندرية .. وظهر لنا بر صقلية"[١٨].

وما يعنينا في هذا الصدد هو تعليق أبن جبير نفسه فإنه لم يشعر بالارتياح والأمان كما شعر به عند وصوله للإسكندرية[١٩]. فقد عبر عن ذلك بقوله: "والله كفيل بالتيسير والتسهيل.. جزيرة أقريطش... وبين هذه الجزيرة المذكورة وبين الإسكندرية ستمائة ميل أم نحوها... ظهر لنا البر الكبير المتصل بالإسكندرية المعروف بين الغرب، وحاذينا منه موضعًا يعرف بجزائر الحمام على ما ذكر لنا، وبينه وبين الإسكندرية نحو الأربعمائة ميل... وفي صبيحة يوم السبت التاسع والعشرين من الشهر المذكور أطلع الله علينا البشرى بالسلامة بظهور منار الإسكندرية على نحو العشرين ميلا والحمد لله على ذلك حمدا يقتضي المزيد من فضله وكريم صنعه"[٢٠].

وفي تكملة للنص يذكر بقوله : " وفي أخر الساعة الخامسة منه كان ارساؤنا بمرسى البلد ... فكانت إقامتنا على متن البحر ثلاثين يومًا ... والحمد لله على ما من به من التيسير والتسهيل"[٢١]. ولنا في هذا النص وقفة هامة وهي: أن الغرض الأساسي الذي قدم من أجله ابن جبير هو الحج أي الوصول إلى بلاد الحجاز ومنها لمكة المكرمة وباقي مناسك الحج. وهذا أمر طبيعي أن يصل للإسكندرية وهي أحد طرق الحج المستخدمة في ذلك الوقت. ولكن الذي يدعوا إلى الاهتمام والدراسة هو قول ابن جبير عند عرضه بل فرحته بوصوله للإسكندرية بقوله: "اطلع الله علينا البشري بالسلامة بظهور منار الإسكندرية "[٢٢]، وكأنه وصل إلى دياره واكمل ما قدم من أجله، فلم يذكر مثل هذا عند قدومه لصقلية أو أقريطش "كريت" مثلا، بل ذكرها عند وصوله إلى الإسكندرية فقط، وكأنه في بيته ووسط أهله، وهذا ما يستحق الدراسة وإلقاء الضوء عليه.

كما أن ذكره وتحديده لعدد الأيام التي هي ثلاثين يومًا فهو أحصاها وكأنه وصل فعلاً للمكان المراد وكأنه ليس أمامه الكثير للوصول لأرض الحجاز وهو الهدف الأساسي من الرحلة لكنه شعر بما يشعر به كل قادم أو غريب يصل إلى مصر بصفة عامة والإسكندرية بصفة خاصة وكأنه صاحب المكان.وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على طبيعة البلاد في مصر بصفة عامة والإسكندرية بصفة خاصة دون تحيز، وهذا يتضح لزائرها على مر العصور وحتى اليوم، رغم أن قوله هذا جاء في رحلته الأولى[٢٣] لكن هذا الانطباع ظهر في تعليقاته وكلماته أثناء عرضه لتفاصيل رحلته.

فإذا كان الغرض من السفر لدى بن جبير هو الوصول إلى مكة المكرمة ونظرًا لطبيعة موطنه بالأندلس فكان مروره بمصر عن طريق الإسكندرية المطلة على البحر الأبيض المتوسط أمرا طبيعيًا، إلا أن للإسكندرية طابعًا مميزًا عن باقي الموانى المطلقة على البحر الأبيض المتوسط فهي عروس البحر الأبيض، وأهلها يتميزون بحب الضيف. وإلا ما ترك ابن جبير مدن العالم ليستقر بالإسكندرية. وأما عن الفنادق التي كانت بمدينة الإسكندرية في ذلك الوقت فمنها ما نزل به بن جبير ويعرف بفندق "الصفار" وهو بمقربة من مكان يعرف بالصبانه.

وإن كان قد حدثنا بن جبير عن بعض المضايقات التي واجهته من جملة الإجراءات المتبعة من قبل المسئولين عن الحجاج وإنهاء بعض الإجراءات المتعلقة بذلك وهو ما يعرف بالأمناء من قبل السلطان صلاح الدين، حيث يتم إثبات وتدوين ما يجلبه معهم الحجاج من أمتعة وغيرها من المتطلبات الشخصية، ومن جملتهم ما كان مع ابن

دورية إلكترونية، محكمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

جبير وقد أطال في وصف ما وجده من تعسف الأمناء وجمعهم الأموال باسم رسم الحج والزكاة ، المفروضة عليهم في ذلك الوقت. وعن ذلك يذكر : "فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين ... وكتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم وسئل كل واحد عما لديه من سلع ليؤدي الزكاة ... دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يحل"[٢٤].

وفي بعض الأحيان يلتبس الأمر على أبن جبير ، فينسب ما يلاقيه من حرس السلطان إلى سكان الإسكندرية فبعد وصفه للإسكندرية وعجائبها يذكر أمر اعتراض حرس السلطان للحجاج وعن ذلك يذكر بقوله "لما وصل إليها الركب جاءت شرذمة من الحرس ... فمدوا في الحجاج أيديهم وفتشوا في الرجال والنساء ". وفي قول آخر "سنة ٦١١ هـ \ ١٢١٤م " أنه ورد إلى الإسكندرية في ركب عظيم من المغاربة برسم الحج فأمر الناظر على البلاد بمد اليد فيهم للتفتيش والبحث عما بأيديهم ففتش الرجال والنساء[٢٥].

ودليلنا على أن الأمر قد اختلط على أبن جبير وهو ثابت من قول أبن جبير نفسه ، عند ذكر أمر وصوله إلى جدة ببلاد الحجاز وكيف كان أمر التفتيش من حرس السلطان صلاح الدين بقوله: "فإنه رفع ضرائب المكوس عن الحاج وجعل عوض ذلك مالاً وطعاما يأمر بتوصيلها إلى مكثر أمير مكة فمتى أبطأت عنهم تلك الوظيفة...". ونص آخر: "فبعد أن ضمن الحجاج بعضهم بعضًا وثبت أسمائهم في زمام عند قائد جده على بن موفق ، حسبما نفذ إليه ذلك من سلطانه)[٢٦] وجميعها أمور إجرائية برسم الحج وحماية الحجيج.

إذن الأمر لا يتعلق بالسكان أو بمدينتهم سواء كانت الإسكندرية أو غيرها بل هي إجراءات قائمة من قبل السلطان في أمر رسم الحج أو ما هو معروف في الوقت الحاضر بالإجراءات الجمركية إن صح التعبير ، ودائما كان يرى ابن جبير أن السلطان لا يعلم بهذا الأمر وعن ذلك يذكر بقوله: "وهذا أمر يقع القطع على أن صلاح الدين لا يعرفه ولو عرفه لأمر بقطعه "[٢٧] وعن ذلك يذكر أيضًا: "ومن مفاخر هذا السلطان .. إزالته رسم المكث المضروب وظيفة على الحجاج مدة دولة العبيديين[٢٨] فكان الحجاج يلاقون من الضغط في استئذانها عنتًا مجحفًا .. باهظة .. فيلزم أداء الفريضة المعلومة وكانت سبعة دنانير ونصف من الدنانير المصرية وخمسة عشر دينارًا مؤمنية على كل رأس". ثم يستطرد بقوله: "وكان بجدة أمثال هذا ... لمن لم يؤد مكثه بعيذاب ". ويفهم من النص أن الضريبة أو الرسوم المفروضة على الحجاج زمن الفاطميين كانت عالية القيمة مرهقة للحجاج ، تدفع مرة بمصر وأخرى عند وصولهم للحجاز إذا لم تؤخذ من مصر. فرفع هذا صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية بمصر كما سبق ذكره.

ابن جبير والإسكندرية وأهم آثارها

يصف ابن جبير الإسكندرية بحسنها وسعة ميادينها فيقول: "ما شهدنا بلد أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى ولا أعتق ولا أحفل منه وأسواقه ... "[٢٩] وفي وصفه للإسكندرية أمر يستحق الدراسة فقد ذكر بقوله " ومن العجب في وضعه أن بناءه تحت الأرض كبنائه فوقها وأعتق وأمتن لأن الماء من النيل يخترق جميع ديارها وأزقتها تحت الأرض".

فالأمر الأول الذي يدعو للبحث والدراسة هو المباني تحت الأرض ، التي عاينها ابن جبير ويصفها بأنها أمتن من المباني فوق الأرض ، وكأنها مدينة أخرى للإسكندرية تحت الأرض. الأمر الثاني هو قوله بأن الماء يخترق جميع ديار الإسكندرية وأزقتها وإذا كان هو فعلا ماء عذب قادم من نهر النيل ليخترق المدينة من تحتها ، فهذا أمر يستحق الدراسة أيضا خاصة وأن ورد في أحد النصوص التاريخية عن هذا الأمر ، أن بالإسكندرية خطوط للمياه العذبة تحت الأرض تم توصيلها وهاهنا يذكرها ابن جبير الذي زار الإسكندرية بل استقر ومات بها سنة ٦١٤هـ[٣٠] وهو أمر جدير بالدراسة[٣١].

فقد ورد ذكر المياه العذبة تحت الأرض بالإسكندرية عند المقريزي بقوله : "سنة ٨٥٠م (٢٣٥ هـ) فأقيم "يوسانيوس"[٣٢] في أول خلافة المعتز[٣٣] فأقام إحدى عشر سنة ... وعمل في بطركيته مجاري تحت الأرض بالإسكندرية ، يجري بها الماء من الخليج[٣٤] إلى البيوت[٣٥]. ويتضح من النص ما يؤكد ما ذكره ابن جبير عن الماء العذب تحت الأرض بالإسكندرية وهو أمر بالغ الأهمية عن تاريخ وعمارة مدينة الإسكندرية. فإذا كانت الدراسة قد أثبتت ذلك فإن هذا يتطلب وبحث الباحثين والمتخصصين على المزيد من البحث والدراسة.

وفي موضع آخر لابن جبير يذكر أنه من الآثار الباقية النافعة للمسلمين زمن صلاح الدين أن بنى قناطر في غرب مصر ، وهي نحو أربعين قوسًا من أقواس القناطر في ذلك الوقت ، يبدأ من رصيف محازى للنيل من جهة الغرب ، والقنطرة متصلة بالصحراء التي تنتهي عند الإسكندرية ، بغرض أن تستخدم كمسالك وممرات تحت الأرض للوصول للإسكندرية وحماية ثغرها من الأعداء عند استحالة الوصول إليها[٣٦].

ومن بين مشاهده ابن جبير بمدينة الإسكندرية ، كثرة السواري الرخامية وتعددها ، لدرجة أنه من الممكن أن يجدها ليس فقط في الشوارع الرئيسية بل وفي ممرات أو أزقة الشوارع ، لكنه لم يذكر أسماء الشوارع التي شاهد فيها تلك السواري العظام شاهقة الارتفاع ، وعنها يذكر بن جبير بقوله: "وعاينا فيها أيضًا من سواري الرخام وألواحه كثيرة وعلوًا واتساعًا وحسنًا مالا يتخيل بالوهم".[٣٧] ويفهم من النص أن هذه السواري المصنوعة من الرخام شديدة الارتفاع جميلة المظهر بشكل لا يمكن وصفه من الحسن والبهاء.

ثم يذكر عنها أيضًا بقوله: "حتى أنك تلقي في بعض الممرات بها سواري يغص الجو بها صعودًا لا يدري ما معناها ولا لما كان أصل وضعها"[٣٨]. وهنا يسأل ابن جبير بعد وصف السواري عن سبب وجودها أو المعنى والمغزى في ذلك وقد غاب عنه أنه يصف الإسكندرية عروس البحر الأبيض المتوسط فمن المنطقي أن يجد مجسم السواري بالرخام شعارًا لأشهر ميناء بحري عرفه التاريخ من العصر اليوناني والبطلمي واليوناني ، جلبت للإسكندرية من جبل رخام بالجانب الشرقي من صعيد مصر عرفت بالأسوانية. وفي تفسير لابن جبير عن ذلك يذكر بقوله: "وذكر لنا أنه كان عليها في القدم مبان للفلاسفة خاصة ولأهل الرئاسة في ذلك الزمان" [٣٩]. ويفهم من النص السابق أن ابن جبير يرى نظرًا لضخامة السواري وعرضها وارتفاعها أنها كانت في السابق مباني لأهل العلم خاصة للفلاسفة أو لأهل الرئاسة ويقصد بهم أكابر البلاد ، بل يصل قوله أنه يمكن أن يكون أماكن للرصد[٤٠].

ونرى أنه إذا كان شكل وصورة السواري منتظم وليس به من الهدم أو آثاره من شئ فهي مشاهد جمالية زينت بها شوارع الإسكندرية أما إن

كان بها آثار بناء قديم فهي كما قال يرجع سبب البناء لإقامة أو تواجد الفلاسفة أو أكابر البلاد في العصور القديمة.

منـار الإسكندريـة:

يصف ابن جبير منار الإسكندرية القديم بقوله: "وما شاهدناه من عجائبها المنار الذي قد وضعه الله عز وجل على يدي من سخر لذلك، آية للمتوكلين وهداية للمسافرين لولاه ما اهتدوا في البحر إلى بر الإسكندرية[٤١]. ووصف المنار فعلاً كما قال ابن جبير: "الخبر عنه يضيق" أي مهما تحدثنا عنه لا يسعنا الحديث عن وصفه، ونحن إذ نلقي الضوء على استخدام وصف ابن جبير في تحديد شكل المنار القديم بالإسكندرية، للقيام من قبل المختصين بإعادة إنشاء منار الإسكندرية بصورة متطورة لكنها تلتزم بعبق الماضي، من حيث الصورة الجمالية والطراز المعماري، لعلها فكرة ترى النور لتنمية السياحة بمدينة الإسكندرية وإدارة مقوماتها من الناحيتين الآثارية والسياحية في نفس الوقت — تمامًا كما كان الحال في فكرة إعادة بناء مكتبة الإسكندرية القديمة، بالشكل الذي تم عليه من تطور وإبداع استحق تقدير العالم من حولنا ويصل إليها السياح من كل بلاد العالم، كذلك نود أن تصل فكرة إعادة بناء منار الإسكندرية من قبل المختصين، مشاركين معهم كل من علماء التاريخ والآثار لتحديد وصف المنار كل في مجال تخصصه ليخرج لنا منار الإسكندرية ليشمل القيمة التراثية والمقومات الحديثة المتطورة ليكون قيمة فعلية في مجال الملاحة البحرية بشكل حضاري ومعماري مميز.

ويذكر ابن جبير أن في أعلى منار الإسكندرية مسجد يعتقد في بركته كما أن الناظر من خلال المسجد على مدينة الإسكندرية يرى مشهدًا لا يمكن وصفه من الجمال والروعة[٤٢] وقد دخل ابن جبير هذا المسجد وصلى فيه في الخامس من ذي الحجة سنة ٥٨٧هـ\١١٩١م.

الإسكندرية مركز الإشعاع الثقافي والحضاري

مدارس الإسكندريـة:

كما شاهد ابن جبير منار الإسكندرية، شاهد أيضًا منارة العلم بالإسكندرية نقصد بها المدارس وأماكن العلم، وعن ذلك يذكر ابن جبير بقوله "ومن مناقب هذا البلد ومفاخره ... المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد يفدون من الأقطار النائية فيلقي كل واحد منهم مسكنًا يأوي إليه ومدرسًا يعلمه الفن الذي يريد تعلمه وإجراء يقوم به جميع أحواله."[٤٣] ويفهم من النص أن الإسكندرية كانت ولا تزال مركز إشعاع ثقافي وحضاري، يصل إليها الوافدون لطلب العلم من مختلف الأقطار، ويجد فيها طالب العلم جميع أنواع العلوم التي يريد دراستها، بل ويتم توفير المسكن له ومدرسًا يتتلمذ على يديه ويلقنه العلم المراد دراسته، وأما ما ذكره بقوله: "إجراء يقوم به جميع أحواله" أي الجراية من الخبز والطعام أو الأموال التي تعطى لهم كمنحة مقدمة لتعين الدارس على معيشته خاصة وهو غريب عن البلاد.

كما أنه يفهم من النص، كثرة عدد الفنادق أو نزل الغرباء في ذلك الوقت بالإسكندرية بالقدر الذي يسمح بإقامة الأعداد الكبيرة من طالبي العلم، وهو نوع آخر من أنواع السياحة التي تعرف في عصرنا الحاضر بالسياحة الثقافية، فقد عرفها المسلمون منذ العصور الإسلامية الأولى والتي عرفت في عهدهم بطالبي العلم[٤٤]. ويفهم من النص عند قوله: "الأهل ... والتعبد يفدون من الأقطار" أن نوعا آخر من السياحة الدينية في عصرنا الحديث، عرف زمن ابن جبير، وهو انتقال الفرد من مكان إلى مكان آخر بعيد عنه بغرض التعبد، ويقصد به التفقه في الدين وعبادة الله عز وجل تمشيًا مع السنة النبوية الشريفة. وقول النبي صلى الله عليه وسلم في حث المسلمين على طلب العلم "اطلبوا العلم ولو في الصين"[٤٥]. فكان سفرهم من بلادهم إلى الإسكندرية طلبا للعلم "سياحة ثقافية" أو طلبًا للتفقه في الدين "سياحة دينية" وهذا نستخرج منه أيضًا أن الإسكندرية لم يكن موقعها الجغرافي هو الذي أدخلها كنقطة مرور للسياحة الدينية فقط، خاصة للقادمين من المغرب الإسلامي وما حولهم، للوصول لبلاد الحجاز لأداء فريضة الحج، وإنما كانت الإسكندرية أيضا نقطة وصول للسياحة الدينية لطالبي التفقه في الدين نظرًا لتوافر العلماء والمحدثين والفقهاء بها، ومن جملتهم ابن جبير فيما بعد عند استقراره بالإسكندرية، وعن ذلك يذكر ابن الرقيق من جملة ترجمة لسان الدين ابن الخطيب عن ابن جبير بقوله: "وكان رحمه الله من أعلام العلماء العارفين بالله"[٤٦].

الإسكندرية وحماماتها زمن ابن جبير

ومن الأمور المتعلقة بخدمة الغرباء القادمين "السُياح" ضرورة توافر الحمامات، وهي لم تكن تتوافر داخل المنازل في ذلك الوقت للاستحمام، فكان بناء الحمامات من الأمور الهامة والمتعلقة باستكمال متطلبات المقيم من أهل البلاد أو من خارجها. ولذلك خصصت الحمامات للدارسين أو الغرباء القادمين للإسكندرية بغرض طلب العلم وعن ذلك يذكر ابن جبير بقوله: "أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك"[٤٧] ويفهم أن: تحديد أو تعيين حمامات أمر بالغ الأهمية، حرصًا على عدم مضايقة أهل البلاد في حماماتهم، فرأوا أنه من الأفضل تخصيص حمامات للغرباء يدخلونها متى أرادوا كأحد أنواع الخدمات المقدمة لهم.

المستشفيات زمن ابن جبير بالإسكندرية

ولم يكتفي الأمر عند هذا الحد؛ بل تم تخصيص مستشفى لعلاج من مرض منهم وتوفير الأطباء للكشف عليهم ومتابعتهم من الناحية الصحية وتعيين أشخاص في خدمتهم وعن ذلك يذكر ابن جبير بقوله: "ونصب لهم مارستانًا[٤٨] لعلاج من مرض منهم ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء[٤٩]. كما يتضح أنه بالإضافة للأطباء هناك من يقوم بمساعدة ورعاية المرضى من الوافدين لطلب العلم أو التفقه في الدين وهم بمثابة هيئة التمريض في عصرنا الحاضر خاصة وقد ذكر ابن جبير ما يفيد خدمتهم للأطباء في أمر المرضى من حيث طعامهم وعلاجهم وهو دور مكمل للأطباء حتى يتم الشفاء.

وفي الحقيقة؛ أن مثل هذه المستشفيات وبهذه الخدمات الطبية الخاصة بالوافدين هذا أمر يستحق التقدير والدراسة أيضا، فلم يكن علاجهم من جملة المستشفيات العامة، أو التي يتم علاج أهل الإسكندرية فيها، لكن منعًا للتكدس ومنعًا لمضايقة ومزاحمة أهل البلاد في مستشفياتهم وتيسيرًا على القادمين، وإمعانًا في ضمان جودة رعايتهم الصحية فكان بناء وتخصيص المستشفى أو المارستان الخاص بهم.

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

فكان ذلك زمن الناصر صلاح الدين الأيوبي[٥٠]. وعنه كان ابن جبير قد كتب الأبيات الشعرية، إعجاباً به فاتح القدس وقائد المسلمين وميسر أمر الحجيج بل أن ابن جبير في كثير من المواضع عند كتابة رحلته ينسب أي عمل جليل لصلاح الدين، وفي حالة حدوث أي سلب أو إساءه يؤكد عدم دراية صلاح الدين ولو وصل لعلمه لرفع ذلك الظلم، فكان ابن جبير فخورًا بصلاح الدين كقائد ومحرر القدس وكسلطان على البلاد ومؤسس الدولة الأيوبية في مصر، ومسئول عن أمر الحجاج بصفته حاكم مصر والشام، ومسئول عن بلاد الحجاز، فكان يرسل الأموال والطعام لأمير مكة لعدم فرض رسوم على الحجاج تيسيرًا لهم، خاصة وأن أمر الحجاج يتطلب الأموال والنفقات لحماية الحجاج ورعايتهم وأمنهم وما إلى ذلك.

ومزيدًا من الاهتمام ورعاية الوافدين، فقد خُصصت الأموال للوافدين بالإسكندرية، الذين لم يفضلوا الإقامة داخل المستشفيات ،واختاروا حصولهم على الرعاية الصحية داخل محل إقامتهم، وعن ذلك يذكر ابن جبير بقوله "وقد رتب أيضًا فيه أقوام برسم الزيارة للمرضى الذين يتنزهون عند الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة، وينهون إلى الأطباء وأحوالهم ليتكفلوا بمعالجتهم"[٥١].

ويفهم مما سبق؛ أنه قد خصصت أموال تحت مسمى "رسم الزيارة" للوافدين من الغرباء على مدينة الإسكندرية ويترفعون أن يدخلوا المارستان لسبب ما "يتنزهون" فخصصت هذه الأموال، للرعاية الطبية الخاصة بهم في أماكن إقامتهم لعلاجهم، تمامًا كالزيارة المنزلية للأطباء في الوقت الحاضر، لمعالجة المرضى فتكون مدفوعة الأجر بأن يأتي أشخاص "يأتي أقوام برسم الزيارة للمريض" فيكون الواسطة بين المريض والطبيب، لمباشرة العلاج ومتابعته وليس الطبيب وإلا كان يذكر أطباء وليس أقوام.

ومن الخدمات المقدمة للوافدين كعابري سبيل بالإسكندرية من غير المقيمين تقديم "الخبز" ويوفر لهم يوميًا طوال فترة تواجدهم وعن ذلك يذكر ابن جبير بقوله "عين لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل إنسان في كل يوم بالغًا ما بلغوا ونصب لتفريق ذلك كل يوم إنسانًا أمينًا – فقد ينتهي إلى ألفي خبزة أو أزيد بحسب القلة أو الكثرة ... ولهذا كله أوقاف من قبله حاشي ما عينه من زكاة العين لذلك وأكد على المسئولين لذلك متى نقصهم من الوظائف المرسومة شيء أن يرجعوا إلى صلب ماله".[٥٢] ويتضح من النص عدة أمور هامة:

أولا: أنه تم تخصيص جراية يومية من الخبز تقدم للمغتربين في أماكن إقامتهم في الفنادق، أو نزل الغرباء في ذلك الوقت، وإن اختص ابن جبير ذكر المغاربة بصفة خاصة، فذلك أمر اهتم به لمعرفة أحوال الغرباء من المغاربة بالإسكندرية من ذوي بلدته فيذكر: "واستنزل أحمد بن حسان منا ليسأل عن أنباء المغرب"[٥٣] لذلك فإنه يقتصر حديثه عن المغاربة لاهتمام ابن جبير لأحوالهم على وجه الخصوص دون بقية الأجناس، تمامًا كما في عصرنا الحاضر في حالة السفر والسياحة يسئل الفرد عن أحوال بني جنسه والخدمات المتوفرة لهم في البلد المضيف، ليكون على بينة بأمور هذا البلد والخدمات المقدمة لهم وما إلى ذلك من الأمور الخاصة، فإذا كانت الخدمات متوفرة فالرعاية شاملة لكل الأجناس، ما دام المبدأ متواجد لتوفير الرعاية والخدمات.

ثانيًا: إذا كان المقرر تقديم خبزتين للفرد في اليوم ليصل إلى ألفين من الخبز يوميًا، فهذا يعني أن عدد المغتربين القادمين للإسكندرية للأغراض السياحية المختلفة، يزيد عن ألف سائح أو مغترب من المغاربة فقط، فما بالنا بأعداد الأجناس الأخرى، من حيث الإقبال على زيارة الإسكندرية ومن حيث السعة الاستيعابية لإقامتهم، وهو أمر جدير بالدراسة يؤكد على كثرة أعداد الوافدين على الإسكندرية، وإلا ما كان لحاكم البلاد أن يبنى لهم أي الغرباء أو الوافدين مستشفى خاص برعايتهم الطبية كما سبق ذكره.

ثالثًا: إن نفقات الرعاية والجراية وكل ما يقدم للوافدين بالإسكندرية، حددها حاكم البلاد في ذلك الوقت وهو صلاح الدين الأيوبي، بأن خصص لذلك الأموال الخاصة بالزكاة في الجزء الخاص بعابري السبيل من تقسيم أسهم الزكاة، كما قرر فرض وقف لهذا الغرض حيث ذكر ابن جبير بقوله: "لهذا كله أوقاف من قبله"[٥٤] أي من قبل صلاح الدين، وذكر أنه في حالة أن أموال الأوقاف أو الزكاة، لم تفي ونفقات خدمة المغتربين بصفة عامة "الوظائف المرسومة" أي المقررة لهم، أن يؤخذ من مال صلاح الدين الخاص، من الخزانة العامة للأموال بالإسكندرية".

وفي الحقيقة أن ذلك الإجراء عفى أهل الإسكندرية من تحمل أي نفقات أو مغارم أو بمعنى أوضح لم يتكبدوا أعباء مالية تستقطع منهم لتوفير تلك الخدمات للوافدين[٥٥]، وعن ذلك يذكر ابن جبير بقوله: "وأما أهل بلده ففي نهاية من الترف واتساع الأحوال، لا يلزمهم وظيفة البتة"[٥٦].

وأمر أخر يثير انتباه ابن جبير وهو: أن الإسكندرية عند ابن جبير مدينة لا تنام[٥٧] فهو يذكر بقوله: "ومن الغريب أيضًا في أحوال هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم بالنهار في جميع الأحوال"[٥٨] ويفهم من ذلك أن تصاريف الحياة اليومية من سبل المعيشة ومتطلبات الحياة، من بيع وشراء وما إلى ذلك يتوافر ليلاً نهارًا بالإسكندرية، فالأسواق ليلاً تنار بالمصابيح والشموع وتذخر بحركة البيع والشراء تمامًا كما هو الحال في وضح النهار.

مساجد الإسكندرية عند ابن جبير

وعن مساجد الإسكندرية يوصفها بكثرة المساجد فيقول: "وهو أكثر بلاد الله مساجد حتى أن تقدير الناس لها يطف فمنهم المكثر والمقلل ... فمنهم من يقول ثمانية آلاف ومنهم من يقول غير ذلك ... منها الأربعة والخمسة في موضع[٥٩]. وهذا دليلاً على كثرة عدد مساجد الإسكندرية، أما عن القائمين على رعاية المساجد فيتولى مسئولية هذه المساجد أئمة، تخصص لهم الأموال، ومقدارها خمس دنانير مصرية في الشهر، وعن ذلك يذكر ابن جبير بقوله: "بأئمه مرتبين من قبل السلطان فمنهم من له الخمسة دنانير مصرية في الشهر وهي عشرة مؤمنية ومنهم من له فوق ذلك ومنهم من له دونه"[٦٠].

ويتضح من النص أن العملة المصرية هي الدينار المصري أما الدنانير الأندلسية بلد صاحب الرحلة هي الدنانير المؤمنية، كذلك يتضح قوة العملة المصرية بأنها تساوي ضعف الدينار المأموني، فالدينار المصري يشترى بدينارين مما يدل على ارتفاع مستوى المعيشة في مصر بصفة عامة والإسكندرية بصفة خاصة، والانتعاش الاقتصادي رغم الخروج من الحملات الصليبية وفتح بيت المقدس

دورية إلكترونية، محكمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

زمن تواجد ابن جبير ورحلته للحج ، عن ذلك يذكر بقوله: "ولما شاع الخبر المبهج بفتح بيت المقدس على يد السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي قوى عزمه على أعمال الرحلة الثانية فتحرك إليها من غرناطه ... لتسع خلون من ربيع الأول من سنة ٥٨٥هـ ، ثم آب على غرناطة يوم الخميس لثلاث عشر خلت من شعبان سنة ٨٧هـ ثم رحل الثالثة من سبته بعد موت زوجه ... ثم تحول لمصر وإسكندرية فأمام يحدث ويؤخذ عنه إلى أن لحق ربه "[٦١].

وعن زي أئمة المساجد في ذلك الوقت فكانت كما وصفها ابن جبير بقوله "ويأتي للخطبة لابسًا السواد على رسم العباسيين وصفة لباسه بردة سوداء عليها طيلسان أسود وهو الذي يسمى بالمغرب الإحرام ، وعمامة سوداء متقلدًا سيفًا[٦٢]. فعندما يصعد للمنبر يضرب الأرض بسيفه مرة وفي وسط صعوده ، يضرب الثانية وعند تمام صعوده يضرب الثالثة ، كأنه إيذان بالإنصات ، وهذا أمر الأئمة في مصر وبلاد الحجاز في ذلك الوقت[٦٣].

وللإسكندرية دور في حماية الإسلام والمسلمين ، يصفه ابن جبير تحت عنوان "ما استدرك خبره مما كان أغفل" فوجد أنه من الأهمية ذكر ما كان قد شاهده في الإسكندرية. ولم يذكره في حينه ، بل وجد أنه أمر هام يجب توضيحه ، بأن رأي تجمعا عظيمًا من الناس قد خرجوا لرؤية أسرى من الروم دخلوا الإسكندرية ، يركبون الجمال وقد جعلت وجوههم منكسة إلى مؤخرتهم وحولهم الطبول والأبواق تشهيرا بهم ، لما كان من فعلهم المشين بأن عزموا على ركوب البحر قاطعين سبل الحجاج ، وأحرقوا مراكبهم سواء من كانت بعيذاب بأرض مصر أو بجدة بأرض الحجاز ، وأما من ناحية البر فقد سطوا على قوافل الحجاج من أرض مصر وأحرقوا وأفسدوا ، بل وصل بهم الأمر إلى أنهم كانوا عازمين على دخول المدينة المنورة وتدميرها وهي مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما كادوا أن يصلوا للمدينة المنورة إلا أن رجال من مصر والإسكندرية على وجه الخصوص ، لحقوا بهم وأسروهم وقدموا بهم للإسكندرية للتنكيل بهم ومن ثم معاقبتهم[٦٤] وهو دور قام به قواد الإسكندرية في حماية الإسلام والمسلمين وحماية مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحماية حجاج بيت الله الحرام بمكة المكرمة.

الخلاصة والتوصيات

قدمت الدراسة مدينة الإسكندرية زمن بن جبير من واقع رحلته المعروفة باسمه ، سنة ٥٨٧ هـ\ ١١٩١م. خاصةً وأنه قد أستقر وعاش ما بقى له بعد حجته الثالثة بالإسكندرية إلى أن مات ودفن بها سنة ٦١٤هـ/ ١٢١٧م ، في ذلك الموضع المعروف حاليًا بسيدي جابر الشيخ ، وقد اشتهرت المنطقة المحيطة بضريحه باسمه عند أهل الإسكندرية ، فحرفت من جبير إلى جابر.

فكانت دراستنا تتبع منهج "البحث العلمي" والمنهج الوصفي والتحليلي ، متبعين أشكال المقارنة للتحقيق والإثبات في الروايات ، خاصة عند توافر الدلائل والإثباتات قدر المستطاع ، كما هو الحال عند ذكر تمتع مدينة الإسكندرية بشبكة للمياه العذبة تحت الأرض ، قد توفرت لها من نهر النيل ، وهو عمل يستحق الدراسة في حد ذاته ، خاصة وقد ورد ذكره عند المقريزي في كتابه تاريخ الأقباط ، وكذلك قد أوضحت الدراسة معاينة ابن جبير لما كان من مباني تحت الأرض بالإسكندرية ، ووصفها بأنها مدينة أخرى كاملة المباني تحت الأرض[٦٥] ، ومن الأمور التي توصى بها الدراسة إعادة بناء منار الإسكندرية تمامًا كإحياء مكتبة الإسكندرية القديمة لتكون على الطراز المعماري السكندري القديم من حيث الشكل وعلى أعلى مستوى من التطور من حيث التقنية الحديثة ، لتكون فخرًا للملاحة البحرية بالإسكندرية ، وحديث العالم من حولنا كما كانت في الماضي.

وتوصية أخرى توصي بها الدارسة ، وهي تتبع آثار تلك القناطر والممرات تحت الأرض بالإسكندرية التي قام بها صلاح الدين الأيوبي ، لحماية ثغر الإسكندرية من الأعداء في حالة استحالة الوصول إليها فتستخدم للوصول وحماية الإسكندرية ، وإن اختلف الغرض في العصر الحديث فإننا نهتم به للاستفادة من الناحية الآثارية والمعمارية والأمنية إن صح التعبير ، كذلك أثبتت الدراسة استخدام شعار مجسم من الرخام للسواري وكانت تزين بها شوارع الإسكندرية شعارًا لثغر الإسكندرية يرجح أنه من العصور القديمة اليونانية والبطلمية والرومانية.

وقد أوضحت الدراسة مدى الانتعاش الاقتصادي التي كانت عليه مصر بصفة عامة والإسكندرية بصفة خاصه زمن رحلة ابن جبير وطوال إقامته بها حتى سنة ٦١٤ هـ \١٢١٧م. وبالإضافة لهذا فقد أثبتت الدراسة أن عدد الوافدين لمدينة الإسكندرية كان يقدر بالآلاف وأن أسباب وفودهم قد تعددت ، فمنهم المار على البلاد بغرض الحج "سياحة دينية" ومنهم طالب العلم "سياحة ثقافية". ومنهم بغرض التفقه في الدين "دينية ثقافية" وغيرها من أنواع السفر والرحلات.

كما أوضحت الدراسة تخصيص الرعاية الصحية للوافدين أو الغرباء كما كانوا يعرفون في ذلك الوقت ، بإنشاء المستشفيات الخاصة بهم وتوفير الأطباء والرعاية والعلاج على نفقة البلاد ، وتوفير المساعدين للأطباء لخدمة ورعاية المرضى منهم ، وتخصيص الأموال اللازمة لذلك. وغيرها من الأمور التي اختصت بها مدينة الإسكندرية التي فضلها ابن جبير على جميع ما شاهد من مدن طوال حياته ليستقر بالإسكندرية.

الهوامش:

(١) من كتاب صناعة السياحة ، والسفر ترجمة خلود هيمن الخطيب- هلا للنشر والتوزيع ، ص١٩.

(٢) المرجع السابق نفسه ، ص٢١.

(٣) بلاد الأندلس اسم يطلق على سكان شبه جزيرة أيبريا في العصور الإسلامية وأيضًا مصطلح يطلق على استمرار النفوذ الإسلامي فتذكر بالأندلس ، فيلاحظ عدم ذكر الأندلس في الفترة الزمنية الواقعة بعد الحكم الإسلامي فتذكر بأسبانيا.

(٤) هي عاتكة أم المجد بنت الوزير أبي جعفر الوقشي ، حزن بن جبير على فراقها حزنًا شديدًا. ابن جبير رحلة ابن جبير ص ٨.

(٥) لسان الدين ابن الخطيب- الإحاطة من تاريخ غرناطة- في ترجمة للمصنف ص٨.

(٦) المصدر السباق نفسه

(٧) المقريزي- تقي الدين بن أحمد — المقفي الكبير.

(٨) ابن الخطيب - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب- وآخرون.

(٩) أبي الحسن محمد بن أحمد بن جبير- رحلة ابن جبير- ذاكرة الكتابة- الهيئة العامة لقصور الثقافة سنة ١٩٩٩م.

(١٠) عن أبي جعفر بن حسان يذكره المقريزي بقولة: "فكان أبو جعفر هذا متحققا بعلم الطب ، وله فيه ... مفيد مع المشاركة الكاملة في فنون العلوم.. وتوفى

دورية إلكترونية، محكمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

أبو جعفر هذا بمراكش ولم يبلغ الخمسين سنة" —المقريزي -ترجمة خاصة عن ابن جبير من كتاب رحلة ابن جبير- ص١٥ .. المرجع السابق نفسه.

(١١) المصدر السابق نفسه.

(١٢) ابن جبير - المصدر السابق ص ٨.

(١٣) ابن جبير - المصدر السابق ص ٩.

(١٤) ابن الخطيب- الإحاطة- في ترجمة لابن جبير - المصدر السابق نفسه.

(١٥) ابن جبير - المصدر السابق —ص ٢٣.

(١٦) أبن جبير - المصدر السابق نفسه.

(١٧) أبن جبير - المصدر السابق نفسه ص ١٥.

(١٨) ابن جبير —المصدر السابق نفسه ص ٣٤ — ٣٦.

(١٩) المصدر السابق ص ٣٧.

(٢٠) ابن جبير —رحلة ابن جبير ص ٣٧

(٢١) المصدر السابق نفسه —ص ٣٨

(٢٢) المصدر السابق نفسه

(٢٣) ابن جبير —المصدر السابق ص ٣٨.

(٢٤) عن رحلاته الثلاثة بغرض الحج يذكر المقريزي أن من بين أسباب قيامه برحلة الحج الثانية أن صاحب غرناطة استدعى ابن جبير ليكتب عنه كتابًا وهو على شرابه للخمر وطلب بشدة من ابن جبير أن يشاركه شرب الخمر ، فرفض تمامًا ألا أن حاكم غرناطة أمره في تعنت على شربه للخمر ، ففعل وفي المقابل أعطاه حاكم غرناطة أموال على ذلك فأراد ابن جبير أن يكفر عن ذلك بأن ينفق هذه الأموال في الحج. (المقريزي -نفتح الطيب).

(٢٥) المصدر السابق ص ٢٩.

(٢٦) المصدر السابق نفسه ص ٦٧—وما بعدها.

(٢٧) المصدر السابق نفسه ص ٥٧.

(٢٨) العبديين اسم يطلق على حكام الدولة الفاطمية للتشكيك في صحة نسبهم لآل البيت النبوي الكريم وانتسابهم لفاطمة الزهراء ابنة النبي صلى الله عليه وسلم وزوج على بن أبي طالب رضي الله عنه ، خاصة وأن صلاح الدين الأيوبي قبل تأسيس دولته بمصر ، كان آخر وزير فاطمي للدولة الفاطمية الشيعية في مصر ، ومن ثم استقل بمصر وأسس دولته السنية —أبن الأثير الكامل في التاريخ .

(٢٩) ابن جبير ص ٣٩.

(٣٠) عن وفاة أبن جبير بالإسكندرية يذكر أن قبره من المناطق المجابة الدعاء عنده وعن تلك الأقوال والتبرك بالقبر ذكر بن جبير نفسه في أبياته:

من الله فسأل كل أمر تريده فما يملك الإنسان نفعًا ولا ضرًا

(٣١) المقريزي تاريخ الأقباط المعروف بالقول الإيريزي للعلامة المقريزي ت٨٤٥هـ ١٤٤١م دراسة وتحقيق عبد المجيد دياب —دار الفضيلة —القاهرة ١٩٩٨م ص١٠٤.

(٣٢) هو سانونيوس الأول البطريرك الخامس والخمسون للكنيسة بالإسكندرية — دليل المتحف القبطي ١٦٤/٣ تاريخ البطاركة (٢-٢/ ٧٠ من البطاركة).

(٣٣) المعتز بالله العباسي اشتد في عصره تسلط نفوذ الأتراك -أبن البطريك جـ٢ ص٦٦.

(٣٤) مقصود بالخليج هو خليج نهر النيل وكان هناك موسم كسر الخليج عند اكتمال منسوب نهر النيل ١٦ ذراع (المقريزي — المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ٢ ، ص ٢٤٥.

(٣٥) المقريزي -تقي الدين بن أحمد المقريزي —تاريخ الأقباط ص ١٠٤.

(٣٦) ابن البطريق ج ٢ ص ٧٦٨.

(٣٧) ابن جبير ص ٣٩.

(٣٨) المصدر السابق نفس الصفحة- أما عن السواري الرخام يذكرها المقريزي: في الجانب الشرقي من صعيد مصر جبل رخام عظيم كانت الأوائل تقطع منه العمد و غيرها..التي يشميها أهل مصر الأسوانية .. و منها العمد التي بالإسكندرية (المقريزي ، الخطط ، ج١ ، ص ٣٢٠)

(٣٩) المصدر السابق نفسه.

(٤٠) ابن جبير ص٣٩.

(٤١) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٤٢) المصدر السابق ص ٤٠.

(٤٣) المصدر السابق ص ٤٠.

(٤٤) المصدر السابق نفسه.

(٤٥) صحيح مسلم.

(٤٦) من أشعاره في الزهد كأحد العارفين بالله قوله:

رب إن لم تؤتني سعة .. فأطو عنى فضلة العمر

لا أحب اللبث في زمن .. حاجتي فيه إلى البشر

فهم كسر لمتجبر .. ما هم جبر لمنكسر ابن جبير صـ ٢٥

(٤٧) المصدر السابق لنفسه.

(٤٨) معنى بيمارستان ، هي كلمة فارسية الأصل من مقطعين بيمار بمعنى مريض وستان بمعنى مكان أي المكان الخاص بالمرضى للاستشفاء.

(٤٩) ابن جبير —ص ٤٠.

(٥٠) قد كتب الأبيات الشعرية إعجابًا به فاتح القدس وقائد المسلمين وميسر أمر الحجيج ، بل أن ابن جبير في كثير من المواضع عند كتابة رحلته ، ينسب أي عمل جليل لصلاح الدين وفي حالة حدوث أي سلب أو إساءة ، يؤكد على عدم دراية صلاح الدين ، ولو وصل لعلمه لرفع ذلك الظلم ، فكان أبن جبير فخورًا بصلاح الدين كقائد وحاكم لمصر.

(٥١) ابن جبير المصدر السابق نفسه.

(٥٢) ابن جبير - المصدر السابق ص ٤٠.

(٥٣) المصدر السابق ص ٣٨.

(٥٤) المصدر السابق ص ٤٠.

(٥٥) عن أمر الغرباء وحرص صلاح الدين على رعايتهم ، حيث كان يتفقد حوائجهم فوجد بعضهم لا يأخذ من الخدمات التي تقدم ، خاصة وقد نصحه أحد المقربين أن كثير من الغرباء الوافدين ليسوا في حاجة للجراية ولا للأموال ، ويأخذونها دون حاجة لهم بها فتفقد ذات يوم أمرهم فوجدهم ، قد قطع عنهم رسومهم أو خدماتهم المقررة ، فغضب لذلك وأمر بتقديمها وعن ذلك يذكر: "فتلقى منهم جماعة قد لفظتهم الصحراء المتصلة بطرابلس وهم قد ذهب رسومهم عطشاً وجوعًا ... فأعلموه أنهم قاصدون بين الله الحرام" - ابن جبير —رحلة بن جبير —صـ ٤١

(٥٦) المصدر السابق ص ٤٠.

(٥٧) المصدر السابق ص ٤١.

(٥٨) المصدر السابق نفسه.

(٥٩) المصدر السابق نفسه ص ٤١.

(٦٠) المصدر السابق نفسه.

(٦١) المصدر السابق ص ٨.

(٦٢) المصدر السابق ص ٤٧.

(٦٣) عن ذلك يذكر ابن جبير: "والمؤذن الزمزمي رئيس المؤذنين بالحرم الشريف ساعيًا أمامه لابسًا بثياب السواد أيضًا وعلى عاتقه السيف يمسكه بيده. دون تقلد له... فعند صعوده ... ثم ضرب بنعل سيفه... ووقف داعيًا مستقبل الكعبة" رحلة أبن جبير —ص ٨٤.

(٦٤) ابن جبير —المصدر السابق ص ٥٤ ، ٥٥.

(٦٥) ابن الظهيرة- الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة- تحقيق مصطفى السقا و كامل المهندس- وزارة الثقافة مركز تحقيق التراث ١٩٦٩ نسخة بمكتبة الإسكندرية رقم-٢٧٥٣٤-٠٩٦٢ — ص١٥٢- ولدى المقريزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار — ج١ نسخة بمكتبة الإسكندرية رقم -١٩٩٦٤.

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الدَراميون الدَشوريون الكلدان الكنعانيون العرب

الألف الأول قبل الميلاد

أ. د. بشار محمد خليف
باحث في تاريخ العالم العربي
خبير دراسات حضارة المشرق العربي القديم
دمشق - الجمهورية العربية السورية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
بشار خليف ، الآراميون – الآشوريون – الكلدان – الكنعانيون – العرب: الألف الأول قبل الميلاد.- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث عشر ؛ سبتمبر ٢٠١١. ص ٣٦ – ٤٣. (www.historicalkan.co.nr)

مقدمة

مع حلول الألف الأول قبل الميلاد أصبحنا أمام حالة من التنوع الديمغرافي ذو المنشأ الواحد في المشرق العربي. هنا بدأنا نتلمس بقوة مكامن التفاعل القوي بين الأرومات الاجتماعية ، سلباً وإيجاباً. إن كان لجهة الحروب وصراعات المصالح المدينية ، أو لجهة التفاعل الثقافي – الديمغرافي. حتى أصبحنا وباطراد مع الزمن أمام ظروف مهيئة لبداءة التعريب في عالم المشرق العربي. ففي الساحل المشرقي نجد أن الكنعانيين بممالكهم العديدة يشكلون الرافعة التجارية البحرية للعمق الشامي والرافدي. وفي الداخل نجد الفاعلية الآرامية أخذة بالتطور والتبلور. أما في الرافدين ، فنجد انبثاق الفاعلية الكلدانية /الآرامية ، في الجنوب وانتشارها على مدى المشرق العربي بالإضافة إلى الفاعلية الآشورية القوية. ووسط كل هذا التمازج والتفاعل نجد أن الحضور العربي ،الناتج عن حركة الجولان في المنطقة الممتدة من الفرات إلى شبه الجزيرة العربية آخذ بالازدياد وبتأكيد حضوره.

ولعل توصيفنا هذا ، الآرامي – الكلداني – الآشوري – الكنعاني الساحلي – العربي لا يأخذ سوى بعدًا واحدًا ، وفق الحالة السياسية السائدة آنذاك ، ولا يعبر سوى عن أرومات ذات منشأ واحد ، كانت تجول في المنطقة التي تحدثنا عنها ، وارتأت أن تستقر في الأقاليم التي تقدم بيئاتها ممكنات طبيعية وحياتية تساعد على العيش والتطور ، وهذا ما تبدى جليًا في المشرق العربي. لذا فإن توصيفنا للآراميين وغيرهم هو توصيف ثقافي نتج عن تفاعل هذه الأرومة مع البيئة الطبيعية التي صارت فيها ، كما والتفاعل مع البيئة الاجتماعية التي كانت سائدة ، بحيث غدا التمازج والتفاعل عامل الحضارة الأساسي في المشرق العربي في الألف الأول قبل الميلاد كما في قبله من الألفيات.

وهنا ، سوف نستعرض باقتضاب الفاعلية التاريخية لكل أرومة ومبلغ التفاعلات والتمازجات فيما بينها ، والتي أوصلتنا إلى عالم الألف الأول الذي يشكل لبنة أساسية من لبنات الثقافة التي سادت إلى اليوم ، ثم سنناقش فكرة الألوهة التي سادت في هذه الألفية والتي أسست للعالم الاعتقادي والديني في الألف الأول الميلادي ، حتى ظهور الرسالات السماوية.

١- الآراميون

إذا كان تاريخ تواجد الآراميين في الهلال الخصيب قد تم الاتفاق عليه وفق المعطيات الأركيولوجية على أنه يعود إلى حوالي ١٤٠٠ ق.م في بداءته ، ومن ثَم في فاعليته بدءًا من مطلع الألف الأول عبر تأسيس الممالك الآرامية فإن الوثائق والنصوص تعيد ذكر الآراميين إلى الثلث الأخير من الألف الثالث قبل الميلاد. فقد ورد في نقش يعود لنارام – سين الأكدي ، اسم آرام أو الآراميين ، حيث كان تواجدهم في الجزء الأعلى من الجناح الرافدي [١] ، ويعتبر هذا أول ذكر للآراميين في الوثائق حتى الآن.

كما ورد ذكر الآراميين أيضًا في وثائق ترجع إلى حوالي ٢٠٠٠ قبل الميلاد ،حيث تقدم معطيات عن وجود مدينة ! أو تجمع آرامي قرب مدينة أشنونا الرافدية. وبعد هذا التاريخ بعدة سنوات يظهر الاسم أيضاً في نص جديد ،على شكل " آرام " ، اسم علم لشخص. كما حوت وثائق مملكة ماري على معطيات تؤكد وجود الآراميين. وفي انتقال إلى نهاية الألف الثاني قبل الميلاد وبداية الألف الأول قبل الميلاد نجد ذكرهم في وثائق الملك الآشوري أرك – دين – ايل ، حيث يتحدث عن

دورية إلكترونية. محكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

انتصاراته على جماعات " الأخلامو". وتتضح الصورة أكثر مع عصر الملك الآشوري تجلات فلاصر الأول ، حيث تذكر نصوصه أنه هزم الأخلامو ، الآراميين ، الذين جاؤوا من البادية مغيرين على ضفاف الفرات ووردت بهذا النص (احلامي — ارمايا). ويبدو أنهم كانوا على حالة شبه بدوية ، حيث كانوا يتجولون في المنطقة الواسعة الممتدة غرب الفرات الأوسط وحتى تدمر.[٢]

ومع مطلع الألف الأول أصبحنا أمام فاعلية آرامية في وقت بقيت مدن الساحل السوري في فاعليتها الكنعانية الساحلية ، ولعبت مدينة صور دورًا رائدًا في هذا الوقت بالإضافة إلى صيدا وجبيل حيث توارثوا الدور الأجاريتي السابق. أما الداخل الشامي ، فقد تركزت القوة السياسية فيه ، في دمشق وفي حماة وسط سوريا ونشأت عدد من الممالك مثل آرام صوبا على مجرى العاصي الأعلى ، حيث توسعت خلف جبال الشرقية حتى بادية الشام.[*] وكذلك بيت ريحوب على مجرى نهر الأردن الأعلى ، وحماة ، وبيت آجوشي وبَتين في منطقة العاصي الأدنى ، وشمأل ، وكركميش وبيت عديني حيث ضمت مناطق تقع شرق الفرات ، وبيت بخياني. وبعد انطفاء فاعلية آرام صوبا ، حلت آرام دمشق محلها وأقامت تحالفاً مع آرام حماة لصد الآشوريين.

الجدير ذكره هنا ، هو أنه في القرن الحادي عشر ق.م استولى / حدد — ايل — ادن / الآرامي على عرش بابل. وتشير المعطيات التاريخية إلى أن التواجد الآرامي الذي كان قليلاً وبدئياً منذ نهاية الألف الثالث قبل الميلاد ،ثم عبر حركة جولان القبائل في فضاء المشرق العربي والجزيرة العربية يبدو أن القبائل المرتحلة قد طاب لها المقام في البادية الشامية وصولاً إلى الفرات والرافدين. "وقد ثبت لنا من الكتابات المسمارية التي ترجع إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد أن أناساً من بطون سوتي الآرامية استقروا في نواحي دمشق ،وأن قبائل أخلامية من العنصر الآرامي استوطنت مناطق جنوب الفرات بالقرب من الخليج العربي".[٣]

وتميزت الفاعلية الآرامية بالنشاط التجاري حيث يشير بريستد إلى أنهم قبضوا على تجارة آسيا الصغرى.[٤] وعلى هدي المشرق العربي بأروماته المشرقية المختلفة ذات المنشأ الواحد نلاحظ أن الآراميين بممالكهم لم يتوحدوا في دولة سياسية واحدة ،بل بقوا على شكل ممالك — مدن تتحالف مع بعضها البعض وقت التهديد والحرب ، وربطت بينها علاقات مصالح مدينية تجارية ، ما يشير إلى سلالات قبلية حاكمة حكمت المدن الآرامية.

وفي مجال الكتابة واللغة استعمل الآراميون الحروف الهجائية الكنعانية ثم نافست الحروف الهجائية الآرامية ، الكنعانية ذات العلامات المسمارية وذلك بدءاً من القرن الثامن قبل الميلاد ولاسيما في بلاد آشور. بحيث تناقص استخدام الكتابات المسمارية في الألف الأول قبل الميلاد. ويشير جيمس بريستد إلى أن التاجر الآرامي كان كلما وصله نص مكتوب بالآشورية المسمارية فإنه سرعان ما يتناول قلمه ويعلق عليه بالآرامية ما شاء من تعليق.[٥] وشيئاً فشيئاً ، أصبحت اللغة الآرامية لغة الهلال الخصيب بكامله ثم اللغة الرسمية للعالم القديم شرق المشرق العربي.

وتشير الأبحاث إلى أن الخط العربي هو الآخر مشتق من أحد أنماط الخط الآرامي المتصل.[٦] وقد أصبح للغة الآرامية لهجات عديدة مثل الآرامية القديمة والآرامية الرسمية / آرامية الدولة / والآرامية النبطية والمنداعية. الجدير ذكره ؛ أن اللغة الآرامية تعتبر ابنة عم اللغة العربية كما الآراميون المعتبرون أبناء عم العرب وكذلك السريان /وهم الآراميون الذين أصبحوا مسيحيين/ هم أبناء عم العرب أيضاً.[*] فعبر الممالك القديمة المشرقية منذ نهاية الألف الثالث قبل الميلاد وحتى ٦٩ ق.م /زمن الاحتلال الروماني/ أي من كيش وأكد وماري وبابل وآشور والممالك الآرامية في بلاد الشام وممالك شمال شبه الجزيرة العربية ومدنها في الوسط من شبه الجزيرة العربية التي تأسست قبل الفتح الإسلامي ، كان ثمرة هذه الفترة انتشار الكتابة على نطاق واسع وفق أصول وقواعد ثابتة. وأُوجدت الحروف الهجائية والأبجدية وسادت اللغة الآرامية لما كان بينها وبين اللهجات السابقة والمعاصرة من تطابق وتوافق ولأنها كانت تكتب بالحروف.

وثمة ثمرة أخرى ، هي وحدة الخط التي حققتها الآرامية عقب التخبط بين الخط المسماري المقطعي الهجائي والخط المسماري الأبجدي. إذ منذ بداية التاريخ الميلادي تقريباً نلحظ خطاً واحداً هو النبطي / الآرامي الذي انبثق عنه الخط العربي[*] [٧]. وبالعودة إلى القرن الحادي عشر قبل الميلاد تشير المعطيات إلى سيطرة الآراميين على مناطق واسعة من البادية السورية وطرق قوافلها.[٨]

نصل من كل هذا إلى أن الثقافة الآرامية استطاعت أن تكون الوريث الحقيقي لحضارة المشرق العربي ، الأكدية - الكنعانية — العمورية ، لا بل واستطاعت عبر لغتها من أن تشكل سد حماية ضد اللغات الدخيلة واستطاعت تسليم اللسان المشرقي والخط المشرقي إلى اللغة العربية وإلى الخط العربي بعد أن أسهمت في هذا التسليم. يقول الدكتور محفل: "لقد صمدت الآرامية ، أمام لغات الدخلاء من فرس وإغريق ورومان وبيزنطيين وصانت الوحدة اللغوية للعالم العربي خلال اثني عشر قرناً تقريباً / من سقوط الدولة البابلية الحديثة / الكلدانية ، ٥٣٩ ق.م وحتى عصر الفتوحات الإسلامية".

وفي مجال الكتابة يشير الباحث المذكور إلى أن الكتابة العربية هي حصيلة تطور مديد ومستمر انطلاقاً من الكتابة المسمارية المقطعية الرافدية (نحو ٣٢٠٠ ق.م) والهيروغليفية الصورية المصرية التي ظهرت مع المسمارية في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد ومروراً بالكتابة المسمارية الأبجدية في أجاريت نحو ١٤٠٠ ق.م وانتهاء

* مع مطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد تأسست ممالك آرامية في الهلال الخصيب ، فنجد في الجناح الرافدي تأسيس مملكة آرامية في بابل وتأسيس ممالك إلى الجنوب منها. وحفلت منطقة الجزيرة السورية بتواجد آرامي لهم ، بحيث امتد على ضفاف الفرات من مدينة كركميش شمالاً إلى عانا جنوباً. كما نلحظ انتشاراً آرامياً في بلاد الشام الداخلية من جبال طوروس حتى نهر الزرقاء بالأردن.

* يشير الدكتور محمد محفل إلى أن اللغة الآرامية مهدت السبيل لعربيتنا الفصحى ، شقيقتها والقريبة منها. انظر- العربية: لغة وكتابة.- دورية كان التاريخية.- العدد السابع ؛ مارس ٢٠١٠. ص ٤١ — ٤٥.

* نقل الآراميون قلمهم من معاصريهم الساحليين الكنعانيين وبه كتبوا نصوصهم الأولى (من القرن العاشر إلى القرن السابع ق.م) وإن كتابة ولغة تلك النصوص تشبه إلى درجة كبيرة محتويات النصوص الكنعانية المعاصرة لها. وراح الآراميون يطورون بدءًا من القرن السادس ق.م كتابة خاصة بهم قبل أن يتفرع عنها منذ القرن الثالث ق.م كتابات آرامية محلية في مختلف أصقاع المشرق العربي. د محفل — مرجع سابق.

دورية إلكترونية. محكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

بالأبجدية الكنعانية المتطورة حوالي القرن الحادي عشر قبل الميلاد.[٩]

وقد أصبحت " الآرامية الإمبراطورية " اللغة السائدة في مختلف أصقاع العالم العربي القديم في العصر الفارسي الأخميني (٥٥٠ – ٣٣١ ق.م) بعد تغلبها على ما سبقها من لهجات شقيقة / بابلية وآشورية / وكنعانية بل ومصرية ، وذلك لأسباب عديدة منها سهولة طريقة كتابتها (المقتبسة أصلاً من أبجدية الساحل الكنعاني) قبل أن يطور الآراميون فيما بعد قلماً خاصاً بهم" ،[١٠] ويشير الدكتور محفل أيضاً إلى فكرة مهمة في أن اللهجات العتيقة من أكدية / بابلية وآشورية / وكنعانية كانت تعتبر بمثابة العتبات الأولى في السلم اللغوي لعالمنا العربي ولا تشكل هذه اللهجات لغات قائمة بذاتها.

بقي أن نشير إلى أن الفاعلية الآرامية الديمغرافية استمرت حتى الألف الأول الميلادي. ومع ظهور الديانة المسيحية أصبحنا أمام الآراميين المسيحيين وهم السريان الذين نجد ذكرهم قبل ومع ظهور الرسالة المحمدية في القرن السابع الميلادي. وذكرنا أن الآراميين امتازوا بعالم التجارة والنشاط التجاري وهذا ما سهل لهم نقل كتابتهم إلى أنحاء عديدة من العالم القديم ، وقد ذكر فيليب حتي أن " انتقال حرف الهجاء الكنعاني شرقاً إلى الآراميين حيث تم نقله عبرهم إلى الفرس وبذا أصبحت الآرامية لغة رسمية عندهم ،كما وأخذه العرب ليكتبوا به لغة القرآن .. ، ثم انتقل إلى شعوب أسيوية أخرى.

وقد حصل الفرس والأرمن والهنود على أبجديتهم من مصادر آرامية.وحروف البهلوية والسنسكريتية هي من أصل آرامي".[١١] ويشير "جورج رو" حول أصل الآراميين فهو يعتقد استدلالاً من لغتهم أن موطنهم الأصلي يعود إلى شبه الجزيرة العربية أو أنهم سكنوا في تلك المنطقة في زمن ما على الأقل. وإن هناك الكثير من الأسباب التي تحملنا على الاعتقاد بأن موطنهم الأصلي كان في الحقيقة من بادية الشام والهلال الخصيب.[*]

٢- الآشوريون

منذ انتهاء فاعلية آشور في الألف الثاني قبل الميلاد مع وفاة شمشي أدد/حدد عام ١٧٨٢ ق.م ، خضعت مدينة آشور للفاعلية البابلية ،وبقيت فاعليتها ضعيفة ومع القرن الرابع عشر نجد أن ملوك آشور بدأوا يستعيدون شيئاً من قوتهم بحيث أخذوا في التصدي للقبائل البدوية – أحلاموآرام – وكان من أبرزهم: (آرك – دين – ايل / ايلو/ من ١٣١٩ – ١٣٠٨ ق.م ، شلما نصر الأول من ١٢٧٤ – ١٢٤٥ ق.م ، تيكولتي نينورتا الأول من ١٢٤٤ – ١٢٠٨ ق.م.) ثم تضعف فاعلية آشور اعتبارًا من ١٢٠٨ ق.م وحتى حوالي ١١١٧ ق.م حيث يعتلي عرش آشور تجلات فلاصر الأول / ١١١٧ – ١٠٧٧ / ق.م لتبدأ مسيرة آشور القوية حيث نجد في القرن الثامن قبل الميلاد ومنذ اعتلاء شاروكين الثاني الحكم في آشور ٧٢٢ – ٧٠٥ ق.م فإن الممالك الآرامية انتهت فاعليتها التاريخية بسلالاتها الحاكمة وأصبحت الممالك الآرامية تدار من قبل حكام أشوريين.

تميزت الثقافة الآشورية في القرن الأول قبل الميلاد بخصائص أصيلة متطورة عن قيم ومعايير الألف الثاني والثالث في المشرق ومستمدة منها الجذور في آن واحد. غير أن صعود نجم بابل من جديد مع ظهور الأمير الكلداني نبوبولصر / ٦٢٦ ق.م / الذي بدأت عبره الفاعلية الكلدانية بدا وكأنه نقطة البدء في تصفية الحساب مع الآشوريين الذين انصرفوا طيلة قرون عديدة لمحاربة الآراميين وإنهاء فاعليتهم السياسية.[١٢] واستطاع هذا الأمير الكلداني من إنهاء فاعلية آشور / التي ضعفت من خلال حربها مع الميديين / عام ٦١٢ ق.م واحتل عاصمتهم نينوى بمشاركة الملك الميدي كي إخسار ، ثم تمددت الفاعلية الكلدانية نحوبلاد الشام كي ترث الفاعلية الآشورية المنهارة هناك.

٣- الكلدانيون

يعود زمن ظهور الفاعلية الكلدانية إلى القرن التاسع قبل الميلاد في جنوب الرافدين حيث أسسوا مملكة مستقلة ملاصقة لبابل على ضفاف نهر الفرات المقابلة لها ، وكانت هذه الفاعلية ديمغرافية أكثر منها فاعلية سياسية. وأول دليل وثائقي يشير إلى هذه الفاعلية الديمغرافية نجده في نصوص الملك الآشوري (آشور ناصر بل الثاني ٨٨٣ – ٨٥٩ ق.م) حيث وردت باسم بلاد "كلدي: Kald Mat".

وحسب وثائق الملك شلما نصر الثالث (٨٥٨ – ٨٢٤) ق.م [*] ، نجد أن الكلدانيين كانوا يشكلون عدة مشيخات يطلق على كل واحدة منها لفظة (بيت – Bit) ويبدو أن التنظيم السياسي – الاجتماعي لديهم لم يكن سوى تنظيماً عشائرياً – قبلياً حيث تعود تسمية المشيخات على اسم كبير القوم أو أبرزهم.

وقدمت وثائق هذا الملك أسماء لمشيخات مثل: (بيت داركوري – بين أموكاني – بيت ياكين) وهذه كانت من أكبر المشيخات الكلدانية ، وكانت تقع على ضفة نهر دجلة في أقصى النهاية الجنوبية للرافدين حتى تصل إلى الخليج العربي.[١٣] وإن كان جولان القبائل العربية قد ألقى بها أخيراً في الجنوب الرافدي ، فنحن نعتقد أن أصولها قد تعود إلى الخليج العربي بالمواقع المطلة عليه آنذاك.

غير أن هناك عدة نظريات تصف الكلدانيين بأنهم آراميون ويبدو أن التداخل الديمغرافي في الألف الأول يجعل التصنيف الديمغرافي صعباً إلى حد ما. حتى أن بعض المرويات التاريخية كانت تشمل ذكر الكلدانيين والآراميين والعرب معاً.[**] ويبدو أن الفاعلية الديمغرافية المتزايدة للكلدانيين مع اغتنام واقع حركة التاريخ آنذاك وظروفها السياسية حيث أن الآشوريين ضعف نفوذهم في بابل ما دفع نبوبولصر [***] زعيم القبائل الكلدانية للهجوم على بابل واستيلائه على السلطة فيها معلناً البداية السياسية والتاريخية للفاعلية الكلدانية وذلك في ٦٢٦ ق.م.

---

* انظر جورج رو– العراق القديم – ت: حسين علوان حسين – بغداد ١٩٨٤ – ص٣٦٨.

* تخبرنا وثائق شلما نصر الثالث إلى أنه زحف نحو أرض كلدو فاستولى عليها وتوغل نحو الجنوب حتى بلغ "البحر المالح" أي الخليج العربي. كذلك تخبرنا وثائقه عن انتصاره على تحالف آرامي – عربي / بقيادة جنديبو– إسرائيلي وذلك في عام ٨٥٣ ق.م.

** يلاحظ في كتابات بعض الملوك الآشوريين أنهم يذكرون الآراميين إلى جانب الكلدانيين والعرب.

*** نبو بولصّر وردت في النقوش : (نابو أبال أوصّور = ليحم الإله نبو الابن الوريث). انظر عبد مرعي – تاريخ بلاد الرافدين. ص١٢٥

دورية إلكترونية. محكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

وفي عام ٦١٢ ق.م تسقط نينوى تحت الهجوم الميدي – الكلداني وينسحب الآشوريون إلى حران حيث أعلن أشور أوبليط الثاني نفسه ملكاً على حران غير أن التحالف الكلداني – الميدي أسقط سلطة الأشوريين عام ٦١٠ ق.م ، ويبدو أن هذا الحدث كان الصفحة الأخيرة من الفاعلية الآشورية في الألف الأول قبل الميلاد. ثم توجهت أنظار الكلدانيين إلى بلاد الشام حيث ورثوا الفاعلية الأشورية هناك. وقد سعت الإدارة الكلدانية إلى إحياء بابل من جديد حيث تشير الوثائق إلى بناء أكبر زقورة فيها وهي " برج بابل " "حجر أساس الأرض والسماء ". يبلغ ارتفاع هذا البرج ٩١ متراً يتألف من ثمان طبقات مدرجة وفي الطبقة الأخيرة ثمة معبد صغير مخصص للإله الكبير[١٤].

وتتميز الثقافة الكلدانية بأنها تمثلت وجبت الثقافات المشرقية كافة ، وطورت عدة مفاهيم ولاسيما في مناحي المعتقدات والعلوم والفلك والهندسة والرياضيات والعرافة والسحر. وكون أن الآرامية كانت سائدة فإن انطلاق الفاعلية الكلدانية من بابل جعل الآرامية تنتقل إلى حيز العالمية منذ مطلع القرن الثامن قبل الميلاد. ويشير الدكتور حسن فاضل جواد إلى مدى انتشار الثقافة الكلدانية آنذاك حيث امتد الإشعاع الحضاري الكلداني إلى بلاد الشام وأسيا الصغرى وإلى شبه الجزيرة العربية ولاسيما إلى حضارات المنطقة الشرقية منها مثل حضارة (باربار) وأم النار ومدنها فيلكة ودلمون وملوخا وماجان على الخليج العربي وكذلك على حضارات المنطقة الجنوبية ودولها مثل الدولة المعينية والقتبانية والحميرية والسبئية وغيرها.[١٥]

وفي عام ٥٣٩ ق.م تسقط الفاعلية الكلدانية بعاصمتها بابل تحت هجمات الفرس الأخمينيين[*] لتنتهي صفحة مضيئة من تاريخ المشرق العربي. يجدر الذكر هنا إلى أن زمن الفاعلية التاريخية الكلدانية ترافق مع زمن سطوع الفلسفة عند اليونانيين القدماء.

٤- الكنعانيون الساحليون

يبدو أن المراكز الكنعانية الساحلية على الساحل المشرقي تعافت من هجمات شعوب البحر وهذا ربما يؤكد أن دمار أجاريت لم يكن بسبب هجمات شعوب البحر فقط بل بسبب زلازل أصابت المنطقة برمتها. والذي تبدى هنا هو أن مدينة صور ورثت الفاعلية الاقتصادية – التجارية لأجاريت لا بل والسياسية أيضاً. فقد أصبحت مركزاً للتوسع الاقتصادي في حوض المتوسط الشرقي والأوسط.

وكانت المراكز الكنعانية هذه قد عانت من هجمات الآشوريين وسُجل مساعدتها للآراميين في صد الهجمات الآشورية ولكن ليس بجيش وإنما بمساعدات عينية من ذهب وفضة. كما امتلكت جبيل فاعليتها التجارية أيضاً بالإضافة إلى صيدا ولكن صور بقيت هي المركز الأساسي. وكون أن هذه المراكز تجارية بامتياز عبر امتلاكها الوجه البحري فإنها وتبعاً لإشراطات المدن التجارية كانت تميل إلى إيجاد توازها في صراع الأقوياء إن كان الآشوريين في الشرق أوالمصريين في الغرب ولم تدخل في النسيج التاريخي المتشابك للعمق الشامي وتفاعلاته ورغم هذا فقد أوردت نقوش الملك الكلداني نبوخذ نصر قائمة موظفي بلاطه وتابعيه حيث تذكر في نهايتها ملوك صور وصيدا وأرواد إلى جانب حكام فلسطين المحليين. ما يعني أن المراكز الساحلية الكنعانية خضعت للفاعلية الكلدانية ولاسيما في سنوات حكم نبوخذ نصر الأخيرة أي بعد ٥٧٠ ق.م.[١٦] وبشكل عام كانت علاقات المراكز الساحلية الكنعانية مع العمق الشامي علاقات تجارية واقتصادية ومصلحية.

٥- العرب

ذكرنا سابقًا أن أول ذكر للعرب أو للقبائل العربية حتى الآن يعود إلى ما ذكر من أن شاروكين الأكدي وفي الثلث الأخير من الألف الثالث قبل الميلاد خرج من تخوم الرافدين واتجه نحو شبه الجزيرة العربية مع ابنه نازان حيث قاتل هناك قبائل عربية يعتقد أنها في المنطقة الشرقية من الجزيرة العربية في ماجان على سواحل عُمان. وفي نص يعود لنارام سين الأكدي ، بعد شاروكين نجد أن نارام سين قد استولى على الأرض المتصلة بأرض بابل والتي سكانها من العرب Aribu-araba.

وتنبغي الإشارة هنا ؛ إلى معطى عام ومهم في مساق العلاقات والاتصالات بين المراكز الحضارية ، حيث أن لوسائل النقل التجاري وغيرها دوراً مهماً في تمتين أواصر تلك الصلات والعلاقات بين المراكز المتباعدة. لهذا فإننا ومنذ ١٨٠٠ ق.م ، نصبح أمام منعطف جديد في تطور وسائل النقل بين المراكز التجارية عبر استخدام الحصان عوضاً عن الحمار ،ثم ومع حلول ١٣٠٠ ق.م سوف يحل الجمل كوسيلة نقل مهمة جداً لحركة جولان القوافل واحتماله للمسافات البعيدة.[*]

إذن عبر استخدام الجمل أصبحنا أمام دفق جديد من الصلات والجولان والعلاقات بين الشمال المشرقي والجنوب العربي. وقد أشارت معطيات تاريخية على أن حملة بدوية قام بها جمالون من الجزيرة العربية إلى سوريا وقد ورد ذكرها في وثائق تعود إلى وقت مبكر من القرن الحادي عشر ق.م. ويشير أرنولد توينبي إلى أن تأنيس الجمل جعل بدو السهوب العربية أشد خطراً على جيرانهم المتحضرين من ذي قبل. إلا أن هذا الانجاز في التأنيس جعل اجتياز السهو ب نفسها أيسر على البشر.

وقد كان أحد آثار هذا الشيء أن انتشر أثر المدينة السورية عبر بلاد العرب إلى المرتفعات الخصبة الواقعة في الزاوية الجنوبية من شبه الجزيرة العربية.[١٧] إذن نحن نجد أن القبائل العربية كانت تقيم في شبه الجزيرة العربية منذ الألف الثالث ق.م ، وكانت هناك حركات جولان وارتحالات تبعاً للشرط البيئي وعبر هذه الحركة كان يمكن لبعض القبائل أن تستقر على أطراف المراكز الحضارية والمدينية والزراعية في المشرق العربي ، لأنها المنطقة الجاذبة بيئياً وحضارياً ومعيشياً ، فالقبائل العربية المرتحلة نحو الشمال لم تأت إلى مشرق فارغ بل كان عامراً بالحضارات والمدن.

وإن شاءت الدراسات أن تشير أوتوحي إلى أنه لولا " الهجرات " لما قامت حضارة مشرقية فإن هذا الإيحاء مغلوط كون أن المشرق العربي

* تشير المعطيات التاريخية إلى أن سقوط بابل كان بسبب خيانة كهنة بابل المردوخيين /نسبة للإله مردوخ/ كون أن نبونيد رفع مقام الإله سين إله القمر بدلاً من مردوخ ،ولتضارب مصالح كهنة مردوخ وتأثرها بذلك فتحوا أبواب بابل للجيش الفارسي وقد ذكرت إحدى الكتابات أن مردوخ إله بابل هو الذي أمر قورش الفارسي بالسير إلى بابل لتخليصها من ملكها نابونيد الذي لم يعبده. انظر عبد مرعي – تاريخ الرافدين ص١٣١.

* تشير الأبحاث إلى أن اسم الجمل ورد في الكتابات الأكدية ب " جملو" أو كملو" ومصدرها بلاد الشام. انظر جواد علي ص ٨٠.

دورية إلكترونية. محكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

حاضر وفاعل بشرياً وحضارياً منذ عهو د سحيقة. غير أن الكنعانيين مـثلاً وإن افتـرض البـاحثون أنهـم عـرب ، فهـم عـرب ولكـن أصـبحوا كنعانيين بتفاعلهم مع البيئة الجديدة التي استوطنوا فيها في المشرق وهذا ينسحب على معظم الأورمات ذات المنشأ الواحد والأصل الواحد من أكديين وآراميين وعموريين فكلهم كذلك بعد أن تفاعلوا مع بيئة قدمت الممكنات الحضارية ليتميزوا عن القبائل البدوية التي بقيت في بيئة صحراوية لا تحرض على الإبداع والانجاز الحضاري.(*)

يقول الدكتور جواد علي: "الهلال الخصيب من الناحية الطبيعية وحدة لا يمكن فصلها عن جزيرة العرب وهو امتداد طبيعي لها وليست البادية الواسعة التي تملأ باطن الهلال إلا جزءاً من جزيرة العرب وامتداداً لها لا يفصلها عنها فاصل ولا يحد بينها حد وإذا ما انتقلت من بادية الشام إلى بوادي الجزيرة العربية فلا تجد أمامك شيئاً يشعرك بوجود فروق بين طبيعة هذه الأرضين الواسعة أووجود حواجز تمنع سكانها من الهجرة نحوالشمال أوإلى الجنوب".(١٨) إذن نبقى أمام معطى واحد مهم وهو قرب بادية الشام من المراكز الحضارية والمدينية في الهلال الخصيب وهو الذي ميزها عن طبيعة شبه الجزيرة العربية القاحلة والتي تفتقد إلى المراكز الحضرية. وعلى هذا فإن في نمط البداوة أنواع منها البدوية الأولى وشبه البدوية وبدوية مع استقرار مؤقت وهذا ينسجم مع معطيات البيئة والتفاعل.

ويشير رونه دوسوإلى أن " العرب كانوا يتجهو ن دائماً لا إلى غزو الأقاليم الحضرية فقط ، بل إلى الإقامة فيها أيضاً. وليسوا فقط سكان الجزيرة العربية فقط لكنهم أيضاً البدو الذين يجوبون وسط الجزيرة العربية وشمالها وكل بادية الشام. فبادية الشام التي تمتد نحو الشمال حتى نهر الفرات تعد بالضرورة جزءاً من المجال العربي".(١٩) وقد كانت الارتحالات العربية تجري على نظام فصول السنة ، فالقبائل ذات المضارب الكبيرة كانت تقضي الشتاء في جزيرة العرب وخاصة في نجد وفي الربيع كانت تتجه نحو الشمال باحثة عن المراعي فتصل بذلك إلى أطراف الحدود الحضرية. وكان لكل قبيلة مضاربها الصيفية وسط الحضريين أو على مقربة منهم. وكان شيخ القبيلة يرتبط " بعهد الأخوة " مع شيوخ القرى والبلدات.(*)

الجدير ذكره هنا هو ؛ أن مفهوم " بلاد العرب " عند المشرقيين / آشوريين وبابليين / كان يعني بادية الشام وبادية السماوة وهي البادية الواسعة الممتدة من نهر الفرات إلى تخوم الشام ،وقد أطلقوا على القسم الخاضع لنفوذ الفرس في الألف الأول قبل الميلاد اسم " بيت عربايا " ومعناها أرض العرب. ويشير جواد علي بدوره إلى أن بلاد العرب أو" العربية " هي البوادي والفلوات التي أطلق الآشوريون ومن جاء بعدهم لفظة الأعراب وعلى باديتهم Arabae - Arabeae وهي جزيرة العرب وامتدادها الذي يكون بادية الشام حتى نهايتها عند اقتراب الفرات من أرض بلاد الشام ، فالفرات هو حدها الشرقي أما حدها الغربي فأرض الحضر في بلاد الشام وتدخل في العربية بادية فلسطين وطور سيناء إلى شواطئ النيل(*) (٢٠).

ويشير ولفنسون إلى مدلول كلمة العرب (عَرَب ،عُرْب) فهي لم تكن تدل على مدلولها المتعارف عليه الآن بل كانت تطلق على نوع خاص من القبائل وهو النوع الذي يسكن البادية وذلك النوع المتنقل الذي لا يستقر في مكان واحد بل يتبع مساقط الغيث ومنابت الأعشاب. في حين أن ما يقال في معاجم اللغة العربية من أن هناك فرقاً بيم كلمتي عربي وأعرابي وتخصيص الأولى بسكان المدن والثانية بسكان البادية فلم يحدث هذا إلا في عصور قريبة من ظهور الإسلام. أما قبل ذلك فلم يكن هناك فرقٌ مطلقٌ بل كان كل من الكلمتين يدل على سكان البادية فقط.(٢١)

إذن نصل إلى نتيجة مفادها أن للعرب وقبائلهم حضوراً موثق في الألف الثالث في ثلثه الأخير وصعوداً مع الزمن نجد أن فاعليتهم الديمغرافية كانت آخذة بالازدياد ، وجاء تأنيس الحصان ثم الجمل ليزيد من وقع التواصل والتجول والتفاعل ولاسيما تجاه الشمال المشرقي حتى إذا أصبحنا أمام مطلع الألف الأول قبل الميلاد وجدنا أن الفاعلية الآشورية الرافدية قد ساهمت / كعادتها / في محاربة القبائل العربية.

وقد ذكرت نقوش شلما نصر الثالث عن محاربته وانتصاره على تحالف آرامي – عربي – إسرائيلي وكان زعيم القبيلة العربية هو جنديبو وذكرنا سابقاً أن قبيلة هذا الرجل ربما تقع على أطراف البادية الشامية في حين يذكر آخرون أنها تقع في جنوب مملكة دمشق.(**) كما أن شلما نصر الثالث زحف نحو أرض الكلدانيين جنوب الرافدين واستولى عليها وتوغل نحو الجنوب حتى بلغ الخليج العربي ويبدو أنه بلغ الكويت واتصل بذلك بالجزيرة العربية وبقبائل عربية كانت تقيم هناك. ثم وفي عهد تجلات فلاصر الثالث (٥٤٧ –٧٢٧ ق.م) كان ثمة حاكمة عربية على قبيلة قيدار تدعى زبيبة دفعت الجزية لهذا الملك ويبدو أن قيدار تقع في شمال شبه الجزيرة العربية. ثم ترد في وثائق هذا الملك أنه قهر ملكة عربية أخرى اسمها شمسي لأنها حنثت بيمينها وكفرت بالعهد الذي قطعته للإله شمش بألا تتعرض بالسوء للآشوريين.

أيضاً يبدو أن تيماء التي تقع في شمال الجزيرة العربية بموقعها المهم الذي يربط الخط التجاري من الجنوب عبر الحجاز إلى المشرق العربي ومصر ثم موانئ البحر المتوسط قد دفعت الجزية إلى آشور

---

* يشير رونه دوسو إلى أن الشريط الأرضي الذي يشكل الساحل السوري ممتداً من الجنوب إلى الشمال بين البحر المتوسط والبادية السورية بدءاً من البحر الأحمر وحتى جبال طوروس يشكل جزءاً مكملاً لشبه الجزيرة العربية بحيث أن الوحدة الحضارية مميزة إلى حد أننا لا نندهش من تشكل وحدة عرقية على هذه الأرض هي " السامية " !. انظر رونه دوسو– الديانات السورية القديمة – ص٣١.

* يشير محمد عبد المعين خان في كتابه "الأساطير والخرافات عند العرب" إلى أن عرب شبه الجزيرة العربية مهما اختلفوا في البيئة عن الحضر فلهم قابلية وصلاحية للتأثر بما جاءهم من الأمم "السامية" في العقائد وإن أهل الوبر تأثروا بأهل الشمال (المشرق العربي). راجع كتابه ص٢٥ – وزارة الثقافة – سوريا ٢٠٠٧ – الكتاب الشهري ٤٧.

* يرد في النصوص الآشورية لفظة "أربي" بمعنى العربية.وفي النصوص البابلية يرد " ماتو أربيي " Matu-A-re-bi أي أرض العرب. وفي الآرامية بيث عربايا Beth Arabaya

** ثمة تقرير مهم يشير إلى أن جنديبوالعربي شارك في هذه المعركة بألف جمل وهنا يعد ذكر الجمال في المعارك طليعياً حيث لم تسبق الإشارة إليه من قبل في الوثائق . انظر : مرعي – تاريخ بلاد الرافدين ص١١٥. ويتميز الجمل بصفات عديدة فهو يشرب ١٣٠ لتراً من الماء مرة واحدة ويستطيع أن يبقى بدون ماء لمدة سبعة عشر يوماً في جو تبلغ حرارته ٥٧ درجة مئوية ويستطيع أن يحمل أكثر من الحمار ويسير بسرعة أكبر.

دورية إلكترونية. محكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

حفاظاً على مصالحها التجارية وورد اسمها في نقوش تجلات فلاصر. وتقدم لنا وثائق شاروكين الثاني الآشوري (٧٢٤ – ٧٠٥ ق.م) أنه في السنة السابعة من حكمه أدّب تمودي Tamudi وقبائل عربية أخرى يبدو أنها كانت تقع في الشمال الغربي من الجزيرة العربية.[٢٢]

والذي يبدو من حركة التاريخ آنذاك أن الفاعلية الآشورية ومنذ القرن التاسع قبل الميلاد جهدت لمدة ثلاثة قرون في إخضاع العرب وتملك الخط التجاري الواصل من الجنوب إلى الشمال والشمال الشرقي ويبدو أنهم حققوا مآربهم.[*]

وكان من جراء ذلك أن الكراهية عمت لدى القبائل العربية للآشوريين وهذا ما جعلها تتحالف مع كل من يناوئ الفاعلية الآشورية سواء من الآراميين أوالكلدانيين. وبالعودة إلى مسلسل الحروب الآشورية ضد العرب وقبائلهم نجد أن سنحاريب سيطر على قبائل عربية تقع في العربية الشمالية وتمكن من إخضاع قبائل عربية في مناطق واسعة من الهلال الخصيب وشمال الجزيرة العربية. وتظهر النصوص الآشورية قيام الآشوريين بعدد من الحملات يزيد عددها على التسع للانتقام من الأعراب الذين كانوا قد تعودوا التحرش بهم ومضايقتهم عند اجتياز البوادي ومهاجمة قوافلهم وحدود إمبراطوريتهم. وتذكر الوثائق أن ملوك الآشوريين في حملاتهم على العرب كانوا يأسرون أصنام العرب ويأخذونها معهم إلى مدنهم.[*]

ويشير ألبير فان دي براندن في كتابه " تاريخ ثمود " إلى أن الازدهار الاقتصادي لبلاد آشور ثم الكلدان كان يرتبط بجزء كبير منه بأمن شمالي الجزيرة العربية ووسطها ذلك أن الطرق التجارية التي تؤدي إلى آشور (بابل فيما بعد) والتي كانت تستخدمها القوافل المحملة بالبخور والثروات من الجنوب كانت تمر عبر هذه المساحات الشاسعة حيث قبائل البدووأشباه البدوالذين يعتبرون الغزووسيلة عيش شرعية".[٢٣]

وقد قدمت نصوص تجلات فلاصر الثالث معلومات قيمة عن تنظيم اجتماعي متطور جداً في ممالك العرب في شمال الجزيرة العربية حيث ذكرت أسماء ملكات عربيات مثل ظبية – شمس العرب. وتذكر النصوص أيضاً أن تيماء وسبأ كانتا من المهزومين. وفي وثائق شاروكين الثاني الآشوري (٧٢١ – ٧٠٥) ق.م يذكر أنه هزم عدداً من القبائل العربية في حملاته على الجزيرة العربية ومن هذه القبائل قبيلة ثمود ويشير إلى أن الثموديين المهزومين نقلوا إلى السامرة. ويبدو أنه كان ثمة وصاية آشورية على العرب على طول الخط التجاري العابر من الرافدين إلى جنوب الجزيرة العربية فقد ذكرت الوثائق عن تدخل الآشوريين بشكل دائم في الشئون الداخلية للعرب وقبائلهم فعندما توفي ملك العرب "حزائيل" نصب الملك الآشوري أسرحدون ابن حزائيل - يطيع - على عرش العرب وحين توفي هذا بسبب مؤامرات تدخل الجيش الآشوري لإعادة النظام. كما وتذكر تدخلات لآشور باني بل في شئون الجزيرة العربية أيضاً.

ويجدر الذكر هنا إلى ؛ أن ثمود كما تشير المرويات قطنت منطقة الحجاز وجوارها أي المنطقة الممتدة من الحجاز وحتى سوريا ويشير بطرس البستاني إلى أن ديار الثموديين امتدت من الحجاز حتى البلاد السورية. أما عن زمن فاعليتهم فيمتد من القرن الثامن قبل الميلاد وحتى القرن الثاني الميلادي ولكن استمر تواجدهم البشري من منتصف القرن الخامس الميلادي أي قبل قرن من ولادة الرسول محمد[*] [٢٤].

وتشير المعطيات إلى أن قبيلة ثمود كانت تقيم في المناطق التي تشكل اليوم جزءاً من المدينة ومكة وذلك في القرن الثامن قبل الميلاد. وهم في الغالب من السكان الأصليين الذين استعاروا اسمهم من معطى الطبيعة ف " ثمد " تعني مجرى الماء الذي يجف في الصيف وفي تلك الفترة كانت ثمود قبيلة بالمعنى الحرفي للكلمة والنصوص الآشورية كانت تستعمل تعبير قبيلة ثمود. ويبدو أنه بعد أن سبا شاروكين الثاني الآشوري قسماً منها إلى السامرة بقي قسم آخر ما لبث أن قام بالارتحال نحوالشمال حيث حصل تواجدهم في القرن السادس قبل الميلاد . ويبدو أنهم تأثروا بحضارة الشعوب المحلية وثقافتها منذ ذلك التاريخ.

الجدير ذكره هنا ؛ أن ملوك آشور وبابل في حروبهم ضد العرب في شبه الجزيرة العربية كانوا يطلقون عليهم اسم "العرب" وذلك بدءاً من القرن التاسع قبل الميلاد وحتى القرن السادس ق.م.[٢٥] يشار هنا إلى أن النقوش الثمودية لم تظهر إلا في القرن الرابع قبل الميلاد ما يدل على أن الثموديين لم يمتلكوا الكتابة وأدواتها وعلمها إلا بعد مرور خمسة قرون تقريباً على تواجدهم.[**] ولتوضيح أهمية خط التجارة الدولي آنذاك بالنسبة للإمبراطورية الآشورية ثم الكلدانية في الألف الأول قبل الميلاد نعرض لطرق التجارة في المنطقة العربية:

فمن الجنوب إلى الشمال:

(١) مخا – صنعاء – مكة – المدينة – مدائن صالح – تيماء – العقبة – البتراء – بصرى – دمشق – حمص – حماة – حلب – كركميش – حران.

(٢) المكلا (حضرموت) – بيشه – الفاو– ليلى – الجرهاء.

(٣) صور – سقط – صحار – ربا – جرها – الكوت – الحيرة – تدمر.

* كان هيرودوتس في كتاباته ينعت سنحاريب الملك الآشوري (٧٠٥ – ٦٨١ ق.م) ب "ملك العرب والآشوريين".

* نقل سنحاريب حسب وثائق ابنه أسرحدون (٦٨٠ – ٦٦٩ ق.م) تماثيل آلهة منطقة الحوف (أداماتو) ومن أسماء هذه الآلهة : دعا – نوخي / ناهي / - ابيريللو! – عطار سمائي – عطار كروما.وقد وردت أسماء بعض هذه الآلهة في النصوص الثمودية. وقد قدمت وثائق هذا الملك أن ملك العرب "حزائيل" جاء إلى نينوى يطلب إعادة الصور الإلهية التي أخذها والد أسرحدون ، وفي بادرة حسن نية من أسرحدون ،فقد زوّج حزائيل من توبوا ابنة اسكالاتو التي كان قد سباها من أداماتو مع أمها الملكة اسكالاتو. انظر تاريخ ثمود – ألبير فان براندن – ص١٩.

* في الوثائق التي تعود إلى القرن الخامس الميلادي ذُكر وجود فرقتين عربيتين في الجيش الروماني الفرقة الأولى تكونت من الفرسان العرب الثموديين وأقامت على الحدود الشمالية الشرقية لمصر والفرقة الثانية في بلاد " إيلليري " وسميت فرقة إيلليري الثمودية وقد تواجدت هذه الفرقة في " بيت شام " في فلسطين في القرن الخامس الميلادي. وقد كان معظم هؤلاء الجنود من وسط الجزيرة العربية. انظر: تاريخ ثمود . ص٢٦

** انظر: العربية لغة وكتابة – د. محمد محفل. كما أشارت المصادر إلى اسم لملك ثمود وهو "جنده" وفي حال صحة هذه المعلومة فإن علينا أن نستنتج أنه كان لثمود تنظيم اجتماعي مشابه للتنظيمات التي تذكرها الوثائق الآشورية عن الجزيرة العربية الشمالية بدءاً من القرن التاسع ق.م. انظر – ألبير فان براندن – تاريخ ثمود ص١٥.

(٤) الفاو— ليلى — نجد — الحيرة — بابل.
ثم طريق البخور ، اليمن — بترا — أفريقيا.(*)
الجرهاء — تدمر — دورا أوروبوس.
ومن الغرب إلى الشمال:
١- صنعاء — مأرب — المكلا — صلالة — صور — مسقط.
٢- صنعاء — مأرب — بيشه — الفاو— سليل — ليلى — بيرين — صحار.
٣- جدة — مكة — الطائف — بيشه — الفاو— هجر — الجرهاء.
٤- مكة — نجد — الأيلة على شط العرب.
٥- المدينة — نجد — بابل.
٦- المدينة — الحيرة — بابل.
٧- تيماء — دومة جندل — الحيرة — بابل.
٨- بيروت — دمشق — تدمر — بابل.
٩- أجاريت — حلب — إيمار — ماري.(٢٦)

إن ذكرنا لطرق التجارة هنا لا يفسر فقط اهتمام الآشوريين ومن بعدهم الكلدانيين بوسط وشمال الجزيرة العربية ، ولكن نستند عليه لتبيان كون أن التجارة والنشاط التجاري هما رافعة لنشر الأفكار والمعتقدات والأديان والمثاقفة بين مختلف الشعوب والأطياف الاجتماعية. ولعل ما نستخلصه من مجالات التفاعل الآشوري — العربي في الألف الأول قبل الميلاد وفق مناحيه المختلفة سلباً عبر الحروب والسيطرة ، وإيجاباً عبر قيم التفاعل التجاري والاقتصادي وغيرها تدفعنا إلى استنتاج أن الفاعلية الآشورية القاسية عسكرياً لم تخلق جوانب للتفاعل مع العرب كما أن القبائل العربية قلبت ظهر المجن للفاعلية الآشورية هذا على عكس الفاعلية الكلدانية التي يُفهم من تفاصيلها أن ثمة تفاعل إيجابي مع العرب وقبائلهم أفضل من الآشوريين حتى ليبدو أن نسق التفاعل الكلداني — الآرامي — العربي كان حاضراً وفاعلاً بقوة في الألف الأول قبل الميلاد بالإضافة إلى نسق التفاعل الإيجابي الآرامي — العربي المعبّر بامتياز عن قيم التفاعل والتأثير والتأثر بين الثقافتين ، وطبعاً الغلبة كانت للآرامية كونها الأقدم والأكثر تعداداً والأسبق حضارة وتمدناً واستقراراً. لكن هذا النسق التفاعلي الآرامي — الكلداني — العربي هو ما سيتضح كلما مضينا باطراد نحو الألفية الأولى الميلادية عبر الخصائص التي توشحت بها الحضارة المشرقية بالإضافة إلى الثقافة العربية الآخذة بالتبلور ولو بنسق بدئي أساسه البعد القبلي — العشائري.

وبالعودة إلى التفاعل الكلداني — العربي فنحن أسلفنا أن الفاعلية البشرية الكلدانية تعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد وقد وُثقت في نصوص الملك الآشوري آشور ناصربال الثاني (٨٨٣ — ٨٥٩ ق.م).

*طريق البخور يبدأ من سلسلة من الموانئ على طول الساحل الجنوبي الغربي للجزيرة العربية ومن هذه الموانئ يمتد شمالاً إلى مكة والمدينة ثم معان والبتراء وجرش ودمشق. ومن البتراء يتفرع طريقان إلى أفريقية أحدها يمر خلال سيناء والثاني يسير إلى غزة ومنها إلى أفريقية بحراً. ومن دمشق يتجه الطريق غرباً إلى صور فالبحر المتوسط أويمتد شمالاً إلى حمص وأنطاكية. وفي دمشق وحمص يلتقي بالطريق الآخر الذي يبدأ من الخليج العربي ويصعد في الفرات إلى دورا أوروبوس ثم يتجه غرباً إلى المدن السورية ماراً بواحة تدمر. وتربط بين هذين الطريقين سلسلة من طرق القوافل الفرعية أهمها الطريق الذي يبدأ من واحة نجران ثم يسير في وادي الدواسر إلى الجرهاء وعلى ساحل الإحساء وساحل الخليج العربي.

وسوف ننتظر حوالي ثلاثة قرون إلا نيف حتى تعبّر الفاعلية الكلدانية السياسية عن نفسها عبر مدينة بابل وحران. وإن شهد الحراك التاريخي آنذاك معالم حرب المصالح لاسيما ما يختص بتأمين طرق التجارة الدولية حيث نجد أن نبوخذ نصر قد حارب قبائل عربية شمالي سورية عام ٥٩٩ ق.م(*) فإن الغاية من ذلك كانت تأمين خطوط التجارة وتأكيد الفاعلية الكلدانية السياسية والعسكرية الوارثة للفاعلية الآشورية. ولكن مع اعتلاء نبونيد الكلداني سدة الحكم في بابل عام ٥٥٦ ق.م أصبحنا أمام منعطف جديد في المسار السياسي والتفاعلي للفاعلية الكلدانية فنبونيد كان والده شيخ إحدى القبائل الآرامية أما أمه (التي تأثر بها كثيراً) فقد كانت كاهنة إله القمر — سين في حران الواقعة في الجزيرة السورية العليا.

وتشير الوثائق إلى أنه منذ ارتقائه العرش تلقى في حلمه أمراً من الإله سين / الإله الكبير في بابل / بأن يبني معبداً لعبادة الإله سين (الإله القمر) الهلال — الشهر في حران وهذا ما دفع الكهنة الكهنة في معبد مردوخ أن يناصبوه العداء طيلة فترة حكمه حيث كانت الأولوية لإله القمر على الإله مردوخ.(**) ويشير الدكتور حسن فاضل جواد إلى أن نبونيد كان شديد التأثر بأمه فورث عنها اهتماماً دءوباً في الشئون المعتقدية والعبادة الخاصة (شبه الوحدانية غير الإلهية) للإله الذي خدمته أمه طوال حياتها حتى أنه جعل ابنته كاهنة عليا في معبد الإله سين في أور. وقد أدرك نبونيد أهمية تيماء وموقعها في شمالي الجزيرة العربية حيث كانت مركزاً متميزاً لعبادة إله القمر العربي (تير).(٢٧) بالإضافة إلى ذلك فإن تيماء تشكل مركز تتصالب عنده طرق التجارة القادمة من مأرب مارة بمعين ونجران ويثرب وديدان والحجر ومدائن صالح ومنها يذهب فرع إلى وادي الرافدين وآخر إلى عاصمة الأنباط البتراء وحائل .(***)

والذي يبدو من وثيقة نبونيد أنه هرب بدفع من الإله سين إلى تيماء حيث بقي هناك عشر سنوات ويبدو أنه ذهب وفق حملة عسكرية حيث يخبرنا نقش عثر عليه في حران يعود لنبونيد: "لما ترك بابل وجاء إلى تيماء أخضع أهلها ثم ذهب إلى (ديدان) — باداكو(فدك) — خيبرا (خيبر) — حتى بلغ يتريبو(يثرب = المدينة)"(٢٨) وكذلك يديخو(يديع). ثم تحدث عن صلح مع مصر وميديا والعرب

* كان الملك الكلداني بختنصر (٦٠٤ — ٥٦١ ق.م) قد دخل فلسطين مما جعل هذا الدخول صلة الوصل بين الكلدانيين والعرب.

**جاء في نقش نبونيد: " أنا نبونيد ،ابن وحيد ليس له أحد ،الآلهة والإلهات (الملائكة حسب مفهومنا) صلوا من أجلي وسين (إله القمر) دعاني لاستلام الحكم في الليل جعلني أرى حلماً قال لي ما يلي: " إهو لهُل " (اسم معبد إله القمر في حران) معبد سين في حران شيده بسرعة ، أريد أن أعطيك كل البلاد في يدك . الناس ، سكان بابل وبارسيبا ونيبور وأور وأوروك ولارسا ،الكهنة أناس من مناطق سكن في أكد أخطئوا في حق إلوهيته الكبرى وارتكبوا إثماً في عدم معرفة الغضب المخيف لملك الآلهة نئار (سين) نسوا طقوسهم وتكلموا كذباً وزوراً كالكلاب افترسوا بعضهم. جعلت الآلهة مرضاً وجوعاً ينتشر بينهم.

***يشير د. مرعي إلى أن الطرق القادمة من الغرب ومن الجنوب متجهة إلى الخليج العربي والمؤدية إلى دمشق شمالاً وإلى الحجاز واليمن جنوباً كلها تتصالب في واحة تيماء وقد وصفت النصوص الآشورية العائدة للألف الأول تيماء بأنها مدينة تجارية على طرق القوافل. مرجع سابق — ص٢٠٧

دورية إلكترونية. محكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

Matara.bi.u وقد ختم النقش بما يفهم على أن العرب المذكورين قد أرسلوا إليه الرسل واستسلموا له.

وفي مقاربة لخطوة الملك نبونيد نحو الجزيرة العربية فإن ثمة أمرين مهمين دفعاه لذلك: الأول: كونها مركز مهم لعبادة إله القمر آنذاك خاصة أنه ترعرع وتشرّب من أمه طقوس عبادته. الثاني: هو البعد الاستراتيجي التجاري في تأمين خطوط التجارة حيث أن السيطرة على تلك المنطقة تجعل التجارة الكلدانية تمتلك أقصر طريق برية للتجارة تربط بلاد الشام بالجنوب العربي.

ونحن نميل هنا إلى ؛ أن إقامة نبونيد في تيماء تأخذ بعداً معتقدياً – سيكولوجياً أكثر من الأسباب التجارية ، فالمعلوم تاريخياً ومن استقراء معالم التاريخ أن المحافظة على خطوط التجارة لا تتطلب وجود ملك في المحطة التجارية المستهدفة بل يكفي وجود محمية عسكرية تؤمن الخط التجاري كما أن ما ورد في وثيقته يشير إلى تعبير " جعلني أهرب " أي أن الإله سين دفعه إلى الهرب إلى تيماء. وهذه نقطة ينبغي التوقف عندها. على أن إقامة هذا الملك مع حاشيته ومعتقداته وطقوسه لابد أن تمد بقيم تفاعلية بين عرب الجزيرة العربية وبين الثقافة الكلدانية خصوصاً أن امتداد هذه الفاعلية شمل حتى مدينة يثرب. وهذه خطوة متقدمة في التفاعل بين المشرقيين والعرب في الجزيرة العربية ، فهنا حل المشرقيون على العرب وليس العكس.

والذي يبدو أن انتشار اللغة والكتابة الآرامية عبر هذه الفاعلية الكلدانية قد عبّر عن نفسه في واحة تيماء حيث عثر هناك على أنصاب تحمل كتابات آرامية.[٢٩] وقد عثر أيضاً على كتابة ثمودية تقول "رمح ملك بابل" ربما قصد كاتبها الملك نبونبد في سيطرته على تيماء ومواقع جزيرة العرب. ويشير الدكتور جواد علي إلى أن السنوات العشر التي قضاها الملك الكلداني في الجزيرة العربية أبانت من خلال الوثائق أن يثرب كانت عامرة وقديمة حيث تم إلحاقها بالمملكة الكلدانية.

وكان نبونيد يتنقل مدة عشر سنوات في الجزيرة العربية حيث يراجع أهلها وينزل بين قبائلها ويختلط بهم ثم يعود إلى عاصمته تيماء. ويظهر أنه تطبع خلال إقامته ببعض طباع العرب واقتبس بعض مصطلحاتهم حيث وردت في وثائقه. ويعتقد البعض أن نبونيد جاء بأناس من الرافدين وأسكنهم في المناطق الحجازية وربما أسكن بعض اليهود المسبيين في بابل ، في يثرب والذين أصبحوا يهود يثرب.[٣٠] وقد عثر على مسلة للملك نبونيد في بابل تشابه مسلته في مدينة حران كما في مدينة تيماء. وعام ٥٤٢ ق.م يغادر نبونيد تيماء بعد وصول أخبار عن حشود فارسية حول بابل ، وفي عام ٥٣٩ ق.م في ٢٩ تشرين الأول تسقط بابل بفعل خيانة كهنة مردوخ ويقتل ولي العهد (ابن نبونيد) ويتم القبض على نبونيد.

خاتمة

إذن نصل إلى نتيجة تختص بالنصف الأول قبل الميلاد وهي أن التواجد العربي القبلي والمستقر نوعاً ما عبّر عن نفسه وكان آخذاً بالتطور والحضور تدريجياً إن كان في المشرق العربي أو في الجزيرة العربية. وأن معالم التلاقح والمثاقفة الآرامية – الكلدانية – العربية بدأت تتوضح أكثر مما قبل وهذا ما سوف يؤسس لأرضية ثقافية حضارية جديدة سوف نقطف ثمارها في مراكز حضرية عربية متعددة أساسها التمازج الآرامي – العربي – الكلداني.

الهوامش:

(١) موسكاتي ، الحضارات السامية القديمة ، ص١٧٦.
(٢) كلينغل – هورست ، تاريخ سورية السياسي ، ت: سيف الدين دياب ، دار المتنبي ، دمشق ، ط١ ١٩٩٨ ، ص٢٠٦.
(٣) ولفنسون ، تاريخ اللغات السامية ، ص١٠٦.
(٤) بريستد – جيمس ، العصور القديمة ، ص١٥٢.
(٥) المرجع السابق ، ص١٥٩.
(٦) جواد – حسن فاضل ، حكمة الكلدانيين .ج٢ ص٢٧.
(٧) أبوعساف – علي ، الآراميون ، دار الأماني ، سوريا . ط١ ، ص٨٧.
(٨) تيكسيدور – خافيير ، الديانة الآرامية ، موسوعة تاريخ الأديان . ج٢ ص١٣١.
(٩) محفل – محمد ، العربية لغة وكتابة ، مجلة التراث العربي ، دمشق ، موقع اتحاد الكتاب العرب.
(١٠) المرجع السابق.
(١١) حتي – فيليب ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٨٣.
(١٢) أبوعساف – علي ، نشوء الممالك القديمة ، وزارة الثقافة ، سوريا ، ١٩٨٨ – ط١ – ص٥٠٩.
(١٣) جواد – حسن فاضل ، حكمة الكلدانيين ، ج٢.
(١٤) مرعي – عيد ، تاريخ بلاد الرافدين . ص١٢٧.
(١٥) جواد – حسن فاضل ، مرجع سابق ص١٢.
(١٦) كلينغل – هورست ، ص٢٥٩ ، ٢٦٠.
(١٧) توينبي – تاريخ البشرية ص١٣٧.
(١٨) علي – جواد ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام . ص٢١٩.
(١٩) دوسو– رونيه ، العرب في سوريا قبل الإسلام ، ت: عبد الحميد الدواخلي ، دار الحداثة ، بيروت ط٢ ١٩٨٥ ، ص٢.
(٢٠) علي – جواد ، مرجع سابق ص١٣ ، ١٤.
(٢١) ولفنسون – مرجع سابق ، ص١٤٥.
(٢٢) علي – جواد ، مرجع سابق ، ص٢٣٦.
(٢٣) براندن – ألبير فان دين ، تاريخ ثمود ، ت: د. نجيب غزاوي ، دار الأبجدية ١٩٩٦ ط١ ص١٧.
(٢٤) المرجع سابق ، ص١٢.
(٢٥) المرجع السابق ، ص٣٨.
(٢٦) قبيسي ، محمد بهجت ، فقه اللهجات العربيات ، دار شمأل ١٩٩٩ ط١ . ص١٧.
(٢٧) جواد – حسن فاضل ، مرجع سابق ص١٤٦ ، ١٤٧.
(٢٨) علي – جواد ، ص٢٤٥.
(٢٩) أبوعساف – علي ، الآراميون ، دار الأماني ، سوريا ١٩٨٨ ط١ ، ص٩٩ ، ١٠١.
(٣٠) علي جواد ، مرجع سابق ص٢٤٩.

الدكتور بشار خليف في سطور:

كاتب وباحث سوري من مواليد دمشق عام ١٩٥٧. له كتابات في القصة القصيرة والشعر ، ودراسات أثرية وتاريخية. عضو إتحاد الكتاب العرب (دمشق) وعضو اتحاد الآثاريين العرب (دمشق). كتب في عدد وافر من الصحف والمجلات العربية المطبوعة والإلكترونية مثل: الحياة اللندنية - مجلة ديوان العرب- مجلة البناء - صباح الخير اللبنانية. صحيفة تشرين السورية - الأبجدية الجديدة- الديار اللبنانية.

دورية إلكترونية. محكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

موقف بريطانيا من الخلاف الحدودي

بين البحرين والسعودية حول فشت أبو سعفة

1941 - 1958

د.حيدر عبد الرضا حسن التميمي

مدرس التاريخ الحديث والمعاصر

قسم التاريخ – كلية الآداب

جامعة البصرة – جمهورية العراق

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

حيدر عبد الرضا حسن التميمي، موقف بريطانيا من الخلاف الحدودي بين البحرين والسعودية حول فشت أبو سعفة (١٩٤١ – ١٩٥٨).- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث عشر؛ سبتمبر ٢٠١١. ص ٤٤ – ٤٨.

(www.historicalkan.co.nr)

مقدمة

يعد ظهور النفط في منطقة الخليج العربي، البداية الحقيقية لتفاقم المشكلات الحدودية في هذه المنطقة إذ أدى اكتشافه واستثماره بكميات تجارية إلى سعي الحكومات العربية إلى تحديد حدودها سواء البرية أو البحرية منها، ونتيجة لذلك حدثت عدد من المشكلات الحدودية، منها النزاع حول "فشت أبو سعفة" الواقعة في المياه الضحلة بين السعودية والبحرين. وكانت بريطانيا ممثلة عن الأخيرة في ذلك الخلاف باعتبارها المشرفة على إدارة السياسة الخارجية لإمارات الخليج العربي بموجب معاهدات الحماية المبرمة بينها وبين هذه الامارة سنة ١٨٨٠م، وعليه كانت هي التي تتولى عملية التفاوض بهذا الشأن، وبذلك تتمكن من حماية مصالحها أولاً وقبل كل شيء دون الاهتمام بمصالح الإمارات الداخلة في حمايتها.

وقد هدف البحث في موقف بريطانيا من النزاع حول فشت أبو سعفة بين السعودية والبحرين، إلى تسليط الضوء على أهمية المنطقة المتنازع عليها، والحجج التي قدمها كلا الطرفين، فضلاً عن الخطط والسياسات البريطانية لضمان مصالحها بالدرجة الأساس ومصالح البحرين الداخلة في حمايتها وتحقيق اكبر قدر ممكن من المنافع. ونظراً لعدم توفر بحث أكاديمي وثائقي مستقل حول موضوع الخلاف المذكور، جاءت بعض المعلومات عن فشت أبو سعفة بشكل إشارات اقترنت بالخلاف على جزيرتي (لبينة الكبرى ولبينة الصغرى) بين السعودية وبريطانيا بالنيابة عن البحرين فقد وقع الاختيار للكتابة في الموضوع.

اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى تمهيد ومحورين فضلاً عن المقدمة والخاتمة، تناول التمهيد نشأت الخلاف الحدودي بين السعودية والبحرين، وتناول المحور الأول: موقف بريطانيا من الخلاف حول فشت أبو سعفة ١٩٤١ – ١٩٥٥، أما المحور الثاني، فقد تطرق إلى الخلاف حول فشت أبو سعفة خلال المدة ١٩٥٥ – ١٩٥٨ ومن ثم توقيع الاتفاقية بين البلدين.

اعتمد البحث على عدة مصادر، يأتي في مقدمتها المجموعة الوثائقية التي تحمل اسم " Arabian Boundaries " حيث تضمن الجزء العاشر منه مجموعة المراسلات والبرقيات والوثائق الخاصة بالحكومة البريطانية والمتعلقة بالخلاف الحدودي حول فشت أبو سعفة، وفضلاً عن ذلك فقد تم الاعتماد على عدد من الرسائل الجامعية غير المنشورة وبعض الكتب العربية المهمة لعل أهمها كتاب عبد الله الأشعل بعنوان (قضية الحدود في الخليج العربي) إذ احتوى هذا الكتاب على معلومات مفيدة تناولت النزاع السعودي – البحريني، فضلاً عن مصادر أخرى في قائمة المصادر والمراجع كان لها الأهمية ولو قليلة في إنماء البحث وكانت أغلب المصادر العربية قد تناولت الموضوع بصورة مبسطة غير معتمدة على السرد التاريخي والتركيز على نهاية الصراع وعقد الاتفاقية دون ذكر أهم أسباب الخلاف ونشأته، ولاحظت ذلك واضح في رسائل الماجستير لعبد الجبار الكعبي (الاتفاقات الحدودية في الخليج العربي)، وكذلك عند جنان جميل سكر (المجالات البحرية للدول الساحلية في الخليج العربي) حيث ركزا فقط على موقعها الجغرافي وأهميتها دون ذكر أهم تفاصيل الخلاف ودوافعه ونتيجته.

دورية إلكترونية. محكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

نشأت الخلاف الحدودي بين البحرين والسعودية ١٩٣٨

تفصل بين المملكة العربية السعودية والبحرين مياه الخليج العربي بمسافة ١٥ميل وبناءً على ذلك ، فإن النزاع الحدودي بينهما يتركز على منطقة ضحلة تسمى " فشت أبو سعفة"[١] حيث تقع جزيرتا لبينة الكبرى والصغرى ، وبما أن البحرين تقع في مدخل خليج سلوى بين السعودية وقطر ، من جهة أخرى فإنه لا توجد خلافات برية بين البحرين والسعودية ، وإنما انصب على الجزيرتين المشار إليهما[٢].

بدأ الملك عبد العزيز آل سعود بالتفكير في رسم حدود بلاده البحرية مع البحرين على اثر توصله إلى اتفاق بشأن ضرائب المرور "الترانزيت" مع البحرين ، وقد جاءت الفرصة المناسبة لفتح موضوع الحدود عندما بادرت البحرين إلى وضع علامات بحرية لإرشاد السفن على بعض الجزر الواقعة بين السعودية والبحرين ، ويبدو أن الهدف الحقيقي من ذلك هو إثبات تبعية تلك الجزر لها. أثار العمل الذي أقدمت عليه البحرين الحكومة السعودية ، فبادرت إلى تقديم مذكرة احتجاج إلى المفوض البريطاني في جدة أوضحت بها أن تلك الجزر هي جزر سعودية[٣] ، وبخاصة فيما يتعلق بحقوقها في جزيرتي لبينة الكبرى ولبينة الصغرى[٤] ، اللتان تقعان إلى الشمال الغربي من البحرين وبشكل أكثر قرباً إلى الساحل السعودي منه إلى الساحل البحريني[٥].

ونتيجة لما تقدم فقد بدأت سلسلة من المباحثات والمراسلات بين الحكومة البريطانية — التي كانت مسئولة عن إدارة السياسة الخارجية للبحرين كما أشرنا ، وبين الملكة العربية السعودية قدم خلالها كل طرف من الأطراف المتنازعة الحجج والبراهين التي تثبت أحقيتها في الجزر المشار إليها ، ويبدو أن اهتمام بريطانيا كان منصباً في المحافظة على الجزر ، وذلك لوجود النفط فيها[٦]. إذ أنه في الوقت الذي كانت السعودية تشهد فيه تدفقاً مطرداً في ثرواتها النفطية ، كانت البحرين تشهد بداية نضوب أبارها التي بدأ استثمار النفط فيها منذ بداية الثلاثينيات[٧].

ومن هنا نرى أن موقف بريطانيا في تلك الفترة كان منصباً بالدرجة الأساس على محاولة تقديم الحجج والبراهين التي تثبت عائدية الجزر للبحرين ، فبريطانيا كانت حريصة كل الحرص على بقاء الجزر المتنازع عليها في حوزة البحرين للاستفادة من ثرواتها النفطية وبخاصة وأن البحرين كانت تشهد تناقصاً في إنتاجها النفطي بالإضافة إلى ارتباطها مع البحرين باتفاقيات ومعاهدات عدة ضمنت لهم السيطرة على مقدرات البلاد وعززت مصالحها فيها[٨] فقد تعهد الشيخ عيسى على نفسه ومن يخلفه من بعده في حكم البحرين (بالامتناع عن الدخول في مفاوضات أو إبرام معاهدات من أي نوع ومع أي دول غير الدولة البريطانية) ومن هنا يمكننا أن نرى الموقف البريطاني من النزاع حول فشت أبو سعفة.

موقف بريطانيا من الخلاف حول فشت أبو سعفة ١٩٤١ – ١٩٥٥

بدأ النزاع حول فشت أبو سعفة يظهر إلى الوجود ، وبشكل ملفت للنظر ، عندما منحت حكومة البحرين في عام ١٩٤١ امتيازاً لشركة نفط البحرين المحدودة (The Bahrain Petroleum Co.) للتنقيب عن النفط واستثماره هناك[٩].

وعلى الرغم من أن شيخ البحرين منح الشركة المذكورة امتياز التنقيب عن النفط واستثماره في فشت أبو سعفة ، إلا انه في الوقت نفسه لم يكن مطمئناً ، وهذا بدا واضحًا في البرقية التي بعثها بلكريف " Plgrif " مستشار الحكومة البريطانية إلى الوكيل السياسي في البحرين التي أشار فيها إلى أن شيخ البحرين يعلم أن فشت أبو سعفة اقرب إلى الساحل السعودي منه إلى الساحل البحريني الأمر الذي من الممكن أن يثير المملكة العربية السعودية ويجعلها تطالب بفشت أبو سعفة ، وبالتالي اضطرت البحرين إلى سحب ادعائه[١٠].

غير أن المقيم البريطاني في الخليج العربي كان يرى ، أنه في حالة ادعاء ابن سعود بفشت أبو سعفة فانه من الضروري أن تعلن الحكومة البريطانية أن الجزيرة تابعة للبحرين ، سيكون ذو نفع أكثر من أن يقوم شيخ البحرين بسحب ادعائه ، كما حثت بريطانيا شيخ البحرين أن لا يقوم بأي سحب رسمي لادعائه السابق في الجزيرة ريثما تتم مناقشة قضية الفشت مع المملكة العربية السعودية[١١].

أما عن موقف المملكة العربية السعودية من منح الامتياز النفطي لشركة نفط البحرين ، فقد اعترضت بشدة على منح الامتياز المذكور ونتيجة لذلك فقد أوقفت الشركة عملها في استثمار النفط في أبو سعفة لحين حل مسألة السيادة عليها بين الجانبين السعودي والبحريني[١٢]. غير أن الأوضاع استمرت على ما هي عليه دون تسوية لتصفية النزاع حول المناطق الحدودية بين البحرين والمملكة العربية السعودية حتى سنة ١٩٥١ ، ويبدو أن السبب كان يكمن في ظروف الحرب العالمية الثانية وانشغال الحكومة البريطانية بمعالجة الآثار التي خلقتها الحرب لذلك فان بريطانيا لم تستأنف عملية متابعة النزاع الحدودي إلا في عام ١٩٥١[١٣] ، حيث اتجه الجانبان إلى مائدة المفاوضات لتسوية المسألة فكانت الحكومة البريطانية قد وجهت دعوة إلى الأمير فيصل ، وزير خارجية المملكة العربية السعودية لزيارة لندن من اجل التباحث بشأن الحدود الساحلية لكل من السعودية والكويت والبحرين. وفي المؤتمر الذي عقد في لندن من الثامن ولغاية الرابع والعشرين من آب ١٩٥١ ، تم التباحث بشأن الحدود الإقليمية بعامة ومن ضمنها موضوع فشت أبو سعفة مع الجانب البريطاني الذي كان يرأسه المستر هربرت موريس (H. Morris)[١٤].

وخلال المحادثات اقترحت بريطانيا أن تعطي جزيرتي لبينة الكبرى والصغرى وفشت الجارم وفشت أبو سعفة إلى البحرين ، مقابل أن يعطي فشت نبوة العراقي إلى السعودية ، بينما اقترح الوفد السعودي أن تعطي جزيرة لبينة الصغرى وفشت الجارم ونبوة عراقي إلى البحرين في حين تعطي لبينة الكبرى وفشت أبو سعفة للمملكة ، ونتيجة لتعارض وجهات النظر لم يتوصل الطرفان إلى اتفاق حول الموضوع مع العلم أن الأمير فيصل وعد الحكومة البريطانية بنقل المقترحات التي طرحت على مائدة المفاوضات إلى الملك عبد العزيز ويتضح من الوثائق أمامنا أن تمسك بريطانيا بفشت أبو سعفة مرده إلى أن وزارة الخارجية البريطانية لديها معلومات تفيد بأنه لو حصلت على نصف المياه الضحلة لفشت أبو سعفة فان ذلك سيكون مهماً تجارياً إذا ثبت وجود النفط هناك لذلك فان بريطانيا لم تكن مستعدة للتنازل عن فشت أبو سعفة وإنما النصف إذا كان ذلك ضرورياً لحل مسألة الحدود[١٥].

وفي اجتماع بين الوكيل السياسي في البحرين والشيخ سلمان بن حمد الخليفة شيخ البحرين بتاريخ الخامس والعشرين من أيلول سنة

دورية إلكترونية محكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

١٩٥١، تمت فيه مناقشة قضية الخلاف الحدودي بين البحرين والمملكة العربية السعودية واتضح فيه أن الشيخ سلمان كان متجهاً للحصول حتى ولو نصف فشت أبو سعفة لغرض الانتفاع من موارده النفطية التي هو بحاجة لها[١٦].

وعلى أثر ذلك كتب[١٧] الوكيل السياسي في البحرين إلى المقيم البريطاني في الخليج العربي يعلمه باجتماعه بشيخ البحرين، وموافقة الأمير على الملاحظات البريطانية بشأن تقسيم الجزر والفشوت المتنازع عليها وبين قلق شيخ البحرين أنه في حالة تنازل البحرين عن نصف فشت أبو سعفة إلى المملكة العربية السعودية لا يمكن لشركة نفط البحرين عند ذلك الوصول إلى منطقة (اليفريوس) إحدى المناطق التي تقع على المناطق الضحلة لفشت أبو سعفة[١٨].

وفي التاسع من تشرين الثاني ١٩٥١م، أوضحت وزارة الخارجية البريطانية رأيها فيما يخص فشت أبو سعفة، بما يفيد أن شركة نفط البحرين تريد أن تعرف الخط الذي يجب أن تقترحه الحكومة البريطانية للتقسيم، وأن هذا الخط يجب أن يترك منطقة كافية من المناطق الضحلة على الجانب البحريني كي تقوم الشركة بعمل استثماري نفطي مهم ومجدي من الناحية الاقتصادية. في حالة اكتشاف النفط هناك على الرغم من أن الحكومة البريطانية حرصت على أن تبين لشيخ البحرين بان كل ما تقدمت به هو مجرد اقتراحات لحل المشكلة بطريقة سلمية، إلا أنها لم تقدم أي تعهدات أو ضمانات بذلك الخصوص[١٩].

استمرت المفاوضات البحرينية – السعودية بشأن الفشوت المتنازع عليها. وفي تلك الأثناء عرض شيخ البحرين فكرة تقسيم فشت أبو سعفة إلى قسمين، القسم الغربي المواجه للأراضي السعودية يؤول للأخيرة، في حين تحصل البحرين على القسم الشرقي المواجه لحدودها الغربية[٢٠].

غير أن الخلاف الشديد الذي حصل آنذاك، بين الحكومة البريطانية والمملكة العربية السعودية حول واحة البريمي[٢١]، وقيام القوات البريطانية باحتلال الواحة في عام ١٩٥٣ قد انعكس على سير المفاوضات وأدى إلى التوتر بين السعودية وبريطانيا[٢٢]، الأمر الذي أدى إلى تعثر سير المفاوضات بشأن مسألة الحدود بين البحرين والسعودية مما أدى إلى توقفها في الأقل.

الخلاف حول فشت أبو سعفة ١٩٥٥– ١٩٥٨ وتوقيع الاتفاقية الثنائية

في سنة ١٩٥٥ قررت الحكومة البريطانية استئناف المفاوضات مع الجانب السعودي حول قضية المشكلات الحدودية المعلقة، ومنها مشكلة فشت أبو سعفة، وتمشياً مع هذا الوضع زار المقيم السياسي البريطاني في الخليج المملكة العربية السعودية، في نيسان من العام المذكور، وأجرى المحادثات مع الملك سعود بن عبد العزيز وبعض المسئولين في وزارة الخارجية السعودية غير انه لم تسفر تلك المحادثات عن شيء يذكر.

واستكمالاً للجهود التي بدأتها بريطانيا لحل المشكلة الحدودية، زار وكيل الخارجية البريطانية دووز باكر (Doss Baker)، في نيسان ١٩٥٦ المملكة العربية السعودية بقصد تحسين الأجواء التي عكرتها مشكلة البريمي، ومناقشة جدول المحادثات المقترحة، إلا أنه من الملاحظ أن العربية السعودية لم تبدي اهتماماً كبيراً بالموضوع، لأن اهتمامها الأول كان منصباً على حل وحسم مشكلة البريمي أولاً. ومما زاد الأمر سوءاً هو قطع العلاقات الدبلوماسية بين بريطانيا والمملكة العربية السعودية، في تشرين الثاني ١٩٥٦، بسبب العدوان الثلاثي على مصر في سنة ١٩٥٦[٢٣] ونتيجة لذلك فقد طالبت بريطانيا شيخ البحرين بتقديم التنازلات وإجراء محادثات مباشرة مع الحكومة السعودية لحل المشكلات المعلقة[٢٤].

ويظهر أن الحكومة البريطانية كانت ترغب في الوصول إلى تسوية للنزاع الحدودي البحريني السعودي، وذلك لخشيتها على أمن البحرين، الذي من الممكن أن يهدده السعوديون من جهة، ومن جهة أخرى لرغبتها في تحسين العلاقة التي تعكرت بين بريطانيا والسعودية بسبب العدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦. وما كان من الشيخ سلمان بن حمد الخليفة إلا الاستجابة للطلب البريطاني، بإجراء الاتصال المباشر مع الحكومة السعودية، وقد أبلغ بذلك المقيم السياسي، في الخليج العربي، الأمر الذي لقي استجابة وترحيباً من الحكومة البريطانية. وفي الوقت نفسه أرسل المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي برقية إلى وزارة الخارجية البريطانية، يستعلم فيها عن رأيها بشأن الخطط المقترحة للتقسيم الخاص لفشت أبو سعفة[٢٥].

ونتيجة لهذه البرقية بدأت الأوساط السياسية البريطانية بمناقشة مسألة الاتصال المباشر بين الشيخ سلمان حاكم البحرين وبين السعوديون وبيان الايجابيات بمجموعة من النقاط:

١- رأى بعض المسئولين البريطانيين أن الاتصال شيء مهم لتسوية المشكلات المعلقة بين البحرين والسعودية، إلا أنه من ناحية ثانية قد يكون سابقة لشيوخ إمارات الخليج العربي لحل مشاكلهم بعيداً عن بريطانيا وهذا ما لا ترضاه الأخيرة نظراً لأنها المسئولة عن إدارة السياسة الخارجية لإمارات الخليج العربي.

٢ - رأى سمبسون (Simpson)، المستشار القانوني لوزارة الخارجية البريطانية، تأجيل المفاوضات إلى حين تمكن بريطانيا من إجراءها بنفسها، لأنه لا يمكن التكهن بما قد تسفر عنه المفاوضات المباشرة بين السعودية والبحرين[٢٦].

٣ - أما ريكس " Reks " وهو أحد المستشارين في وزارة الخارجية البريطانية فقد رأى أن اقتراح تشجيع الشيخ سلمان لتقسيم أسهم فشت أبو سعفة مهم جداً على أن ينظر إليه بحذر لأن التسوية التي يمكن التوصل إليها يكون قد تضر بالمصالح البريطانية[٢٧].

٤ - هذا وقد عارض السير ولمسي (A.R.Walmsy)، وهو مستشار في وزارة الخارجية البريطانية، الاقتراح بشأن الاتصال المباشر مع السعوديين من قبل الشيخ سلمان، شيخ البحرين، وأشار إلى ضرورة التباحث مع الأمريكان لمعرفة رأيهم في الموضوع.

٥ - وبين سحايين موبرلي (J.C Moberly) وهو مسئول آخر في وزارة الخارجية البريطانية أن هناك أسبابًا تدفع الحكومة البريطانية لتشجيع الاتصال المباشر بين شيخ البحرين والسعوديين لتقسيم أسهم فشت أبو سعفة وحل المشكلات الحدودية، وقد بين أنه بإمكان الحكومة البريطانية أن تتابع الموضوع (أي أن تمسك بأحد أطراف الحبل) من خلال المقيم السياسي في الخليج العربي الذي سوف يكون على اطلاع تام بما يتم من مفاوضات، كما أوضح أن الحكومة البريطانية تستطيع الاعتراض على أي خطوة يتخذها الشيخ والملك السعودي من الممكن أن تضر بالمصالح البريطانية[٢٨].

دورية إلكترونية محكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

ويظهر مما تقدم ذكره أن المسئولين البريطانيين في وزارة الخارجية كان لكل منهم أراء وتحفظات في موضوع فسح المجال لشيخ البحرين للقيام بالتفاوض مباشرة مع الملك سعود بن عبد العزيز. وعلى أية حال، أوعزت الحكومة البريطانية إلى الشيخ سلمان حاكم البحرين للبدء بالتفاوض المباشر مع السعوديين، وقد رحب الشيخ بالأمر، وما لبث أن قرن القول بالفعل، فتوجه إلى المملكة العربية السعودية وأجرى محادثات مباشرة مع الملك سعود بن عبد العزيز وتوصل الطرفان إلى اتفاقية حسمت الموضوع، وقعت في الرياض في الثاني والعشرين من شباط ١٩٥٨، وقد وقعها عن الجانب السعودي الملك سعود بن عبد العزيز في حين وقعها عن الجانب البحريني الشيخ سلمان بن حمد الخليفة حاكم البحرين[٢٩].

اتفق الطرفان على توزيع النفط المستخرج من فشت أبو سعفة مناصفة دون حاجة إلى تقسيم الحقل نفسه من الجهة الجغرافية وهكذا اتفق على تنازل البحرين عن مطلبها الخاص بالسيادة على فشت أبو سعفة مقابل التزام السعودية بمنح البحرين العائد الصافي من النفط الذي تستخرجه السعودية من الحقل الذي يقع في نطاق اختصاصها المطلق هذا وتضمنت الاتفاقية بنوداً تتعلق بجزيرتي لبينة الكبرى ولبينة الصغرى حيث اتفق الطرفان على أن تمنح السعودية لبينة الكبرى، وتحصل على الصغرى دون أن يكون لأيهما مياه إقليمية رغم أن حرمانها من المياه الإقليمية اتفق عليه شفاهة ولم يرد في الاتفاق المبرم[٣٠]، دون الخوض في موضوع المياه الإقليمية[٣١].

وبعد عودة الشيخ سلمان من السعودية ومن أجل أن تصبح الاتفاقية نافذة المفعول كتب إلى الوكيل السياسي البريطاني في البحرين وسالتين بهذا الخصوص، وكانت نتيجتها موافقة الحكومة البريطانية على تصديق الاتفاقية، و بهذه الاتفاقية انتهى النزاع الحدودي بين البحرين والسعودية وكان لبريطانيا أثر واضح، حيث شجعت شيخ البحرين لإجراء مفاوضات مباشرة مع السعودية وعقد اتفاقية بخصوص المناطق المتنازع عليها بين البلدين بعد أن عجزت هي بصفتها الدولة المسئولة عن إدارة السياسة الخارجية للبحرين[٣٢]. إلا أن هذه التسوية ما زالت تعد غير نهائية في العقل الباطن للسياسة السعودية البحرينية ومن الممكن أن تتفجر في أي لحظة[٣٣] في حالة تأزم العلاقة بين البلدين.

الخاتمة

يتبين من المعلومات الواردة في البحث أنه:

- لقد كان ظهور النفط من الأسباب الرئيسية التي أدت إلى ظهور مشاكل الحدود في منطقة الخليج العربي، بسبب تكالب دول منطقة الخليج العربي على ترسيم حدودها البرية البحرية بغية المحافظة على مصالحها. ومن هنا بدأت مشاكل الحدود بين السعودية والبحرين التي مثلتها بريطانيا باعتبارها الدولة المسؤولة عن إدارة السياسة الخارجية للبحرين بموجب المعاهدات المعقودة بين بريطانيا وإمارات الخليج العربي، الأمر الذي منحها حق التفاوض والتباحث في كل ما يخص الشؤون الخارجية لإمارة البحرين، لذلك فقد تولت بريطانيا تمثيل البحرين في النزاع مع السعودية حول فشت أبو سعفة.
- لقد كان منح شيخ البحرين لامتياز التنقيب عن النفط في فشت أبو سعفة إلى الشركة نفط البحرين، هو السبب الذي أدى إلى بروز مشكلة فشت أبو سعفة وذلك لان السعودية ادعت أن هذه المنطقة، هي منطقة سعودية وبالتالي لا يحق للبحرين أن تمنح أي امتياز منها ما أن تحسم قضيتها فبدأت نتيجة ذلك سلسلة من المباحثات والمفاوضات في لندن وجدة والرياض في السعودية لحسم القضية.
- لقد تميز الموقف البريطاني من النزاع بين البحرين والسعودية بالتغير والتبدل تبعًا للظروف، إلا أنه من ناحية أخرى كان منصبًا على المحافظة على المصالح البحرينية وقد كان ذلك ليس بدافع الجود والإحسان، وإنما يهدف إلى تأمين المصالح البريطانية التي هي نفطية بالدرجة الأولى إذ كانت المنطقة موضوع النزاع تحوي النفط في المياه الضحلة الغربية منها.
- لقد أدى الاحتلال البريطاني لواحة البريمي ومن ثم العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ إلى قطع العلاقات الدبلوماسية بين بريطانيا والسعودية الأمر الذي أثر على مسألة حسم المشكلة الحدودية بين البحرين والسعودية، ونتيجة لذلك فقد أخذت بريطانيا تبحث عن حلول أخرى، وذلك من خلال حث شيخ البحرين على فتح باب المفاوضات المباشرة بين السعودية والبحرين دون أن يكون لبريطانيا أي حضور، إلا أن هذا الاقتراح عندما عرض على بساط المناقشة في وزارة الخارجية البريطانية، حظي بالقبول من بعض السياسيين في حين عارضه البعض الآخر بشدة، وقد كان لكل من الفريقين أسبابه، إلا انه في النهاية اتخذت الحكومة البريطانية قراراً يقضي بالاتصال المباشر بين السعودية والبحرين لتعذر الاتصال البريطاني — السعودي بشكل مباشر الأمر الذي اعتبر انتصاراً للفريق الأول الذي وافق على فكرة الاتصال المباشر، غير أنه من جهة ثانية اعتبر تنازلاً بريطانياً وإن لم يكن بشكل مباشر عن بعض صلاحياتها في إدارة السياسة الخارجية للبحرين، إذ كانت بريطانيا في المرحلة السابقة لا تسمح بالمساس بهذا الدور خشية أن يؤثر ذلك على وجودها في المنطقة.
- لقد كان الاتصال المباشر بين البحرين والسعودية ذو فائدة في حسم النزاع حول فشت أبو سعفة إذ استطاع الطرفين التوصل إلى اتفاقية ثنائية، تنازلت فيها البحرين عن فشت أبو سعفة من الناحية الجغرافية، إلا أنها استطاعت أن تضمن الحصول على عوائد النفط المتأتية من المنطقة موضوع النزاع. إذ كان من الصعوبة أن يتم تقسيم المنطقة بين السعودية والبحرين لاسيما وهي منطقة صغيرة جدًا الأمر الذي يجعل من المنطقة منطقة تماس واحتكاك الأمر الذي قد يولد المشكلات في المستقبل.

دورية إلكترونية. محكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

خارطة توضح موقع فشت أبو سعفة بالنسبة للبحرين والسعودية

المصدر: علي ابا حسين ، ارخبيل البحرين في الوثائق التاريخية " الوثيقة " ، (مجلة)، السنة ١٥ ، ع٢٩ ، كانون الثاني ، ١٩٩٦.

الهوامش:

(١) يقع فشت أبو سعفة (Fahat Bu Sa'afa Hexagon) في المنطقة البحرية الفاصلة بين البحرين والمملكة العربية السعودية ، وهي منطقة غنية بالنفط وقد ادعت البحرين ملكيتها ؛ حنان جميل سكر ، المجالات البحرية للدول الساحلية في الخليج العربي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، بغداد ، ١٩٩٨ ، ص ٤٠.

(٢) فيصل عودة الرفوع السعودي " العلاقات الخليجية الخليجية: الخلافات الحدودية نموذجاً" ، بحث ضمن ندوة الخليج العربي في ضوء المتغيرات الدولية المعاصرة ، رؤية مستقبلية ، مركز دراسات الخليج العربي ، جامعة البصرة ، ٢٦ – ٢٥ آذار ١٩٩٥ ، ص١٩.

(3) Arabian Boundories, Primary Document 1851 — 1957, Editor: Richard Scho field and Gerald Black, Vollo, Archive. Ebitions, 1988, Tel. From his minister, Jedda to political Resident in the (pertain) Gulf, Bushire, 2 November , 1938 .

(4) Ibid ., R / 15 / 2 / 548 , No. C 1679 — 7. A 129. Express Letter from Political Agent, Bahrain to Political Resident, Bushire, 5 November, 1938.

(٥) حنان جميل سكر ، الرسالة السابقة ، ص٣٠٩.

(٦) وداد خضير حسين الشتيوي ، موقف بريطانيا من النزاع الحدودي بين البحرين والمملكة العربية السعودية ١٩٣٨ — ١٩٥٨ ، سلسلة بحوث الخليج العربي ، العدد ٤ ، السنة الأولى ، ٢٠٠٠ ، ص ٤ ، ٨.

(٧) عبد الله الأشعل ، قضية الحدود في الخليج العربي ، مصر ، ١٩٧٨ ، ص ٤٠.

(٨) زاهية قدورة ، تاريخ العرب العام ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧١ ، ص١٠٣ ص١٠٤.

(٩) حنان جميل سكر ، المصدر السابق ، ص ٣١٠ ؛ عبد الله الأشعل ، المصدر السابق ، ص ٤٠ ؛ فيصل عودة المصدر السابق ، ص١٩.

(10) Arabian Boundaries OP. Cit, L / pands / 12 / 3907 — Mr. C.D. Belgrave, advisers to the government of Bahrain to Mr. E. B. walk field, 20 February 1942.

(11) Ibid, panes / 12 / 3907. Sir W,R way, political Resident, Bushire to the political Agent, Bahrain, 19 March 1942.

(١٢) عبد الله الأشعل ، المرجع السابق ، ص ٤٠.

(13) Arabian Boundaries, op . cit. , Fo / 0 / 6 , 71 . Mr. C. J. pelly, political Agent Bahrain to Mr. C. D. Belgrave, Adviser to the government of Bahrain, 6 January 1951.

(١٤) حسين عبد القادر محيي عيسى التميمي ، الخلاف الحدودي القطري السعودي ١٩١٣ — ١٩٥٦ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة البصرة ، كلية الآداب ٢٠٠١ ، ص٥٨.

(15) Arabian Boundaries, op. Cit. , Mr. W.S. Laver, political Agent Bahrain to Mr. C.D. Belgrave : 926 October 1951.

(16) Ibid, Fo 1018171, Mr. S.W. Laver to C.D. belgrave, 2 December, 1951.

(17) Ibid, Fo 1018 / 71 Shaikh Salman bin Hamad Al- Khalifa to Mr. c.d. Pelly, 9 October, 1951.

(18) Ibid, Fo 1016 / 71 . Mr. C.d pelly to Mr. C.m. Lequesne, 13 October, 1951.

(١٩) وداد خضير الشتيوي ، المصدر السابق ، ص١٥-١٦.

(20) Arabian Boundaries, op. Cit, Fo 1018 / 186 Shakh Salman bin Hamaad Al — Khalifa to political Agent, Bahrain, 14 January 1952.

(٢١) أصبحت واحة البريمي منطقة نزاع دولي بين كل من بريطانيا المسيطرة آنذاك على شؤون أبو ظبي ، وبين أمريكا التي تدعم موقف المملكة العربية السعودية في ادعائها على واحة البريمي على اعتبار أنها جزءًا من أراضيها ، وكان لاكتشاف النفط اثر كبير في تنافس الشركات البريطانية والأمريكية عليها وقد أدت بالنهاية إلى احتلال بريطانيا للواحة. للتفاصيل ينظر: عبد المنعم إبراهيم ، النفط بين السياسة والاقتصاد ، الكويت ، ١٩٧٤ ، ص٣٠٥.

(٢٢) حدث العدوان الثلاثي الذي قامت به بريطانيا وفرنسا والكيان الصهيوني على مصر في التاسع والعشرين من تشرين الأول عام ١٩٥٦ ، على أثر تأميم مصر قناة السويس لاستثمار مواردها المالية في بناء السد العالي ، ولمزيد من التفاصيل عن هذا العدوان ينظر: محمد عبد الرحمن برج ، من السويس إلى بنزرت: دراسة تاريخية مقارنة بين الحركة الوطنية في مصر وتونس ، القاهرة ، د.ت ، ص١٢٥-١٢٦.

(٢٣) وداد خضير الشتيوي ، المصدر السابق ص١٧ ؛ رياض جاسم الاسدي ، الاندفاع السعودي الجنوبي الشرقي في الخليج ، الخليج العربي ، مجلة ، ع١ ، ٢٠٠ ، ص٣٧.

(24) Arabian Boundaries op. cit. Fo 371 / 12 / 9634, Sir B.A.B. Barrows, political Resident, Bahrain Mr. D.M.H Riches Foreign office, 8 May, 1957.

(25) Ibid. Fo 371 / 12 / 6937 , No , EA. 1086 / 56. Minat on the possibility of encouraging the Rule of Bahrain to approach the saudis with the object of promoting a settlement of the fash thu saafa 21 — 24 may may, 1957.

(26) Ibid. Fo 371 / 12 / 6934 / No EA 1088 Note on the Bahrain — Saudi Seahed Frontier by Mr. P.M.H. Riches, 27 may 1957.

(27) Ibid, Fo 371 / 12 / 6934; No, EA. 1086 / 56. Ibid. P. 132-133.

(٢٨) وداد خضير الشتيوي ، المصدر السابق ، ص٢١ ؛ عبد الجبار الكعبي ، الاتفاقيات الحدودية في الخليج العبي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة بغداد ، كلية الآداب ، ١٩٩٧ ، ص١٣٠.

(٢٩) عبد الله الأشعل ، المصدر السابق ، ص٤٠ - ٤١ ؛ حنان جميل سكر ، المصدر السابق ، ص٣٠٧-٣٠٨.

(٣٠) فيصل عودة ، المصدر السابق ، ص١٩.

(٣١) وداد خضير حسين الشتيوي ، المصدر السابق ، ص٢١-٢٢.

(٣٢) للتفاصيل أكثر يُنظر: د. محمد متولي ، حوض الخليج العربي ، الأوضاع السياسية والاقتصادية ، ج٢ ، ط١ ، مصر١٩٧٤ ، ص٥٥٦ وما بعدها.

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

العلاقات العثمانية - المغربية خلال القرن السادس عشر

أحمد سالم علي
مفتش آثار إسلامية
المجلس الأعلى للآثار
الإسكندرية – جمهورية مصر العربية

مقدمة

لعبت العلاقات المغربية العثمانية بعد دخول العثمانيين الشمال الأفريقي دورًا هامًا في مطلع التاريخ الحديث ، وبناءً على هذه العلاقات التي استمرت منذ ذلك الوقت تشكلت علاقات أخرى متشعبة بين دول المنطقتين الأوروبية والأفريقية مثل اسبانيا والبرتغال على الجانب الأوروبي ، وبعض ممالك غرب أفريقيا مثل غانا والسودان الغربي على الجانب الآخر ، وقد تأسست تلك العلاقات بين الدولة العثمانية والمغرب منذ مطلع القرن السادس عشر الميلادي مع بدء حركة المقاومة في الشمال الأفريقي ضد الأسبان والبرتغاليين.

إن علاقات المغرب بالدولة العثمانية تكتسي أهمية خاصة ، باعتبار أن المغرب ظل البلد الوحيد من بلدان العالم العربي الذي أفلت من الخضوع للإمبراطورية العثمانية ، كما أن المغرب كان يمثل مسرحًا للصراع بين المسيحية ممثلة في الدول الأوروبية والإسلام ممثلاً في دولة الخلافة العثمانية.[1] ولعل هذا الصراع الذي ظل قائمًا بين البلدين كان صراعًا على النفوذ وأحقية هذا النفوذ في المقام الأول ، وهذا ما لم يحدث بين الدولة العثمانية وأي بلد آخر من بلدان العالم العربي سوى المغرب التي نازعت دولة الخلافة في السلطة الروحية التي دانت لها كافة أقطار العالم الإسلامي السني.

فمنذ تولى الأشراف السعديين السلطة في المغرب وجدوا أنهم أحق بخلافة المسلمين وبالفعل أتخذ بعض الحكام السعديين لقب الخليفة ، وكان هذا استنادا لنسبهم الشريف الذي يجعلهم أحق بالخلافة من الترك العجم ولذلك لم يعترفوا بالخلافة العثمانية ولم يدينوا لها ، وعلى النقيض من ذلك أحس العثمانيون أنهم أولى وأحق بشرف خلافة المسلمين ، فقد اعترف بهم شريف مكة نفسه وأعطاهم مفاتيح الكعبة وتلقب السلطان العثماني بخادم الحرمين الشريفين ، إلى جانب أن الدولة العثمانية كانت في ذلك الزمان أقوى الدول الإسلامية قاطبة بل أصبحت إمبراطورية ضمت بين جنباتها معظم أراضي الدولة الإسلامية الأولى بل وألحقت بها أقطار جديدة نشرت فيها الدين الإسلامي مثل شرق أوروبا ، هذا إلى جانب أنها تحمل على عاتقها الدفاع عن الإسلام والمسلمين في جميع أنحاء العالم .

وانطلاقًا من هذا التناقض قام الصراع بين الطرفين العثماني والمغربي الذي كان في بعض الأحيان صراعا عسكريا مباشرا وفي البعض الآخر صراعا متخفيا خلف قناع المهادنة. لقد كان حلم العثمانيين بعد إخضاعهم شمال إفريقيا لحكمهم في عهد السلطان سليمان القانوني هو إخضاع المغرب الأقصى أو عقد تحالف إسلامي من شأنه أن يعينهم على حربهم ضد الصليبيين وليتسنى لهم طرد الصليبيين نهائيا من أراضي المغرب بل وإعادة الأندلس لحظيرة المسلمين ، ولكن رغم ذلك باءت كل المجهودات في ضم المغرب بالفشل نتيجة لعقد الحكام المغاربة التحالف مع القوى الصليبية التي لها مصالح في المغرب مثل اسبانيا والبرتغال لضمان بقائم بمنأى عن التدخل العثماني هذا إلى جانب انشغال الدولة العثمانية في كثير من الأحيان بحروبها الأخرى المتعددة.

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
أحمد سالم علي ، العلاقات العثمانية المغربية خلال القرن السادس عشر .- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث عشر ؛ سبتمبر ٢٠١١. ص ٤٩ – ٥٤.
(www.historicalkan.co.nr)

دورية إلكترونية محكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الوجود البرتغالي في المغرب

وظهور الأشراف السعديين

كانت السلطة الحاكمة في المغرب الأقصى مع بداية التدخل العثماني الواسع النطاق في الشمال الأفريقي في القرن السادس عشر هي سلطة بني وطاس البقية الباقية من بني مرين والتي قد آلت إلى درجة من كبيرة من الضعف ، فكانت بذلك من الأسباب المباشرة لنجاح الغزو البرتغالي للمغرب الأقصى في القرن الخامس عشر وبدايات السادس عشر.

لقد مهد جيان الثاني الذي حكم البرتغال بين عامي (١٤٨١-١٤٩١م) لبسط النفوذ البرتغالي على مينائي آسفى وأزمور ، فقد عقد مع شيوخ القبائل في المناطق المحيطة بالميناءين معاهدات كفلت بعض الامتيازات للبرتغاليين حتى استطاع البرتغاليون في عهد الملك عمنوائيل الأول الذي اعتلى العرش عام ١٤٩١م من بسط نفوذهم على كل من آسفى وأزمور الواقعتين تحت الحكم الوطاسي الضعيف بواسطة الدسائس والاتفاقيات مع مشايخ القبائل في هاتين المنطقتين. ولقد عانى المواطنون خاصة في آسفى من تدخل النفوذ الأجنبي حيث أذاقهم البرتغاليون العذاب ألوانا ، وأهانوا المعابد الدينية ، وجعلوا المسجد الكبير محلاً للقاذورات ، وعبثوا بالمحارم ، واستباحوا التجارة في الأحرام فباعوا أهلها جهارًا ، وسفكوا الدماء ، ونهبوا الأموال ، وهدموا الدور.[٢] ولقد تم لهم السيطرة الكاملة على مدينة آسفى عام ١٥٠٨م وأزمور عام ١٥١٣م ، وبعد سيطرتهم الكاملة على المدينتين وبعض المدن الساحلية الأخرى الهامة مثل: ماسة ومازكان ومواداكور ، تطلعوا للسيطرة على مدينة مراكش نفسها ولكن حملتهم باءت بالفشل ، كما باءت بالفشل أيضًا حملتهم لاحتلال موقع المعمورة المنفذ البحري لمدينة فاس في نفس السنة.

كما كانت أنظار البرتغاليون متجهه إلى مدينة أكادير ، فقد كان لهذا الميناء أهمية خاصة باعتباره المنفذ لحاصلات منطقة السوس ومنتجاتها الوفيرة. وقد أدرك البرتغاليون هذه الأهمية منذ السنوات الأولى للكشوف الجغرافية فعمدوا منذ عام ١٤٤٧م لربط شيوخ القبائل في المناطق المجاورة باتفاقيات ، ومنذ أوائل القرن السادس عشر استطاع المغامر البرتغالي جو لوبيز (joao lopes sequira) عقد اتفاقيات تخول له وضع يديه على منطقة أو أكثر من الساحل المغربي على المحيط الأطلسي ، ولكنه تنازل للحكومة البرتغالية عن كافة حقوقه عام ١٥١٣م حيث حلت الحكومة محله وأصبحت المنطقة تحت إشرافها.[٣]

أما عن مدينة ماسة ؛ فقد أشارت الوثائق البرتغالية عن كيفية سيطرة البرتغال على هذه المنطقة ، حيث أعلن ثلاثة شيوخ قبائل في ماسة ولاءهم للملك البرتغالي ، وتعهدوا بتيسير بناء قلعة برتغالية في المكان الذي تراه البرتغال مناسبًا. ومن الوثائق يتضح لنا أنه حتى عام ١٥١٠م لم تكن سلطة البرتغال الرسمية قد بسطت على هذه المنطقة ، لكن البرتغال كانت تعتمد على ارتباطها ببعض شيوخ القبائل ، لكن منذ عام ١٥١٣م قد حلت الحكمة البرتغالية في إدارة هذه المنطقة مكان المغامر البرتغالي سالف الذكر.[٤]

حاولت الحكومة البرتغالية بعد ذلك بسط نفوذها على العاصمة مراكش ، ولكنهم فشلوا في ذلك واضطروا للانسحاب ، وكان لهذا الانتصار دورًا كبيرًا في تراجع النفوذ البرتغالي في المغرب بعد ذلك ، وقد شجع هذا الانتصار المغاربة على معاودة الهجوم على القوات البرتغالية في الثغور المغربية الأخرى ، وقد تضاعف فشل البرتغاليين في الوصول إلى مراكش بعد عجزهم عن توسيع نفوذهم في حوض نهر سبو بهدف فتح الطريق نحو فاس ، وبالرغم ما كانت تعانيه الدولة الوطاسية من ضعف في أيامها الأخيرة ، إلا أنها استطاعت بمعاونة الآلاف من الشباب المغربي المتحمس الدفاع عن مركز من أهم مراكز حضارته. ويعتبر جمهرة الكتاب البرتغاليين أن هذه الأحداث كانت نذيرًا بانحسار موجة التوسع البرتغالي في المغرب وينظرون لعصر عمانوئيل الأول على أنه قمة ما وصل إليه النفوذ البرتغالي في المغرب ، بينما يعتبرون عصر جيان الثالث (١٥٢١- ١٥٥٧م) عصر تصفية هذا النفوذ.[٥]

كان ضعف السلطة الوطاسية في فاس سببًا مباشرًا في ظهور الأشراف السعديين[٦] كمجاهدين لهم شعبية جارفة في المغرب بسبب نشاطهم الملحوظ ضد الاستعمار البرتغالي للساحل المغربي على المحيط الأطلسي ، وكانت هذه القوة الجديدة قوة برية على عكس قوة رؤساء البحر التي سيطرت على الجزائر ، ولقد نجح السعديون في تخليص كثير من الموانئ المغربية من أيدي الأجانب ، حيث ظهروا في بادئ الأمر في إقليم السوس وهو الإقليم الذي حاولت كل من البرتغال وأسبانيا احتلال مخارجه على المحيط الأطلسي. ولقد تحولت هذه القيادة الجديدة إلى دولة ثابتة مدعمة التف حولها الأهالي لكي تقوم بمهمتها تجاه الاستعمار ، وقد تمكنت هذه الدولة الناشئة من أن توحد الأهالي في جنوب المغرب وتحارب بهم قوات الاستعمار ، واستطاعت مد سلطتها على القبائل المحيطة ، وأصبحت أمل المغرب الأقصى في الاحتفاظ باستقلاله والوصول إلى وحدته.[٧]

وإذا كان الأشراف السعديون قد وصلوا إلى الحكم في أول الأمر كمحررين للمغرب الأقصى من الأخطار المحدقة به من الاستعمار ، فما لبثوا أن تحولوا بسرعة إلى قيادة إقطاعية ، تعتز بحسبها ونسيبها وتعتمد على الطبقات والحقوق والامتيازات ، وكان هذا نتيجة لنمو القيادة من ناحية ، وطبيعة تكوينها من ناحية أخرى ، وطبيعة القوى المجاورة لها وعلاقتها بها ، وتهديدها لامتيازاتها أو ترابط مصالحها معها.[٨]

ومع نمو سلطة قيادة الأشراف السعديين واتجاهها صوب الخارج اضطرت إلى أن تصطدم هناك بقوة الأجانب الموجودة في الموانئ ، ولكنها وصلت في نفس الوقت إلى سواحل كان أبناؤها يشاركون إخوانهم في الجزائر في عملية الجهاد البحري ضد المسيحيين ، وشعرت القيادة السعدية أن هذا التكامل بين رجال البحر من مغاربة وجزائريين يمثل خطرًا عليها ، وكان ذلك سببًا أساسيًا في اصطدامات وقعت بين الأشراف السعديين وبين كل من رجال البحر المغاربة والجزائريين ، وقد ظهرت هذه الاصطدامات في شكل محاولات متتالية لإخضاع الموانئ المغربية لسلطة الدولة السعدية ومحاولات أخرى لإبعاد نفوذ الجزائريين والعثمانيين عن شمال إفريقيا.[٩]

الدور العثماني في الصراع

بين بني وطاس والسعديين

على صعيد آخر استطاع الأتراك العثمانيون عام ١٥٤٨م القضاء على سلطة بني زيان نهائيًا في عاصمتهم تلمسان ، حيث أمسكوا بزمام الأمور بقوة وأقاموا على إمارتها الأمير حسن ووضعوا بها حامية من

دورية إلكترونية. محكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

مائتي تركي.[١٠] وهكذا أصبح العثمانيون على أعتاب المغرب الأقصى وبدؤوا في التطلع إلى إخضاع سلطنة فاس الوطاسية تمهيدًا لإخضاع باقي المغرب والشمال الأفريقي تحت حكمهم ، وقد تابع العثمانيون من منتصف القرن السادس عشر زحفهم غربي تلمسان وضموا إليها وجدة في شرقي المغرب ، وذهبت أساطيلهم ترسوا على السواحل المغربية الشمالية وجددوا من تدخلاتهم السياسية والعسكرية في أحداث فاس ومراكش.[١١]

ولقد تولى قيادة السعديين في بادئ الأمر رجل من الأشراف لقب بمحمد القائم بأمر الله ، وكان ذلك سنة ١٥٠٩م وبعد وفاته سنة ١٥١٧م انتقلت السلطة إلى ولديه محمد الشيخ وأحمد الأعرج ، ولقد نجحا هذان الأميران من تحرير آسفي وأزمور في نهاية الثلاثينيات وبداية الأربعينيات من القرن السادس عشر. ولقد عرض الوطاسيين على محمد الشيخ المهدي تولي أمر مراكش باسمهم وهم يحكمون فاس ، ولكنه رفض هذا العرض إذ أنه كان يطمع في توحيد كل المغرب تحت سلطته ، ودخل بذلك في نزاع مع أخيه أحمد الأعرج ومع الوطاسيين في نفس الوقت ، وانتهى هذا الصراع بدخوله مدينة فاس سنة ١٥٤٩م وأصبح بذلك المؤسس الفعلي للدولة السعدية في المغرب.[١٢]

والجدير بالذكر ؛ أنه قبل دخول السعديين إلى مدين فاس وانتهاء حكم الوطاسيين بها ، لم يجد الوطاسيين بدًا من التزلف للأتراك والاحتماء بهم بالدعاء للخليفة العثماني على المنابر وضرب السكة باسمه ، لكن السعديين لم يمهلوهم واقتحم عليهم محمد الشيخ مدينة فاس وقبض على الوطاسيين باستثناء ابي حسون الذي استطاع الفرار إلى الجزائر وحاكمها يومئذ حسن باشا بن خير الدين بربروسا.[١٣]

وجد الأتراك العثمانيون أنفسهم أمام أحد خيارين ، إما أن يعيدوا الحكم الوطاسي إلى المغرب لضمان عودة نفوذهم على هذه المناطق والذي سيمهد لهم الطريق لإخضاع باقي المغرب ، وإما أن يرضوا بالأمر الواقع ويبدؤوا في التعامل مع سلطة السعديين الجديدة ، وفي هذه الحالة سيكون تدخلهم أصعب من ذي قبل خاصةً مع الشعبية التي يتمتع بها الأشراف السعديين لوقوفهم أمام الاحتلال البرتغالي. وهكذا قرر العثمانيون الاستعداد للدخول إلى المغرب وإعادة أبو حسون إلى عرشه ، وقد أقضت هذه الأخبار مضجع محمد الشيخ فصرف نظره عما كان بصدده من تمهيد الشمال.

وبدأت القوات العثمانية في التحرك تجاه المغرب لإعادة أبي حسون ، فحدثت صدامات كبيرة بين قوات محمد الشيخ والقوات العثمانية قرب حجر باديس ولحقت الهزيمة بالقوات السعدية ، فواصل العثمانيون زحفهم نحو الداخل واستطاعوا دخول مدينة تازة بعد معارك متواصلة مع السعديين ، وبعد ذلك استطاع العثمانيون دخول فاس ومعهم أبو حسون فى عام ١٥٥٤م[١٤] ، وخطب على منابرها للسلطان العثماني من جديد وهكذا ظهر وكأن المغرب قد توحدت مع باقي ولايات الشمال الأفريقي تحت الراية العثمانية. فزعت اسبانيا والبرتغال لرؤية بداية السيطرة العثمانية على بعض الموانئ المغربية خصوصًا القريبة من مراكزهم الاستعمارية ، مما سيمهد بلا شك لمحاولاتهم لاسترداد الأندلس ، وقد بعث الملك البرتغالي جيان الثالث إلى الإمبراطور شارلكان رسالة يحثه فيها على التدخل السريع لمواجهة العثمانيين قبل توطيد حكمهم في المغرب ، مما سيكون له عظيم الأثر على كل من النفوذين الاسبانى والبرتغالي.[١٥]

لم يمكث العثمانيون أكثر من أربعة أشهر ضمنوا فيها استتباب الأمر لأبى حسون ، الذي حاول بعد خروج العثمانيين الوصول إلى مراكش للقضاء على محمد الشيخ وتوحيد باقي المغرب تحت السيادة العثمانية ، واستطاع في بادئ الأمر أن ينزل بالسعديين هزيمة كبيرة ، إلا أن محمد الشيخ استطاع بحيلة ماكرة أن يقتل أبا حسون.[١٦]

هكذا ؛ مات أبو حسون بعد تسعة أشهر تقريبًا من عودته إلى فاس ، وضاعت بموته فرصة كبيرة للعثمانيين لإعلان السيادة على المغرب وتوحيده مع بقية الإمارات العثمانية في الشمال الأفريقي. وهكذا انتهت سلطة بني وطاس إلى الأبد واستطاع السعديون إتمام السيطرة على المغرب الأقصى بالقوة ، مما سيؤدي بعد ذلك إلى التنافر بين القوة السعدية الناشئة وبين العثمانيين الذين أملوا في تكوين اتحاد إسلامي كبير ومجاهد يواجه الأخطار الخارجية ، ويحاول إعادة الأندلس للمسلمين ، ولكن محمد الشيخ رفض عروض العثمانيين بل ورفض الاعتراف بالخلافة العثمانية ، وزاد على ذلك تقربه للأسبان بغية التحالف معهم ضد العثمانيين ، وهذا ما أدهش الأسبان الذين توقعوا ذلك التحالف الإسلامي الجهادي ضدهم وضد الوجود البرتغالي في البلاد.

النزاع على السلطة في المغرب

ودور العثمانيين في معركة وادي المخازن

بعد استتباب السلطة لمحمد الشيخ في المغرب الأقصى وبعد قضائه نهائيًا على سلطة الوطاسيين - كما سبق الذكر - حاول السلطان العثماني سليمان القانوني إقناعه بعقد تحالف عثماني مغربي من شانه أن يقف أمام الأخطار الخارجية ، ولكن محمد الشيخ رفض تمامًا بل لم يعترف بالخلافة العثمانية العجمية واعتز بحسبه ونسبه وبأنه أمير المؤمنين وأنه لا يمكن لأحد أن يقدم عليه سلطانًا تركيًا أو أعجميًا ، ولم يقف الأمر إلى هذا الحد ، بل إن محمد الشيخ المهدي حاول أن يزيد من سلطته في المغرب الكبير حتى إقليم وجدة ، وحتى مدينة تلمسان التي كانت همزة الوصل بين المغرب الأقصى والجزائر ، وكانت عاملاً مهمًا في توطيد الحكم السعدى في المغرب والحد من التدخل العثماني.

وفعلاً استطاع محمد الشيخ احتلال تلمسان وضمها إلى المغرب ، وكان من المنتظر أن تستأنف الحملة رحلتها نحو مزيد من التوسع ، وقد تسبب سقوط تلمسان في أيدي محمد الشيخ المهدي في إزعاج باشا الجزائر الذي سارع إلى جمع قواته ، حيث دارت عدة معارك فاصلة في تلمسان ذاتها بين العثمانيين والسعديين انتهت بهزيمة السعديين هزيمة ساحقة وقد تتبع الأتراك فلول السعديين حتى نهر ملوية.[١٧] وبعد الهزيمة القاسية التي مُني بها المغاربة أدرك السلطان العثماني سليمان القانوني ما ستخلفه مثل هذه التدخلات من أثر قي نفوس المغاربة ، فقد كان باستطاعته بعد هذه الهزيمة القاسية أن يأمر الجيش بإتمام عمله وإخضاع المغرب كاملاً ، ولكنه أدرك أن جهاده في الشمال الأفريقي كان وسيظل ضد الصليبيين الذين أرادوا إخضاع هذه البلاد وليس ضد إخوانه من المسلمين المجاهدين.

وهكذا ؛ نجده يبعث برسالة إلى السلطان محمد الشيخ يخبره فيها بعزل حسن باشا الذي لم يحسن الجوار ، ويحيطه علمًا بأنه عين صالح باشا واليًا على الجزائر والذي يتمنى أن تكون علاقته به حسنة ، ولم يكتف السلطان سليمان ببعث الرسائل ولكنه تبع ذلك بإرسال سفارة

دورية إلكترونية محكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

هامة إلى مراكش برئاسة العلامة الصالح أبي عبد الله محمد بن على الخروبي الطرابلسي القارقاريشي نزيل الجزائر يقصد المهادنة بين السلطانين. وتذكر بعض المصادر المغربية أن السفير جاء ليقترح على العاهل المغربي عقد سلام بين البلدين ، ولكنه طلب من ملك المغرب أن يعترف بالسيادة العثمانية ، وأن ينقش اسم السلطان العثماني على قطع العملة المغربية على نحو ما كان في أواخر العهد الوطاسي ، وتروي المصادر المغربية أن محمد الشيخ قال للخروبي: (سلم على سلطانك أمير القوارب وقل له أن سلطان المغرب لابد أن ينازلك على محمل مصر ويكون قتاله معك عليه إن شاء الله).[١٨]

وكان نتيجة هذا الفشل في المساعي التركية للتوصل إلى الصلح والمهادنة مع محمد الشيخ شريطة أن يعترف بالخلافة العثمانية أن ازداد التقارب بين الأشراف السعديين والأسبان ، فقد كان الأسبان يترقبون التعاون التام بين محمد الشيخ السعدي والأتراك العثمانيون ويهيئون أنفسهم لهذا الظرف الجديد خاصة أنهم يعلمون أن هذا التقارب سيكون له تأثير كبير على القضيتين الأساسيتين: الثغور المحتلة والقضية المورسكية.[١٩]

لكن محمد الشيخ أبدى في علاقته مع العثمانيين ثم تقاربه مع الأسبان ما لم يكن في الحسبان ، فقد سعى محمد الشيخ للتقرب من الأسبان ، بل وطلب مساعدتهم لمواجهة العثمانيين. وقد أرسل حاكم وهران فعلاً إلى فاس وفدًا يتكون من ثلاثة أشخاص جاؤوا للاتفاق مع محمد الشيخ حول تهيئ حملة مشتركة اسبانية مغربية ضد الأتراك ، وقام العثمانيون بأول رد فعلاً نتيجة التقارب السعدي الأسباني ، فشددوا الحصار على وهران باعتبار أن حاكمها الاسباني كان أداة الاتصال بين فاس ومدريد ، إلا أن جميع الجهود فشلت نتيجة النجدات المتواصلة التي كانت تبعثها اسبانيا للمدينة المحاصرة.[٢٠]

وعلى أثر كل هذا قرر العثمانيون التخلص من محمد الشيخ بأية وسيلة ، فقد تجاوزت خيانته في وجهة نظرهم الحد الذي يمكن السكوت عنه ، فدبروا مؤامرة للتخلص منه فأرسل السلطان العثماني جماعة من الجند (أثنى عشر جنديًا) دخلوا في خدمة محمد الشيخ بحجة أنهم هاربون من الجيش التركي حتى اطمأن إليهم وانتهى الأمر بقتله في عام ١٥٥٧م. وبعد ذلك اتجه حسن باشا إلى الأسبان الذين أعدوا العدة لمهاجمة مستغانم حيث انتهت المعركة بهزيمة الأسبان هزيمة ساحقة.[٢١] وبعد مقتل محمد الشيخ بويع ابنه محمد عبد الله الغالب بالله بالسلطة في فاس ثم واتته بيعة مراكش ، وكان عليه أن يواجه أطماع العثمانيين بالإضافة إلى قتال المستعمرين البرتغال ، وفي عام ١٥٥٧م تحرك حسن بن خير الدين باشا من الجزائر في جيش كثيف وصل إلى قرب عمالة فارس حيث التقى بجيش عبد الله الغالب وانتهت المعركة بهزيمة العثمانيين وفرار حسن باشا إلى باديس ، وعلى أثر هذا ازداد تقارب المغاربة مع الأسبان بل ومن دول أوروبية أخرى.

لقد انتهج عبد الله نفس سياسة والده حيث التجأ إلى الأسبان تحت ضغط التهديد العثماني للمغرب ، إذ كانت علاقته مع الأسبان تشكل عامل توازن فقد كان يريد الحفاظ على كيان مستقل للمغرب بأقل قدر ممكن من الخسارة: إما التنازل عن نقاط معينة للأسبان وغيرهم ، أو احتواء المغرب بأكمله من طرف الأتراك[٢٢] ، ولقد قامت عدة ثورات في المغرب مناهضة لحكم عبد الله الغالب ، ولكنه استطاع القضاء عليها تمامًا حتى أنه قتل ثلاثة من إخوته لرفضهم البيعة بولاية العهد لأبنه المتوكل ، مما جعل عميه عبد الملك وأحمد المنصور يفران خوفًا من القتل.

ولما توفى عبد الله الغالب بالله عام ١٥٧٤م فبويع ابنه السلطان أبو عبد الله المتوكل على الله ، لكن لم تدم مدة حكمه طويلاً فقد نجح عمه أبو مروان عبد الملك بمعاونة الأتراك في أن ينتزع منه الحكم. أما عن الظروف التي انتقل فيها الحكم من المتوكل إلى عمه أبي مروان عبد الملك فلها أهميتها فيما يتعلق بتاريخ المغرب الأقصى وعلاقاته سواء مع الأتراك العثمانيين ، أو مع المستعمرين البرتغال والأسبان ، فقد لجأ عبد الملك وأخوه أحمد المنصور إلى تلمسان حيث أقاما عند واليها حسن باشا خشية بطش المتوكل بهما ، فقد عُرف عنه ميله إلى سفك الدماء ، وكانا على صلة بأتباعهما بالمغرب الناقمين على المتوكل سلوكه ليهيئوا له الجو المناسب.

وقصد عبد الملك وأحمد النصور بعد ذلك الجزائر ومنها إلى القسطنطينية للاستنجاد بالسلطان العثماني ليعينهما على الاستحواذ على السلطة بالمغرب.[٢٣] ولم تكن هذه أولى علاقات عبد الملك مع العثمانيين فقد كان له معهم علاقات خاصة منذ لجوئه وأمه وأخوته إليهم من جراء طغيان عبد الله الغالب وانخراطه بين صفوف المحاربين العثمانيين إلى اشتراكه في معركة حلق الوادي بين العثمانيين والأسبان التي بمقتضاها دخلت تونس نهائيا في الإمبراطورية العثمانية.[٢٤]

وقد انتهز العثمانيون تلك الفرصة الذهبية لفرض سيطرتهم على المغرب الأقصى ولو بشكل اسمي في البداية كما حدث من قبل في أواخر عهد الوطاسيين ، وليس من المستبعد كما يرى البعض بعد دخول عبد الملك فاس في صحبة القوات التركية ، أن تكون هذه الحاضرة قد كررت ما سبق وأن شهدته أيام دخول أبو حسون الوطاسي سنة ١٥٥٤م من ترديد الدعاء للسلطان العثماني ، وأن مساجد مراكش أيضًا قد شهدت شيئًا من هذا القبيل ، وقد كشفت الوثائق الأسبانية عن وجود حربي كبير للأتراك في كثير من واقع المغرب في هذه المرحلة يمكن أن يساند النفوذ السياسي العثماني ويعلن عن مظاهر هذا النفوذ بما يخدم الغزو المرحلي.[٢٥]

ولقد أمد السلطان العثماني عبد الملك - كما تقول المصادر- بقوة كبيرة بلغت نحوًا من خمسة آلاف أو ستة آلاف فارس عربي وعشرين مدفعًا[٢٦] سار بها عبد الملك وأخوه المنصور حتى أحواز فاس والتقيا بجيش ابن أخيهم المتوكل وانتصرا عليه ، حيث لاذ المتوكل بالفرار ودخل عبد الملك فاس عام ١٥٧٦م وبايعه أهلها ودخل مراكش في نفس السنة وبايعه أهلها أيضًا وبقى هو في مراكش واستخلف أخاه أحمد المنصور على فاس وأعمالها.[٢٧]

أما عبد الله المتوكل فقد أعاد الكرة على مراكش حيث وقعت معركة خندق الريحان عام ١٥٧٦م ، وفي هذه المعركة التي دارت رحاها مدة ثلاثة أيام واجه عبد الملك تجمعًا كبيرًا من أنصار المتوكل حيث انتصر انتصاره الساحق بقوة محدودة ، ولكن لها خبرات وأساليب التنظيم العسكري العثماني والتي بفضلها لم يفقد عبد الملك في المعركة غير القليل من رجاله.[٢٨] وبعد هذه الواقعة فر المتوكل إلى طنجة ومنها إلى ملك الأسبان ، فاستنجد به ضد عمه عبد الملك فلم ينجده ، فتوجه إلى البرتغال ليستنجد بملكها "دون سبستيان".[٢٩]

ولقد انتهز "دون سبستيان" ملك البرتغال الشاب هذه الفرصة لإعادة نفوذه من جديد على الموانئ الغربية للمغرب ، إلى جانب الحد

من ازدياد نفوذ الأتراك الذي يستشري في المغرب ويكاد أن يسيطر عليه ، فقد اعتقد دون خوان سفير اسبانيا في لشبونة أن مجيء الأتراك بقوة كبيرة في صحبة عبد الملك إلى المغرب ليس من قبيل مساعدة عبد الملك فحسب ، ولكن من أجل الحصول لأنفسهم على ملكية بالموانئ الغربية ، واتجه بظنه في ذات الوقت إلى أن عبد الملك لم يمنحهم وعدًا بذلك ولكن ربما عرضوا عليه مساعدته في تحرير طنجة في مقابل أن يمتلكوا موانئ - مثل ميناء العرائش- تسمح برسو الأسطول التركي في مياهها بالشتاء ، ومن منطلق هذا الاعتقاد طلب ملك البرتغال من فيليب الثاني ملك اسبانيا مساعدته على تفادي هذا الخطر بالاستيلاء على العرائش لما في هذه الخطوة من مزايا تكفل مصالح المملكتين معًا.(٣٠)

لكن لم تشارك أسبانيا رسميًا في هذه الحملة ، وإن كان ملك اسبانيا قد وعد سبستيان بإمداده بسبعة آلاف جندي من الأسبان والإيطاليين ومن الفاتيكان والألمان ، وحين بلغ عبد الملك أخبار استعدادات الملك البرتغالي لهذه المعركة أرسل له يثنيه عنها ويبصره بعواقبها ، وفي نفس الوقت كان أحمد المنصور يعبئ الجيش فجمع تحت رايته نحو مائة ألف مقاتل ، بينما قُدر عدد الجنود البرتغاليين بنحو ١٢٥ ألف ، كما اشترك في المعركة عدد كبير من السفن الحربية.

وفي سنة ١٥٧٨م توجه الجيش البرتغالي من لشبونة إلى طنجة ، ثم وضعوا أيديهم على أصيلا بمعاونة المتوكل على الله الخائن لبلاه ، وتابع جيش سبستيان سيره حتى وصل إلى الضفة اليسرى لوادي المخازن ووصل الجيش المغربي قبالة الجيش الغازي في هذا المكان حيث وقعت الواقعة الحاسمة بين الجيشين سنة ١٥٧٨م ، وقد هُزم فيها جيش عبد الملك جيش سبستيان وحليفه المتوكل هزيمة ساحقة وكان من بين القتلى ملك البرتغال والمتوكل على الله ، وأيضًا حدث والمعركة في أشدها أن توفى عبد الملك لكن خليفته المنصور كتم خبر وفاته حتى لا يؤثر ذلك على نفسية الجيش المغربي ، ولذا سميت هذه المعركة بـ "معركة الملوك الثلاثة". وقد بويع أبو العباس أحمد المنصور بالخلافة بعد موت عبد الملك ، أما المتوكل فقد أخذت جثته وسلخت وملئت تبنا وأمر أحمد المنصور بأن يطاف بها في المدن والقرى ليكون عبرة ولقب منذ ذلك الوقت بالمسلوخ.(٣١)

المغرب الأقصى في عهد أحمد المنصور الذهبي

كانت لمعركة "وادى المخازن" نتائج هامة على الصعيد الدولي والمحلي ، فقد ثبتت أقدام السعديين بشكل كبير في حكم المغرب ، بل إن نظرة الدول الأوروبية قد تغيرت كليةً للمغرب ، وفتحت هذه المعركة صفحة جديدة للعلاقات بين المغرب وأوروبا ، هذا فضلاً عن الضعف الشديد الذي حل بالبرتغال بعد مقتل ملكهم سبستيان حتى وصل الأمر إلى انهيارها تمامًا في الربع الأخير من القرن السادس عشر ودخولها تحت الحكم الاسباني سنة ١٥٨٠م.

وعلى الصعيد العثماني ؛ اقترح السلطان مراد الثالث عقد تحالف مغربي عثماني ضد الأسبان بعد احتوائهم للبرتغال ، وعرض على سلطان المغرب إمداده بأسطول عظيم يستعين به في إعادة فتح الأندلس ، لكن لم يتضح موقف أحمد المنصور تجاه العرض العثماني. وكان القائد العثماني "قلج علي" في ذلك الوقت يتحين الفرص لتحقيق حلمه القديم في إعادة الحكم الإسلامي للأندلس ، خاصةً بعد ثبات أقدام الدولة العثمانية في تونس ، وعدم وضوح موقف السلطان أحمد المنصور من التحالف العثماني ضد الأسبان.

هكذا صدرت الأوامر إلى قلج علي باشا بالتوجه إلى المغرب والسيطرة عليه لبدء العمل في استرداد الأندلس ، فوصل قلج على إلى الجزائر سنة ١٥٨١م ، بينما كان المنصور يرابط بقواته عند نهر تانسيفت مستعدًا لمواجهة العثمانيين ، حيث تقدم المنصور تجاه الحدود سادًا مداخل البلاد وثغورها ، وما لبث بعد ذلك أن وجه المنصور سفارة إلى استانبول مخبرًا السلطان العثماني بوصوله إلى شبه اتفاقًا عسكريا مع الملك الاسباني لمؤازرته ضد العثمانيين في مقابل تنازله عن مدينة العرائش وبعض الامتيازات الأخرى ، وأمام تطور الأحداث لم يجد السلطان العثماني بدًا من قبول الأمر الواقع والتراجع عن غزو المغرب.(٣٢)

أما على صعيد العلاقات الودية بين المغرب والدولة العثمانية ؛ فقد صفا الجو بين البلدين على أثر قبول السلطان مراد بالأمر الواقع وميله إلى سياسة المهادنة بينه وبين سلطان المغرب ، إذ أن السلطان أحمد المنصور لم ينس للسلطان مراد العثماني نجدته له ولأخيه أبي مروان عبد الملك ضد المتوكل على الله ، لذا لم ينس المنصور أثر بيعته في وادي المخازن أن يكتب للسلطان مراد العثماني بما أحرزه من نصر على جيوش البرتغال ، وقد وفدت له رسل السلطان مراد ومعهم الهدايا لتهنئته.(٣٣) وقد جاءت الرسائل السعدية إلى العثمانيين دليلاً على صفاء جو العلاقات المغربية — التركية في عهد المنصور الذهبي ، وفي بعض هذه الرسائل أدلة على استئناف الجهاد في المغرب ، مما قد يفهم منه أن المشاورات بين السعديين والعثمانيين كانت جارية لاسترداد الأندلس وتخليص المسلمين المعذبين فيها.(٣٤) فبعد موت السلطان مراد الثالث بعث أحمد المنصور برسالة إلى الصدر الأعظم سنان باشا ، يعزيه في موت السلطان ، ويهنئه بتولية أبنه محمد الثالث.(٣٥)

وقد ثار ابن القاضي أمير كوكو ببلاد القبائل مناهضًا العثمانيين كأسلافه ومادًا يديه للأسبان محتلي وهران ليساعدوه على خصومه حكام الجزائر ، فبعث هؤلاء للمنصور بكتاب مع الكخية يوسف ، يشكون إليه ذلك الأمير الخائن ويخبرونه باحتمال هجوم الأسطول الأسباني عليهم ، فرد عليه المنصور برسالة مطولة جاء فيها: (إن آنستم من جانب الكفرة - دمرهم الله- عمارة تنشئ أو أسطولاً يؤم ناحيتكم ، واحتجتم إلينا فنحن بحمد الله بأنفسنا وأموالنا وأجنادنا موجودون لنصرتكم على أتم أهبة واستعداد ، واحتفال لا يزال لنكاية الكفر بحول الله بالمرصاد ، وآذاننا صاغية لداعيكم ، وهبوب صوت مناديكم. ومتى ناديتم وافيناكم — بحول الله- بعساكرنا المظفرة بالله خيلا ونارا ، وأسودا للجهاد تزأر في ذات الله نهارا).(٣٦)

وقد كانت مثل هذه المراسلات التي استمرت أغلب سنوات حكم المنصور دليلاً أكيدًا على مثل هذه العلاقات الودية بين البلدين. ولقد استمرت هذه العلاقات الودية بين البلدين قي عهد المنصور الذهبي مما أسفر عنه المزيد من التقدم والازدهار للمغرب في عهده وعدم مصادمة العثمانيين عند حدوده ، بل توجه بعد ذلك للتوسع تلقاء السودان الغربي وإخضاع بعض ممالك الغرب الإفريقي ، فاحتل توات وتيكورارين ، ثم الممالك السودانية ومن أهمها مملكة لاسيقيين ، وكان هذا ما بين عامي ١٥٨٨ - ١٥٩١م ، وذلك بفضل جيوشه المسلحة بالأسلحة النارية ، والمزودة بالمدافع.

وقد أثرى توسع السعديين إلى السودان خزائن المنصور بالذهب والغنائم الكثيرة ، مما مكنه من انجاز مشاريعه العمرانية كقصر البديع ، والعسكرية والاقتصادية وغير ذلك والإنفاق عليها بسخاء[٣٧] ، فقويت المغرب في عهده وأصبحت إمبراطورية مرهوبة الجانب متينة الاقتصاد ، وقد لقب أحمد المنصور بالذهبي لبلوغ المغرب في عهده عصرها الذهبي من التوسع والرخاء الاقتصادي والاجتماعي.

خاتمة

لكن ما لبث المغرب أن تفكك من جديد بعد وفاة أحمد المنصور وأدى ذلك إلى سقوط دولتهم في الفترة ما بين ١٦٠٣- ١٦٥٩م ، نتيجة التناحر على السلطة بين أبناء المنصور مما أدى إلى انقسام المغرب في تلك الفترة إلى مملكة شمالية ومملكة جنوبية ، الأمر الذي هيأ الفرصة للأسبان من جديد لغزو موانئ المغرب وثغورها ، واستطاعوا بالفعل احتلال ميناء العرائش بالتواطؤ مع محمد الشيخ سنة ١٦١٠م ، ثم ميناء المعمورة سنة ١٦١٤م ، وكان للانجليز والهولنديين أطماع في احتلال مواقع أخرى ، ولم يتدخل العثمانيون في الشئون المغربية بشكل كبير بعد ذلك ، فقد كانت حروبهم المستمرة في القارة الأوروبية من جهة ، وبين الشيعة في إيران من جهة أخرى تعيقهم عن أي تفكير للسيطرة على المغرب الأقصى أو مناهضة حكامه.

الهوامش

(١) خالد فؤاد طحطح ، العلاقات المغربية العثمانية خلال القرن ١٦م ، مقال بمجلة الفسطاط التاريخية على الموقع الالكتروني (www.fustat.com) ، ص١.

(٢) شوقي عطا الله الجمل ، المغرب الكبير في العصر الحديث ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٧م ، ص ٥٣ ، نقلاً عن: أبو عبد الله بن محمد بن احمد الكانوشى العبدى ، آسفى وما عليها قديمًا وحديثًا ، ص ٨٢.

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٥ ، ٥٦.

(٤) المرجع السابق ، ص ٥٨.

(٥) المرجع السابق ، ص ٦٢ ، ٦٣.

(٦) السعديون: هم من أسرة عربية الأصل كما هو مؤكد لدى من أرخ لهم ، انتقلوا من ينبع بالحجاز إلى درعة بجنوب المغرب ، استوطنوا قرية (تاكمادرت) وذلك في المائة السادسة من الهجرة ، وكان الاعتقاد السائد لدى المغاربة أنهم من الأشراف ، لكن خصومهم من بقايا الوطاسيين والمرنيين وأنصارهم كانوا يطعنون في صحة نسبهم الشريف ، معتمدين في ذلك على البتر الذي لوحظ في عمود نسبهم كما ذكر ابن القاضي. وقد ظل السعديون حتى مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي يحيون في المغرب حياة بسيطة دينية وعلمية ، ولم يبرزوا على المسرح السياسي إلا حين اشتدت وطأة البرتغاليين على سكان الجنوب الغربي ، ولم يتدخل الوطاسيين لحمايتهم ، ومن هنا ظهروا كقادة لحركة تحرير ، لهذا التف حولهم الناس وبايعتهم القبائل. (أنظر إبراهيم شحاتة حسن ، أطوار العلاقات المغربية العثمانية ، الإسكندرية ١٩٨١م).

(٧) جلال يحيى ، المغرب العربي والاستعمار ، المكتبة الثقافية رقم ١٦٤ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١ نوفمبر ١٩٦٦ ، ص ١٦.

(٨) المرجع السابق ، ص ١٨.

(٩) جلال يحيى ، تاريخ المغرب الكبير منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر ، الجزء الثالث ، الدار القومية للطباعة والنشر عام ١٩٦٦م ، ص ٣٥.

(١٠) إبراهيم شحاته حسن ، وقعة وادي المخازن في تاريخ المغرب - قراءة تاريخية عبر علاقات المغرب الدولية في القرن السادس عشر الميلادي ، دار الثقافة – الدار البيضاء ، الطبعة الأولى عام ١٩٧٩م ، ص ٧١.

(١١) المرجع السابق ، ص ٧٦.

(١٢) المرجع السابق ، جلال يحيى ، تاريخ المغرب الكبير ، ص٣٢ ، ٣٣.

(١٣) محمد مجى ، جولات تاريخية ، الجزء الثاني ، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر ، دار الغرب الإسلامي – بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٥م ، ص ٥٢٥.

(١٤) عبد الكريم كريم ، المغرب في عهد الدولة السعدية ، الدار البيضاء ١٩٧٧م ، ص ٨٠ ، ٨١.

(١٥) المرجع السابق ، ص ٨١.

(١٦) المرجع السابق ، ص ٢٠ ، ٢١.

(١٧) المرجع السابق ، إبراهيم شحاته حسن ، وقعة وادي المخازن الخ ، ص ٩٩: ص ١٠١.

(١٨) عبد الهادي التازى ، التاريخ الدبلوماسي للمغرب منذ أقدم العصور ، المجلد الثامن ، الرباط ١٩٨٧م ، ص ١٧ : ٢١.

(١٩) محمد رزوق ، دراسات في تاريخ المغرب ، أفريقيا الشرق ، ص٨٩.

(٢٠) المرجع السابق ، ص ٩١.

(٢١) المرجع السابق ، شوقي عطا الله الجمل ، المغرب العربي الكبير ، ص ١٠٠.

(٢٢) المرجع السابق ، محمد رزوق ، دراسات في تاريخ المغرب ، ص ٩٤.

(٢٣) المرجع السابق ، شوقي عطا الله الجمل ، المغرب العربي الكبير ، ص ١٧٤ ، ١٧٥.

(٢٤) المرجع السابق ، إبراهيم شحاته حسن ، وقعة وادي المخازن ، ص ١٧٢.

(٢٥) المرجع السابق ، ص ، ١٧٥ ، ١٧٦.

(٢٦) المرجع السابق ، ١٧٢.

(٢٧) المرجع السابق ، شوقي عطا الله الجمل ، المغرب العربي الكبير ، ص ١٧٥.

(٢٨) المرجع السابق ، إبراهيم شحاته حسن ، وقعة وادي المخازن ، ص ١٧٦.

(٢٩) المرجع السابق ، شوقي عطا الله الجمل ، المغرب العربي الكبير ، ص١٧٦.

(٣٠) المرجع السابق ، إبراهيم شحاته حسن ، وقعة وادي المخازن ، ص ١٨٤ ، ١٨٥.

(٣١) المرجع السابق ، شوقي عطا الله الجمل ، المغرب العربي الكبير ، ص ١٧٥: ١٨٥.

(٣٢) المرجع السابق ، عبد الكريم كريم ، المغرب في عهد الدولة السعدية ، ص ١١٢.

(٣٣) المرجع السابق ، شوقي عطا الله الجمل ، المغرب العربي الكبير ، ص ١٨٤.

(٣٤) المرجع السابق ، محمد مجى ، جولات تاريخية ، ص ٥٣٢.

(٣٥) انظر نص الرسالة في المرجع السابق ، ص ٥٣٢.

(٣٦) المرجع السابق ، ص ٥٣٢.

(٣٧) إبراهيم شاته حسن ، أطوار العلاقات المغربية العثمانية ، الإسكندرية ، ١٩٨١.

دورية إلكترونية محكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

مفاهيم جغرافية عند المسلمين في العصر الوسيط

محمد قويسم
أستاذ مساعد – قسم التاريخ
جامعة المسيلة – الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
محمد قويسم ، مفاهيم جغرافية عند المسلمين في العصر الوسيط.- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث عشر ؛ سبتمبر ٢٠١١. ص ٥٥ – ٦١ .
(www.historicalkan.co.nr)

ملخص

يتناول المقال مفاهيم جغرافية عند المسلمين في العصر الوسيط ، فكما لا يخفى على أحد أن المفاهيم في أي علم هي مفتاح فهم النصوص ومنها في علم الجغرافيا ، هذه المفاهيم التي ينبغي تتبعها في كتب الرحالة والجغرافيين الذين تعاملوا معها في أرض الواقع رغم الاختلاف الحاصل من عصر إلى عصر ومن إقليم إلى إقليم ، خاصةً وأن الاختلاف المذهبي بين مذاهب السنة فقط مالكية وحنابلة وشافعية وأحناف زاد من هذا الغموض والاختلاف.

مقدمة

الجغرافيا كلمة يونانية قديمة (إغريقية) تتكون من مقطعين صوتيين (geo) وتعني الأرض و(graphus) وتعني وصف ، وبذلك يكون المعنى وصف الأرض ، وهو نفس المفهوم الذي أخذه الكثير من الجغرافيين العرب مثل بن حوقل وغيره ، وتطور علم الجغرافيا عند المسلمين في العصر الوسيط (ق١. ٩هـ/٥ . ١٥م) تطورًا كبيرًا لعدة أسباب هي:

(أ) ازدهار النشاط التجاري الذي أسهم في إثراء الجغرافيا من خلال جمع البيانات عن الطرق والمدن التجارية وجمع البيانات البشرية والاقتصادية عن البلدان.

(ب) اتساع مساحة الدولة الإسلامية والذي ساعد على تجميع البيانات عن البلدان الجديدة من أجل إدارتها وحكمها.

(ت) تعريب العلوم نتيجة اتصال المسلمين بالفكر الإغريقي والفارسي والهندي.

(ث) أسباب دينية تتمثل في تحديد أوقات الصلاة وموسم الحج وتحديد الأهلة.[١]

وقد بدأ علم الجغرافيا عند المسلمين مرتبطًا بمدرسة اللغة والاشتقاق حيث اهتموا تحليل أسماء الأماكن والبحث عن أصولها اللغوية ، ثم ظهر اتجاه أهتم بالجغرافية الفلكية وانتهجوا طريقة اليونان في تقسيم المعمور من الأرض إلى سبعة أقاليم منذ العصر العباسي بترجمة كتاب السند هند وكتاب بطليموس ، ومنه كان كتاب صورة الأرض الذي صنفه محمد بن موسى الخوارزمي(ت١٧٤هـ)،[٢] ويعتبر أبوزيد البلخي (ت٣٢٢هـ) حجر الزاوية والمنطلق الحقيقي للجغرافية العربية ، وفي فلكه كانت تدور أبحاث عدد من الجغرافيين ، وفي مقدمتهم الاصطخري وابن خرداذبة وابن حوقل والمسعودي والمقدسي ، ثم ظهر أبو الريحان البيروني(ت٤٤٠هـ) في الجغرافيا الوصفية والرياضية بكتابيه "الآثار الباقية" وكتاب "القانون المسعودي" ، والإدريسي(ت٥٥١هـ).[٣]

وفي القرن السابع الهجري أنجز ياقوت الحموي(ت٦٢٦هـ) عمله الجغرافي الهام باسم معجم البلدان ، وهو كتاب استفاد منه القزويني(ت٦٨٢هـ) في كلا كتابيه عجائب المخلوقات وآثار البلاد فائدة كبيرة ، وابن سعيد المغربي(ت٦٨٥هـ) ، وينكشف القرن الثامن الهجري عن أثر في الجغرافيا لا يزال يحتفظ بمكانة خاصة في نظر البحث الحديث ، ونعني بذلك كتاب تقويم البلدان للملك الصالح أبي الفداء(ت٧٣٢هـ) الذي أضاف فيه معلومات قيمة خاصة بالممالك الإسلامية إلى التراث الجغرافي العربي ، وفي هذا العصر أيضًا صنف كتاب مسالك الإبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري(ت٧٤٩هـ) والتي استفاد منها القلقشندي المصري(ت٨١٢هـ)

دورية إلكترونية محكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

في كتابه المعنون صبح الأعشى ، وهي كتب تحدث عن جغرافية العالم ككل.[٤]

بعد هذه الفترة ظهر اتجاه في الجغرافيا الإقليمية وهو يمثل نوعًا من التخصص في وصف مناطق معينة ، على أن القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) شهد انتعاشًا حقيقيًا للجغرافيا العربية ، بكتاب وصف إفريقيا الذي يتناول فيه القارة الإفريقية كلها والذي صنفه الحسن بن محمد الوزان الفاسي.[٥]

ومن هنا تكمن أهمية البحث وأهدافه في تحديد المعنى الدقيق للمفاهيم الجغرافية المستخدمة عند المسلمين في العصر الوسيط في هذه المصنفات الجغرافية الهامة ، وإزالة الغموض الموجود في هذه المفاهيم من مذهب إلى مذهب ومن مكان إلى مكان ومن عصر إلى عصر ، بالإجابة على الأسئلة التالية: ما هي المفاهيم الجغرافية الغامضة في المصادر الجغرافية العربية؟ وما هي أسباب هذا الغموض؟ وكيف يكون توضيحها وتحديدها من هذه المصادر الجغرافية؟

أولاً: مفاهيم الأطوال

البريد: هي وحدة مسافة اختلف في تقديرها بين إثنى عشر ميلاً وستة أميال[٦] والأصح أثنتا عشر ميلاً، وجاء في معنى الحديث الشريف « لا تقصر الصلاة في أقل من أربعة برد» وهي ستة عشر فرسخًا ، والفرسخ ثلاثة أميال والميل أربعة آلاف ذراع[٧] ، وجاء في رحلة ابن جبير« وبين أسوان وبين قوص ثمانية برد»[٨] ، والمسافة بين السكتين بريدا ، أي ٤٠ فراسخ أو١٢ميل ،أو ١٩.٢كلم ، بينما عند المالكية والحنفية البريد٢٢٢٦٠م وعند الشافعية والحنابلة٤٤٥٢٠م[٩] ، والإشكال هو التباين الكبير بين التقديرين وانعكاسه على الوحدات الأخرى الميل والفرسخ... وعلى الجغرافيين أنفسهم حسب مذهب كل واحد ، ومنه يستنتج الأخذ م كلام الجغرافيين لأن مسافاتهم أخذت من واقع مطبق ، بينما الفقهاء دخلوا في الخلافات المذهبية.

الدرجة: عند العرب قدر ما تقطعه الشمس في يوم وليلة وتنقسم الدرجة إلى ستين دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية والثانية إلى ستين ثالثة[١٠] ، مثلاً قول ابن سعيد المغربي في القرن السابع الهجري الموافق للثالث عشر الميلادي(ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م) موقع مدينة قسنطينة حسب درجات خطوط الطول ودرجات دوائر العرض حتى بالدقائق بقوله: « وموضوع قسنطينة في جنوبيها حيث الطول ست وعشرون درجة وأربعون دقيقة والعرض ثلاث وثلاثون درجة وإثنتان وعشرون دقيقة»[١١] ، وذكر مرمول كربخال عن مدينة قسنطينة: «مدينة عتيقة جدا كبيرة ممتدة يقدر المسلمون موقعها بثمانية وعشرين درجة وثلاثين دقيقة طولا وبإحدى وثلاثين درجة وخمسة عشرة دقيقة عرضا»[١٢] ، وهو تقدير قريب من التحديد الحالي٧.٣٥شرقا و٣٦.٢٣ شمالاً، والدرجة عند الجغرافيين المسلمين١١١٣٠٧م (٥٦ ميل وثلث الميل)، والدقيقة١٨٥٥م ، والباع أو القامة أو الخطوة ١٨٥.٥سم ، والذراع٤٦.٣٧٥سم ، والباع ستة أقدام حيث القدم٣٠.٩١٧سم ، والقدم أربع قبضات ، والقبضة أربع أصابع ، والأصبع عند الحنفية١.٩٣٢سم ، وعند المالكية١.٤٧٢سم ، وعند الشافعية والحنابلة٢.٥٧٦سم ، ومنه يستنتج الدرجة١١١ كلم كما توصل لها العلم الحديث[١٣].

الفرسخ: فارسي معرب اختلف أيضًا في تحديده فقيل ثلاثة أميال وقيل ستة[١٤] ، وذكر البكري سميت واسط لموضع يقرب منها كان يقال له واسط القصب ، وقيل لتوسطها بين المصرين البصرة والكوفة لأن منها إلى الكوفة والبصرة خمسين فرسخًا ، من الكوفة إلى بغداد ثلاثون فرسخًا ، ومن الأنبار إلى بغداد ثلاثون فرسخًا[١٥] ، ومنه يستنتج قدر الفرسخ من الواقع ، وذكر مارمول كربخال: «وهران مدينة قديمة بناها السكان الأصليون على الساحل تفصلها مسافة فرسخ واحد عن المرسى الكبير جهة الغرب»[١٦] ، وذكر أبو حامد الغرناطي: « وبالقرب من مدينة غرناطة بثلاثة فراسخ مدينة صغيرة يقال لها لوشة»[١٧] ، وأضاف « رومية العظمى وهي مدينة عجيبة عظيمة دورها عشرون فرسخا»[١٨] ، والفرسخ ثلاثة أميال وعند المالكية والحنفية٥٥٦٥م ، وعند الشافعية والحنابلة١١١٣٠م ، ومنه يستنتج أن الفرسخ ثلاثة أميال أي٤.٨ كلم كما ذكر مارمول كربخال بين مدينة وهران والمرسى الكبير وهو أمر معلوم.[١٩]

المجرى: ذكر الإدريسي صراحة «المجرى مائة ميل» ، وأضاف الإدريسي أيضًا «وأما بحر الشام الذي عليه جنوب الأندلس فمبدؤه من الغرب وآخره حيث انطاكية ، ومسافة ما بينهما ستة وثلاثون مجرى ، وأما عروضه فمختلفة ، وذلك أن مدينة مالقة يقابلها من الضفة الأخرى المزمة وبادس وبينهما عرض البحر مجرى يوم بالريح الطيبة المعتدلة ،وكذلك المرية يوازيها في الضفة الأخرى هنين ، وعرض البحر بينهما مجريان وكذلك أيضا مدينة دانية يقابلها من الضفة الأخرى تنس ، وبينهما ثلاث مجار ، وكذلك مدينة برشلونة تقابلها من عدوة الغرب الأوسط بجاية ، وبينهما أربع مجار في عرض البحر»[٢٠] ، ويواصل ذكر جزر الأندلس بقوله: «وأما جزيرة يابسة فإنها جزيرة حسنة كثيرة الكروم والأعناب ، وبها مدينة حسنة صغيرة متحضرة ، واقرب بر إليها مدينة دانية ، وبينهما مجرى ، وفي شرقي جزيرة يابسة جزيرة ميورقة وبينهما مجرى ، وبها مدينة كبيرة لها مالك وحارس ذو رجا وعدد وأسلحة وأموال ، وبالشرقي منها أيضًا جزيرة منورقة تقابل مدينة برشلونة وبينهما مجرى ، ومن جزيرة منورقة إلى جزيرة سردانية أربع مجار» ، ومنه يستنتج أن المجرى ١٠٠ميل كما ذكر الإدريسي صراحة وتؤكده المسافات المذكورة سابقًا مثلا بين بجاية وبرشلونة.[٢١]

المرحلة: ذكر الإدريسي« ومن المسيلة إلى طبنة مرحلتان» ويضيف« وتخرج من المسيلة إلى مقرة مرحلة»[٢٢] ، وذكر الإدريسي أيضًا « ومن القل إلى مدينة القسطنطينة مرحلتان جنوبا»[٢٣] ، وذكر أيضا« ومن طبنة شرقا إلى دار ملول مرحلة ...»[٢٤] ، وفي وصف مدن الأندلس يصرح الإدريسي بمقدار المرحلة بقوله: «ومن قرطبة إلى غرناطة ثلاث مراحل وهي مائة ميل ، وبين غرناطة وجيان خمسون ميلاً وهي مرحلتان»[٢٥] ، ويضيف« وفي الشرق من مدينة طليطلة إلى وادي الحجارة خمسون ميلا وهي مرحلتان»[٢٦] ، وذكر البكري « ومن القيروان إلى مدينة تونس مئة ميل وهي ثلاث مراحل»[٢٧] ، وذكر أيضًا من البصرة إلى كاظمة مرحلتان[٢٨] ، ومنه المرحلة هي المسافة التي يقطعها المسافر في نحو يوم بالسير المعتاد على الدابة ، وهي ٢٤ ميل وعند الحنفية والمالكية٤٤.٥٢٠كم ، وعند الشافعية والحنابلة٨٩.٩٤كم ، ومنه يستنتج أن المرحلة كما ذكر الإدريسي(٢٤ميل أو٣٨.٤ كم) لأن هذه المسافات المذكورة بين المدن السابق الذكر معلومة مثلاً بين القل وقسنطينة بالجزائر.[٢٩]

دورية إلكترونية محكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الميل: ذكر الإدريسي عن مسافة الميل « ومنها أي من ميلة إلى مدينة قسنطينة الهواء ثمانية عشر ميلا»[٣٠]، وذكر أيضًا « وكذلك من جيجل إلى بجاية الناصرية خمسون ميلاً... ومن جيجل إلى مدينة القل سبعون ميلا»[٣١]، وقال أيضًا: «ومن القل إلى مرسى أستورة عشرون ميلا»[٣٢]، وذكر الوزان الفاسي عن مدينة سلا: «سلا غير بعيدة عن الرباط بأكثر من ميل ونصف ويفصل نهر أبي رقراق بين المدينتين»[٣٣]، وذكر مرمول كربخال عن مدينة سكيكدة« أنها تقع شمالي قسنطينة على بعد إثنى عشر ميلا»[٣٤]، ومنه الميل عند الجغرافيين ما قاله الإدريسي والوزان الفاسي١.٦كلم ١٦٠٠ م مثلاً بين سلا والرباط[٣٥].

اليوم: ذكر الإدريسي « وكذلك من القسنطينة إلى مدينة بجاية ستة أيام أربعة منها إلى جيجل ومن جيجل إلى بجاية خمسون ميلا»[٣٦]، ويضيف في مكان آخر«ومن بجاية إلى سطيف يومان»[٣٧]، وقال البكري« ثم تسير من مدينة تيجس إلى مدينة قسطنطينة... وبينهما وبين مرسى سقدة مسيرة يوم»[٣٨]، ومنه يذكر قياس المسافة بالأسبوع والشهر مثل قول الإدريسي: « ومن وارقلان إلى غانة ثلاثون مرحلة ومن وارقلان إلى كوغة نحو من شهر ونصف»[٣٩]، وذكر أبو الفدا « ومن فاس إلى تلمسان عشرة أيام»[٤٠]، وذكر العمري أن مساحة مملكة مالي هي مربعة طولها أربعة أشهر وأزيد وعرضها مثل ذلك تقع جنوب مراكش ،[٤١] ومنه يمكن القول أن اليوم يقدر بحوالي (٥٠ كلم أو أكثر من ٢٥ ميل حيث المسافة اليوم معلومة بين مدينة سطيف وبجاية وبين قسنطينة ومرسى سقدة (سكيكدة) ولو بالطريق المختصر عبر الجبال والوديان.

ثانيًا: مفاهيم التضاريس

الجون: ذكر الإدريسي في نهاية الحديث عن الجزء الأول من الإقليم الثالث «وبقي علينا الآن أيضا أن نذكر سواحل البحر بهذا الجزء وأجوانه وجباله»[٤٢] وأضاف «ومن رأس الحمراء إلى بونة في قاع الجون ستة أميال»[٤٣]، والجون بمعنى الخليج وتجون البحر بمعنى شكل جون[٤٤].

الغور: ذكر بن الوردي في وصفه للشام« وطبرية يسمى الغور لأنها بقعة بين جبلين وسائر مياه الشام تنحدر إليها»[٤٥]، وهو نفس التعريف الحديث للغور انكسار أو انهدام في طبقة أرضية صلبة منخفضة في الوسط ومرتفعة على الجانبين[٤٦].

السكة: الطريق المسكوكة التي تمر فيها القوافل من بلد إلى آخر[٤٧]، حيث ذكر اليعقوبي عدة سكك في العراق مثلاً: فمن باب البصرة إلى باب الكوفة سكة الشرطة وسكة الهيثم وسكة المطبق... ومن سكة البصرة إلى باب خراسان سكة الحرس وسكة النعيمية وسكة سليمان... هذه السكك بين الطاقات، والطاقات داخل المدينة وداخل السور[٤٨]، وذكر البكري في حديثه عن مدينة طبنة:« ويشق سكك المدينة جداول الماء العذب وبها أسواق كثيرة»[٤٩]، وترتبط السكة أيضًا بالبريد مثل القول ثم إلى الرملة وهي قصبة فلسطين تسع سكك ، ومنه السكة طريق[٥٠].

السهل: ذكر الوزان «والجهة المجاورة لتلمسان كلها سهل مع بعض المفازات»[٥١]، وأضاف عن مراكش «تعد مراكش من كبريات عواصم العالم وأشرف مدن أفريقيا تقع في سهل فسيح بعيدة عن الأطلس بنحو أربعة عشر ميلاً»[٥٢]، وقال مرمول كبرخال عن مدينة تفلالت« عندما شيد البرابر هذه المدينة في سهل من الرمال»[٥٣]، وذكر أيضًا مدينة السويهلة قرب الحدود الموريتانية لأنها تقع في سهل حجارته ورماله سوداء[٥٤]، ومنه أن السهل في التل أو الصحراء ومنه جاء اسم دول السهل الإفريقي الذي ترجم محرفًا من اللغات الأوروبية بدول الساحل الإفريقي ، ومنه السهل منطقة مستوية واسعة.

الطرف: ذكر الإدريسي «ومنه إلى طرف بني جناد وهو انف يدخل في البحر اثنا عشر ميلاً ومن طرف بني جناد إلى مدينة تدلس اثنا عشرة ميلا»[٥٥]، ثم ذكر هذا المصطلح بمعنى الرأس البحري عدة مرات في تسمية عدة أماكن على سواحل المغرب الأوسط وهي طرف بني عبد الله على بعد أربعة وعشرون ميلاً تقويرًا وروسية عشرون ميلاً من مدينة تدلس وطرف جرية وطرف مزغيض ، مع استعمال الإدريسي لمصطلح الرأس عند ذكر رأس الحمراء في بونة[٥٦]، وذكر ابن سعيد المغربي حول مدينة شلب غرب الأندلس « ثم إلى مصب نهر شلب ثمانية وعشرون ميلا ثم إلى حوز الريحان خمسة عشر ميلاً، ثم إلى طرف العرف ثمانون ميلاً»، ومنه يمكن القول أن تعريف الإدريسي أوضح ويتفق مع التعريف الحديث للرأس البحري وهو توغل اليابسة في الماء[٥٧].

فحص: في اللغة فحص ما بسط منه وكشف من نواحيه وما أستوى من الأرض والجمع فحوص[٥٨]، جاء في كتاب الإدريسي «والقسنطينة من أحصن بلاد الله وهي مطلة على فحوص متصلة»[٥٩]، وذكر البكري عن طبنة « وخارج المدينة بإزاء باب الفتح سور مضروب على فحص فسيح يكون مقدار ثلثي مدينة طبنة بناه عمر بن حفص بن هازرمرد»[٦٠]، وعن مصر قال الإدريسي: « وأرض مصر تتصل حدودها من جهة الجنوب ببلاد النوبة ومن جهة الشمال بالبحر الشامي ومن جهة الشام بفحص التيه ومن جهة الشرق ببحر القلزم ومن جهة المغرب بالواحات»[٦١]، وفحص التيه هي شبه جزيرة سيناء الصحراوية ، وذكر إبن الحاج النميري الذي زار مدينة قسنطينة في رحلته الشهيرة «فلما نزل الركاب العلي بالفحص الأبيض خارج قسنطينة وصل ابن أبي ثابت المذكور صحبة الشيخ المغربي... وما رجع أيده الله حتى تكامل بالفحص الأبيض نزول محلاته وجاء النصر في أسعد أيامه وأوقاته»[٦٢]، واشتهرت في عصر البكري القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي كل من مدينة المهدية بفحص ترنوط ومدينة تلمسان بفحص أزيدور وطوله خمسة وعشرون ميلا ومدينة طرابلس بفحص سوبجين الخصب جدا،ومنه الفحص سهل خصب[٦٣].

المفازة: المفازة هي البرية القفر التي لا ماء فيها جمعها مفاوز سميت كذلك لأن الذي اجتازها فاز ونجى من الموت[٦٤]، جاء في وصف ابن حوقل للجزيرة الفراتية «وبالجزيرة براري ومفاوز وسباخ بعيدة الأقطار»[٦٥]، وذكر الوزان عن مصر«إقليم مصر المشهور كثيرًا يحده غربًا صحاري برقة ونوميديا وليبيا ويتاخم شرقًا المفازات الواقعة بين النيل والبحر الأحمر»[٦٦]، وعن المسيلة قال الوزان تسكن مسلم مفازة مسيلة الممتدة نحو مملكة بجاية[٦٧]، وحول إقليم الزاب قال الوزان أيضًا «يقع هذا الإقليم في وسط مفازات نوميديا ويبتدىء غربًا من تخوم المسيلة ويحده شمالاً جبال مملكة بجاية ويمتد شرقًا إلى بلاد الجريد التي توافق مملكة تونس وجنوبًا إلى القفار التي تقطعها الطريق المؤدية من تقرت إلى ورقلة» ومنه المفازة أرض خالية فقيرة من كل شيء[٦٨].

دورية إلكترونية محكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

ثالثًا: مفاهيم عمرانية

باب: بمعنى مدخل المدينة ويسمى باسم سكانه أو الجهة الجغرافية التي يقع باتجاهها مثل باب زويلة في القاهرة وباب ميلة في قسنطينة ،[٦٩] وكان لمراكش أربعة وعشرون بابًا[٧٠] ، وأبواب مدينة تونس والإسكندرية ودمشق ، ومنه الباب في المدينة العربية هي المدخل من جهة معينة يسمى غالبًا باسم جهتها مثلاً: باب القنطرة في مدينة قسنطينة لأنها قرب القنطرة المشهورة[٧١].

جادّة: منها طريق الجادة من المدينة إلى مكة التي ذكرها ابن خرذابة ، و ذكر ابن سعيد المغربي عن مدينة حران« ويقع في هذا الجزء الرابع من مدن الجزيرة حران القديمة وهي حيث الطول خمس وستون درجة والعرض ست وثلاثون درجة وهي في جادة الموصل من حلب» ومنه الجادة الطريق الواسع سواء بين مدن أو حاليًا داخل المدينة الكبرى.[٧٢]

ربض: في اللغة الربض ما حول المدينة ، وقيل هو الفضاء حول المدينة ، وقال بعضهم الربض بالضم وسط الشيء والربض بالتحريك نواحيه وجمعها أرباض ، والربض حريم المسجد ، وربض المدينة بضم الراء والباء أساسها وبفتحها ما حولها وخارجا منها تشبيها بالأبنية التي تكون حول المدن وتحت القلاع[٧٣] ، وذكر الوزان عن القاهرة «والربض المعروف بباب زويلة بالقاهرة هو ربض كبير جدًا يضم نحو أثنى عشر ألف كانون»[٧٤] ، كما ذكر أرباض القاهرة الأخرى ربض باب اللوق والقرافة وبولاق وربض جامع طولون ، وربض تلمسان وربض الصالحية في دمشق[٧٥].

جاء في كتاب نزهة المشتاق «فأما باغاية فمدينة كبيرة عليها سوران من حجر ولها ربض عليه سور وكانت الأسواق فيه ، وأما الآن فالأسواق في المدينة والأرباض خالية بإفساد العرب لها»[٧٦] ، وذكر أيضًا «ومدينة مرسية قاعدة أرض تدمير وهي في مستوى من الأرض على النهر الأبيض ولها ربض عامر آهل وعليها وعلى ربضها أسوار حصينة وحظائر متقنة والماء يشق ربضها وهي على ضفة النهر المعروف»[٧٧] ، ذكر الإدريسي أيضًا « ومدينة دانية على البحر عامرة حسنة ، لها ربض عامر»[٧٨] ، وذكر أيضًا عن مدينة لورقة « وهي مدينة غراء حصينة على ظهر جبل ولها أسواق وربض في أسفل المدينة ، وعلى الربض سور ، وفي الربض السوق الزهادرة ، وسوق العطر»[٧٩] . وقال البكري عن مدينة ميلة « ولها حمامان في ربضها وبها عين تعرف بعين الحما يرش منها على المحموم فيبرأ لبركتها وشدة بردها» ومنه الربض هو الضاحية الكبرى للمدينة[٨٠].

فرضة: في اللغة الفرضة في الحائط ونحوه كالفرجة وجمعها فرض وفرضة النهر الثلمة التي ينحدر منها الماء وتصعد منها السفن وفرضة البحر محط السفن[٨١] ، جاء في كلام الإدريسي« ومدينة قرطاجنة هي فرضة مدينة مرسية وهي مدينة قديمة أزلية... ومن مدينة قرطاجنة على الساحل إلى شجانة أربعة وعشرون ميلاً... ومنه إلى حصن آقلة إثنتا عشر ميلا وهو حصن صغير على البحر وهو فرضة لورقة وبينهما في البر خمسة وعشرون ميلا»[٨٢] ، وذكر ابن سعيد المغربي « ومنها إلى أرشغون فرضة تلمسان وحيث ينصب النهر الذي ينصب فيه نهر يسر الكبير سبعون ميلاً ومنه إلى فرضة هونين اثنتا عشر ميلاً ومنها إلى فرضة وهران المشهورة ثمانون ميلاً وهي آخر فرض هذا الجزء من المدن العدوية» ومنه الفرضة هي منطقة الميناء على البحر في المدينة أو الجهة ككل مثل أرشغون الساحلية فرضة تلمسان في الداخل.[٨٣]

قصبة: ذكر الإدريسي « ومدينة دانية على البحر عامرة حسنة ، لها ربض عامر ، وعليها سور حصين ، وسورها من ناحية المشرق في داخل البحر ، وقد بني بهندسة وحكمة ، ولها قصبة منيعة جدًا»[٨٤] ، وفي وصف مدينة اوريوالة بقوله: «ومدينة أوريوالة على ضفة النهر الأبيض ، والنهر الأبيض هو نهرها ونهر مرسيه ، وسورها من ناحية الغرب على جريته ، ولها قنطرة على قوارب يدخل إليها منها ، ولها قصبة في نهاية الإمتاع على قمة جبل»[٨٥] ، ومدينة شاطبة مدينة حسنة ولها قصاب يضرب بها المثل في الحسن والمنعة[٨٦] ،ومنه القصبة مدينة محصنة داخل المدينة.

قلعة: توجد في البلدان الإسلامية عدة قلاع أشهرها في الأندلس قلعة رباح قرب طليطلة وصفها الإدريسي بقوله« وهي مدينة حسنة» ،[٨٧] ومدينة قلعة بني حماد التي سماه البكري قلعة أبي طويل وقلعة هوارة[٨٨] ، واشتهرت بلاد الشام عامة بالقلاع ، خاصةً قلاع حلب الشهباء.[٨٩]

رابعًا: مفاهيم إدارية

إفريقية: ذكر مرمول كربخال أن إقليم تونس يسمى إفريقية ، وهو يختلف عن إفريقيا بالألف الطويلة التي تعني القارة كلها ، وهو واضح في عنوان كتاب الوزان (وصف إفريقيا) ، وفي عنوان كتاب مرمول كربخال (إفريقيا)[٩٠].

البحر الشامي: يقصد به البحر المتوسط (Mediterranean sea) وحتى عصر ابن حوقل القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي كان يسمى بحر الروم حيث قال: « وطول ارض مصر من أسوان إلى بحر الروم نحو عشرين مرحلة»[٩١] ، حيث ذكر الإدريسي: « أما بحر الشام الذي عليه جنوب بلاد الأندلس فمبدؤه من الغرب وآخره حيث أنطاكية»[٩٢] ، وأضاف الإدريسي: « وسنذكر سبتة التي على مجاز البحر المسمى ببحر الظلمات وعلى ساحل البحر الشامي»[٩٣] ، وفي تحديد حدود مصر قال الإدريسي: « وأرض مصر تتصل حدودها من جهة الجنوب ببلاد النوبة ومن جهة الشمال بالبحر الشامي ومن جهة الشام بفحص التيه ومن جهة الشرق ببحر القلزم ومن جهة المغرب بالواحات»[٩٤] ، وذكر ابن الوردي عن الإسكندرية: « وأما الإسكندرية فهي آخر مدن المغرب وهي على ضفة البحر الشامي»[٩٥] ، أما الوزان في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي فسماه باسم البحر الأبيض بقوله حول إقليم الريف:« الريف أحد أقاليم مملكة فاس يبتدىء من تخوم مضيق أعمدة هرقل ويمتد شرقا إلى نهر النكور أي على مسافة مئة وأربعين ميلاً وتنتهي شمالاً عند البحر المتوسط في القسم الأول منه ويمتد جنوبًا على نحو أربعين ميلاً في الجبال المحاذية لنهر ورغة الواقعة بمنطقة فاس»[٩٦] ، وفي القرن العاشر الهجري الموافق للسادس عشر الميلادي ذكره مرمول كربخال بالبحر المتوسط.[٩٧]

بحر الظلمات: ذكره الإدريسي « الإقليم الرابع الجزء الأول مبدؤه من المغرب الأقصى حيث البحر المظلم ومنه يخرج خليج البحر الشامي مارا إلى المشرق»[٩٨] وأضاف الإدريسي« وسنذكر سبتة التي على مجاز البحر المسمى ببحر الظلمات وعلى ساحل البحر الشامي»[٩٩] ، وذكره مرمول كربخال باسم المحيط فقط ، ومنه المحيط الأطلسي سمي بحر الظلمات لهول أمواجه والسحاب المظلم فوقه.[١٠٠]

*بحر القلزم: ذكره الإدريسي في تحديد حدود مصر« وأرض مصر تتصل حدودها من جهة الجنوب ببلاد النوبة ومن جهة الشمال بالبحر

الشامي ومن جهة الشام بفحص التيه ومن جهة الشرق ببحر القلزم ومن جهة المغرب بالواحات».[١٠١] وفي القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي ذكر الوزان تسمية البحر الأحمر بقوله عن مصر«إقليم مصر المشهور كثيرا يحده غربا صحاري برقة ونوميديا وليبيا ويتاخم شرقا المفازات الواقعة بين النيل والبحر الأحمر»[١٠٢]، ونفس الشيء ذكره مرمول كربخال باسم البحر الأحمر.[١٠٣]

الإقليم: قسم الجغرافيون الأرض إلى سبعة أقاليم كل إقليم ينقسم إلى عشر أجزاء، لكن مند القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي أضاف ابن سعيد المغربي إقليمين آخرين هما إقليم وراء خط الاستواء، سماه المعمور خلف خط الاستواء أي الجنوب وإقليم في الشمال سماه المعمور في شمال الأقاليم السبعة ووضع الإقليم الأول في بداية الكتاب والإقليم الثاني في نهاية الكتاب.[١٠٤] وإداريًا على سبيل المثال ؛ الأندلس تنقسم إلى أقاليم عدة ورساتيق جملة وفي كل إقليم منها عدة مدن هي: إقليم البحيرة، شذونة، الشرق، الكنبانية، أشونة، البشارات، بجانة، البيرة، فريرة، أرغيرة، الولجة، البلالطة، القصر، البلاط، بلاطة، الشارات، الزيتون[١٠٥]، وفي اليمن يسمى الإقليم مخلاف وجمعه مخاليف[١٠٦]، وذكر ابن الوردي« وأرض الشام هو إقليم عظيم كثير الخيرات جسيم البركات ذو بساتين وجنات»[١٠٧].

وجاء في كلام الإدريسي حول تقسيمه لكتابه نزهة المشتاق«الإقليم الرابع الجزء الأول مبدؤه من المغرب الأقصى حيث البحر المظلم ومنه يخرج خليج البحر الشامي مارًا إلى المشرق» بمعنى الوطن العربي إقليمًا واحدًا حيث يتسع مفهوم الإقليم[١٠٨]. أما عند المقدسي الإقليم هو البلد حيث عنوان كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" وصف فيه البلاد الإسلامية فقط والتي قسمها إلى أربعة عشر إقليمًا، بمعنى العالم الإسلامي اليوم يتكون من ١٤ إقليم.[١٠٩] ذكر الوزان عن مصر«إقليم مصر المشهور كثيرًا يحده غربًا صحاري برقة ونوميديا وليبيا ويتاخم شرقًا المفازات الواقعة بين النيل والبحر الأحمر» ومنه الإقليم هو منطقة جغرافية تتميز عما جاورها بخصائص معينة في كل الميادين.[١١٠]

الإستان: لفظ معناه الكورة ومنه كلمات مثل شهرستان، خوزستان، طبرستان، والإستان ينقسم إلى الرساتيق، والرستاق ينقسم إلى عدة طسوج، وينقسم الطسوج إلى عدة قرى[١١١]، وذكر خرذدابة كل كورة أستان وترجمة الإستان إحازة[١١٢]، بمعنى حوز، ومنه الاستان كورة وحوز.

جند: كلمة تستعمل في تقسيم الشام الإداري، ينقسم الشام إلى خمسة أجناد وهي جند قنسرين وجند فلسطين وجند حمص وجند دمشق وجند الأردن، والجند هو مجموعة من الكور[١١٣]، وقال اليعقوبي: « ومن مدينة دمشق إلى جند الأردن أربع مراحل... ومن جند الأردن إلى جند فلسطين ثلاث مراحل»[١١٤]، وقال ابن حوقل: «وأما جند فلسطين وهو أول أجناد الشام مما يلي المغرب»، ومن الجند بمعنى إقليم في بلاد الشام[١١٥].

الرستاق: كل موضع فيه مزارع وقرى، واللفظ لا يطلق على المدن الكبيرة، وهو عند الفرس مرادف للسواد عند العراقيين[١١٦]، وجاء في وصف الموصل «وللموصل نواح عريضة ورساتيق عظيمة وكور كثيرة»[١١٧]، وذكر أبو حامد الغرناطي «وفي قرب خوارزم جبل عليه قلاع كثير وله رساتيق»[١١٨].

الطسوج: أصغر من الكورة والرستاق والإستان، أكثر ما تستعمل الكلمة في سواد العراق، وترجمة الطسوج الناحية، وقد قسم العراق إلى ستين طسوجًا[١١٩] فطول أرض السواد من حد أرض أثور وهي الموصل من قرية تسمى العلث من طسوج بزرجسابور وقرية تعرف بحربا من طسوج مسكن بينهما عرض دجلة إلى آخر الكورة، وهو الموضع المعروف ببهمن أردشير، وهي من فرات البصرة حتى تبلغ جزيرة متصلة بالبحر تعرف بميان روذان، يكون ذلك بالفراسخ مئة وخمسة وعشرين فرسخا وعرضه من عقبة حلوان إلى العذيب مما يلي البادية وذلك بالفراسخ ثمانون فرسخًا.[١٢٠]

الكورة: كل صقع يشتمل على عدة قرى ولابد لتلك القرى من قصبة أو مدينة تجمع اسمها[١٢١]، منها قول اليعقوبي: « وكور مصر منسوبة إلى مدنها لان لكل كورة مدينة مخصوصة بمر من الأمور فمن مدن الصعيد وكورها مدينة منف»[١٢٢]، وعن فلسطين قال: «ولفلسطين من الكور: كورة إيليا وهي بيت المقدس... وكورة اللد...عمواس، ونابلس... وكورة بيت جبرين»[١٢٣]، والبكري« وبسكرة كورة فيها مدن كثيرة وقاعدتها بسكرة»[١٢٤]، ذكر ابن الوردي عن الشام« وأرض دمشق من كورها كورة الغوطة وكورة البقاع وكورة بعلبك وكورة جولان ... وكورة طرابلس وكورة كفرطابا وكورة عمان».[١٢٥]

المصر: المصر هو الحد بين الشيئين، وهو كذلك البلد المعروف، والمصران الكوفة والبصرة أو العراقين[١٢٦]، وذكر البكري مدينة إيليا أي مدينة القدس بقوله: « هي مدينة مصرت في مفازة من الأرض والجبال محيطة بها»[١٢٧]، وذكر الإدريسي «ومدينة القيروان أم أمصار وقاعدة أقطار».[١٢٨]

خامسًا: مفاهيم سكانية

الغز: قال ابن جبير وفي هذا الماء بدنقاش وقعت بين بعض جمالي العرب اليمنيين... وهم من بلي من أفخاذ قضاعة وبين بعض الاغزاز بسبب التزاحم على الماء مهاوشة كادت تفضي إلى الفتنة ثم عصم الله منها[١٢٩]، والغز جنس من الترك مثل التغزغز وكيماك والتركش والخزلخية[١٣٠].

الصقالبة: هم سكان شرق أوروبا ويسمون الآن بالمصطلح الحديث السلاف، ولابن فضلان كتاب عنوانه: الرسالة في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة.[١٣١]

كانون: بمعنى أسرة ويستخدم في ذكر عدد سكان المدن حيث ذكر الوزان عن القاهرة « والربض المعروف بباب زويلة بالقاهرة هو ربض كبير جدًا يضم نحو إثني عشر ألف كانون»[١٣٢]، وأضاف عن مدينة قسنطينة « تستطيع قسنطينة نظرًا لحجمها أن تظم ثمانية آلاف كانون»[١٣٣]، وعن تقرت قوله« وفي تقرت نحو ألفين وخمسماية كانون»[١٣٤]، وعن فاس قال « يقوم خارج فاس من جهة الغرب ربض يضم نحو خمسماية كانون لكن دوره كلها قبيحة وهنالك يقطن فقراء القوم».[١٣٥] ونفس الشيء قاله مرمول كبرخال «عن مدينة فاس لكن باستخدام مصطلح نسمة ودار».[١٣٦]

خاتمة

التحليلات السابقة الذكر أظهرت ما يلي:

- أن المفاهيم الواردة سابقًا مهمة لفهم النصوص التراثية الموجودة في الكتب الجغرافية أو غيرها، مثل: مفاهيم الأطوال، البريد ١٢ ميل، الفرسخ ٣ أميال، الميل ٣٠٠٠ ذراع، المرحلة ٣٣ ميل،

دورية إلكترونية. محكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

اليوم ٨٠ كلم ، المجرى ١٠٠ ميل. ومفاهيم تضاريس ، فحص= سهل ، غور= انكسار ، طرف= رأس بحري ، جون= خليج ، سكة= طريق ، مفازة= قفر ، سهل= أرض مستوية. ومفاهيم عمرانية ، الفرضة= الربض ، القصبة= قلعة ، جادة= طريق واسع ، باب= مدخل مدينة. ومفاهيم إدارية افريقية= تونس ، بحر القلزم= البحر الأحمر ، بحر الظلمات= المحيط الأطلسي ، البحر الشامي= البحر الأبيض المتوسط ، المصر= البلد ، الإقليم= البلد الواسع ، طسوج= ناحية ، كورة = أستان ، مخاليف= إقليم في اليمن خاصةً. ومفاهيم سكانية ، كانون= أسرة أو دار ، صقالبة= سلاف ، الغز= جنس من الترك.

- أن المشكل في مفاهيم الأطوال بسبه الاختلاف في تحديد طول الميل والذراع... عند المالكية والحنفية والشافعية والحنابلة ، لأسباب فقهية وبالتالي الوحدات الأخرى ، والمشكل الأكبر الاختلاف بشكل كبير يصل أحيانًا إلى الضعف ، والحل الأخذ بما قاله الجغرافيين انطلاقًا من الميدان ، وغربلة تراثنا الحضاري على يد مختصين على حد قول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله في كتابه "أسباب تأخر العرب والمسلمين".
- هذه الدراسة تخص مفاهيم دون تخصيص ودون ذكرها كله لأنها تحتاج إلى دراسات كبرى التي نتمنى أن تكون من طرف الباحثين في الوطن العربي الذين يمتلكون قدرات كبرى في البحث ومؤسسات لها إمكانات مادية كافية لذلك.

الهوامش

(١) إبراهيم رزقانة: مدخل إلى الجغرافيا ، القاهرة دار النهضة العربية ، ١٩٦٨ ، ص٧.٦. وحول العصر الوسيط ينظر: نورمان كانتور: التاريخ الوسيط قصة حضارة البداية والنهاية ، القسم الأول ، ترجمة وتعليق قاسم عبده ، ط٥ ، القاهرة ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ١٩٩٧ ، ص ٣٠-٣٤.

Bolton ,W,F, The Middle Ages ,Penguin books,London,1970,pp12

(٢) إسماعيل العربي: دور المسلمين في تقدم الجغرافيا الوصفية والفلكية ، الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية ١٩٧٨ ، ص١٦.

(٣) إسماعيل العربي: دور المسلمين في تقدم الجغرافيا...ص١٧.

(٤) إسماعيل العربي: دور المسلمين في تقدم الجغرافيا... ص ٢١.٢٠.

(٥) إسماعيل العربي: دور المسلمين في تقدم الجغرافيا...ص٢٢.

(٦) إسماعيل العربي، المدن المغربية، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٤ ، ص٣٣٩.

(٧) ابن منظور ، لسان العرب ، بيروت لبنان ، دار صادر ، (د ت) ، ج٣ ، ص٨٦.

(٨) ابن جبير: تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار ، تقديم سليم بابا عمر ، الجزائر المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية للنشر ، ١٩٨٧ ، ص٢٧.

(٩) علي جمعة ، المكاييل والموازين الشرعية ، القاهرة ، منشورات علاء سرحان ، دار الرسالة ٢٠٠٢ ، ص٣٦.٣٧.

(١٠) صلاح الدين كردوس: أسس الجغرافيا الطبيعية ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ١٩٨٦ ، ص٤٣.٤٦.

(١١) ابن سعيد المغربي: الجغرافيا ،حققه ووضع مقدمته وعلق عليه إسماعيل العربي ،الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، ١٩٨٢ ، ص١٤٢.

(١٢) كربخال مرمول: أفريقيا ، ترجمة محمد حجي ، محمد زنيبر ، محمد الأخضر ، أحمد التوفيق وأحمد بنجلون ، الرباط المغرب ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، ١٩٨٦ ، ج٣ ، ص١١ ، إسماعيل العربي ، المدن المغربية ، ص٣٤٠.

(١٣) علي جمعة ، المرجع السابق ، ص٩٨ ، ٣٤ ، صلاح الدين كردوس: المرجع السابق ، ص٤٣.- ٤٦.

(١٤) إسماعيل العربي ، المدن المغربية... ، ص٣٣٩.

(١٥) البكري: المسالك والممالك ، حققه وقدم له وفهرسه ادري فان ليوفن وأندري فيري ، بيت الحكمة قرطاج تونس ، والدار العربية للكتاب ،١٩٩٢ ، ج١ ،ص ٤٢٩ ، البكري ، معجم ما أستعجم من أسماء البلاد والمواضع ، تحقيق مصطفى السقا ، بيروت عام الكتب(د ت)،ج١ ، ص٢٥١ ، ٣٣٠ ، ٣٧٧ ، ابن منظور ، لسان العرب... ،ج٣ ، ص٨٦.

(١٦) كربخال مرمول: المصدر السابق ،ج٣ ، ص٣٢٧.

(١٧) أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب ، تحقيق إسماعيل العربي ، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ١٩٨٩ ، ص١٢٧.

(١٨) المصدر نفسه ، ص٥٨.

(١٩) علي جمعة ، المرجع السابق ، ص٣٦ ، ٧٤.

(٢٠) الإدريسي: القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس ، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق ، تحقيق وتقديم وتعليق إسماعيل العربي ، الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، ١٩٨٣ ، ص٣٠٧.

(٢١) المصدر نفسه ، ص٣٠٧ - ٣٠٨ ، ابن سعيد المغربي ، المصدر السابق ، ص١٦٨.

(٢٢) الإدريسي: المصدر السابق ، ص١٦٤ ، ينظر أيضًا نفس كلام ابن حوقل ، صورة الأرض ، ليدن هولندة بريل ، ١٩٣٨ ، ص٨٨.

(٢٣) الإدريسي: المصدر السابق ، ص ١٦٩.

(٢٤) المصدر نفسه ، ص ١٦٤.

(٢٥) المصدر نفسه ، ص ٣٠٧.

(٢٦) المصدر نفسه ، ص٢٧٣ .

(٢٧) البكري: المسالك... ج ٢ ، ص٦٨٤.

(٢٨) البكري: المسالك... ج ١ ، ص ٣٨٠.

(٢٩) علي جمعة ، المرجع السابق ، ص٣٧ ، ٧٤.

(٣٠) الإدريسي: المصدر السابق ، ص١٦٤.

(٣١) المصدر نفسه ، ص١٦٩.

(٣٢) المصدر نفسه ، ص١٧٤.

(٣٣) الوزان الفاسي: وصف إفريقيا ، تحقيق وترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر ،بيروت لبنان ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٨٣ ، ج١ ، ص٢٠٧.

(٣٤) كربخال مرمول: المصدر السابق ، ج٣ ، ص٣٢٧.

(٣٥) علي جمعة ، المرجع السابق ، ص٣٥ ، ٧٤.

(٣٦) الإدريسي: المصدر السابق ، ص١٦٧.

(٣٧) المصدر نفسه ، ص ١٦١.

(٣٨) البكري: المسالك.... ج ٢ ، ص٧٢٨.

(٣٩) الإدريسي: المصدر السابق ، ص ١٨٦.

(٤٠) أبو الفدا: تقويم البلدان ، تحقيق البارون ماك كوكين ديسلان ، باريس فرنسا ، دار الطباعة السلطانية ١٨٤٠ ، ص١٥١.

(٤١) العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار من الباب الثامن إلى الباب الرابع عشر ، تحقيق وتعليق مصطفى أبو ضيف أحمد ، بيروت لبنان ١٩٨٨ ، ص ٦٠.

(٤٢) الإدريسي: المصدر السابق ، ص١٧١.

(٤٣) المصدر نفسه ص ١٧٥.

(٤٤) إسماعيل العربي ، المدن المغربية... ،ص ٣٤٠.

(٤٥) ابن الوردي: عجائب البلدان(خريدة العجائب وفريدة الغرائب) ، تحقيق وتعليق وتقديم أنور محمود الزناتي القاهرة عين شمس(د ت) ، ص٤٦.

(٤٦) صلاح الدين كردوس: المرجع السابق ، ص ١١٤ - ١١٧.

(٤٧) إسماعيل العربي ، المرجع السابق ، ص ٣٤٠.

(٤٨) اليعقوبي: البلدان ، وضع حواشيه محمد أمين ضناوي ، بيروت لبنان ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، ٢٠٠٢ ، ص٢٨.

(٤٩) ابن خرداذبة: المسالك والممالك ، بغداد مكتبة المثنى (د ت) ، ص٢٥ ، البكري: المسالك... ج ٢ ، ص٧١٢.

(٥٠) ابن خرداذبة: المصدر السابق ، ص٤٩ ، ابن بطوطة: الرحلة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) ، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، ١٩٨٩ ، ج١ ، ص١٠١.

(٥١) الوزان الفاسي: المصدر السابق ،ج٢ ، ص ١٠.

(٥٢) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ١٢٦.

دورية إلكترونية. محكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

(٥٣) المصدر السابق ، ج٣ ، ص١٥٦.
(٥٤) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص١٥٧.
(٥٥) الإدريسي: المصدر السابق ، ص ١٧٣.
(٥٦) المصدر نفسه ، ص ١٧١ — ١٧٥.
(٥٧) ابن سعيد المغربي: المصدر السابق ، ص١٦٦ ، صلاح الدين كردوس: المرجع السابق ، ص١٥٧
(٥٨) ابن منظور ، المصدر السابق ، ج٧ ، ص٦٢-٦٣.
(٥٩) الإدريسي: المصدر السابق ، ص١٦٧.
(٦٠) البكري: المسالك... ج٢ ، ص٧١٢.
(٦١) الإدريسي: المصدر السابق ، ص ٢٢٩.
(٦٢) ابن الحاج النميري ، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب ، دراسة وإعداد محمد شقرون ، بيروت لبنان ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٩٠ ، ٢٨٧ ، ٢٩٩.
(٦٣) البكري: المسالك... ج٢ ،ص٦٥٥ ، ٦٨٤ ، ٧٤٧.
(٦٤) ابن منظور ، المصدر السابق ،ج٥ ، ص٣٩٣.
(٦٥) ابن حوقل: المصدر السابق ، ص٢٢٧.
(٦٦) الوزان الفاسي: المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ١٨٥.
(٦٧) المصدر نفسه ،ج٢ ، ص٥١.
(٦٨) المصدر نفسه ،ج٢ ، ص ١٣٨.
(٦٩) الوزان الفاسي: المصدر السابق ، ج٢ ، ص١٨٥.
(٧٠) كربخال مرمول: المصدر السابق ،ج٣ ، ص٤٦.
(٧١) ابن بطوطة: المصدر السابق ،ج١ ، ص٩١ ، ٩٧. وينظر التيجاني ، الرحلة ، قدم له حسن حسني عبد الوهاب تونس طرابلس ، الدار العربية للكتاب ١٩٨١ ، ص٣٥٤ - ٣٥٥.
(٧٢) المصدر السابق ، ص٥٢ ، المصدر نفسه ، ص١٥٦
(٧٣) ابن منظور: المصدر السابق ، ج٦ ، ص ١٤٠ ، ٣٢٦ ،ج٧ ، ص١٥٢.
(٧٤) الوزان الفاسي: المصدر السابق ،ج٢ ، ص١٨٥.
(٧٥) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٢٠٧.٢١٠ ، وينظر ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ج١ ، ص١٠١.
(٧٦) الإدريسي: المصدر السابق ، ص١٧٧.
(٧٧) المصدر نفسه ، ص٢٨٥.
(٧٨) المصدر نفسه ، ص٢٨٢.
(٧٩) المصدر نفسه ، ص٢٨٨.
(٨٠) البكري: المسالك... ج٢ ، ص٧٢٩- ٧٣٠.
(٨١) ابن منظور: المصدر السابق ، ج٧، ص٢٠٦ ، البكري ، معجم ما استعجم... ، ج١ ، ص٩٨.
(٨٢) الإدريسي: المصدر السابق ، ص٢٨٤ - ٢٨٥.
(٨٣) ابن سعيد المغربي: المصدر السابق ، ص ١٤٠.
(٨٤) الإدريسي: المصدر السابق ، ص٢٨٢.
(٨٥) المصدر نفسه ، ص٢٨٣.
(٨٦) المصدر نفسه ، ص٢٨١.
(٨٧) المصدر نفسه ، ص٣٠٧.
(٨٨) البكري: المسالك...ج٢ ، ص ٧١٠ ، وينظر الإدريسي: المصدر السابق ، ص١٥٦ ، عمر عبد السلام التدمري: «مشاهدات وأخبار عبد الباسط الظاهري في بلاد المغرب والأندلس من خلال كتابه المخطوط الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم» ٨٧١.٨٦٦هـ/١٤٧١.١٤٦٦م ، مجلة التاريخ العربي ، العدد١٧ ، السنة٢٠٠١ ، ص١٢٩ ، رشيد بورويبة : الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها ، الجزائر ، وزارة الثقافة ٢٠٠٧ ،ص ٠٦ وما بعدها.
(٨٩) ياقوت الحموي: معجم البلدان ، بيروت لبنان ، دار الفكر ، (د ت)، ج٤ ، ص١٧٦ ، وصفحات كثيرة أخرى.
(٩٠) كربخال مرمول: المصدر السابق ، ج٣ ، ص١٦.
(٩١) ابن حوقل: المصدر نفسه ، ص١٤٤ ، وينظر الاصطخري ، المسالك والممالك ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص١٩ ، ٢٤.
(٩٢) الإدريسي: المصدر السابق ص٣٠٧.
(٩٣) المصدر نفسه ، ص١٩١.
(٩٤) المصدر نفسه ، ص٢٢٩ .
(٩٥) ابن الوردي: المصدر السابق ، ص٣٢.
(٩٦) الوزان الفاسي: المصدر السابق ،ج١ ، ص٣٢٤.
(٩٧) كربخال مرمول: المصدر السابق ، ج٢ ، ص٢٢٢ ، ٢٧٠.
(٩٨) الإدريسي: المصدر السابق ، ص ١٩١.
(٩٩) المصدر نفسه ، ص١٩١
(١٠٠) كربخال مرمول: المصدر السابق ، ج٢ ، ص٢٢٢.
(١٠١) الإدريسي: المصدر السابق ، ص٢٢٩ ، وينظر الاصطخري ، المصدر السابق ، ص٢٤.
(١٠٢) الوزان الفاسي: المصدر السابق ،ج٢ ، ص١٨٥.
(١٠٣) كربخال مرمول: المصدر السابق ، ج٣ ، ص٢٤٧.
(١٠٤) الإدريسي ، المصدر السابق ، ص٢٢ ، ٣١ ، ٨٢، وينظر ابن سعيد المغربي ، المصدر السابق ، ص٣٣٩.
(١٠٥) الإدريسي ، المصدر السابق ، ص ٢٦٣.
(١٠٦) اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص١٥٥ ، ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص ٤١ .
(١٠٧) ابن الوردي: المصدر السابق ، ص٤٦.
(١٠٨) الإدريسي ، المصدر السابق ، ص ٢٤٥.
(١٠٩) المقدسي شمس الدين: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ،تحقيق غازي طليمات ، دمشق سوريا ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ١٩٨٠ ، ص٦ ، ويلاحظ أن عنوان الكتاب نفسه يحمل مفهوم الأقاليم ، وينظر أيضًا الاصطخري الذي قسم البلاد الإسلامية إلى عشرين إقليمًا ،
Allaoua AMARA; L'animation de la façade maritime du maghreb central (VIII-XIIe siècle), Revue des lettres et sciences Humaine université emir A, EK des sciences islamiques-constantine, numéro 06, 2005, p09 ,
وينظر كتاب علاوة عمارة ، دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ،٢٠٠٩ ، ص١٣٩.
(١١٠) الوزان الفاسي:المصدر السابق ،ج٢ ، ص١٨٥.
(١١١) إسماعيل العربي: المدن المغربية... ، ص٣٣٩.
(١١٢) ابن خرذابة: المصدر السابق ،ص٣.
(١١٣) اليعقوبي: المصدر السابق ،ص١٦٠ - ١٦٦ ، إسماعيل العربي: المدن المغربية... ، ص٣٤٠.
(١١٤) اليعقوبي: المصدر السابق ،ص ١٦٢ — ١٦٦.
(١١٥) ابن حوقل: المصدر السابق ،ص١١٦.
(١١٦) ابن خرداذبة :المصدر السابق ، ص٣.
(١١٧) ابن حوقل: المصدر السابق ، ص٢١٦.
(١١٨) ابو حامد الغرناطي: المصدر السابق ، ص١٠٠.١٠١.
(١١٩) ابن خرذابة: المصدر السابق ، ص٥ ، إسماعيل العربي: المرجع السابق ، ص٣٣٩.
(١٢٠) البكري: المسالك... ج١ ، ص٤٢٤.
(١٢١) إسماعيل العربي: المدن المغربية... ، ص٣٣٩.
(١٢٢) اليعقوبي: المصدر السابق ، ص١٦٩.
(١٢٣) المصدر نفسه ، ص١٦٨.
(١٢٤) البكري: المسالك... ج٢ ، ص٧١٣.
(١٢٥) ابن الوردي: المصدر السابق ، ص٤٦.
(١٢٦) إسماعيل العربي ، المدن المغربية... ، ص٣٣٩.
(١٢٧) البكري: المسالك... ج١ ، ص٤٦٦.
(١٢٨) الإدريسي: المصدر السابق ، ص١٨٥.
(١٢٩) ابن جبير ، المصدر السابق ، ص٣٦.
(١٣٠) اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص١٢٦.
(١٣١) ابن فضلان ، الرسالة في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة ، تحقيق سامي الدهان ، دمشق سوريا ، مديرية إحياء التراث العربي ، ١٩٧٩ ، ص١٤١.
(١٣٢) الوزان الفاسي: المصدر السابق ،ج٢ ، ص١٨٥.
(١٣٣) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٥٦.
(١٣٤) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص١٣٥.
(١٣٥) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٢٧٧.
(١٣٦) كربخال مرمول: المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١٦٠.١٦١.

دورية إلكترونية. محكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

المناظرات والمناقشات العلمية لعلماء تلمسان في بلاد المغرب الإسلامي

خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين

نبيل شريخي
المدرسة العليا للأساتذة
بوزريعة — الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
نبيل شريخي ، المناظرات والمناقشات العلمية لعلماء تلمسان في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين — الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين.- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث عشر ؛ سبتمبر ٢٠١١. ص ٦٢ — ٦٥.
(www.historicalkan.co.nr)

ملخص

يتناول المقال جانبًا من الجوانب التي شارك بها علماء تلمسان في الحياة العلمية ببلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين- الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، والمتمثلة في وقوعهم طرفًا في المناظرات والمناقشات العلمية التي أثيرت في هذه الفترة ، والتي جمعتهم مع علماء بلاد المغرب الآخرين ، أو فيما بينهم. وكانت هذه المناقشات تتمّ عند اجتماعهم في مجالس العلم بموطنهم تلمسان ، أو بمدن المغرب الأخرى التي رحلوا إليها ، كما أنّها تمّت عن طريق المراسلات بينهم. وقد أبانت هذه المشاركة من طرفهم ، عن باعهم العلمي ، وحسن أخلاقهم مع مخالفيهم.

مقدمة

ساهم علماء تلمسان في الحياة العلمية في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين(١٤ ، ١٥م) بانتصابهم للتدريس ، وبثّ العلم ، ومن خلال المؤلفات التي قاموا بتأليفها ، كما كان لهم حضور علمي بمشاركتهم في مناقشات علمية مع بعضهم البعض ، أو مع نظرائهم من علماء بلاد المغرب الآخرين. وشارك عددٌ من علماء تلمسان في تلك المناقشات التي جرت في موطنهم تلمسان ، وفي مدن المغرب الأخرى ، في المجالس العلمية التي احتضنتها المساجد ، والمدارس ، وقصور السلاطين ، كما كانت هذه المناقشات تتمّ عن طريق الرسائل ، بين علماء تلمسان فيما بينهم ، أو مع بعض علماء بلاد المغرب.

نقل لنا الفقيه أبو عبد الله محمّد المقرّي[١](ت٧٥٨هـ/١٣٥٧م) إحدى المناقشات العلمية التي كانت في مجلس السلطان الزياني أبي تاشفين عبد الرحمان بن أبي حمّو(٧١٨ - ٧٣٧هـ / ١٣١٨ - ١٣٣٧م) جرت بين الفقيهين أبي زيد بن الإمام[٢](ت٧٤٣هـ/١٣٤٢م) وأبي موسى عمران بن موسى المشذالي[٣] (ت٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م)، اختلفا فيها حول العالم الفقيه أبي عبد الله ابن القاسم[٤](ت١٩١هـ/٨٠٧ م) - تلميذ مالك بن أنس- فذهب ابن الإمام إلى القول بأنّه مقلّد مُقيّد النظر بأصول مالك ، في حين ذهب الثاني إلى أنّه مطلق الاجتهاد ، وفي خضم المناقشة الحادّة بينهما وسوق كل طرف لأدلّته[٥] ، تدخّل في النقاش الفقيه أبو موسى بن الإمام[٦](ت٧٤٩هـ /١٣٤٨م).

وكان المقرّي الجدّ (ت٧٥٨هـ/١٣٥٧م) - نفسه- مشاركًا في المناقشات العلمية ؛ فقد ذكر أنّه عندما رحل إلى تونس ، وحضر درس فقيهها وقاضي الجماعة بها ، أبا عبد الله بن عبد السلام[٦] (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) أكثر مباحثته[٧] ، ودلّت هذه المباحثات على الباع العلمي للمقرّي ، ممّا مكّنه من مراجعة أستاذه. كما قام الفقيه الأصولي أبو عبد الله الشريف[٨] (ت٧٧١هـ/ ١٣٧٠م) بالاجتماع بهذا الأخير ومعارضته في إحدى المسائل ، أدّت بوقوع مذاكرات علمية بينهما[٩] ، وقد قام الفقيه أبوعبد الله محمّد بن لبّ الأندلسي[١٠] (ت٧٢٥هـ/١٣٢٥م) بمراجعة الشريف التلمساني في بعض المسائل ؛ إلا أنّه اعترف له بفضله[١١].

وذكر الفقيه المحدّث الحافظ ابن مرزوق الحفيد[١٢](ت٨٤٢هـ/١٤٣٩م) مشاركته في تلك المناقشات عند نزوله بتونس ، فقال: "... حضرتُ مجلس شيخنا نُخبة الزمان ابن عرفة ... أوّل مجلس حضرته ... فجرى بيننا مذاكرات رائقة ، وأبحاث فائقة حسنة..."[١٣] ، وقد أثبت فيها ابن مرزوق عن سعة علمه في النحو[١٤].

دورية إلكترونية. محكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

كما رحل قاضي الجماعة أبو القاسم محمّد بن سرّاج الغرناطي (ت٨٤٨هـ/١٤٤٤م) إلى تلمسان ، وإفريقية ، وناظر بها بعض العلماء ؛ كان من بينهم الفقيه ابن مرزوق الحفيد[١٥](ت٨٤٢هـ/١٤٣٩م). ووقعت بين الفقيه أحمد بن أبي يحي بن محمّد الشريف[١٦](ت٨٩٥هـ/ ١٤٩٠م) وشيخه محمّد بن مرزوق(ت٨٤٢هـ/١٤٣٩م) في تلمسان ، مُراجعة وبحث في إحدى المسائل الفقهية[١٧] ، إلى جانب منازعة ، ومخالفة هذا الأخير ، لمعاصره الفقيه المفسّر أبي الفضل قاسم العقباني[١٨] (ت٨٥٤هـ / ١٤٥٠م) ؛ بسبب اختياراته الفقهية الخارجة عن المذهب المالكي[١٩].

وأكّد الحفيد ابن مرزوق(ت٨٤٢هـ/١٤٣٩م) ولعَهُ بالنقاش العلمي ، من خلال ثنائه على تلميذه محمّد بن أحمد بن أبي القاسم المشذالي(ت٨٦٥هـ/١٤٦١م) ؛ الذي حلّ بتلمسان سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٧م ، بأن قال: " ماعرفتُ العلم حتى قدم إلينا هذا الشاب ، فقيل له: كيف ؟ فأجاب: "لأنّي كنتُ أقول يسلّمُ لي قولي ، فلمّا جاء هذا شرع يُنازعني ، فشرَعتُ أتحرّرُ ، وانفتحت لي أبواب المعارف"[٢٠]. وجاء هذا القول ليُظهر سعة صدر ابن مرزوق ، وقبوله آراء تلاميذه ، بل واعتبارها وسيلة لزيادة علمه ، وتدرّجه في سُلّمه.

ومثّل الخلاف العلمي بين عالمي تلمسان الحافظ أحمد بن زكري[٢١](ت٨٩٩هـ/١٤٩٤م) والإمام محمّد بن يوسف السنوسي[٢٢](ت٨٩٥هـ/١٤٩٠م) ، صورة أخرى للمناقشات العلمية التي دارت بين علماء تلمسان ؛ فقد وقع بينهما نزاعٌ ومشاحنة في عدّة مسائل ، أجبرت كلا منهما للردّ على صاحبه[٢٣]. وخالف الإمام المفسّر أبو عثمان سعيد العقباني(ت٨١١هـ/١٤٠٨م) الفقيه الحافظ أبا العبّاس أحمد القبّاب[٢٤](ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م) - مفتي مدينة فاس- في عدد من المسائل ، وتناظرا فيها[٢٥] ، جمعها العقباني في مؤلّف سمّاه "لباب اللباب في مناظرة القبّاب"[٢٦].

ولم تكن صلة القرابة لتمنع المناظرة العلمية والمناقشة بين علماء تلمسان ؛ من ذلك اختلاف الفقيه أبي عبد الله محمّد بن أحمد بن قاسم العقباني[٢٧](ت٨٧١هـ/١٤٦٧م) مع جدّه أبي الفضل قاسم العقباني(ت٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م) في إحدى المسائل الفقهية[٢٨] ، والتي أبانت عن النقاش العلمي في الأسرة ، والبيوت ، خارج أوقات الدروس ومجالسها.

كما لم تقتصر المناقشات والمناظرات العلمية التي كان علماء تلمسان طرفًا فيها على مجرّد الاجتماع في مجلس واحد بين الطرفين ، فقد أدّى الاختلاف في عدد من المسائل العلمية مع علماء المغرب الآخرين ، أو مع علماء تلمسان الذين فرّقت بينهم المسافات ، إلى قيامهم بإرسال رسائل تحتوي على آرائهم في تلك المسائل ، والردّ على الطرف الآخر بمختلف الحجج والأدلّة. فكتب الشيخ المفتي أبو عبد الله محمّد بن عقّاب(ت٨٥١هـ/١٤٤٧م) إلى الخطيب أبي عبد الله ابن مرزوق (ت٧٨١هـ /١٣٧٩م) يسأله عمّا عرض له من إشكال في إحدى مسائل البيوع ، فأجابه عن ذلك[٢٩]. ولمّا وصل الجواب للسائل ، كتب مُراجعًا لابن مرزوق[٣٠] ، وعند ورود تلك المراجعة خشي هذا الأخير الخلاف مع العالم التونسي إن راجعه ، وما يصاحب ذلك من انتصار للنفس ، فاكتفى بمراسلته ، والثناء عليه ، والإشادة به[٣١]. وعندما استحسن الفقيه الإمام أبو الفضل قاسم العقباني(ت٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م) اجتماع الفقراء في مجلس شيخ يختارونه ، للتسبيح ، والتهليل ، والقراءة ، والأكل ، ردّ عليه الخطيب أبو عبد الله ابن مرزوق بكتاب في ذلك[٣٢].

وقد حاور علماء تلمسان نظراءهم من تونس طويلاً في مسألة فقهية تتعلّق بالرجوع في الوصيّة ، فبعدما أفتى الفقيهان محمّد بن أبي بكر المقرّي(ت٧٥٨هـ/١٣٥٧م) وأبو عبد الله الشريف التلمساني[٣٣](ت٧٧١هـ/ ١٣٧٠م) ، عقّب عليهما الفقيه أبو القاسم الغبريني[٣٤](ت٧٧٢ هـ / ١٣٧١م) وخالفهما فيما ذهبا إليه[٣٥] ، ولمّا حلّ الخطيب ابن مرزوق(ت٧٨١هـ/١٣٧٩م) بتونس ووقف على تعقيب الغبريني ، كتب عليه منتصرًا لفقيهي تلمسان[٣٦] ، وبدوره قام الشريف التلمساني بكتابة تعقيب على الغبريني ، وعلى ما كتبه ابن مرزوق[٣٧].

وأثارت قضية يهود توات نقاشًا علميًا وفقهيًا حادّا ، بدأ بين عالمين تلمسانيين يعيشان خارجها ؛ هُما محمّد بن عبد الكريم المغيلي[٣٨](ت٩٠٩هـ/١٥٠٣م) ، والقاضي عبد الله بن أبي بكر العصنوني[٣٩](كان حيّا سنة ٨٧٥هـ/١٤٧١م) ، فقد ذهب الفقيه الحافظ محمّد بن عبد الكريم المغيلي إلى وجوب هدم الكنيسة التي أقامها اليهود ، وقال أنّ هذه المسألة: " لا يعلم فيها خلاف ، ولا يفتي بتقريرها إلا دجّال "[٤٠] ، ورأى أنّ يهود توات كفيرهم من يهود تلمسان ، وإفريقية ، قد حلّت دماؤهم ، وأموالهم ، وأولادهم ، ونساؤهم ، وإنهم لا ذمّة لهم ؛ لأنّ الذمّة التي ترفع عنهم - حسبه- هي الذمّة الشرعية لا الذمّة الجاهلية ، وتكون لهم الذمّة الشرعية بإعطاء الجزية عن يدٍ وهُم صاغرون[٤١].

وخالف القاضي عبد الله بن أبي بكر العصنوني (كان حيّا بعد سنة ٨٧٥هـ/١٤٧١م) الشيخ المغيلي في المسألة ، ورأى أنّ كنائس اليهود لا تهدم[٤٢] ، واستدلّ بأن ذلك هو العمل به في مدن المغرب ، وأنّ الكثير من العلماء قد حلّوا بهذه الصحراء ، وشاهدوا الكنائس فيها ، وأنكروا أشياء على أهل الذمّة ، ولم تكن الكنائس في جملة ما أنكروه عليهم[٤٣]. ورأى أنّ السلوكات التي قام بها اليهود مع أفراد المجتمع وتحجّج بها المغيلي ، يكفي أن يُنهوا عنها بالزجر ، والتأديب ، وأنهم عند زجرهم في غاية الذلّة ، والصغار[٤٤].

وتوسّع هذا النقاش والخلاف بمراسلة كلّ منهما لعلماء المغرب ، ومن بينهم علماء تلمسان ، فبعث الأخير برسالة إلى الفقيه المفتي أبي العبّاس أحمد بن زكري[٤٥](ت٨٩٩هـ/١٤٩٤م) ، فأجابه بدوره برسالة موجّهة إليه[٤٦] ، كما بعث المغيلي برسالة إلى الفقيه المفسّر محمّد بن عبد الجليل التنسي[٤٧](ت٨٩٩هـ/١٤٩٤م) بعنوان " مصباح الأرواح في أصول الفلاح " ، والتي بعثها أيضًا إلى علماء فاس وتلمسان[٤٨]. وكان ممّن أجابه من تلمسان محمّد بن عبد الجليل التنسي[٤٩] ، والأصولي محمّد بن يوسف السنوسي[٥٠](ت٨٩٥هـ / ١٤٩٠م). ولم يتوقف الخلاف بين العلماء في هذه المسألة عن المراسلات ، فعندما اشتدّ الخلاف بين المغيلي والفقهاء ، قدم إلى مدينة فاس بعد سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م ، لمناظرة مخالفيه ، وبعد أن اتّهِمَ بحُبّ الظهور والمُلك ، عاد إلى الصحراء[٥١].

إنّ مشاركة علماء تلمسان في النقاشات ، والمناظرات العلمية ، التي عرضوا فيها آراءهم العلمية ، أضفت إسهاماتهم في الحياة العلمية ببلاد المغرب من جهة ، كما أنّها كشفت عن المكانة التي حظوا بها ، وجعلتهم مقصد العلماء ، والطلبة ، بغرض الإجابة ، ومناقشة بعض

دورية إلكترونية. محكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

المسائل من جهة أخرى ، ومن المسائل التي وردت على علماء تلمسان:

- مسألة ثبوت الشرف المتّصل بالرسول - صلى الله عليه وسلّم- من قِبل الأمّ ، والتي اختلف فيها علماء تونس وبجاية سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م ، وسُئل عنها الفقيه المحدّث ابن مرزوق الحفيد(ت٨٤٢هـ/١٤٣٩م) ، فأجاب عنها ضمن كتاب سمّاه "إسماع الصم في إثبات الشرف من قِبل الأمّ "[٥٢] ، بدأ بتأليفه سنة ٧٨١هـ[٥٣]/١٣٧٩م. كما أجاب عن هذه المسألة عددٌ آخر من علماء تلمسان[٥٤].
- مسألة في المواريث والفرائض ، اختلف فيها فقيها بجاية أبو عبد الله محمّد بن القاسم المشذالي ، وأبو العبّاس أحمد بن سعيد بن المشلّط (عاشا في القرن ٩هـ[٥٥]/١٥م) ، فكتب كل منهما مع أتباعه بالمسألة لشيخ الجماعة بتلمسان أبي الفضل قاسم العقباني[٥٦](ت٨٥٤هـ / ١٤٥٠م).
- مسألة الرجوع في الوصيّة[٥٧] ، والتي سئل فيها الإمامان العالمان ، أبي عبد الله الشريف التلمساني(ت٧٧١هـ/ ١٣٧٠م) وأبي عبد الله محمّد المقرّي(ت٧٥٨هـ/١٣٥٧م) ، فأجابا عنها[٥٨].

ورغم ما أثارته هذه المسائل من خلاف بين علماء تلمسان فيما بينهم ، أو مع نظرائهم في بلاد المغرب ، فإنّها لم تخرج عن أدب الخلاف ، ولم تحدث فيها إساءة لفظية أو إهانة للطرف الآخر ؛ من ذلك الأدب الذي اتّصف به الخطيب ابن مرزوق(ت٧٨١هـ/١٣٧٩م) مع الفقيه أبي القاسم الغبريني (ت٧٧٢هـ/١٣٧١م) ، فرغم اختلافه العلمي معه في مسألة الرجوع في الوصيّة - السابقة الذكر- فإنّه أثناء الردّ عليه ناداه بـ " سيّدنا "[٥٩] ، ووصفه بـ " شرف القضاة ، وفخر العلماء ، وقدوة الفضلاء ، وواحد الوقت"[٦٠] ، وأظهر ابن مرزوق تواضعه بقوله: "... وأقدمتُ بعد الإحجام ، والاعتراف بالقصور عن هذا المقام"[٦١]. كما يتجلى حسن خلقه مع مخالفيه في جوابه الأخير إلى المفتي التونسي أبي عبد الله محمّد بن عقّاب(ت٨٥١هـ/١٤٤٧م) بعد اختلافه معه[٦٢].

خاتمة

أظهرت مشاركة علماء تلمسان في النقاشات والمناظرات العلمية فيما بينهم ، ومع علماء بلاد المغرب الآخرين ، عن دورهم في الحياة العلمية ؛ فقد أسهموا بآرائهم وعلمهم في القضايا العلمية والفكرية التي أثيرت فيها. كما أجلت لنا تلك المناظرات والمناقشات عن جانب من الحياة العلمية التي ميّزت بلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين / الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، والعلاقات التي جمعت بين علمائها ، والتي لم يكن الاختلاف العلمي ليفسدها أو يكدّر صفوها.

الهوامش:

(١) انظر ترجمته: أحمد بن القاضي : درّة الحجال في أسماء الرجال ، تحقيق : محمد الحمدي أبو النور ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م ، ج٠٢ ، ص٤٣ ، ٤٤ . / . جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس ، طبعة حجرية ، المكتبة الوطنية الجزائرية ، رقم ٢٧٤ ، ص١٨٩، ١٨٨ . أحمد بابا التنبكتي : كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج ، ضبط وتعليق : عبد الله الكندري ، ط١٠ ، دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م . ص٣٢٧، ٣٢٦.

(٢) هو أكبر الأخوين المشهورين بابني الإمام ، وهما من أهل برشك من أعمال تلمسان. انظر ترجمته: عبد الرحمان بن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ، تعليق: محمّد بن تاويت الطنجي ، الطباعة الشعبية للجيش ، الجزائر ، ٢٠٠٧م ، ص ص ٢٨. ٣٠. الشريف ابن مريم التلمساني: البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان ،عناية وطبع : محمّد بن أبي شنب ، المطبعة الثعالبية ، الجزائر ، ١٣٢٦هـ/١٩٨٦ م ، ص ص١٢٣. ١٢٥. ابن القاضي: درة الحجال ، ج٠٣ ، ص٨٠ ، ٨١ . التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج٠١ ، ص ٢٧٢ . / كفاية المحتاج ، ص١٧٨ .

(٣) ولد سنة ٦٧٠هـ /١٢٧٢م ، له رسالة في اتخاذ الركاب من خاص الفضة وفتاوى كثيرة نقل الكثير منها الونشريسي في معياره. انظر ترجمته : .محمّد مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، مصر ، ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م ، ص٢٢٠ .

(٤) هو أبو عبد الله عبد الرحمان بن القاسم ، لازم مالك بن أنس وطالت صحبته له ، حتى صار أثبت الناس في علم مالك . انظر ترجمته: ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تحقيق : عبد القادر الأرناؤوط ، محمود الأرناؤوط ، ط١ ، دار ابن كثير ، دمشق ، سوريا ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م ، ج٠٢ ، ص ٤٢٠ .

(٥) انظر هذه المناقشة: أبو العباس أحمد المقرّي: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق : إحسان عبّاس ، دار صادر ، بيروت لبنان ، ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م ، ج٠٥ ، ص٢١٨ . لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق : محمّد عبد الله عنان ، ط٢ ، الشركة المصرية للطباعة والنشر ، القاهرة ، مصر ، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م ، ج٠٢ ، ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

(٦) المقري: نفسه ، ج٠٥ ، ص ٢١٨.

(٧) هو أبو عبد الله محمّد بن عبد السلام التونسي ، قاضي الجماعة بها ، تولى القضاء سنة ٧٣٤هـ/ ١٣٣٤م ، توفي في الطاعون سنة٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م. انظر ترجمته : .محمّد مخلوف : المرجع السابق ، ص ٢١٠ .

(٨) المقري: نفح الطيب ، ج٠٥ ، ص٢٥١.

(٩) محمّد مخلوف: المرجع السابق ، ص ٢٣٤.

(١٠) من أهل ألمرية ، رحل إلى المشرق سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م . انظر ترجمته: .ابن الخطيب: الإحاطة ، ج٠٢ ، ص ص٤٣٣ . ٤٤٢

(١١) محمّد مخلوف : المرجع السابق ، ص ٢٣٤ .

(١٢) هو محمّد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق ، ولد سنة ٧٦٦هت/١٣٦٤م . انظر ترجمته: .التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج٠٢ ، ص ١٧٥. ١٧٨ . / كفاية المحتاج ، ص٣٩١ - ٣٩٥. ابن مريم: المصدر السابق ، ص٢٠٨

(١٣) المقري : نفح الطيب ، ج٠٥ ، ص ٤٣١ .

(١٤) انظر : .نفسه : ج٠٥ ، ص٤٣١ ، ٤٣٢ .

(١٥) ابن القاضي : درة الحجال ، ج٠٢ ، ص٢٩٣ .

(١٦) انظر ترجمته : .التنبكتي : نيل الإبتهاج ، ج٠١ ، ص ١٣٦ .

(١٧) تتمثل في المتيمّم يدخل في الصلاة ثمّ يقطع عليه رجل بالماء . انظر: ابن مريم التلمساني : المصدر السابق ، ص٤٤ . وأيضا: محمّد مخلوف : المرجع السابق ، ص٢٦٧ .

دورية إلكترونية محكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

(١٨) انظر ترجمته : . التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج٠٢ ، ص ١٤، ١٣ . / كفاية المحتاج، ص ص ٢٨٢، ٢٨١. ابن مريم : المصدر السابق ، ص١٤٨، ١٤٧..ابن القاضي : درة الحجال ، ج٠٣ ، ص٢٨٢ .

(١٩) ابن مريم : المصدر السابق ، ص ١٤٧ .

(٢٠) ابن القاضي : درّة الحجال ، ج٠٢ ، ص٢٩٣ .

(٢١) انظر ترجمته : . التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج٠١ ، ص ١٣٧، ١٣٦ . / كفاية المحتاج ، ص ٧١، ٧٠ . . ابن مريم : المصدر السابق ، ص٣٨ . . ابن القاضي : درة الحجال ، ج٠١ ، ص٩٠ ..محمّد بن مخلوف : المرجع السابق ، ص٢٦٧.

(٢٢) انظر ترجمته : . التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج٠٢ ، ص ص ٢٥١ . ٢٥٨ . / كفاية المحتاج ، ص ص ٤٤٥ . ٤٤٨ . ابن مريم : المصدر السابق ، ص ص٢٣٨ ٢٤٤. . ابن القاضي : درة الحجال ، ج٠١ ، ص١٤٢، ١٤١ . . محمّد بن مخلوف : المرجع السابق ، ص٢٦٧

(٢٣) أحمد بابا التنبكتي : نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، تحقيق : علي عمر ، ط١ ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، مصر ، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٤ م ، ج٠١ ، ص١٣٧ . انظر أيضا : . ابن مريم : المصدر السابق ، ص٤١ . . محمّد مخلوف : المرجع السابق ، ص٢٦٧ .

(٢٤) انظر ترجمته : . أبوالعباس أحمد بن القنفذ : الوفيات ، تحقيق وتعليق ، عادل نويهض ، ط٤ ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص ٣٧٢ . . ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٠١ ، ص ص١٨٧ ١٩٣. .

(٢٥) من بين تلك المسائل ، مسألة الحاكة في مدينة سلا . انظر : . أبو عبد الله محمّد العقباني : تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر ، تحقيق : علي الشنوفي ، مستخرج من مجلة الدراسات الشرقية ، (الجزء١٤)، دمشق ، سوريا ، ١٩٦٧م ، ص ٩٧، ٩٦. وأيضًا: . أبو زكرياء يحي المازوني المغيلي:الدرر المكنونة في نوازل مازونة ، تحقيق : حساني مختار ، مخبر المخطوطات ، جامعة الجزائر ، ٢٠٠٤م ، ج٠٢ ، ص ص ٦٦٢ ٦٩٥. .

(٢٦) نفسه : ص ٩٧ . انظر أيضا : . محمّد مخلوف : المرجع السابق ، ص ٢٣٥ .

(٢٧) انظر ترجمته : . ابن القاضي : درّة الحجال ، ج٠٢ ، ص٢٩٥ . . التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج٠١ ، ص٥٦ ./ كفاية المحتاج ، ص٢١٣ .

(٢٨) تتعلّق المسألة في الحرص على حقوق النّاس . انظر : . العقباني : نفسه ، ص٩١ .

(٢٩) محمّد بن مرزوق : نوازل ابن مرزوق الحفيد ، مخطوط ، المكتبة الوطنية الجزائرية ، رقم ١٣٤٢ ، و ٣٠ . ٣٢ .

(٣٠) انظر : . نفسه : و ٣٢ .

(٣١) اكتفى ابن مرزوق في رسالته هذه بقوله : " الحمد لله يا أخي لقد كفقتم ... اللجج التي غرق في بحارها ، وكفقتم عندهن الأمواج التي اضطرب عليها تلاطم ... وعليكم المعوّل في كشف المعضلات أبقاكم الله لارتقاء المعالي والمفاخر يزهر بكم الدروس والمساجد والمنابر ... " . انظر : . نفسه : و٣٢ . ٣٦ .

(٣٢) انظر : . أحمد الونشريسي : المعيار المعرب والجامع المُغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب ، إشراف : محمّد حجّي ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المملكة المغربية ، ١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م ، ج١١ ، ص ص ٤٨ . ٧٣ .

(٣٣) انظر : . نفسه : ج٠٩ ، ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ . وأيضا : . المازوني : المصدر السابق ، ج٠٣ ، ص ص٢٦١ ٢٦٣. .

(٣٤) هو أبو القاسم أحمد بن أحمد بن أحمد الغبريني ، قاضي الجماعة ، وفقيه تونس وعالمها وإمامها وخطيبها بجامع الزيتونة ، والده هو مؤلف " عنوان الدراية " . انظر ترجمته : . محمّد مخلوف : المرجع السابق ، ص ٢٢٤.

(٣٥) انظر : . الونشريسي : المعيار ، ج٠٩ ، ص ص ٢٧٠ . ٢٧٩ . وأيضا : . المازوني : المصدر السابق ، ج٠٣ ، ص ص ٢٦٤ . ٢٧٥ .

(٣٦) انظر : . الونشريسي : المعيار ، ج٠٩ ، ص ص ٢٧٩ . ٣٢٠ . وأيضا : . المازوني : المصدر السابق ، ج٠٣ ، ص ص٢٧٥ . ٣٢٧ .

(٣٧) انظر : . الونشريسي : المعيار ، ج٠٩ ، ص ص ٣٢١ . ٣٥٤ . وأيضا : . المازوني : المصدر السابق ، ج٠٣ ، ص ص٣٢٧ . ٣٥٣ .

(٣٨) انظر ترجمته : . التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج٠٢ ، ص ص٢٦٤ ٢٦٨. . / كفاية المحتاج ، ص ٤٥٦، ٤٥٧. ابن مريم : المصدر السابق ، ص ص٢٥٤ ٢٥٧. . ابن القاضي : درة الحجال ، ج٠٢ ، ص٢٨٤ . .محمّد بن مخلوف : المرجع السابق ، ص٢٧٤ .

(٣٩) هو أبو محمّد عبد الله العصنوني ، أخذ عن جماعة من العقبانيين ، تولى قضاء الجماعة بمدينة توات. انظر ترجمته: . ابن القاضي : درّة الحجال ، ج٠٣ ، ص٥٥ .

(٤٠) الونشريسي : المعيار ، ج٠٢ ، ص ٢١٦ .

(٤١) المغيلي : المصدر السابق ، و٩١ .

(٤٢) انظر : . الونشريسي : المعيار ، ج٠٢ ، ص ص ٢١٤ . ٢١٧ .

(٤٣) نفسه : ج٠٢ ، ص ٢١٥ .

(٤٤) نفسه : ج٠٢ ، ص ٢١٧ .

(٤٥) انظر : نفسه : ج٠٢ ، ص ص ٢١٥ ، ٢١٧ .

(٤٦) انظر : نفسه : ج٠٢ ، ص ص ٢١٥ ، ٢١٧ .

(٤٧) انظر ترجمته : . التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج٠٢ ، ص ٢٦١، ٢٦٠ . / كفاية المحتاج ، ص ٤٣٣ . .ابن مريم : المصدر السابق ، ص٢٤٨ . .ابن القاضي: درة الحجال ، ج٠١ ، ص١٤٣ . .محمّد بن مخلوف : المرجع السابق ، ص٢٦٧ .

(٤٨) انظر : . محمد بن عبد الكريم المغيلي: مصباح الأرواح في أصول الفلاح ، تقديم وتحقيق : رابح بونار ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٩٦٨ م ، ص ص ٢٦ . ٦٣ .

(٤٩) انظر: . نفسه : ص ٧١ .

(٥٠) انظر: . نفسه : ص ص ٧١ . ٧٣ .

(٥١) نفسه: ص ١٧ ، ١٨ .

(٥٢) محمد بن مرزوق: إسماع الصّم في إثبات الشرف من جهة الأم ، مخطوط ، المكتبة الوطنية الجزائرية ، رقم ٢٠٦٧ ، و٠١ . انظر هذه الفتوى أيضا : . الونشريسي : المعيار ، ج١٢ ، ص ص ٢٢٥ . ٢٣١ . . المازوني : المصدر السابق ، ج٠٣ ، ص ص٢١١ ٢٢٦. .

(٥٣) ابن مرزوق : إسماع الصّم في إثبات الشرف من قبل الأم ، و٠٢ .

(٥٤) من هؤلاء العلماء أبو عبد الله الشريف(ت٧٧١هـ/١٣٧٠م)، وابنيه أبي محمّد عبد الله (ت٧٩٢هـ /١٣٩٠م) وأبي يحي عبد الله الشريف (ت٨٢٦هـ/١٤٢٣م) وأبي عثمان سعيد العقباني(ت٨١١هـ /١٤٠٨م) ، وأبي الفضل قاسم العقباني(ت٨٥٤هـ/١٤٥٠م) . انظر : . المازوني : المصدر السابق ، ج٠٣ ، ص٢٢٧ ٢٣١. .

(٥٥) لم نعثر على تاريخ وفاتهما ولا عن ترجمتهما في كتب التراجم ، وكانت مراسلتهما للفقيه قاسم العقباني(ت٨٥٤هـ/١٤٥٠م) دليلا على حياتهما في هذا القرن .

(٥٦) ابن مرزوق محمّد : نوازل ، و٣٦ . ٤٠ .

(٥٧) انظر: الونشريسي : المعيار ، ج٠٩ ، ص ٢٦٨ . انظر أيضا : . المازوني : المصدر السابق ، ج٠٣ ، ص ٢٦١ .

(٥٨) انظر : . الونشريسي : المعيار ، ج٠٩ ، ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ . انظر أيضا : . المازوني : المصدر السابق ، ج٠٣ ، ص ص٢٦١ ٢٦٣. .

(٥٩) الونشريسي : المعيار ، ج٠٩ ، ص٣٠٧ .

(٦٠) نفسه : ج٠٩ ، ص ٢٠٨ .

(٦١) نفسه : ج٠٩ ، ص ٢٨١ .

(٦٢) انظر : محمد بن مرزوق : نوازل ، و٣٠ . ٣٢ .

دورية إلكترونية. محكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

بين الأدب والتاريخ

ملامح شخصية الخليفة العباسي عبد الله المأمون في حكايات ألف ليلة وليلة سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا

أ.د. محمد عبد الرحمن يونس

باحث وقاص وروائي وأستاذ جامعي

عضو الهيئة الاستشارية لمجلة مقاربات - المغرب

عضو هيئة تحرير مجلة "حبفا لنا"

الجمهورية العربية السورية

مقدمة

لا نجد في حكاية ألف ليلة وليلة صورة واحدة لطبقة السلطة وحكّامها، بل تتعدد الصور، وذلك نظرًا لتعدد رواة الحكايات، وتباين مواقفهم الإيديولوجيّة من طبقة السلطة، فهم تارةً يدينون هذه السلطة[١]، ويهزؤون منها[٢]، ويعتبرونها شرًّا و وبالاً على المجتمع[٣]، وتارة يتعاطفون معها، ويقدّمونها في صورة العفّة والطهارة والكرم[٤]. وهذا ليس غريبًا على السياق العامّ الذي تندرج تحته الأحداث والوحدات السرديّة، والمواقف الأيديولوجيّة، والذي يعتمد مبدأ الثنائيّات الضديّة المتناقضة والمتجاورة في الحكاية الواحدة، والمتحكّمة في مسار سلوك الشخصيّة الواحدة، الذي يكون قابلاً وبشكل دائم لأن يكون متبدّلاً من موقف إلى آخر، ومن حالة إنسانيّة إلى أخرى، ووفقًا للعوامل الإنسانيّة، والحالات المزاجيّة، التي تصيب هذه الشخصية، فليس هناك شرٌّ مطلق، ولا خير مطلق يتحكّمان في مسار هذه الشخصيّة أو تلك. وإذا كان بعض رواة الحكايات قد غمزوا بأخلاق الملوك والأمراء الفسقة[٥]، ومن لفّ لفّهم من رجال السلطة، فإنّهم في آن أكّدوا على الجوهري الإنسانيّ، والأخلاقيّ الفاضل عند بعض هؤلاء الملوك والأمراء[٦]. لكنّ هذا الإنسانيّ النبيل لم يكن مساويًا في عدده لذاك السلطويّ المستبدّ الأهوج، الذي لا يعرف إلاّ البطش والجبروت، واغتصاب الثروات والنساء. وفي هذا المقال أحاول أن أدرس ملامح شخصية الخليفة عبد الله المأمون في حكايات ألف ليلة وليلة، معتمدًا - بالدرجة الأولى- نصوص ألف ليلة وليلة، ومستفيدًا في آن من بعض الأدبيات التاريخيّة التي ذكرت هذا الخليفة.

لا يأخذ المأمون بن هرون الرّشيد (١٩٨- ٢١٨هـ/٨٣١ - ٨٣٣م) في حكايات ألف ليلة وليلة فضاء سرديًّا واسعًا يعادل الفضاء الذي يحتلّه والده الخليفة هرون الرّشيد في هذه الحكايات، إذ تذكره اللّيالي في أربع حكايات من حكاياتها. وهذه الحكايات هي: حكاية « إبراهيم بن المهدي مع ابن أخيه المأمون»، وحكاية « المأمون وزواجه بخديجة بنت الحسن بن سهل»، وحكاية « الجواري المختلفة الألوان»، وحكاية « المأمون ورغبته في هدم أهرامات مصر».

وتبدو صورة المأمون في هذه الحكايات مقاربة إلى حدّ ما من صورتها التّاريخيّة، كما قدّمها المؤرّخون. ففي حكايته مع عمّه إبراهيم بن المهدي، يبدو رجلاً حكيمًا وعاقلاً، وخبيرًا مجرّبًا، ممتلئاً بالحلم والحكمة، ويعرف أن يكون نبيلاً، وكاظمًا لغيظه. إذ يشير راوي الحكاية إلى أنّ عمّه إبراهيم بن المهدي لمّا آلت « الخلافة إلى المأمون ابن أخيه هارون الرّشيد، لم يبايعه بل ذهب إلى الرّيّ وادّعى الخلافة لنفسه، وأقام على ذلك سنة واحدة وأحد عشر شهرًا واثني عشر يومًا، وابن أخيه المأمون يتوقّع منه العود إلى الطّاعة وانتظامه في سلك الجماعة، حتّى يئس من عوده. فركب بخيله ورجاله ودخل الرّيّ في طلبه. فلمّا بلغ إبراهيم الخبر لم يسعه إلاّ أنّه جاء إلى بغداد واختفى خوفًا على دمه. فجعل المأمون لمن يدلّ عليه مائة ألف دينار.»[٧].

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد عبد الرحمن يونس ،ملامح شخصية الخليفة العباسي عبد الله المأمون في حكايات ألف ليلة وليلة: سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا.-دورية كان التاريخية.- العدد الثالث عشر ؛ سبتمبر ٢٠١١. ص ٦٦ – ٧٣.

(www.historicalkan.co.nr)

ويستمرّ السّرد الحكائيّ، ويلتجئ إبراهيم بن المهديّ إلى دار إحدى جواريه السّابقات ببغداد طالبًا الحماية وستر سرّه، لكنّ الجارية سرعان ما تذهب إلى دار الخلافة لتشي به. وبينما هو في دارها، وإذا بالنّديم إبراهيم الموصلي وغلمانه وجنود الخليفة – الذي أرسلهم المأمون للقبض عليه – والمرأة الجارية أمامهم، يحيطون به، ويأخذونه عنوة إلى الخليفة المأمون[٨]. وأمام الخليفة المأمون يقف إبراهيم معتذرًا منشدًا:

أتيت ذنبًا عظيمًا ... وأنت للعفو أهل
فإن عفوت فمنّ ... وإن جزيت فعدل

وعند ذلك يرى المأمون أنّ العفو عند المقدرة من شيم الكرام، فيعفو عن عمّه، ويكظم غيظه، ويقبل عذره، ويردّ على شعره المعتذر، منشدًا:

وكنت إذا الصّديق أراد غيظي ... وأشرقني على حنقي بريقي
غفرت ذنوبه وعفوت عنه ... مخافة أن أعيش بلا صديق[٩]

وقبل أن يعفو المأمون عن عمّه إبراهيم بن المهديّ يستشير جميع خاصّته الحاضرين، إلاّ أنّهم يؤكّدون ضرورة الانتقام منه بقتله، لكنّ أحد العاقلين. يسميه الرّاوي بـأحمد بن خالد. يقول للمأمون: « يا أمير المؤمنين إن قتلته وجدنا مثلك من قتل مثله، وإن عفوت عنه فما وجدنا مثلك عفا عن مثله. »[١٠]. فما كان من المأمون إلاّ أن نكّس رأسه، واستنفر كرمه وعفوه[١١]، وأنشد قول أحد الشعراء:

سامح أخاك إذا خلط ... منه الإصابة بالغلط
وأحفظ صنيعك عنده ... شكر الصنيعة أم غَمِط
و تجاف عن تعنيفه ... إن زاغ يوماً أو قَسَط[١٢]

ويقول إبراهيم بن المهدي[١٣] عن عفو ابن أخيه المأمون عنه: « والله ما عفا عنّي المأمون تقرّبًا إلى الله تعالى، ولا صلة للرّب ولكن له سوق في العفو يكره أن تكسد بقتلي. »[١٤].

وعلى كلّ حال تبقى حالات العفو عن المتمرّدين سياسيًّا، والخارجين عن طاعة الخليفة أو السّلطان أو الأمير في ألف ليلة وليلة قليلة جدًا، إذ لا يشكّل كرم بعض حكّام اللّيالي وحلمهم مقياسًا يمكن الانطلاق منه وتعميمه، وبالتالي القول عن الحكّام الآخرين: إنّهم حكماء وعقلاء. بل يمكن القول، وتأسيسًا على ما تفرزه الحكايات من أنساق معرفيّة وفكريّة حول حياة هؤلاء الحكّام: إنّهم ظلمة وأجلاف، وقساة القلوب.

ويبدو أنّ صورة المأمون وهو يعفو عن عمّه، تتّفق مع الصّورة الوضيئة التي عُرِف بها في خلافته، من حلم وعدل وعفو، والتي نقل المؤرّخون كثيرًا من ملامحها. فقد كان المأمون عادلاً في إقامة الحقّ، وكان منصفًا حين جلوسه للنّظر في مظالم الناس، التي كانت تُرفع إليه، وكان يأخذ للمظلوم حقّه من الظّالم، حتّى ولو كان هذا الظّالم قريبًا أو ابنًا له. ويروي ابن عبد ربّه الأندلسيّ عن قحطبة بن حميد أنّه قال[١٥]:

«إنّي لواقف على رأس المأمون يومًا وقد جلس للمظالم، فكان آخر من تقدّم إليه، وقد همّ بالقيام، امرأة عليها هيئة السّفر، وعليها ثياب رثّة، فوقفت بين يديه فقالت: السّلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته(...) فقال لها يحي بن أكثم[١٦]: (...) تكلّمي بحاجتك؛ فقالت:

يا خيرَ مُنْتَصِف يُهدى له الرَّشدُ؛
و يا إماماً به قد أشرق البَلَدُ
تشكو إليك، عميدَ القوم، أرملةٌ
عُدِيَ عليها، فلم يُترك لها سَبَد[١٧]
وابتُزّ منّي ضياعي بعد مَنْعتها، ظُلمًا،
وفُرّق منّي الأهل والولد».

وعندما يسمع المأمون شعرها يطلب منها أن تأتيه يوم الأحد، وقت انعقاد مجلس ردّ المظالم:

« فلمّا كان يوم الأحد جلس[المأمون]، فكان أوّل من تقدّم إليه تلك المرأة، فقالت: السّلام عليك يا أمير المؤمنين و رحمة الله وبركاته. فقال: وعليكِ السّلام، أين الخصْم؟ فقالت: الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين – وأومأت إلى العبّاس ابنه. فقال: يا أحمد بن أبي خالد، خذ بيده فأجْلِسه معها مجلسَ الخصوم. فجعل كلامها يعلو كلام العبّاس؛ فقال لها أحمد بن أبي خالد: يا أمة الله، إنّك بين يديّ أمير المؤمنين، وإنّك تكلّمين الأمير، فاخفضي من صوتك. فقال المأمون: دعها يا أحمد، فإنّ الحق أنطقها وأخرسه ثم قضى لها بردّ ضيعتها، وظلم العبّاس بظُلمه لها، وأمر بالكتاب لها إلى العامل ببلدها أن يوغِر[١٨] لها ضَيْعتها ويُحْسن معاونتها، وأمر لها بنفقة.»[١٩].

وإذ يشير الرّاوي في الحكاية السّابقة إلى أنّ المأمون ردّ على اعتذار عمّه إبراهيم بن المهديّ، منشدًا من شعره و من شعر غيره، فإنّ اهتمام المأمون بالشّعر وحفظه وإنشاده، يبدو أنّ له خلفيّة مرجعيّة، تدلّ على شغفه بالأدب والفنّ، وتقديره لهما، فقد كان يحفظ كثيرًا من أشعار شعراء عصره، والعصور التي سبقته[٢٠]. وكان من أفضل خلفاء الدّولة العبّاسيّة، وعلمائها وحكّامها وحلمائها، وكان فطنًا كريمًا[٢١]. وكان يؤمّ بلاطه نفر من نجوم الغناء، والشّعراء، والعارفين بعلوم زمانهم، والذين « كانت لكلّ واحد منهم ذاكرة حافلة بمختارات من الشّعر الجيّد و من الرّوايات الأدبيّة. »[٢٢].

إن بنية السّرد وطبيعة الرّؤية الفكريّة التي تسمه، تثبت أنّه ليس هناك مقياس نقديّ ثابت ونهائي، يمكن تعميمه على كلّ حكايات وشخوص ألف ليلة وليلة، فما ينطبق على حكاية قد لا ينطبق على حكاية أخرى، وما تتّصف به شخصيّة ما من شخصيّات ألف ليلة وليلة، من عدالة وحلم وحكمة، يمكن أن يُخرق، ويبدو تهوّراً عند هذه الشّخصيّة في حكاية أخرى، وذلك نظراً للثنائيّات الضّدّية المتحكّمة في مسار سلوك الشّخصيّة الواحدة، كما أشير إلى ذلك سابقًا. فالخليفة أو الملك أو الحاكم في اللّيالي، وإن بدا عاقلاً وحكيمًا ومتّزنًا في بعض المواقف، فإنّه سرعان ما يتخلّى عن اتّزانه إذا سمع بوجود امرأة جميلة خارج قصره، إذ يفعل كلّ ما بوسعه لجلبها، ويبدّد مال خزينة بيت المال لشرائها.

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

وهذه هي حال الخليفة المأمون في حكاية « المأمون و زواجه بخديجة بنت الحسن بن سهل »، إذ يطلب المأمون من إسحاق الموصلّي أن يجلس في قصر الخلافة، وينتظره، حتّى يذهب لقضاء غرضٍ من أغراضه، عندها توسوس له نفسه العاشقة للغناء أن يذهب إلى دار خديجة بنت الحسن بن سهل[٢٣] ليسمع غناءها[٢٤]، وما إن ينتشي بالموسيقى وبجمال خديجة بنت الحسن وجواريها، ويعود إلى منزله، حتى يهجم عليه جنود المأمون ويأخذوه أخذًا عنيفًا إلى دار الخلافة. يقول الموصلّي: « فوجدته [أي وجد المأمون] قاعداً على كرسيّ و هو مغتاظ منّي، فقال: يا إسحاق أخروجًا عن الطّاعة؟ فقلت لا والله يا أمير المؤمنين. قال: فما قصّتك، أصدقني الخبر. »[٢٥] عندها يصف الموصلّي جمال خديجة وشفافيّتها، فيندفع المأمون ملتاثًا بالعشق الذي لا يطيق عليه صبرًا، ويطلب من الموصلّي أن يأخذه إلى دارها، ليرى جمالها. فيحتال الموصلّي، ويطلب منها أن، تسمح له باصطحاب ابن عمّه. ويتنكّر المأمون كعادة أبيه هرون الرّشيد، ويدخلان منزل خديجة، وهناك في منزل الفتاة يتخلّى المأمون عن وقاره أمام جمال المرأة، ونبيذها، ويكشف قناعه كما كان والده الرّشيد يفعل. يقول الموصلّي واصفاً استقبال خديجة لهما:

« فأقبلت وسلّمت علينا. فلمّا رآها المأمون تحيَّر من حسنها وجمالها وأخذت تذاكره الأخبار وتناشده الأشعار. ثم أحضرت النّبيذ، فشربنا وهي مقبلة عليه مسرورة به وهو أيضًا مقبل عليها مسرور بها. ثم أخذت العود وغنّت طريقة، وبعد ذلك قالت لي: وهل ابن عمّك هذا من التّجار؟ وأشارت إلى المأمون، قلت نعم، قالت: إنّكما لقريبا الشبه من بعضكما بعضاً، قلت نعم. فلمّا شرب المأمون ثلاثة أرطال داخله الفرح والطّرب فصاح، وقال: يا إسحاق، قلت لبّيك يا أمير المؤمنين، قال غنّ بهذه الطّريقة. فلما علِمَتْ أنّه الخليفة مضت إلى مكان ودخلت فيه. »[٢٦].

إنّ الوحدة السّرديّة السّابقة تشير إلى أنّ المأمون قد تحرّر من سطوة السّلطويّ وهيبته، واندفع محموماً أمام جمال المرأة، وشرب ثلاثة أرطال من النّبيذ احتفاءً بصوتها الجميل، وإعجابًا بشكلها الجماليّ. و هذا الاندفاع يبدو طبيعيًّا و مألوفًا بالنّسبة للمأمون، ولاسيّما أنّه يعايش مجتمعاً بغداديّاً ترفاً، عاقر فيه الخلفاء كلّ أصناف الخمرة. ويبدو أنّ راوي الحكاية استعار فكرة أرطال النّبيذ الثلاثة التي شربها المأمون من أبي الفرج الأصفهانيّ، الذي يشير إلى أنّ المأمون كان يندفع محمومًا إلى الخمرة، وبخاصّة إذا استمع إلى الغناء الجميل. فها هو يستمع إلى صوت المغنّي مُخَارق[٢٧] وهو ينشد:

ألـم تقـولي: نَعَـم، قالـت: أرى وَهَمـا
منّي وهـل يؤخذ الإنسـان بالوَهَـم![٢٨]

وينتشي المأمون طربًا عند سماعه لهذا الصّوت، ويشرب ثلاثة أرطال من النّبيذ[٢٩].

وفي الوحدة السّرديّة السّابقة عندما تعرف خديجة بنت الحسن أنّ الماثل أمامها هو الخليفة المأمون، تتراجع خائفة من هيبة السّلطة، وتحتجب عن الخليفة. ونظراً لسطوة الخليفة المطلقة في النّظام العبّاسيّ، فقد وعى النّاس جميعًا، في ولايات الدّولة العبّاسيّة، الخطر الذي يمكن أن يَحْدِق بالفرد فيما إذا اقترب من هذه السّلطة أو نادمها، ومن خلال هذا الوعي انسحبت خديجة محتجبة. فالسّلطة السّياسيّة أداة قاهرة في النّطاقين الاجتماعيّ والتّاريخيّ[٣٠] لأنّها تمارس فيهما أدوات قهرها، وهي أداة قاهرة في كلّ الفضاءات المكانيّة التي تحلّ فيها، لأنّها تفرض سطوتها وأبّهتها وديكتاتوريّتها.

وعندما قدّم المغني إسحاق الموصلّي نفسه لخديجة على أنّه تاجر، وعندما قدّم المأمون على أنّه ابن عمّه، وأنه تاجر مثله، أعطت خديجة نفسها مزيدًا من الحرّيّة، وشربت النّبيذ، وأنشدت مستمتعةً بهذين التاجرين الظّريفين، اللّذين لا سلطة لهما عليها. وعندما عرفت أنّ الرّجل –المأمون- كشف قناعه، وبان وجهه السّلطويّ، احتجبت، لأنّها تعي أنّ نظام مجتمعها العبّاسيّ يقوم على سطوة الطّبقات السّلطويّة المطلقة على ما دونها، واستخدام هذه السّطوة لاغتصاب الأموال، وأخذ النّساء بالتّرغيب بالمال، أو التّرهيب بسيف السّلطة؛ وتعي أنّ الخليفة فيما إذا انتشى طربًا، قد يزداد ثملاً، وبالتّالي قد ينفلت الوحش الرّابض وراء أبّهة وقناع السّلطة، ليبسط مخالبه، ويؤذيها هي ومن حولها، عندها اضطرّت أن تنسحب من مجلسه وتحتجب، ولاسيّما بعد أن عرفت أنّ الموصلّي والمأمون أتقنا دور الحيلة جيدًا، ودخلا دارها بعد أن تقنّعا متنكّرين بهيئة التّجار. ولأن الخليفة المأمون عشق خديجة بنت الحسن عشقًا جنسيًّا، فإنّه سارع وهو في أوج نشوة السّكر، وبعد أن احتجبت خديجة مباشرة، وسأل:

« من ربّ هذه الدّار؟ فبادرته عجوز بالجواب وقالت: هي للحسن بن سهل. فقال: عليّ به. فغابت العجوز ساعة وإذا بالحسن قد حضر، فقال له المأمون: ألك بنت؟ قال: نعم، قال: ما اسمها؟ قال: اسمها خديجة. قال: هل هي متزوّجة؟ قال: لا والله. قال: فإنّي أخطبها منك. قال: هي جاريتك وأمرها إليك يا أمير المؤمنين. فقال الخليفة: قد تزوّجتها على نقد ثلاثين ألف دينار وتُحمل إليك صبيحة يومنا هذا، فإذا قبضت المال فاحملها إلينا من ليلتها. قال: سمعًا وطاعة.[٣١]

من خلال الوحدة السّرديّة السّابقة يمكننا أن نفهم إلى أيّ مدى تدنّت فيه قيمة المرأة في النّظام السّياسيّ العبّاسيّ، فالمأمون لا يرى في الصّبيّة التي ستصبح زوجته إلاّ سلعة بين السّلع النّسائيّة الكثيرة المعروضة في منازل مدينته، ومن هنا فقد حدّد قيمتها بثلاثين ألف دينار. إنّها سلعة قابلة للتّبادل، لكنّ التّبادل هنا ليس سلعة بسلعة أخرى، بل بقيمة نقديّة. وعلى الرّغم من أنّ خديجة سيّدة من حرائر المجتمع العبّاسيّ، فعمّها الفضل بن سهل كان وزيراً للخليفة المأمون، ثم صار بعده والدها الحسن بن سهل وزيرًا عند هذا الخليفة؛ إلاّ أنّها في النّهاية ليست إلاّ جارية، طالما أنّ قيمتها حُدِّدت بمبلغ مالي باهظ.

وتتعمّق سياسة التّبادل السّلعيّ الاستهلاكيّ بين رأس النّظام السّياسيّ، ونساء الطّبقات الأخرى، من خلال هذه النّظرة الدّونيّة للمرأة، فكأنّ الخليفة المأمون يريد أن يعقد صفقة تجاريّة بحتة، لا علاقة لها بالمشاعر الجماليّة والإنسانيّة التي يؤطّرها فعل الحبّ بين المرأة والرّجل. وهاهو بوضوح يحدّد للحسن بن سهل شروط هذه

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الصّفقة التّجارية ، وما على الحسن إلاّ أن يقبلها شاء أم أبى ، هو وابنته. ويمكن صياغة شروط هذا العقد التّجاري التي يفرضها القويّ . المأمون . على الشكل الآتي: يا حسن بن سهل ، أنا سأشتري ابنتك خديجة فما عليك إلاّ القبول ، ورجالي سيحملون إليك ثلاثين ألف دينار صباح هذا اليوم ، وعندما تقبضها ، فما عليك إلاّ أن تملّكني ابنتك ، وتحملها إليّ بنفسك إلى قصري في بغداد ، واتّفاقنا هذا غير قابل للنقض من طرفك.

وطالما أن السّلعة المشتراة هي جارية في نظر السّلطة السياسيّة ، يُلاحظ أن الحكاية لا تستشير البنت فيما إذا كانت قابلة بعقد البيع هذا ، لأنّ رأس السّلطة السّياسيّة لا يرى نفسه إلاّ خليفة الله في الأرض ، وما أموال المسلمين ونساؤهم إلاّ ملك له. أمّا الحسن بن سهل ، والد خديجة ، فإنّه لا يرى في ابنته إلاّ جارية يشرّفها أن تخدم المأمون ، وإنّه بوجود المأمون لا أمر له على ابنته ، بل الأمر كلّه للمأمون ، وله الحقّ في امتلاك المرأة الجارية مقابل ثلاثين ألف دينار. وتشير المفردات اللّغويّة في الحكاية بوضوح إلى العقليّة السّلطويّة التّجاريّة ، التي يكرّسها النّظام السّلطوي ، وعلى رأسه الخليفة من جهة ، والنّظام الرّجوليّ ، والد الفتاة ، من جهة أخرى: « من ربّ هذه الدار؟..هي جاريتك.. أمرها إليك يا أمير المؤمنين.. احملها إلينا.. سمعًا وطاعة ».

إنّ ما يسم طابع العلاقات الاجتماعيّة والإنسانيّة في مجتمعات ألف ليلة وليلة « هو طابع السّلطة الفوقيّة. فصاحب السّلطة في المجتمع (ومن يمثّله أو يمثّل سلطته) هو الذي يملك ويستفيد ، بينما باقي النّاس تقبل وترضخ وتمتثل. « والكبير » (...) هو دومًا الذي يتسلّط ويحكم ويسيطر. فالقرارات تؤخذ « من فوق » بمعزل عن الأكثريّة التي تشكّل هدف هذه القرارات [و] ليس الكبير صاحب السّلطة والمركز في المجتمع إلاّ صورة مكبّرة للأب في العائلة بتصرّفاته ونظرته لنفسه وعلاقته بمن هم دونه».[٣٢]

وإذا كان الرّاوي لم يستشر خديجة بنت الحسن ، فيما إذا كانت قابلة بالخليفة المأمون ، فلأنّه يعي تمامًا أنّ حكايته ستفقد مصداقيّتها في حالة الاستشارة ، ولأنّه سيعطي هذه المرأة مكانة مهمّة ، تبدو فيها ندّا للخليفة المأمون ، وهذا ما لا ترضاه السّلطة السّياسيّة ، فأيّ شرف لأسرة الحسن بن سهل أعظم من شرف أن تكون ابنته خديجة خادمة لرجل سلطويّ كبير جدًّا ، ولاسيّما أنّ هذا الرّجل هو أمير المؤمنين؟. وإذا كان الأمير أو الحاكم في طبيعته الاستبداديّة مضطّراً لأن يفرض الخوف على شعبه حتّى يطيعه ، فإنّ عليه فرض الخوف بطريقة «يتجنّب بواسطتها الكراهية إذا لم يضمن الحبّ ، إذ إنّ الخوف وعدم وجود الكراهية قد يسيران معًا جنبًا إلى جنب ، وفي وسعِ الأمير الذي يمتنع عن التدخّل في ممتلكات مواطنيه ورعاياه ، وفي نسائهم ، أن يحصل عليهما. »[٣٣]. إلاّ أنّ خلفاء وملوك وأمراء ووزراء ألف ليلة وليلة لم يكونوا قادرين على الامتناع عن التّدخّل في ممتلكات مواطنيهم ، وفي نسائهم ، بل كانت معظم اهتماماتهم تنحصر في امتلاك الأموال والعقارات والنّساء ، ولم يكن يهمّهم أكان هذا الامتلاك مشروعًا أم اغتصابًا.[٤٣]

وبالعودة إلى الحكاية السّابقة «حكاية المأمون وزواجه بخديجة» ، يمكن القول إنّ خديجة لن تكون في قصر الخليفة المأمون إلاّ جارية كما حدّد لها والدها الحسن أن تكون ، وستنحصر مهمّة هذه الجارية في كونها سلعة جميلة باهظة الثّمن ، ينحصر دورها في التّرفيه عن الخليفة جنسيًّا ، وفي تبديد كآبته بصوتها الجميل جدًا. وعندما تتحوّل العلاقات الإنسانيّة بين أفراد المجتمع إلى علاقات جنسيّة وسلعيّة ، فإنّها تساهم في تأبيد عبودية المرأة ، وفي تأبيد تخلّف المجتمع ، وبالتّالي في استمرار علاقات القوّة والسّيطرة والتحكّم[٣٥] في المجتمع الذي يقوم ، في تركيبته السياسيّة والاجتماعيّة ، على التباين الطبقي الحادّ وعلى امتلاك القويّ فيه لكلّ شيء.

وإذا كان الخلفاء والملوك والأمراء في الليالي ، أو في المدينة العربيّة الإسلاميّة يستطيعون امتلاك أجساد النساء بالسطوة والإرهاب والأموال ، فإنّه ليس من الضروري أن يمتلكوا أرواحهنّ وعواطفهنّ ، وتطلعاتهنّ الجنسيّة الأخرى صوب رجال من خارج القصر. فعلى سبيل المثال يشير أبو فرج الأصفهاني إلى أنّ الخليفة المأمون اشترى المغنيّة المتميّزة عريب بمائة ألف درهم[٣٦] ، لكنّه لم يستطع أن يمتلك روحها التوّاقة إلى عشيقها محمد بن حامد ، فقد كانت تحتال للخروج من قصر المأمون وزيارة عشيقها في منزله ، على الرغمّ من أنّ المأمون: « حبسها في كَنيف مظلم شهراً لا ترى الضوء ، يُدخَل إليها خبز وملح وماء من تحت الباب في كلّ يوم »[٣٧] ، علّه يمنعها من لقاء عشيقها محمد بن حامد ، إلاّ أنّه لم يستطع ، وبعد أن أفرج عنها ، أن يكبح جموحها وتوقها الجنسيّ لهذا العشيق ، فقد كانت تخرج من قصره ، إذا هبط الظلام وتتوّجه إلى دار عشيقها محمد بن حامد. ويروي أحمد بن حمدون عن أبيه: أنّه كان خارجًا في ليلة ظلماء ذات رعود وبروق ، بأمر من المأمون ، لإيصال رسالة من رسائله ، فـ « برقت بارقة فأضاءت وجه الراكب ، فإذا عريب ، فقلت: عريب؟ قالت: نعم ، حمدون؟ قلت: نعم. ثمّ قلت: من أين أقبلتِ في هذا الوقت؟ قالت: من عند محمد بن حامد ، قلت: وما صنعت عنده؟ قالت عريب: يا تكش[٣٨] ، عريب تجيئ من عند محمد بن حامد في هذا الوقت خارجة من مَضْرب الخليفة وراجعة إليه ، تقول لها: أيّ شيء عَملتِ عنده؟ صَلَّيت معه التراويح؟ أو قرأت عليه أجزاء من القرآن ، أو دارست شيئاً من الفقه ، يا أحمق تعاتبنا ، وتحادثنا ، واصطلحنا ولعبنا ، وشربنا وغنيّنا ، وتنايكنا ، وانصرفنا ، فأخجلتني وغاظتني وافترقنا»[٣٩].

إذا كان إسحاق الموصلّي ، في الحكاية السابقة ، هو الذي وصف للمأمون جمال خديجة بنت الحسن ، قائلاً: « جارية كأنّها البدر الطالع »[٤٠] ، فإنّه في الواقع التاريخيّ هو الذي وصف له جمال الجارية عريب ، وشجّعه على شرائها ، فما كان من المأمون إلاّ أن أمر كاتب نفقاته إبراهيم بن رباح أن يشتريها[٤١]. ويبدو أنّ أفعال ومواقف ندماء الخلفاء وعبر تاريخهم الطويل كانت مكرّسة لخدمة الخلفاء ، فبالإضافة إلى أنّهم ندماء ظرفاء مُرفّهون- بكسر الفاء- عن الخليفة ، فإنّهم دلاّلون له على النساء الجميلات المتميّزات في دولته. وحتّى يستطيع النديم الوصول إلى مكانة مهمّة عند الخليفة أو الملك ، عليه أن يتحلّى بمجوع من المزايا الأخلاقيّة ، ومنها أن يكون ذكيّاً ، فـ « الذكاء أوّل ما يجب أن يتّصف به من يخالط السلطان ويلازمه لأنّ صحبة السلطان لا تليق بذوي الجهل ، وذكاؤه عدّته للخروج من كثير من المتاعب التي قد يتعرّض لها. ولذا ينبغي أن يكون جليس السلطان وأنيسه جامعًا لخصال كثيرة أهمّها: « العقل ، فإنّه رأس الفضائل ، والعلم ، فإنّه من ثمار العقل». وإذا كان العقل أهمّ صفات فهذا يعني أنّه يجب أن يكون قادرًا على أن يفهم ما يريده الملك الذي يجالسه ويقرّبه ، ولذلك قيل: « ينبغي للنديم أن يكون كأنّما خُلِق من قلب الملك ، ويتصرّف بشهواته ، ويتقلّب بإرادته ، لا يملّ المعاشرة ، ولا يسأم المسامرة»[٤٢].

ويبدو أنّ إسحاق الموصليّ كان جامعًا لخصال كثيرة تؤهله لأن يكون نديمًا متميّزًا عند المأمون ومفضلاً على غيره من الندماء الكثيرين الذين كانوا يحضرون مجلسه، فقد « كان عالمًا فقيهًا وشاعرًا مجيدًا، وأديبًا أريبًا، و نديمًا جمّ الظرف حلو الشمائل، وجليسًا لطيف المعاشرة (...) لا يستغني عنه الخلفاء. وراوية يروي أخبار القدامى والمحدّثين بل وكثيرًا ما كان يصحح خطأ من ينسب الأشياء إلى غير قائليها. وكان مغنيًّا عارفًا بفنّ الغناء تمام المعرفة، وعازفًا ماهرًا، وملحنًا بارعًا»[٤٣].

وتشير حكاية: « الجواري المختلفة الألوان »، إلى دور النديم في تقديم الجواري للخليفة وتعريفه بهنّ من خلال أوصافهنّ المثيرة، وقدراتهنّ على المسامرة والمنادمة، وحفظهنّ الشعر، وبالتالي تحريض الخليفة على شرائهنّ. فقد كان من جملة ندماء الخليفة المأمون في الحكاية نديم يسمّى محمد البصري، وذات ليلة يسأله المأمون أن يحدّثه بشيء لم يسمعه قط، فقال: « يا أمير المؤمنين أتريد أن أحدّثك بحديث سمعته بأذني أو بأمر عاينته ببصري؟ فقال المأمون: حدّثني يا محمد بالأغرب منه»[٤٤]. ولأنّ النديم يعرف أنّ أهمّ ما يزيل هموم الخلفاء ويثيرهم في مجتمع عباسيّ منفتح على ثقافات العالم ونسائه وجواريه هو الحديث عن النساء، فقد قرّر محمد البصري أن يكون حديثه عن الجواري الجميلات، يضاف إلى ذلك أنّ محمدًا البصري عندما ينقل للمأمون أخبار النساء، فإنّ مكانته بين الندماء ستزداد عند المأمون، وسيقرّبه أكثر، نظرًا لشغف الخلفاء بالنساء شغفًا لا يقاوم، وبالتالي إيثارهم لكلّ نديم يكون دلّالاً لهم على هاته الجواري. فالبؤرة المركزيّة للحكاية التي سيحكيها محمد المصري للمأمون تضمّ « ستّ جوار كأنّهنّ الأقمار (...) وكنّ حسان الوجوه كاملات الأدب عارفات بصناعة الغناء وآلات الطرب»[٤٥]. وكانت هاته الجواري مختلفات الألوان ومملوكات لرجل يمانيّ، انتقل من اليمن وحمل ماله وجواريه، واستقرّ ببغداد مستمتّعًا بالأيام الجميلة، والطعام والنبيذ والطرب، وبهاته الجواري المثيرات، ذوات الأصوات والألحان الشجيّة، القادرة على أن تجعل المكان ينفلت من سكونيّته، ليرقص تحت وقع هذه الألحان: « فأخذت [إحدى الجواري] العود، وأصلحته، ورجّعَت عليه الألحان حتّى رقص المكان »[٤٦].

ويستمرّ النديم محمد البصري في وصف هاته الجواري وقدراتهنّ المتميّزة على المناظرة فيما بينهنّ وبين سيّدهنّ حول مفاهيم الجمال اللونيّ والجنسيّ، ومتى تكون المرأة مثيرة جماليًّا ومتى لا تكون. ومن خلال المناظرة تُظهر هاته الجواري المغنيّات معرفة عميقة بأشعار الغزل التي قيلت في أوصاف المرأة المثيرة، ولون بشرتها، ثمّ تقدّم كلّ منهنّ نفسها إلى سيّدها على أنّها هي النموذج الجماليّ المثالي الذي يجب على الرجال أن يبحثوا عنه ويظفروا به[٤٧]. وما إن ينتهي النديم محمد البصري من سرد الحكاية، قائلاً[٤٨]: « فما رأيت يا أمير المؤمنين في مكان ولا زمان أحسن من هؤلاء الجواري الحسان. »، حتّى يكون المأمون استُثير وانفجرت رغبات الامتلاك لديه، وقرّر أن يضمّ الجواري إلى حوزته، لاستكمال لذّاته بهاته النسوة التي لا يجود الزمان بمثلهنّ مرّة أخري. يقول المأمون[٤٩] لنديمه محمد البصري: « وهل يمكنك أن تشتريهن لنا من سيّدهنّ؟ فقال له محمد: يا أمير المؤمنين قد بلغني أنّ سيّدهنّ مغرم بهنّ ولا يمكنه مفارقتهنّ. فقال المأمون: خذ معك إلى سيّدهنّ في كلّ جارية عشرة آلاف دينار، فيكون مبلغ ذلك الثمن ستين ألف دينار، فاحملها صحبتك وتوجّه إلى منزله واشتريهنّ منه».

لقد عُرِف عن المأمون في فترة حكمه أنّه كان شغوفًا بالموسيقى، والسماع إلى أصوات المغنّين من الرجال والنساء، ومن شدّة شغفه بالغناء فقد كان في بعض الأحيان يدعو سائر المغنّين في بغداد للمثول بين يديه، ومنذ الصباح الباكر[٥٠]، ليفتتح يومه بإشعال طقوس الموسيقى، وكان في مجلسه يجلس مكللاً وسط المغنيّات الجميلات، إذا كان يُجلِس عشر مغنيّات عن يمينه وعشرًا عن يساره[٥١] وكان يسرف في الإنفاق على هؤلاء المغنيّات وعلى غيرهنّ، فقد كانت نفقاته على مسرّاته ستّة آلاف دينار كل يوم[٥٢]. ومن هنا ليس بعيدًا، في الحكاية، أن يأمر المأمون بشراء جواري الرجل اليماني بستّين ألف دينار، في حين أنّ فقراء بغداد يعانون الفاقة والجوع[٥٣]. ففي عصر الخلفاء العبّاسيين، على الرغم من الازدهار والثراء الذي عرفته الدولة العبّاسيّة فقد « تردّى الشعب في هوّة من الفقر أشدّ عمقًا لكي يقدّم إلى الخليفة نفقات مترافه في بغداد. وكان من الطبيعيّ أن تُبتّز الأموال الضروريّة لإشباع موظفيّ الدولة ونفقات البلاط من جيوب الشعب. »[٥٤]، ما دام هذا البلاط غارقًا في حمّى الترف والملذّات وامتلاك النساء.

وفي الحكاية السابقة يرسل المأمون نديمه محمد البصري إلى الرجل اليمانيّ، ويعلمه برغبة الخليفة بشراء الجواري، ولأنّ الرجل اليمانيّ يعيش في بغداد غير بعيد عن جلاوزة الخليفة وسطوتهم، فإنّه يضطّر مُكرهًا إلى بيع الجواري، ولأنّ راوي الحكاية هو محمد البصري نديم الخليفة المأمون، أو هو الراوي الذي لا يخرج عن طوع السلطان أو المُهيَّأ لأن يكون نديمًا له فإنّه لا يستطيع أن يضع الرجل اليمانيّ موضع الرافض لعملية البيع، فيضطّر عندها إلى أن يقول إنّ عمليّة البيع تمّت « لأجل خاطر أمير المؤمنين »[٥٥]. فهو يعرف مسبقًا إلى أيّ مدى سوف يكون الخليفة باطشًا ومستبدًّا في حال لم تتمّ عملية البيع، وهو يعرف أنّه في ظلّ الخلفيّة المعرفيّة التي فرزتها السياسة العباسيّة من ظلم واستبداد مطلقين، ومن كون الخليفة هو الآمر والناهي، وظلّ الله على الأرض؛ لا يمكن لأيّ رجل كان، ومهما كان ثريًّا أو سلطويًّا، أن يردّ طلب الخليفة، وهذا الرّاوي متأكدٌ من أنّ الخليفة المأمون قد يلجأ إلى قتل الرّجل، أو تدبير مكيدة له، ثم مصادرة أمواله وجواريه، إذا رفض بيع هاته الجواري، عندها اضطرّ الرّاوي النّديم إلى تحقيق منطق التّصالح بين الرّعيّة والسّلطة، انطلاقاً من وجوب طاعة الرّعيّة للسّلطان، وجعل بطله اليمانيّ يتخلّى عن الجواري، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا يستطيع الرّاوي أن يضع الخليفة أمير المؤمنين في حالة أرق وغضب، لأنّ من مهمّته أن ينادمه و أن يزيل أرقه. وعلى المستوى البنائيّ لا يستطيع الرّاوي فيما إذا قتل اليمانيّ أن يفكّ عقدة حكايته، ويجعل مسار سرده ينمو ليحقّق غاية وظيفيّة أخرى، وهي الوصول إلى فكرة عدل المأمون وحلمه، كما سيظهر في آخر الحكاية.

وتاريخيًا تشير سيرة المأمون إلى أنّه كان باطشًا وسفّاكًا، على الرّغم من حلمه وكرمه وعفوه، وتقديره للعلوم والعلماء. ويروي علي بن الحسين المسعوديّ[٥٦] الخبر الآتي: « وغلب على المأمون الفضل بن سهل[٥٧]، حتى ضايقه في جارية أراد شراءها، فقتله، وادّعى قوم أن المأمون دسّ عليه من قتله. »، وإذا كان المأمون-تاريخيًّا- يقتل وزيره الفضل بن سهل لأجل جارية أراد شراءها، فليس بمستبعد حكائيًّا أن

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

يقتل الرّجل اليمانيّ- لا يذكر الرّاوي اسماً له- فيما إذا امتنع عن بيع جواريه الحسان. وتقول الحكاية: إنّ الجواري عندما وصلن « إلى أمير المؤمنين هيّأ لهنّ مجلسًا لطيفًا، وصرن يجلسن فيه معه ويُنادمنه، وقد تعجّب من حسنهنّ وجمالهنّ واختلاف ألوانهنّ وحسن كلامهنّ، وقد استمر على ذلك مدّة من الزّمان»[٥٨].

ولأن للمرأة أهميّة خاصّة، لا تعادلها أهميّة أخرى، عند الرّجال في التّاريخ العبّاسيّ وألف ليلة وليلة، باعتبارها ضروريّة جدًّا لإقامة طقوس المسرّات، فإنّ الرّجل اليمانيّ ما استطاع صبرًا على مفارقة جواريه، وحنّ إليهنّ، وأرسل كتابًا إلى الخليفة المأمون، يشكو فيه ما عنده من لوعة وحزن وشوق عارم لهذه الجواري، ويقول فيه:[٥٩]

قد سلبت ستّ ملاح حسان
فعلى السّتّة[كذا] الملاح سلامي
هنّ سمعي وناظري وحياتي
وشرابي ونزهتي وطعامي
لست أسلو من حسنهنّ وصالاً
ذاهب بعدهنّ طيب منامي
آه يا طول حسرتي وبكائي
ليتني ما خلقت بين الأنامي[كذا]

ولأنّ الرّاوي في هذه الحكاية هو راوٍ سلطويّ مؤدلج لخدمة فكرة العدل والكرم والمروءة عند الخلفاء المسلمين، اضطّر وحتى يُظهر الخليفة المأمون في صورة الرجل الكريم العادل، إلى أن يرجع هاته الجواري إلى سيّدهنّ. يقول[٦٠]: « فلمّا وقع ذلك الكتاب في يد الخليفة المأمون، كسا الجواري من الملابس الفاخرة وأعطاهنّ ستّين ألف دينار وأرسلهنّ إلى سيّدهنّ، فوصلن إليه وفرح بهنّ غاية الفرح، أكثر مما أتين به من المال، وأقام معهنّ في أطيب عيش و أهنأه [كذا]، إلى أن أتاهم هادم اللّذات ومفرّق الجماعات».

وإذا أخذنا بمنطق التّجارة المكرّس في ألف ليلة وليلة الذي يعتبر المرأة سلعة، تتحدّد قيمتها بقدرتها على إشعال طقوس المسرّات، ومجامر أجساد الخلفاء والملوك، فإنّه يمكننا القول: إنّ ما قدّمته الجواري السّت من ترفيه ومسرّات وغناء، خلال المدة التي بقين فيها في قصر الخليفة المأمون، يعادل كل ما دفعه المأمون لصاحبهنّ اليمانيّ من أموال، وربما لا يعوّض خسارة صاحبهنّ في فقدانه لهنّ، نظراً لما سبّب له هذا الفقدان من حسرات وآلام، فهو ليس بحاجة إلى المال، لأنّه من أصحاب الثّراء الواسع[٦١]، كما يؤكّد الرّاوي في أوّل الحكاية.

إذا كان الرّاوي في حكاية « إبراهيم بن المهديّ مع ابن أخيه المأمون » قد صوّر المأمون في صورة الحاكم الحليم والعاقل، والكريم الذي يعفو عند المقدرة، فإنّ راوياً آخر في حكاية « المأمون ورغبته في هدم أهرامات مصر» قد صوّره في صورة الرّجل الجاهل بقيمة الآثار التّاريخيّة والجماليّة، وعلاقة هذه الآثار بفكر الأمم والحضارات التي أنتجتها، فهو في هذه الحكاية يصمّم على هدم أهرامات مصر، التي بناها الفراعنة: « حُكي أنّ المأمون ابن هرون الرّشيد لمّا دخل مصر أراد هدم الأهرام ليأخذ ما فيها (...)، فلمّا حاول هدمها لم يقدر على ذلك مع أنّه اجتهد في هدمها، وأنفق على ذلك أموالاً عظيمة، ولم يقدر على هدمها وإنّما فتح في إحداها طاقة صغيرة. ويقال إنّ المأمون وجد في الطّاقة التي فتحها من الأموال قدر الذي أنفقه على فتحها لا يزيد ولا ينقص فتعجّب المأمون من ذلك، ثم أخذ ما هناك ورجع عن تلك النيّة»[٦٢].

وإذا كان الرّاوي قد غطّى هدر المأمون لأموال الدّولة الإسلاميّة، وعبثه بها، في محاولته لهدم صرح حضاريّ وعمرانيّ، يُعتبر آية في الرّوعة والجمال والهندسة المعماريّة، من خلال المال الذي وجده في الكوّة المفتوحة، والذي يشكّل تعويضًا عن الأموال المهدورة في عمليّة الهدم، فإنّ صورة المأمون هنا لا تتّفق مع صورته في المواضع الأخرى التي يبدو فيها حاكمًا عاقلاً، وذوّاقًا للأدب والفنّ والجمال والموسيقى، كما يؤكّد بعض رواة اللّيالي، بل تتباين معها تباينًا واضحًا، لأنّ المأمون يبدو في هذه الحكاية رجلاً مستهينًا بالإرث المعرفيّ والعمرانيّ الذي تركته الحضارات السّابقة على الحضارات الإسلاميّة، هذا الإرث الذي يدلّ على عظمة هذه الحضارات، ودورها التّاريخيّ في مسيرة البشريّة و تطوّرها.

ويبدو أنّ لهذه الحكاية خلفيةً مرجعيّة تاريخيّة سجّلتها المصادر التّاريخيّة. إلاّ أنّ هذه المصادر تذكر أنّ الخليفة العبّاسيّ الذي أمر بهدم أحد هذه الأهرامات هو الخليفة هرون الرّشيد، وليس ابنه المأمون. ويروي هذه الحكاية المسعودي قائلاً:[٦٣]

> « إنّ الرّشيد لما دخل مصر، فرأى الأهرام أحبّ أن يهدم بعضها ليعلم ما فيه، فقيل له إنّك لا تقدر على ذلك، فقال لا بدّ من فتح شيء منه، ففتحت الثّلمة المفتوحة بنار توقد وخلّ يرشّ ومجانيق يرمى بها وحدّادين يعملون ما فسد منها وأنفق عليها مالاً عظيمًا فوجدوا عرض الحائط قريبًا من عشرين ذراعًا، فلمّا انتهوا إلى آخر الحائط وجدوا خلف النّقب مَطْهَرَة[٦٤] خضراء فيها ذهب مضروب وزن كل دينار أوقيّة من أواقينا، وكان عددها ألف دينار فعجبوا من ذلك ولم يعرفوا معناه، فأخبروا بذلك الرّشيد، وأتوه بالذّهب والمطهرة فجعل يعجب من ذلك الذّهب، ومن جودته وحسنه وحمرته، ثم قال ارفعوا إليّ حساب ما أنفقتموه على هذه الثّلمة ففعل ذلك فوجوده بإزاء ذلك الذّهب الذي أصابوه لا يزيد ولا ينقص. ».

إذا كان النصّ السابق الذي يرويه المسعودي صحيحًا، فإنّه يمكن القول: إنّ راوي الحكاية في ألف ليلة وليلة يجهل بعض الحقائق التّاريخيّة، أو بتعبير آخر تختلط عليه هذه الحقائق، فهو إمّا يجهلها، وإمّا يعمل فيها تحريفًا، وكما يحلو له، إذ يجعل المأمون يهدم الهرم بدلاً من أبيه هرون الرّشيد. ويبدو أنّ هذا التّحريف في بعض الأحيان عائد إلى جهل الرّاوي بالعصور التّاريخيّة والأدبيّة للدّولة الإسلاميّة. فعلى سبيل المثال نجد الرّاوي في حكاية « عبد الملك بن مروان والقماقم السليمانيّة»، يذكر أن الشّاعر الجاهليّ النّابغة الذّبيانيّ كان حاضرًا في مجلس عبد الملك بن مروان، يستمع إلى حكاية القمام السليمانيّة التي يرويها طالب بن سهل للخليفة عبد الملك[٦٥]. وهذا خطأ تاريخيّ واضح، لأنّ النابغة الذّبيانيّ توفيّ سنة ٦٠٤م[٦٦]، أي قبل هجرة النبيّ محمد (ص) إلى المدينة سنة ٦٢٢م، في حين أنّ الخليفة عبد الملك بن مروان ولد سنة ٢٦هـ/٦٤٦م[٦٧]، وبُويع له بالخلافة في مدينة دمشق في شهر رمضان سنة ٦٥هـ/٦٨٥م[٦٨]. فكيف يستطيع الشاعر النّابغة أن يكون حاضرًا في مجلس الخليفة الأمويّ عبد الملك بن مروان ؟!

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الهوامش:

(١) – ألف ليلة و ليلة ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، طبعة دون تاريخ ،(أربعة أجزاء)، ٦١/٢، ٧٢؛ ٩٧/٣.

(٢) – م س ، ٨٦/٣، ١١٥، ١١٩.

(٣) – م س ، ١٢٢/٣؛ ٨٤، ٩١/٤.

(٤) – م س ، ٦/٣، ٤٣، ١٢٦، ١٣٤؛ ١٢/٤.

(٥) – م س ، ٥٩/١، ٢٧٥؛ ١٠٦/٢، ١٠٩، ٢٢٧.

(٦) – م س ، ٥٩/١، ٢٧٥؛ ١٠٦/٢، ١٠٩، ٢٢٧.

(٧) – ألف ليلة و ليلة ، ٤٠٥/٢ -٤٠٦.

(٨) – م س ، ٤٠٨/٢.

(٩) – م س ، ٤٠٨/٢.

(١٠) – م س ، ٤١٠/٢.

(١١) – إنّ صورة المأمون وهو يعفو عن عمّه في الحكاية ، تتناصّ إلى حدّ قريب جدًا مع الصورة التاريخية التي نقلها الأبشيهي ، إلاّ أنّ الأبشيهي يضيف إلى الحكاية ما يلي: " فلمّا سمع المأمون كلامه وشعره ظهرت الدموع في عينيه وقال: يا إبراهيم الندم توبة ، وعفو الله تعالى أعظم مما تحاول ، وأكثر مما تأمل ، ولقد حبّب إليّ العفو حتى خفت أن لا أوجر عليه ، لا تثريب عليك اليوم ثم أمر بفكّ قيوده وإدخاله الحمّام ، وإزالة شعثه".

- الأبشيهي ، شهاب الدين محمد بن أحمد ، المستطرف في كل فن مستظرف ، تحقيق المكتب العالمي للبحوث ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، طبعة ١٩٨٩م ، ٢٨١/١.

(١٢) – ألف ليلة و ليلة ، ٤١٠/٢.

- و غَمِطَ: جحد ولم يشكر. وقَسَطَ: جار وحاد عن الحقّ.

-معلوف ، لويس: المنجد في اللغة ، منشورات اسماعيليان ، طهران/ دار المشرق ، بيروت ،طبعة ١٩٧٣م ، مادة: غمط ، ص ٥٦٠. ومادة: قَسَطَ ، ص ٦٢٨.

(١٣) - إبراهيم بن المهدي: (ابراهيم بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور ، ١٦٢-٢٢٤هـ/٧٧٩-٨٣٩م): العبّاسي الهاشمي ، الأمير ، أخو هرون الرّشيد. وُلد و نشأ في بغداد ، وولاه الرّشيد إمرة دمشق ، ثم عزله عنها بعد سنتين ، ثم أعاده إليها فأقام فيها أربع سنين. ولما انتهت الخلافة إلى المأمون كان إبراهيم قد اتّخذ فرصة اختلاف الأمين والمأمون للدّعوة إلى نفسه ، وبايعه كثيرون ببغداد ، فطلبه المأمون ، فاستتر ، فأهدر دمه ، فجاء مستسلمًا ، فسجنه ستة أشهر ، ثم طلبه إليه وعاتبه على عمله ، فاعتذر ، فعفا عنه.

- الزركلي ، خير الدين: الأعلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثانية عشرة ، فبراير١٩٩٧م ، ٥٩/١. ٦٠.

(١٤) – الأبشيهي: المستطرف في كل فن مستظرف ، ٢٧٦/١.

(١٥) – العقد الفريد ، ابن عبد ربه ، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي: العقد الفريد ، شرح كرم البستاني ، دار المسيرة ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨١م ، ٤٣/١.

(١٦) – يحي بن أكثم: (يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن التميمي الأسيدي المروزي ، أبو محمد ، ١٥٩-٢٤٢هـ/٧٧٥-٨٥٧م): قاضٍ ، رفيع القدر ، عالي الشهرة ، من نبلاء الفقهاء. ولد بمرو ، واتّصل بالمأمون أيام مقامه بها ، فولاه قضاء البصرة (سنة ٢٠٢هـ) ثم قضاء القضاة ببغداد. وأضاف إليه تدبير مملكته ، فكان وزراء الدولة لا يقدّمون ولا يؤخّرون في شيء إلاّ بعد عرضه عليه. وكان مع تقدّمه في الفقه وأدب القضاء ، حسن العشرة ، حلو الحديث.

- الزركلي ، خير الدين: الأعلام ، ١٣٨/٨.

(١٧) – السَبَد: القليل من الشعر.

- المنجد في اللغة ، مادة: سبد ، ص٣١٨. و تقصد المرأة بالسبد: الإبل.

(١٨) – أوغر لها ضيعتها: جعلها لها من غير خراج.

- المنجد في اللغة ، مادة: وغر ، ص ٩٠٩.

(١٩) – العقد الفريد ، ٤٤/١ -٤٥.

(٢٠) – المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي: مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق: عبد الأمير مهنا ، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/١٩٩١م ، ٨/٤ –٩ –١٠.

(٢١) – ابن طباطبا ، محمد بن علي: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلاميّة ، دون محقق ، دار صادر ، بيروت ، دون تاريخ ، ص٢١٦.

(٢٢) – حتي ، د.فيليب: الإسلام منهج حياة ، تعريب د. عمر فروخ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثانية ، آذار(مارس) ١٩٨٣م ، ص٣٣٧-٣٣٨.

(٢٣) – الحسن بن سهل: (الحسن بن سهل بن عبد الله السرخسي ، أبو محمد ، ١٦٦-٢٣٦هـ/٧٨٢-٨٥١م): وزير المأمون العبّاسي ، وأحد كبار القادة والولاة في عصره. اشتهر بالذكاء المفرط ، والأدب والفصاحة ، والكرم. وهو والد بوران (زوجة المأمون) التي يطلق عليها رواي الحكاية اسم خديجة. وكان المأمون يحبّه ويبالغ في إكرامه. وتوفي في سرخس (من بلاد خراسان). وهو أخو ذي الرياستين الفضل بن سهل.

- الزركلي ، خير الدين: الأعلام ، ١٩٢/٢.

(٢٤) – ألف ليلة وليلة ، ٤١٩/٢.

(٢٥) – م س ، ٤١٩/٢.

(٢٦) – م س ، ٤٢٠/٢.

(٢٧) – مخارق: (مخارق ، أبو المهنّأ بن يحي الجزّار ، ... . ٢٣١هـ/ ... . ٨٤٥م): إمام عصره في فنّ الغناء. ومن أطيب الناس صوتًا. كان الرّشيد العبّاسي يعجب به حتى أقعده مرّة على السرير معه ، وأعطاه ثلاثين ألف درهم. واتصل بعد ذلك بالمأمون. وزار معه دمشق. وتوفي بسر من رأى. كان مملوكًا لعاتكة بنت شُهدة بالكوفة ، وهي التي علّمته الغناء والضرب على العود. وباعته ، فصار إلى الرّشيد.

- الزركلي ، خير الدين: الأعلام ، ١٩١/٧.

(٢٨) – الوَهَم: الغلط أو السهو.

- المنجد في اللغة ، مادة: وَهَمَ ، ص ٩٢١.

(٢٩) – الأصفهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين: الأغاني ، تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغرباوي ، الهيئة المصريّة العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، طبعة ١٣٨٩هـ / ١٩٧٠م ، ٣٦٣/١٨.

(٣٠) – لابيار ، جان وليام: السلطة السياسيّة ، ترجمة الياس حنا الياس ، منشورات عويدات ، بيروت/باريس ، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م ، ص١٥٣.

(٣١) – ألف ليلة و ليلة ، ٤٢٠/٢.

(٣٢) – شرابي ، د.هشام: مقدمة لدراسة المجتمع العربي ، دار الطليعة ، بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٩١م ، ص ٢١.

(٣٣) – مكيافللي ، نيقولو: الأمير ، تعريب خيري حمّاد ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، الطبعة الثامنة ١٩٧٧م ، ص١٤٤.

(٤٣) – ألف ليلة وليلة ، ١٩٥/١ ، ١٩٦ ، ٢٣٥.

(٣٥) – طرابيشي ، جورج: شرق و غرب ، رجولة و أنوثة (دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية) ، دار الطليعة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، شباط/ فبراير ١٩٨٢م ، ص١٧.

(٣٦) – الأغاني ، تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغرباوي ومحمود محمد غنيم ، ٦٧/٢١.

(٣٧) – م س ، ٦٨/٢١.

(٣٨) – لم أجدها في المعاجم ، و ربّما لا أصل لها في اللغة العربية ، وربّما هي كلمة بذيئة من الدارجة تستخدم للشتيمة.

(٣٩) – الأغاني ، ٨١/٢١.

(٤٠) – ألف ليلة و ليلة ، ٤١٦/٢.

(٤١) – الأصفهاني: الأغاني ، ٦٧/٢١.

(٤٢) – عن/سرحان ، جمال: المسامرة والمنادمة عند العرب حتّى القرن الرابع الهجري ، دار الوحدة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨١م. ص ١٠٢. وأخذ سرحان عن/النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

فنون الأدب ، دار الكتب المصريّة ، القاهرة ، طبعة ١٩٥٥م ، الجزء السادس ، ص ١٤١ ، والجزء الرابع ، ص ١٤٩.

(٤٣) – الحفني ، د. محمود احمد: إسحاق الموصليّ الموسيقار و النديم ، الهيئة المصرية العامّة للكتاب ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٨٥م ، ص ٦٤.

(٤٤) – ألف ليلة و ليلة ، ٧١/٣.

(٤٥) – ألف ليلة وليلة ، ٧٢/٣.

(٤٦) – م س ، ٧٢/٣.

(٤٧) – لمزيد من الاطلاع على مقاييس الجمال المفضّلة عند الرجال الجنسيين ومعرفة متى تكون المرأة مهمّة عندهم ومتى لا تكون ، ينظر: المجلد الثالث ، من ص ٧٣ إلى ص ٧٧.

(٤٨) -م س ، ٨١/٣.

(٤٩) – م س ، ٨١/٣.

(٥٠) – الأصفهاني: الأغاني ، ٧٥/٢١.

(٥١) – الحفني ، د. محمود أحمد: إسحاق الموصليّ الموسيقار والنديم ، ص ١٧٣.

(٥٢) – ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانيّة والدول الإسلاميّة ، ص ٢٢٦.

(٥٣) – ألف ليلة و ليلة ٨٩/١ ؛ ٣٩٦/٣.

(٥٤) – لاندو ، روم: الإسلام والعرب ، تعريب منير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثاني ' كانون الأول ١٩٧٧م ، ص ٨٣.

(٥٥) – لاندو ، روم: الإسلام والعرب ص ٨٣.

(٥٦) – مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ٧/٤.

(٥٧) – الفضل بن سهل: (الفضل بن سهل السرخسي ، أبو العبّاس ، ١٥٤-٢٠٢هـ/٧٧١-٨١٨م): هو وزير الخليفة العبّاسي المأمون ، من أولاد ملوك الفرس المجوس ، وكان أبوه مجوسياً فأسلم في أيام الرّشيد ، وكان سخيًّا كريمًا ، وحليمًا بليغًا ، عالمًا بآداب الملوك ، بصيرًا بالحيل ، وسمّي بذي الرياستين لجمعه بين السيف والقلم. وكان يُقال له الوزير الأمير.

-ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، ص ٢٢١.

(٥٨) – ألف ليلة وليلة ، ٨١/٣.

(٥٩) – م س ، ٨٢/٣.

(٦٠) – ألف ليلة وليلة ، ٨٢/٣.

(٦١) – م س ، ٧١/٣.

(٦٢) – ألف ليلة و ليلة ، ١٧٣/٣.

(٦٣) – أخبار الزمان ، تحقيق عبد الله الصّاوي ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت ، د.ت ، ص١٦٥.

(٦٤) – المَطْهَرَة: إناء يُتطهّر به .

-المنجد في اللغة ، مادة: طهر ، ص٤٧٤.

(٦٥) – ألف ليلة وليلة ، ٢٥/٤.

(٦٦) – عن/ضيف ، د.شوقي: العصر الجاهلي ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، الطبعة السابعة ، ١٩٧م ، ص٢٧٥.

(٦٧) – المنجد في الأعلام ، ص ٤٥٣.

(٦٨) – الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك: تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنوّاب ، تحقيق إحسان خلوصي وزهير الصمصام ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، طبعة ١٩٩١م ، القسم الأوّل ، ص ١١٥.

من إصدارات الدكتور محمد عبد الرحمن يونس:

نساء السلطة في ألف ليلة وليلة: الفكر والسلوك ، كتاب جديد للدكتور محمد عبد الرحمن يونس صدر عن دار مجلة مقاربات الأكاديمية المحكمة في آسفي ، المغرب

Women power in A Night to night, thought and behavior, a new book by Dr. Mohammad Abdul Rahman Younes, recently published by the House Magazine academic approaches the court in ASafi, Morocco

ليست نساء السلطة في ألف ليلة وليلة مستبدّات طاغيات فحسب ، بل يوجد فيهنّ الزواني اللواتي يخنّ أزواجهنّ كلّما سنحت لهنّ الفرصة بذلك ، فهنّ يخطّطن لهذه الخيانة ويحتلن على أزواجهنّ ليذهبن إلى عشّاقهنّ ، وبخاصّة إذا كانت هاته النسوة مُتَخَيَّلات ، وغير معروفات في الواقع التاريخيّ ، مع العلم أنّ هؤلاء الأزواج ، كما يصوّرهم الرواة ، أوفياء لهنّ ، ومؤمنون ثقاة في بعض الأحيان. ففي حكاية « الحشّاش مع زوجة أحد الأكابر » ، يصوّر الراوي زوجة أحد الرجال المهمّين في حقل السلطة ، بصورة المرأة الزانية التي تنتقم من زوجها شرّ انتقام ، لأنّها ضبطته يزني بإحدى جواريها ، إذ أقسمت يميناً بأنّها ستنتقم منه ، وتزني مع أقذر الناس وأحطّهم منزلة. تقول المرأة: « اتّفق أنّني كنت أنا وإيّاه قاعدين في الجنينة داخل البيت ، وإذا هو قد قام من جانبي و غاب عنّي ساعة طويلة ، فاستبطأته ، فقلت في نفسي لعلّه يكون في بيت الخلاء ، فنهضت إلى بيت الخلاء ، فلم أجده ، فدخلت المطبخ فرأيت جارية فسألتها عنه فأرتني إيّاه وهو راقد مع جارية من جواري المطبخ ، فعند ذلك حلفت يميناً مغلظة أنّني لا بدّ أن أزني مع أوسخ الناس وأقذرهم ». عندها تخرج المرأة بصحبة خدمها وحرّاسها ليجوسوا خلال الشوارع والأزقّة باحثين عن طلب المرأة و ما إن يشاهدها الناس حتّى يفرّوا مذعورين من بطشها. يقول الحشّا: " فوجدت الناس هاربين ، فقال واحد منهم: ادخل هذا الزقاق لئلاّ يقتلوك. فقلت: ما للنّاس هاربين؟ فقال لي واحد من الخدم: هذا حريم لبعض الأكابر. وصار الخدم يُنحّون الناس من الطريق قدّامها ، ويضربون جميع الناس ولا يبالون بأحد "

ويمكن أن يتساءل متلقّي الحكاية: طالما أنّ المرأة السلطويّة تخرج باحثة عن رجل وسخ لتزني به ، انتقاماً من زوجها الزاني ، فما ذنب هذا القطاع العريض من الناس الذي يتجوّل في الشوارع باحثاً عن لقمة عيشه ، حتّى يبتعد مذعوراً عن طريق هذه المرأة المستبدّة ، وحتّى يُهان ويُضرب ، من دون أن يرتكب أيّ ذنب؟. يبدو أنّ المستبدّين و الطغاة في ألف ليلة وليلة ، رجالاً ونساءً ، كانوا يجدون لذّة في تعذيب الناس وقهرهم ، و كان يحسّون بالرضى يملأ نفوسهم ، و هم يشاهدون الناس البسطاء يفرّون مذعورين أمامهم ، ويبدو أنّ هذا الفرار كان يعزّز لديهم هذا الغرور الأحمق بعظمتهم ومكانتهم السلطويّة. فالاستبداد يضعف الأخلاق الحسنة أو يفسدها أو يمحوها. و من هنا فإنّ المستبدّ الذي تضعف أخلاقه أو تفسد ، لا يهمّه إن أُهين شعبه ، أو قُهر جرّاء أفعاله الاستبداديّة. فالمرأة المستبدّة زوجة لأحد رجال السلطة المهمّين ، وقد سمحت لخدمها بضرب جميع من يمشي في الشارع الذي تمشي فيه ، وأمرت خدمها أن يهينوا الحشّاش ، ويربطوه ، ويأخذوه عنوة إلى منزلها: « و إذا بالطواشيّ جاء إليّ وقبض عليّ ، فتهاربت الناس. وإذا بطواشيّ آخر أخذ حماري ومضى به. ثمّ جاء الطواشيّ وربطني بحبله وجرّني خلفه ، وأنا لم أعرف ما الخبر ، والناس من خلفنا يصيحون ويقولون: ما يحلّ من الله ، هذا رجل حشّاش فقير الحال ما سبب ربطه بالحبال ؟ »

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

اللغة العربية ودورها في التواصل الحضاري بين الشعوب

أنور محمود زناتي

أستاذ التاريخ الإسلامي

كلية التربية – جامعة عين شمس

القاهرة – جمهورية مصر العربية

مقدمة

من المؤكد أن الحضارة الإسلامية Islamic Civilization كان لها دورها الفعال في التواصل بين الشعوب وهذا الدور لم ينقطع على مر الزمن ، ولكنه في العصر الوسيط Medieval كان أكثر وأعرض وأعمق ، وذلك بفضل ما توصلت إليه الحضارة الإسلامية من أسباب التقدم والرقي ، وحتى العصر الحديث ما زالت هناك آثار لتلك الحضارة. ولعل أجلى ما تتضح عليه صورة ذلك الأثر هو اللغة العربية.

واللغة بصفة عامة تلعب دوراً هاماً في صياغة عقلية الفرد والمجتمع .وهو ما ذهب إليه إدوارد سابير Edward Sapir[١] من أن : " اللغة تنظم تجربة المجتمع" ، وهي التي تصوغ عالمه وواقعه الحقيقي ، وأن : " كل لغة تنطوي على رؤية خاصة للعالم". وذهب سابير وورف إلى أن اللغة " أساس تشكيل الأفكار ، ودليل على النشاط الفكري للفرد" ، وإن الأمر ليتجاوز ذلك إلى المجتمع ذاته ، إذ نجدها الأساس الذي تنبني عليه الهوية الاجتماعية علاوة على الهوية الفردية"[٢].

وفي هذا المقال سوف نتعرض للألفاظ المشتركة بين اللغة العربية واللغات الأخرى الشعوب والتي تؤكد دور الإسلام في إيجاد تواصل وتمازج بين الحضارات ، وهذا التواصل سيؤدي إلى بناء علاقات حميمة وتفاعلات حضارية تقرّب بين الأطراف المختلفة. وينطوي المقال أيضاً على إشارات ودلالات تبرز ترابط شعوب تلك الأمم وثقافتها ، فتكون بمثابة جامعاً تواصلياً يؤلف بين البشر ، ويهبهم شعورا بالانتماء إلى الإنسانية العالمية Global Humanitarian . ولابد أن نؤكد على أن تلك الألفاظ المشتركة تعمل على توكيد التفاهم المرجو بين الشعوبّ لتكون بارقة أمل لمستقبل آمن ، لا تُنتهك فيه كرامة الإنسان ، ولا تهدر حقوقه ، ولا يطغى فيه القويّ على الضعيف.

يتفق هذا البحث مع ما ذهبت إليه مينيكه شيبر Mineke Schipper[٣] من تأكيد على أن الإنسانية تتكون من أقرباء لم يهتموا أبدا بأن يلتقوا ، وأن المعرفة المشتركة هي مفتاح مهم للتعايش السلمي على كل المستويات ، فالنظر إلي ما نشترك فيه كآدميين مثمر تماما ، وهو أكثر إلحاحا اليوم عن أي وقت مضي. هذه نقطة انطلاق تتفوق كثيرا على الإصرار الدائم على "نحن" في مقابل "هم" ، على من ينتمي في مقابل من لا ينتمي ، وفي أسوا الأحوال ، إسقاط محاور خطيرة للشر "بيننا" و "بينهم" "Us" and "them"[٤]. فاللغة لها خاصية إنسانية Feature of human ترتبط بالإنسان دون الحيوان ؛ ولذلك عدها "وليام ويتني" مؤسسة اجتماعية[٥] ، واللغة كائن حي ، وكلّما اتسعت حضارة أمة ، نهضت لغتها وسمت أساليبها ، وتعددت فيها فنون القول ، ودخلت فيها ألفاظ جديدة عن طريق الوضع ، والاشتقاق والاقتباس أو الاقتراض للتعبير عن المسميات والأفكار الجديدة ، فتحيى هذه اللغة وتتطور عبر الزمن وتتلاقح مع غيرها من اللغات.

ولا أحد منّا ينكر أنّ اللغات تتداخل وتتلاقح كلما اتصلت إحداها بالأخرى بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، وأنّ أية لغة من اللغات في العالم كما تؤثر في غيرها ، فإنها أيضا تتأثر. وإنّه "من المتعذر أن تظل لغة بمأمن من الاحتكاك بلغة أخرى"[٦]. ويرى عالم اللغة الفرنسي

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

أنور محمود زناتي ، اللغة العربية ودورها في التواصل الحضاري بين الشعوب.- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث عشر ؛ سبتمبر ٢٠١١. ص ٧٤ – ٧٧.

(www.historicalkan.co.nr)

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية. محكّمة. ربع سنوية

جوزيف فندريس أن تطور اللغة مستمر في معزل عن كلّ تأثير خارجي ، يعدّ أمرا مثاليا لا يكاد يتحقق في أية لغة ، بل على العكس من ذلك ، فإنّ الأثر الذي يقع على لغة ما من لغات مجاورة لها ، كثيرا ما يؤدي دورا هاما في التطور اللغوي ، ذلك لأنّ احتكاك اللغات ضرورة تاريخية ، واحتكاكها يؤدي حتما إلى تداخلها[٧].

يقول المستشرق إرنست رينان Ernest Renan[٨] في كتابه تاريخ اللغات السامية Histoire générale des langues sémitiques: "إن انتشار اللغة العربية ليعتبر من أغرب ما وقع في تاريخ البشر كما يعتبر من أصعب الأمور التي استعصى حلها ؛ فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادئ ذي بدء ، فبدت فجأة على غاية الكمال سلسة غاية السلاسة ، غنية أي غنى ،... وإن اللغة العربية - ولا جدال - قد عمت أجزاء كبرى من العالم".

ويقول جوستاف لوبون Gustave Le Bon[٩] صاحب كتاب حضارة العرب La civilisation des Arabes[١٠]: "كلما تعمق المرء في دراسة العربية تجلت له أمور جديدة ، واتسعت أمامه الآفاق وثبت له أن القرون الوسطى لم تعرف الأمم القديمة إلا بواسطة العرب ، وأن العرب هم الذين مدنوا أوروبا في المادة والعقل والخلق".

ويقول ديفيد صمويل مرجليوث Margoliouth[١١] الأستاذ بجامعة أوكسفورد " أن اللغة العربية لا تزال حية حياة حقيقية ، وهي واحدة من ثلاث لغات استولت على سكان المعمورة استيلاء لم يحصل عليها غيرها ، الانجليزية الاسبانية اختاها تخالف أختيها بأن زمان حدوثهما معروف ولا يزيد سنهما على قرون معدودة أما اللغة العربية فابتداؤها أقدم من كل تاريخ".

ويقول الأستاذ ماكس فانتا جوا Max Vintéjoux في كتابه "المعجزة العربية" "Le miracle arabe": "الحق أن مؤرخينا قد حاولوا جهدهم أن يجعلوا من العالم الغربي محورا للتاريخ مع العلم بأن كل مراقب يدرك أن الشرق الأدنى هو المحور الحقيقي لتاريخ القرون الوسطى. إن تأثير اللغة العربية Arabic influence قد شكل تفكيرنا بصورة كبيرة"[١٢].

وقد لاحظ ذلك فيلسوف الحضارة أزوالد شبنجلر[١٣] Oswald Spengler في كتابه الشهير "سقوط الغرب" Downfall of the Occident قائلاً: " لقد لعبت العربية دوراً أساسيا كوسيلة لنشر المعارف ، وآلية التفكير خلال المرحلة التاريخية التي بدأت حين احتكر العرب على حساب اليونان Greek والرومان Romans عن طريق الهند ، ثم انتهت حين خسروها"[١٤].

والاحتكاك المباشر وغير المباشر بين الشعوب ولغاتها أدى إلى انتقال مفردات اللغة العربية Arabic vocabulary إلى اللغات الأخرى other languages . كالإسبانية Spanish والإيطالية Italian ، واليونانية Greek والتركية Turkish والفارسية والإنجليزية والفرنسية ، الخ[١٥]. ونتيجة للتعايش Coexistence بين اللغات يقع التأثير والتأثر بين فيما بينها ويتمثل في اقتراض الألفاظ Borrowing words ، فيتسع محل اللغة وتتطور وتزداد حيويتها ، وتلك سنة اللغات حين التعايش والاحتكاك Coexistence and friction والتجاور Dialogue. ونجد اللغة العربية كغيرها من اللغات في العالم عبر التاريخ تداخلت مع اللغات الأخرى حين احتكت واتصلت بالأمم المجاورة بسبب الحروب والمعاملات التجارية والثقافية ، فأثرت وتأثرت حسب قانون التجاور والتواصل الحضاري[١٦].

وقد أدى التواصل الحضاري واللغوي Cultural communication and linguistic إلى دخول الآلاف من الكلمات العربية إلى اللغات الأجنبية ، وتنوعت تلك الألفاظ ما بين علمية وأدبية وحياتية تتعلق بأمور المعيشة ، بل والمصطلحات العلمية أيضاً وقد ذكر ابن سينا الكثير من العقاقير التي دخلت في علم النبات ، وعلم الصيدلة عند الأوربيين ، وظل الكثير منها بأسمائها العربية في اللغات الأجنبية كعنبر Ambra ، والزعفران Safaran والكافور Kampfer ، والتمر الهندي inda Tamar وعود الند Aloe والحشيش Haschisch والمسك Muskat والصندل Sandelholz وغيرها.. ويكفي العرب فخراً ما بقي من الأسماء الطبية في اللغات الغربية كالكحول والصداع Soda وقد سجل الأستاذ ويسلر في كتابه الحضارة العربية الكلمات العربية التي دخلت اللغات الأجنبية[١٧].

وتطلق الأرقام العربية Arabic numerals على الرموز الكتابية التي تمثل الأعداد وتكتب على النحو الآتي: ١-٢-٣-٤-٥-٦-٧-٨-٩-٠ ، وذلك في مقابل الأرقام الرومانية التي كانت مستعملة من قبل مثل I.V.X.D.M.. والغريب هو أن تعترف القواميس الغربية بأن الرموز الرقمية المستعملة في أوربا وأكثرية بلدان العالم هي أرقام عربية ، وأن يعتقد الكثيرون من العرب اليوم أنها أرقام غربية إفرنجية. وقد نقلت كلمة "صفر" العربية والصفر هو الخالي أو الخلوي ، إلى اللاتينية هكذا: Cifra Cifrum بمعنى "الصفر" ، ثم أطلقت من بعد على العدد عامة ، كما نجد في اللغات الأوروبية: chiffre في الفرنسية وcifra الأسبانية. ومنها أخذت كلمة "السفرة" في الدبلوماسية أي اللغة الرمزية ، لأنها تقوم على أرقام[١٨].

ويتضح أثر العرب على حياة الغرب الحضارية حتى في أسماء الأيام Names of days التي يستعملونها فلو عدنا إلى أصلها لما بعدت الحقيقة عن أنهم أول من فكّر فيها فقد جاء عن إخوان الصفا[١٩]. "اعلم أن الليل والنهار وساعاتهما مقسومة بين الكواكب السيارة ، فأول ساعة من يوم الأحد للشمس ، وأول ساعة من يوم الاثنين للقمر ، وأول ساعة من يوم الثلاثاء للمريخ ، وأول ساعة من يوم الأربعاء ، لعطارد ، وأول ساعة من يوم الخميس للمشترى ، وأول ساعة من يوم الجمعة للزهرة ، وأول ساعة من يوم السبت لزحل"[٢٠]. ودعنا نبحث عن أسماء الأيام باللغتين الانجليزية والفرنسية ، فستكون النتيجة مطابقة لا مثيل لها أُخذت من حسابات العرب والمسلمين وحضارتهم ، فالأيام: الأحد (Sunday) والاثنين (Monday)، الثلاثاء (Tuesday)، الأربعاء (Wednesday)، الخميس (Thursday)، الجمعة (Friday)، السبت (Saturday) ؛ فالأحد يوم الشمس ، والاثنين يوم القمر ، والثلاثاء يوم تموز وهو آلهة الرعد قديماً ، والجمعة يوم الآلهة في Friy زوجة عطارد وتشبه الزهرة في صفاتها ، وزحل للسبت ، أما في الفرنسية فإن (Mars) هو مارس المريخ ليوم الثلاثاء (Mardi)، و(Mercridi) الأربعاء يوم عطارد ، و(Jeudi) يوم الخميس المشتري ، و(vendredi) يوم الجمعة وهو يوم الزهرة ، فإذا كانت الحضارة الغربية بحاجة إلى الاستعانة بالأسماء العربية وأخذتها من الحضارة الإسلامية فكيف ينكر أثرها الواضح».

وتحفل لغات أوروبية عديدة بكلمات وعبارات استعارتها من اللغة العربية وبما أن الأفكار والمفاهيم تتخذ شكلها في صورة كلمات ، فإن الدَّين الثقافي الذي يدين به الغربيون للحضارة العربية الإسلامية ينعكس في الكلمات المستعارة من اللغة العربية والتي يستخدمها

دورية إلكترونية. محكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

المثقفون والمتعلمون من الغربيين في لغاتهم حتى يومنا هذا ؛ فإذا أخذنا على سبيل المثال كلمة سراط ، فهي strada ، street ، strase ، هذه كلمات مشتركة لها أساس في اللغة العربية وهي فعل سار — سيرا العربي. وإذا أخذنا كلمة سطر ، أسطورة ، تبين لنا أنها امتدت في العديد من اللغات بشكل History ، فإما أن تكون هذه الأفعال العربية مشتقة من هذه الأسماء المشتركة التي تدل على معناها ، وهذا بعيد عن المنطق السليم ، وإما أن هذه الأسماء مشتقة من هذه الأفعال العربية وهذا أقرب إلى المنطق السليم.

وكلمة Safari في اللغات الأوربية والتي تعني الرحلة وخاصة رحلات القنص ، مأخوذة من الكلمة العربية سفري نسبه إلى سفر. وكلمة Racket ، وكلمة raquette مضرب التنس ، مأخوذة من العربية راحة نسبه إلى راحة اليد. وكلمة Magazine معناها إما مجلة أو مخزن للذخيرة أو البضائع ، وهي أصلاً من الكلمة عربية مخزن وكلمة Amber بمعنى الكهرمان ، أصلها عربي وهي عنبر. وكلمة Admiral من العربية أمير البحر ، وكلمة Alcove من العربية القبة ، وكلمة Algebra من العربية الجبر ، وكلمة Apricot من العربية البرقوق ، وكلمة Arsenal من العربية دار الصناعة ، وكلمة Cumin من العربية كمون ، وكلمة Gazelle من العربية غزال ، وكلمة Genie من العربية جنّي ، وكلمة Lute من العربية العود ، وكلمة Tariff من العربية تعريفة وكلمة Typhoon من العربية طوفان.

ونلاحظ التناغم العجيب ونتخيل معاً مدى التقارب بين كلمة عربية وهي كلمة رفض نجدها في الايطالية Rifiuto والفرنسية ريفوز refuser وأخرى انكليزية REFUSE . يحملنا ذلك على ضرورة إدراك القواسم المشتركة بين كل اللغات ودلالتها الحضارية.

ويعد انتشار الكلمات العربية داخل اللغة الإسبانية دليل على عمق التأثير العربي والإسلامي الذي يظل حتى يومنا هذا شاهدا على حضارة أسسها العرب في شبه الجزيرة الإيبيرية Iberian Peninsula [٢١]. فمع الفتح الإسلامي للأندلس [٢٢] فتحت صفحة لالتقاء ثقافتين ثقافتين هما العربية الإسلامية واللاتينية المسيحية ، اتصلتا وتفاعلتا فتعرضتا للتأثير المتبادل عبر عصور التعايش المشترك [٢٣]. وقد لاحظ المستعرب الإسباني Arabista español خوان برنيط Juan-Vernet في كتابه "المسلمون الأسبان " LOS MUSULMANES ESPAÑOLES إنه من العسير جداً أن نحدد مدى التأثير الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية ، ذلك أن الأندلس كانت دائماً هدفاً للهجرات الشرقية مما يكون له أثره فيما قبل الإسلام بكثير على أن هناك أشياء ماثلة لا يمكن الشك في أنها إسلامية ، وذلك ما هو موجود في اللغة من ألفاظ وتعبيرات [٢٤].

أما عن الكلمات الاسبانية من أصل عربي فحدث ولا حرج مثل:

العربية Arabic	الإسبانية Spanish	العربية Arabic	الإسبانية Spanish
زيت Zeet	Aceite وتنطق: أثيته	الكيمياء Kemya	Alquimia وتنطق : الكيميا
زيتون Zaytoun	Aceituna وتنطق: أثيتونا	جبر Gabr	Algebra وتنطق : الخيبرا
أرز Orz	Arroz وتنطق: أروس	الكحول Al-Kohol	Alcohol وتنطق : الكوؤل

العربية Arabic	الإسبانية Spanish	العربية Arabic	الإسبانية Spanish
سكر Sokar	Azuca وتنطق: أسوكار	القطن Al-Kotn	Algodon وتنطق: الجودون
لوبيا Lopya	Alubia وتنطق: ألوبيا	الغارة Al-Ghara	Algara تنطق :الجارا
خروب Kharoup	Algarrobas وتنطق: الجاروباس	غزال Ghazal	Gacel وتنطق: جاثيل
الخرشوف Kharshouf	Alcachofa وتنطق: الكاشوفا	الفيل Al-Feel	Alfil وتنطق: الفيل
زعفران Zaafaran	Azafran وتنطق : أسافران	الطوب Al-Toob	Adobe وتنطق : أطوبي
كمون Kamon	Comino وتنطق: كومينو	الفارس Al-Fares	Alferez وتنطق: الفيريس
طاسة Tassa	Taza وتنطق : تاسا	الطليعة Al-Taleaa	Atalaya وتنطق : اطالايا
الترمس Al-Termes	Altramuz وتنطق: التراموس	طاحونة Tahona	Tahona وتنطق: تائونا
القلعة Al-Kalaa	Alcala وتنطق: ألكالا	البناء Al-Benaa	Albanil وتنطق: ألبانيل
القبة Al-Kobba	Alcoba وتنطق: الكوبا	القصر Al-Kassr	Alcazar وتنطق : الكاسار
المخدة Al-Mekhada	Almohada وتنطق : المؤادة	المخزن Al-Makhzan	Almacen وتنطق: الماسن
ساقية Sakya	Acequia وتنطق :أسيكيا	البركة Al-Berka	Alberca وتنطق: البركة
ديوان Diwan	Divan وتنطق: ديبان	قيثارة Kethara	Guitarra وتنطق: جيتارا
عود Oud	Laude وتنطق: لاوده		

أما عن تأثير اللغة العربية في اللغة الإيطالية ، فيقول رينالدي: "لقد ترك المسلمون عددًا عظيمًا من كلماتهم في اللغة الصقلية والإيطالية ، وانتقل كثير من الكلمات الصقلية التي من أصل عربي إلى اللغة الإيطالية ثم تداخلت في اللغة العربية الفصحى ، ولم تكن الكلمات فقط هي التي دخلت إيطاليا ، وإنما تسربت أيضًا بعض جداول من الدم العربي في الجالية العربية التي نقلها معه إلى مدينة لوشيرا ، الملك فريدريك الثاني... ولا يزال الجزء الأعظم من الكلمات العربية الباقية في لغتنا الإيطالية التي تفوق الحصر دخلت اللغة بطريق المدنية لا بطريق الاستعمار... إن وجود هذه الكلمات في اللغة الإيطالية ، يشهد بما كان للمدنية العربية من نفوذ عظيم في العالم المسيحي".

دورية إلكترونية محكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

وأخيرًا ؛ من أمثلة الكلمات العربية التي دخلت الايطالية كلمة قالب العربية[٢٥] نجدها في الايطالية calibro ، وكلمة مرتبة materasso بمعنى فراش[٢٦] ، وكلمة الكحول العربية نجدها في الإيطالية alcol ، وكلمة chitarra من العربية قيثار ، وكلمة طرمبة العربية: Trmbp وتعني مضخة المياه ، وكلمة مملوك العربية نجدها في الإيطالية mamelucco ، وسلطان sultano وزرافة giraffa ، وقيراط carato. هذا الزخم إن دل على شيء فإنما يدل على عمق التواصل الحضاري بين شعوب الأرض قاطبة.

الهوامش

(١) إدوارد سابير 1939- 1884م. عالم أمريكي متخصص في علم الأنثروبولوجيا وعلم اللغة. بحث في العلاقة بين اللغة والثقافة والشخصية وساعد في تأسيس فرعين جديدين للبحث في علم الإنسان هما: علم الإنسان اللغوي الذي يحلل دور اللغة في المجتمعات المختلفة ، وعلم الإنسان النفسي الذي ينظر في العلاقة بين الثقافة والشخصية. للمزيد راجع ، صابر الحباشة : من قضايا الفكر اللساني في النحو والدلالة واللسانية صفحات للدراسات والنشر ، ٢٠٠٩.

(٢) للمزيد راجع ، إدوارد سابير: اللغة مقدمة في دراسة الكلام ، ترجمة المنصف عاشور ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ١٩٩٧ ، ص ١٥٥.

(٣) مينيكه شيبر تعمل أستاذة في الدراسات الأدبية المقارنة بجامعة لايدن في هولندة ، ولها العديد من الكتب والدراسات حول المرأة والأدب في الثقافات المختلفة.

Mineke Schipper, Never Marry a Woman with Big Feet, Yale University Press, 2003.

(٤) مينيكه شيبر: النساء في أمثال الشعوب ؛ إياك والزواج من كبيرة القدمين ، ترجمة مني إبراهيم وهالة كمال ، دار الشروق ، القاهرة ٢٠٠٨ ، ص ٢٥.

(٥) فردينان دي سوسير ، محاضرات في الألسنية العامة ، ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر ، ص ٢١.

(٦) رمضان عبد التواب: فصول في فقه اللغة ، مكتبة الخانجي ، ط ٣ ، القاهرة ١٩٨٧ ، ص ٢٥٨.

(٧) فندريس: اللغة ، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص ، مكتبة أنجلو المصرية ، القاهرة ، ص ٣٤.

(٨) إرنست رينان Ernest Renan مؤرخ وفيلسوف ومستشرق فرنسي ، تعمق في معرفة اللغات ، وخاصة اللغات السامية ، حتى صار من ثقاتها. حصل على الدكتوراه في الآداب في عام ١٨٥٢ عن أطروحة موضوعها ابن رشد والرشدية. انتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية في عام ١٨٧٨ ، ثم عيّن مديراً للكوليج دو فرانس في عام ١٨٨٣ ، وظل في منصبه هذا حتى وفاته في باريس. راجع أنور محمود زناتي : زيارة جديدة للاستشراق ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ٢٠٠٦.

(٩) جوستاف لوبون : (١٨٤١ - ١٩٣١) طبيب ، ومؤرخ فرنسي ، عني بالحضارة الشرقية. من أشهر آثاره: حضارة العرب وحضارات الهند و"حضارة العرب في الأندلس". هو أحد أشهر فلاسفة الغرب وأحد الذين أنصفوا الأمة العربية والحضارة الإسلامية. راجع أنور محمود زناتي: زيارة جديدة للاستشراق ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ٢٠٠٦.

(١٠) راجع جوستاف لوبون : حضارة العرب ، ترجمة : عادل زعيتر ، دار إحياء الكتب العربية القاهرة ١٩٥٦.

(١١) ديفيد صموئيل مرجوليوث Margoliouth (١٨٥٨ - ١٩٤٠) بدأ حياته العلمية بدراسة اليونانية واللاتينية ثم اهتم بدراسة اللغات السامية فتعلم العربية ومن أشهر مؤلفاته ما كتبه في السيرة النبوية ، وكتابه عن الإسلام ، وكتابه عن العلاقات بين العرب واليهود. راجع ، أنور محمود زناتي : زيارة جديدة للاستشراق ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ٢٠٠٦.

(١٢) راجع مقال علماء اللغات فى أوربا وأمريكا يؤكدون عالمية اللغة العربية ، المجلس الدولي للغة العربية

http://www.alarabiah.org/index.php?op=3&poo=73&pooo=3

(١٣) ولد شبنجلر في مدينة بلاكنبورغ ، وذلك في شهر أيار سنة 1880 وحين شبّ درس العلوم الطبيعية في جامعة برلين .وبعد تخرجه رحل إلى مدينة ميونخ ليعيش بقية عمره في القراءة والكتابة ، معزولاً ، أو معتزلاً الناس ، ومنقطعاً للبحث والتنقيب ، حتى مات في شهر أيار ، سنة 1936. راجع ، أنور محمود زناتي : علم التاريخ واتجاهات تفسيره ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ٢٠٠٧ ، ص ١١٩ .

(١٤) كتب شبنجلر كتابه الشهير "سقوط الغرب" في مرحلة ما بين ١٩١٨ و١٩٢٢ ، فدشَّن فيه نمطاً من الكتابة التاريخية الحضارية ترتكز على أساسين اثنين حاسمين ، هما "التشاؤم البطولي" ، و"التأرية المضادة."راجع ، طيب تزيني : التشاؤم البطولي والتأرية المضادة ، جريدة الاتحاد الاماراتية ، بتاريخ ٣ مارس ٢٠٠٩ م .

(١٥) إبراهيم أنيس ، من أسرار اللغة القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٨م ، ١١٧.

(16) سعيد أحمد بيومي : أم اللغات ، دراسة في خصائص اللغة العربية والنهوض بها ، مكتبة الآداب ، ط ١ ، القاهرة ، ٢٠٠٢ ص ٣٦.

(17) لمزيد من التفاصيل راجع ، عبد الرحمن بدوى ، دور العرب في تكوين الفكر الغربي ، دار الآداب – بيروت ، ١٩٦٥.

(١٨) لمزيد من التفاصيل راجع ، أنور محمود زناتي : الطريق إلى صدام الحضارات ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ٢٠٠٦.

(١٩) إخوان الصفا: فرقة فكرية عُرفت باسم "إخوان الصفاء وخلاّن الوفاء" ، اشتهرت بتصنيفها مجموعة من الرسائل في مختلف فروع الفلسفة والعلوم الإنسانية. وقد عرفت هذه الرسائل رواجا كبيرا في مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، كما يظهر من خلال العدد الكبير الذي وصلنا من نسخها المخطوطة ، لمزيد من التفاصيل أنظر دراسة الأستاذ الدكتور محمود إسماعيل: إخوان الصفا: رواد التنوير في الفكر العربي ، المنصورة ، ١٩٩٦.

(٢٠) إخوان الصفاء: رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء ، ط ٢ ، دار صادر ، بيروت ، ٢٠٠٤ .

(٢١) ظلت المؤثرات الحضارية الإسلامية بالأندلس من ٧١١م ، واستمرت حتى بعد خروجهم منها سنة ١٤٩٢م.

(٢٢) في الفترة ما بين عامي ٧١١م و٧١٤م بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير وسقوط دولة القوط الغربية ، وبذلك يبدأ العصر الإسلامي في الأندلس الذي مدته ٨٠٠ عام تقريبا حتى سقوط مملكة غرناطة سنة ١٤٩٢م.

(٢٣) كريستوبال كويفاس غارسيا: الإسلام. محتواه وتاريخه وأثره في التفكير الديني المسيحي بإسبانيا ، قام بعرضه عبد الرحيم الجباري في ملحق الفكر الإسلامي لجريدة "العلم" المغربية ، عدد54 ، 11 دجنبر ١٩٩٢ ، ص ٣.

(24) Barcelona: Ediciones Sayma, 1961

وراجع أيضاً عرضاً للكتاب في مجلة تطوان ، العدد السادس ، ١٩٦١ ، ص. ٢٢٥. قام بعرضه محمد بن تاويت في باب نقد الكتب .

(٢٥) حازم جهلوم: كامات لها تاريخ في اللغات الأوروبية واللغة العربية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٧ ، ص ١٩٤.

(٢٦) حازم جهلوم: كامات لها تاريخ في اللغات الأوروبية واللغة العربية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٧ ، ص ١٩٤.

دورية إلكترونية. محكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

دور السلطة الأموية في دعم وتشجيع النشاط الصناعي في بلاد الأندلس خلال القرنين 3-4 هـ/ 9-10م

تواتية بودالية

أستاذة مساعدة مغرب وسيط إسلامي
كلية الآداب واللغات والعلوم الإنسانية
جامعة اسطنبولي – معسكر
الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

تواتية بودالية ، دور السلطة الأموية في دعم وتشجيع النشاط الصناعي في بلاد الأندلس خلال القرنين (٣ – ٤ هـ / ٩ – ١٠م).-دورية كان التاريخية.- العدد الثالث عشر ؛ سبتمبر ٢٠١١. ص ٧٨ – ٨٤.
(www.historicalkan.co.nr)

مقدمة

لقد تنوع النشاط الاقتصادي في بلاد الأندلس بين زراعة وصّناعة وتعدين ، وتبرز قيمة الصّناعة في كونها ترفع من مستوى معيشة الشعوب بمّا تدّره من مال وما توفره من رفاهيّة للإنسّان بمقتنياتها المختلفة. وعلى الرغم من أهمية الصّناعات ، إلا أنّ كتب التاريخ العام الأندلسية معظمها لم يوّل الاهتمام بمجال الصّناعة والصّناع ، وجاء حديثها عرضيًا ضمن السياق العام ، في حين أنّ كتب الحسبة الأندلسية وردت فيها مادة فقهيّة تخص صّناعة هذه البلاد ليس من الزّاوية التّنظيريةّ بل تعداها إلى تصوير واقعها ضمن فضائها ، ممّا يفتح لنا أبوابًا من المعرفة التاريخيّة الّتي تعيد للصّناعة دورها الحيّوي في خدمة الإنسّان والرقي بالمجتمع الأندلسي.

لذلك بلغت الصّناعة الأندلسية خلال القرنين (٣-٤هـ/٩-١٠م) تقدمًا لم تشهده البلاد قبل الفتح الإسلامي. وحظيّت بعض الصّناعات بشهرة في الشرق الإسلامي والغرب المسيحي ، فبرع أهلها في استغلال المنتجات الزراعيّة والحيوانيّة والمعدنيّة لوفرتها ، وعلى أساسها قامت الدولة بتشجيع ودّعم النّشاط الصّناعي مما ترتب عنه تقدم في مختلف الصّناعات خاصة صناعة الأسلحة وصّناعة السفن ، الّتي أقيمت لها العديد من دور الصّناعة في مختلف مدن الأندلس ، بالإضافة إلى تقدم الصّناعة النسيجيّة والخزفيّة والعاجيّة والجلديّة وغيرها من الصّناعات الّتي لها دور في الحياة الاقتصادية والاجتماعيّة والثقافيّة.

إنّ الحديث في هذا المجال سيكون مقتصرًا على جوانب نظامية تخص مجال الصّناعة والصّناع والترتيبات التي شهدتها هذه الحقبة التاريخية من العصر الذهبي ، وذلك بالتعرض للسياسة الّتي تحكمت فيها السلطة الأموية لدّعم وتشجيع النشاط الصّناعي.

(١) الرخاء وسياسة الترف

بدأ التبدل الاجتماعي والسياسي في بلاد الأندلس منذ الفتح الإسلامي يسير نحو طريق اكتساب الحضارة الجديدة بيد السّلطة الأموية التي حفظت الأمن والاستقرار في الدولة ، ومن مظاهر الاستقرار تراجع الثورات التي سبق ظهورها في عصر الولاة. وأخذت الموجة الحضارية تمتد إلى نواحي الأندلس ، وأخذ الانتعاش الاقتصادي في الظهور بهذه البلاد ؛ حيث شغل السكان كلّ أنواع الأنشطة الصّناعية المعروفة آنذاك من الأكثر أهمية إلى أدناها ، لكن مشاركتهم تتميز بالتباين بين الفترات الزمنية والاندماج المتوافق مع التطور التاريخي الأندلسي خاصة في عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم(٢٠٦-٢٣٢هـ/٨٢١ - ٨٤٦م) ، الذي تعتبر مرحلته الانطلاقة الحقيقيّة لهذا الاندماج بسبب تراجع العصبية العربية وتكيف الأجناس مع الحياة الأندلسية. وهذا ما جعل القادر على الكسب يتجه إلى حرفة تكفيه وتعينه على الحياة باستغلال الحاصلات النباتية والمعدنية في المصنوعات.

ونتيجة لهذا التطور بدأت بلاد الأندلس تتبوأ المكانة الرفيعة بفضل حكامها المرموقين بانجازاتهم السياسية والحضارية والإنسانية ، وتمتع سكانها على مرحلة طويلة من الهدوء النسبي الّذي سمح بإنشاء المدن وتكامل المرافق ورخص المعيشة ، وللرخاء الذي حل بالبلاد منذ عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم تأثير بالغ في تنويع تلك الحاجات واستجادتها والتألق في صناعتها ، إذ على مقدار العمران تكون جودة البضائع في هذا البلد كما قال ابن خلدون[١] ، وكلما ازداد

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

العمران تعددت أنواع البضائع التي يتطلبها النّاس ، وتزايدت صناعات أخرى مما تدعو إليه عوائد الترف وأحواله. وانتّعشت حركة الإنشاء والتعمير بظهور دور الصناعة ، واتسّاع الأسّواق ، والدور وغيرها من المشاريع التي تعم بالفائدة على المجتمع وتزيد من الرخاء.

ففي النصف الثاني من القرن (٤هـ/١٠م) لاحظ ابن حوقل[٢] أنّ البضائع في الأندلس بيعت بأسعار رخيصة في عهد الأمويين المزدهر اقتصاديًا. فقال:" أمّا أسعارهم فتضاهي النواحي الموصوفة بالرخص وكثرة الخير والسعة". وبعد إدخال العملة الذهبية في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر(٣٠٠-٣٣١هـ/٩١٢-٩٤٣م) عرفت الأسعار انخفاضا بوجه عام ، واشتهرت المدن الأندلسية بكثرة الزروع ووفرة الإنتاج ، فمدينة مرسية " أسواقها عامرة وراخية أكثر الدهر ، رخيصة الفواكه"[٣] ، ومدينة جيان" أكثرها خصبًا ورخصًا للّحوم والحبوب"[٤] ، واشتهرت مدينة سرقسطة بكثرة البساتين والفواكه ، ورخص الأسعار[٥].

وأخذت التأثيرات الحضارية المتنوعة تشع في عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم " الذي اخترع بداخل القصر مباني جليلة ومصانع عجيبة إليه منسوبة"[٦]. وجعل أحكام السوق منصبًا مستقلاً عن ولاية المدينة ، وكان أول من أقام بالأندلس دورا للطراز في قصر الإمارة ، خاصة بكسوة الأمير ، كما كانت هناك زيارات يقوم بها أمراء وخلفاء بني أمية لدار الطراز ومناقشة القائمين عليها ببعض المسائل وتوصيتهم وفق ما يرونه مناسبا[٧]. ومن مظاهر التقدم الحضاري نضيف همّة الخليفة عبد الرحمن الناصر الّذي صرف اهتمامه في بناء طليطلة " فجمع الأقوات إليها وإقامة الأسواق بها ، وجمع الماهنين ، والفعلة والصّناع والمعالجين إليها وشحنها بالأقوات والعدد"[٨]. وقد اختط مدينة الزّهراء واتّخذها منزلا وكرسيا لملكه ، فأنشأ فيها من المباني والقصور والبساتين وجلب لها المياه ، واتّخذ فيها دارًا لصناعة آلات السلاح للحرب والحلي وغير ذلك من المهن[٩].

كما انصب اهتمام الحكام على تعليم أولاد الضعفاء والمساكين ، بدليل أنّ الحكم بن هشام أمر بتحبيس حوانيت السرّاجين بسّوق قرطبة على المعلمين الذين كان قد اتخذهم لتعليم أولاد الضعفاء والمساكين بقرطبة[١٠]. وكان للخليفة الحكم المستنصر(٣٥٠-٣٦٦هـ/٩٦١-٩٧٦م) أكبر الفضل في بدء الحركة العلمية ، ممّا ساعد على انتشار صناعة الورق بشكل كبير في بلاد الأندلس ، وإنشّاء دار للكتب في كلّ حيّ وتزويدها بمئات من الكتب الّتي جعلوها في متناول الجميع[١١].

ورصد التفصيلات يقود إلى نتيجة هي أنّ الصناعة الأندلسية خضعت إلى توجهات اقتصادية تابعة للسّلطة الأموية آنذاك ، والّتي برهنت على تفوقها الصّناعي ، ونالت الحظ الأوفر من اهتماماتها لتقوية البنيّة القائمة ، وتضافر ذلك مع اتساع الأسواق ودور الصناعة وإنتاج السلع الإستعمالية والتجارية وبنّاء السفن ، مع تطور ملموس في تقنيات التصنيع في مجال استغلال الخامات. ومن هنّا يظهر أن الرخاء الاقتصادي كان مرهونًا بدّعم السّلطة الزمنية لتحقيق أغراض الحاكم أولا والسّوق الاستهلاكيّة ثانيا.

(٢) ضرب السكة

من أبرز سمات الاقتصاد الإسلامي في بلاد الأندلس حماية العمل والإنتاج والدخل بطريقة محكمة تخضع لتنظيم أمور الحياة المالية ، وبذلك بدأت الحاجة المستمرة للسيولة النقديّة لمقابلة المزيد من النفقات في عمليات البيع والشراء ، لأنّ كلّ النقود المتداولة بين النّاس قديمة تقتصر على النقود الرومانية والقوطية[١٢]. ومن ثمة جعل السكة كان أمرًا إجباريًا مما يخدم مصلحة السلطة الأموية ، وكان الأمير عبد الرحمن بن الحكم أول من اتخذ بقرطبة السكة ، وقام فيها بضرب الدراهم المنقوشة باسمه على نحو ما كانت تضرب في دمشق أيام بني أمية وزنا ونقشا ، فلم يكن بهذه المدينة دار ضرب منذ فتحها المسلمون[١٣] ، وتوسع عدد دور الضرب بهذه البلاد إلى أن بلغ أربعة عشر[١٤].

وقد نوه ابن حوقل بالسكة في عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم في قوله:" إنّ سكة دار ضربه على الدنانير والدراهم بقرطبة ضمانها في كل سنة مائتا ألف دينار ، ويكون صرف سبعة عشر بدينار ثلاثة آلف وأربع مائة ألف درهم ، هذا إلى صدقات البلد وجبايته وخراجاته وأعشاره وضماناته إليهم والصادرة عنهم والرسوم على بيوع الأسواق"[١٥]. وبلغت في عهد هذا الأمير ألف ألف دينار درهم في السنة ، وكان مقتناه لا يزيد على ستمائة ألف دينار كلّ سنة[١٦]. في حين بلغت في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر بلغت خمسة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ، ومن السوق المستخلصة سبعمائة ألف وخمسة وستون ألف دينار[١٧]. وكان لهذا الثراء المالي الكبير أثر في الإنفاق على مصالح الأندلسيين العامة والخاصة.

وبغية المحافظة على النّقد كأساس المعاملات التجارية ، خضع للإشراف المباشر للسّلطة بسبب مشكلة تعرضت لها الأسواق آنذاك تتمثل في تزييف العملة واحتكار الثوار الناقمين على الدولة للمناجم ، وإجهاض الطاقة المعدنية ، كما فعل ديسم بن إسحاق[١٨]"عندما ملك لورقة ، وغلظت شوكته ، وكثر أتباعه وأعلن العصيان وحارب جيوش الإمارة ، وعثر على معادن الفضة بتدمير ، فضرب الدراهم على اسمه"[١٩]. ومنه فإنّ دور السلطة القائمة في هذا المضمار قوي جدا في التصدي لعمليات الاحتكار.

وباعتبار السكة من التنظيمات الإدارية التابعة للسلطة الأموية وشارة من شارات الملك فقد نقل الخليفة عبد الرحمن الناصر دار الضرب إلى مدينة الزهراء الجديدة عند سكناه بها ، وعطل السكة بقرطبة وأغلق أبوابها[٢٠]. وركزت السلطة على ضرورة التنظيم المالي فاتسعت المصاريف وشمل التنظيم تحسين الإنتاج ، والرقابة في الأداء في حدود الإمكانيات المتاحة والتي تتفق وحاجات الحكام من مشاريع عمرانية ودفاعية.

(٣) توفير المواد الأولية

من المتعارف عليه في الدراسات الأندلسية أنّ المصادر الجغرافية لها الأثر الطيب في وصف المدن وما تجود به من منتجات زراعية وحيوانية ومعدنية ، ولا يتسع لنا المجال في هذا المقام التفصيل في تنوع وتوزيع هذه الثروات لوفرتها. وعليه سنقتصر على مدى مشاركة السلطة في توفير هذه المواد وتنويعها. فقد كان أمراء وخلفاء بني أمية بالأندلس أكثر المساهمين في الرخاء الاقتصادي بفضل رعايتهم بالبناء والعمران وبناء الحدائق واستجلاب النباتات الزراعية من المشرق إلى الأندلس مما زاد من تنوع الثروة الزراعية واتساع الصناعة التحويلية. ومن المنتوجات التي دخلت الأندلس واشتهرت بزراعتها إنتاج التمور[٢١] ، وقصب السكر[٢٢] ومن أصناف الفواكه الأخرى ، الزعرور[٢٣] والكمثرى والسفرجل والخوخ والأترج والجوز والمقل

والبطيخ[٢٤]، وببلنسية حب الملوك الذي لا يوجد مثله في غيره من البلاد[٢٥]. ومن الخضروات البدنجان واليقطين والسلجم والجزر والكرنب[٢٦].

وفي السياق نفسه، ورد عن ابن حيان مدى اهتمام أمراء بني أمية بتنمية الثروة الحيوانية والحرص على استجلاب مختلف السلالات بأنواعها وألوانها؛ إذ روى أنه في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن(٢٣٨-٢٧٣هـ/٨٥٢-٨٨٦م) دخل الأندلس من المتاع الفاخر والرياش النادر والحيوان المستغرب والمستظرف ما لم يدخل في أيام من قبله من الخلفاء، وكان من أغارب ما دخلها من ذلك كله الزرافة. وقد كان الأمير نفسه معجبا بالجواميس من دواب أهل المشرق مستدعيا لها من التجار مستكثرا منها[٢٧].

وعليه، فإن تعدد المواد الخام في بلاد الأندلس كرس وجود صناعات متنوعة خاصة ذات النمط الاستهلاكي، التي اتخذت من المنتوج الزراعي والحيواني لحاجة السكان اليومية. بالإضافة إلى الصناعات الكمالية التي تفي بمطالب السلطة الحاكمة، كما أنّ تواجد المعادن في مختلف المناطق يبرز مدى نشاط الإنتاج الصناعي في استغلال هذه المواد اقتصاديًا وعسكريًا حيث كانت الاستفادة أكثر في منشآت عمرانية، إما في مجال الفخامة والأبهة، وإمّا من أجل الحماية العسكرية كصناعة الأسلحة والسفن. كما لا نستبعد احتكار السلطة لعدد من المناجم والمواد الخام وذلك تلبية لمتطلباتها كما أشرنا أنفا.

(٤) فضاء التصنيـــــع

أ- دور الصنـــاعـــة

كانت دور الصناعة بالأندلس من أهم المراكز الاقتصادية والعسكرية في الدولة الأندلسية، باعتبارها ملكًا للخاصة من الأمراء والخلفاء، ومرد ذلك دّعم الحياة اليومية من متطلبات القصر وسكانها من العامة من عدد وآلات. وتعد دور الصناعة القديمة المنتشرة على سواحل الأندلس الركيزة الأولى لبسط نفوذهم ومواجهة الخطر الخارجي. ويبدو أن افتقار القواعد البحرية إلى الإمكانيات لصناعة السفن استوجب على الحكام تقوية البحرية الإسلامية والاهتمام ببناء دور صناعة السفن. ويرجع الفضل إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم الذي أمر بإقامة واحدة في إشبيلية لإنشاء المراكب[٢٨]، التي أضحت قاعدة هامة للأسطول الأندلسي في المياه الغربية، وأخرى بقرطبة[٢٩]، وبقرمونة وجزيرة شلطيش[٣٠]. وقد امتلأت رسائل الجنيزا بمراجع عن:"مركب السلطان، مركب القائد، مركب الأمير"[٣١]. مما يدل على اهتمام الحكام بإنشاء السفن سواء الحربية أو التجارية.

وتبعًا للاعتبارات السابقة نستطيع القول بأنّ العنايّة التي حظيّت بها صناعة السفن تواصلت في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر الذي أنشأ عددًا كبيرًا من دور الصّناعة في المدن الأندلسية، فمدينة المرية اختصت بصّناعة الآلات والعدد[٣٢]، وطرطوشة لإنشاء المراكب الكبار[٣٣]، لقنت لصناعة المراكب السفرية والحرارق[٣٤]، قرمونة والزهراء لإنتاج الأسلحة والحلي[٣٥]، وشقة مختصة في العدد الحربية من دروع وآلات النحاس والحديد[٣٦].

ونظرًا لتعدد الحاجات كان من البديهي أن تعجز هذه الدور من صناعة ما يحتاجه الحاكم في منشآته، فتحولت دار صناعة قرطبة إلى إنتاج التحف المعدنية وغيرها، فلما جلب عبد الرحمن الناصر الحوضين من القسطنطينية " جعل عليه اثني عشر تمثال من ذهب مرصعة بالجواهر النفيسة تمج الماء من أفواهها فيه، وذلك مما صنع بدار الصناعة من قرطبة"[٣٧]. ولما عجزت هذه الدار عن سد حاجيات أعمال الإنشاء في مدينة الزهراء، أنشأت دار صناعة الزهراء التي أنتجت عددًا كبيرًا من التحف العاجية. وأقدم مثال يسجل بداية تصنيع الزهراء للعلب والصناديق العاجية علبة سمورة[٣٨]، التي تحمل نقوشا كتابية تشير إلى أنّها صنعت بمدينة الزهراء سنة (٣٥٣هـ/٩٦٤م)[٣٩]. واستمرت هذه الدار في أداء وظيفتها وإنتاج هذا النّوع من التحف العاجية، وكان آخر صندوق لها مؤرخ في سنة (٣٩٥هـ/١٠٠٥م)[٤٠]. يبدو أنّ داري قرطبة والزهراء كانتا تنتجان أنواعا مختلفة من التحف.

وعليه، فقد كشفت الدراسات الأثرية عن نماذج كثيرة من التحف الأندلسية التي تعود إلى القرن (٤هـ/١٠م)، وفي معظمها ذخائر لمدينتي قرطبة والزهراء، ومرجع ذلك أنّ قرطبة برزت أهميتها باعتبارها منطقة صناعية كبرى استقطبت غالبية الأيدي العاملة، وتألقت في المجال الحضاري عصر الخلافة الأموية. وغدت منتجاتها مفخرة يتباهى بها الحكام خاصة المنسوجات الأندلسية التي أنشأ لها دار البرد على عهد الأمير عبد الرحمن بن معاوية(١٣٨-١٧٢هـ/٧٥٦-٧٨٨م)[٤١]، ثم أضيفت إليها دار الطراز في عصر الأمير عبد الرحمن بن الحكم فاتسعت بذلك مرافقها. ونستدل برواية ابن الخطيب على أنّ دار الطراز والبرد اتسعت بشكل كبير وشملت العديد من المرافق وأصبحت تشبه المدينة فقال:" ومن آثاره التي ضربت بها الأمثال وقضيت فيها العجائب حال الطراز ببابه لنسج ما يحتاج إليه من الخلع والكساء وملابس الحرم وغير ذلك ، فقد كان على عهده مدينة تشمل على آلاف من الخلق قد اتخذت فيها المرافق، والمساجد والحمام والشرف، ولو تتبعنا أصنافهم ، وما كانوا يحاولونه من صناعاتهم وينافسون به المشرق من بضائعهم ومقدار جراياتهم ونفقاتهم لضاق عنه الكتاب"[٤٢]. في هذا النص إشارة إلى مدى أهمية دار الطراز التابعة للسلطة ومدى حجم العدة والعدد لصالح هذه الصناعة.

وتشير المعطيات التاريخية مدى اتساع هذه الدار حتى ضاقت بها السوق الكبرى المجاورة للقصر الخلافي أيام الخليفة الحكم المستنصر الّذي أمر بنقلها سنة (٣٦١هـ/٩٧٢م) من موضعها إلى دار الزوامل بالمصارة بالطرف الغربي من قرطبة، وأقام في الموقع الذي كانت تشغله دار الطراز أو دار البرد من حوانيت البزازين ليتسع بهم سوقهم[٤٣]. والملاحظ، أن دار الطراز والبرد هي الدار الخاصة بالخليفة الأموي، وإنتاجها قاصرا على الخليفة، وحدد لها خطة بهذا الاسم، وأسند الخلفاء ولايتها إلى عدد من الفتيان الصقالبة كخلف الفتى الكبير[٤٤]، ووفائق النظامي الفتى الكبير الصقلبي[٤٥].

فلا يخامرنا الشك، أن يرفق تشجيع السلطة الزمنية النشاط الصناعي احتكار عدة مرافق صناعية كدور الطراز حسب عادة بعض الحكام الأندلسيين، وتحكمت في مصير بعض الصناعات الهامة كالصناعة النسيجيّة والعاجيّة باعتبارها من توابع القصر الأندلسي، قصد المفاخرة ومنافسة المنتجات المشرقية والمحلية. وأثرت هذه السياسة بشكل عميق في الإنتاج الصّناعي خلال هذه الحقبة التاريخية. وعمومًا فقد انتشرت دور الصناعة في مختلف المدن الأندلسية كل منها اختص بصناعة معينة وشاعت بذلك ظاهرة التخصص الصناعي في بلاد الأندلس. ولحاجة السكان المتكررة والضرورية للحياة تطلب وجود الأسواق لممارسة الصنائع والحرف المختلفة كمجال ثاني للتصنيع والإنتاج.

دورية إلكترونية، محكمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

ب- السـوق

كان المشروع الحضاري في ظل السلطة الأموية يتنامى على مراحل مختلفة من حكم أمرائها وخلفائها، وغاياتهم واحدة تهدف إلى كثرة الإنتاج وجودته، ولتحقيق ذلك كان لابد من اختيار أفضل طريقة للاستثمار واتخاذ السوق مجالا للإنتاج والبيع، لذلك ركزت السلطة الأندلسية الأموية على الاهتمام بها باعتبارها مورد مالي يمتاز بالثبات والدوام في حدود الإمكانيات المتاحة. وحتى تستطيع تأمين هذا المورد كانت الرقابة حازمة بتنظيم الأسواق حسب الاختلاف المهني فيما بينها في مختلف المدن الأندلسية.

وبطبيعة الحال، تحولت الأسواق إلى أكبر فضاء للاستثمار والإنتاج وتعرضت إلى هيكلة تنظيمية على مستوى الأمكنة وتهيئة أرضية وجغرافية بحكم موقعها من المؤسسات السياسية(القصر)، والدينية (المسجد). وتم تصنيفها وفق معايير تعتمد في الأساس على نوعية السلع المعروضة للبيع أو الحرف، فقد كانت كلّ سوق من الأسواق تضم عدة متاجر في سلعة واحدة، ومن جملة الحوانيت حوانيت الريحاني[٤٦]، الحرازين، الجيارين، الصوافين[٤٧]، السراجين[٤٨]. كما كان كلّ نوع من أنواع الحرف والصناعات يحتل سوقا باسمه، كسوق العطارين[٤٩] بإزاء باب العطارين[٥٠]، وسوق الزجاجين[٥١] والوراقين والحدادين[٥٢]، إضافة إلى سوق الحصارين والجيارين[٥٣]، وسوق النحاسين والخشابين[٥٤] والفخارين[٥٥]. وتحدث غيرهم عن ربض الريحاني والرقاقين بقرطبة[٥٦]، ومن مظاهر التخصص المكاني وجود الحومات كحومة الرقاقين قرب باب إشبيلية، وحومة النجارين[٥٧].

وتبعًا لهذا التنوع فقد امتد النشاط التجاري إلى الفضاءات المخصصة بفعل عمليات التوسع إلى الحارات والأحياء التي تخللتها مشاريع تنموية تخفف الضغط عن السوق الكبير، وتجتاح الأماكن البعيدة عنه بإنشاء أسواق محلية صغيرة عرفت بالقيساريات فقد روي أنّ الخليفة عبد الرحمن الناصر بنى مدينة المرية (٣٤٤هـ/٩٥٥م)[٥٨]، ووضع فيها دارا للصناعة تتكون من قسمين، قسم فيه المراكب الحربية والآلات والعدة، والقسم الآخر فيه القيسارية وتضم عددا من الحوانيت المختلفة حسب الاختلاف المهني فيما بينها[٥٩]. وبلغ عدد الحوانيت أيام الحاجب المنصور بن أبي عامر" حوالي ثلاثون ألف حانوت وأربعمائة واثنان وخمسون حانوت"[٦٠]، وقيل ثمانون ألف وأربعمائة وخمسة وخمسون[٦١]. ويبدو أن السلطة تكفلت في تحقيق هذا التنظيم، فمن واجبات المحتسب" أن يرتب الصناع ويجعل كل شكل مع شاكله في مواضيع معلومة فهو أجل وأتقن"[٦٢].

ومن هذا المنطلق فإنّ مهمة المحتسب في تصنيف الأسواق في المدينة كان الدافع منه رد الضرر الذي يحدث لتجاور سلع حرف متضادة تفسد العرض والسلعة، وتسبب الأذى للمارة، وإبعادها عن المسجد لما قد تسببه من تلويث المكان ونجاسته. ونستطيع أن نتبين هذا الأمر من خلال توجيهات الفقهاء فيما يتعلق بنظافة المسجد[٦٣]، فقد روى الفقيه ابن لبابة (٣١٤هـ/٩٢٦م) عما يقوم به الناس من جلب الحطب والبقول وما إليها ووضعها في حوانيت ملاصقة للمسجد، فيصيبه الوسخ[٦٤]. ونظرًا لملاصقة هذه المرافق المؤسسات الدينية لتكون قريبة من جموع الوافدين من المصلين (السكان)، انتشرت عدة أشكال من الأسواق في المدن الأندلسية لأجل توسيع دائرة الإنتاج وتقوية الأنشطة الاقتصادية وبخاصة في مجال التصنيع.

حظيت السوق في قرطبة بأهمية إستراتيجية واقتصادية، ظهرت بها المشروعات التي لا تتفق مع اتساعها ولم تتمكن من استيعابها، فتدخلت الدولة أكثر من مرة لتوسيع السوق والطرق المفضية إليها. مما دفع الخليفة الحكم المستنصر باستئصال بعض العيوب وإصلاح الأسواق داخل مدينة قرطبة حفاظا على أمنها ونظافتها، ونسوق في هذا الصدد أنه "أمر صاحب السوق بإخلاء دار البرد، وتوسيعها ونقل البزازين إليها لينفسح بهم سوقهم وتستوسع صناعتهم إذ شكوا بضيقها"[٦٥]. كما أمر الخليفة نفسه "بتوسيع سوق قرطبة لضيقها عن مخترق الناس وازدحامهم فيها، كي ينفسح الطريق ولا يضيق بالواردين والصادرين"[٦٦]. وعندما اجتاز بموكبه الربض الشرقي وجد أنه لا يؤمن للازدحام " فعهد ساعة نزوله بابتياع الحوانيت من أربابها بما يوافقهم من أثمانها وهدمها لتتسع للناس وتؤمن مضرتها"[٦٧]. يكشف هذا النّص عن أهمية السّوق المحلية المنتشرة بالأرباض، واهتمام الخلافة الأموية بتوسيع دائرة الإنتاج والتسويق.

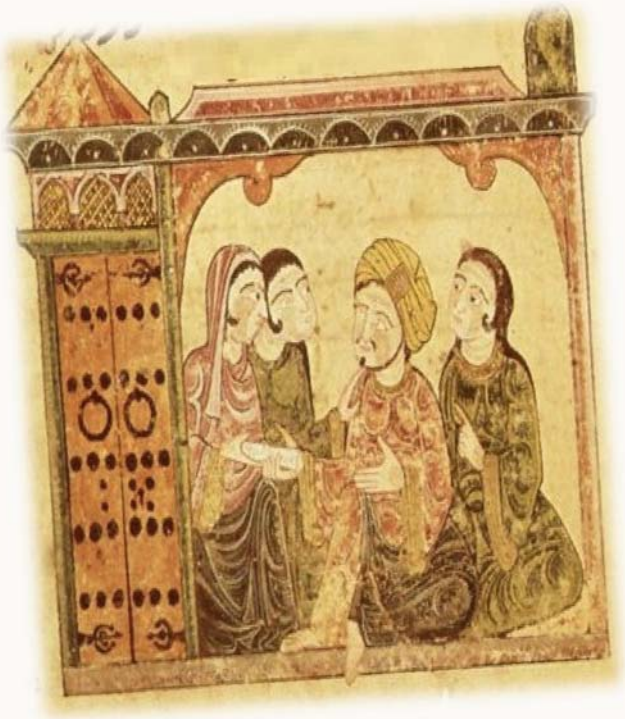

وعلى ضوء ما سبق ؛ فإنّ لهذا التصنيف فائدة من حيث التطبيق والمعالجة الشاملة في مراقبة الأسواق وسير الحياة التجارية وأنواع السلع، ومدى التزام كل هذه الجهات بالمقاييس والمعايير المفروضة في المعاملات المشروعة، كما ساعد المحتسب على الوصول إلى سوق معينة دون مسح كامل لها بحثا عن حانوت أو سلعة معينة. ومن جهة أخرى ساهمت هذه الاختصاصات في عمليات البيع والشراء، وخففت العبء على المشتري في أن يصل إلى حاجته دون عناء.

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

(٥) الحسبـــــة

همت السلطة الأموية بكل إمكانياتها إلى تنشيط الاستثمار المحلي لمنافسة المنتجات المشرقية والغربية. كما حرصت على تحسين نوعية وجودة المنتجات الصناعية سواء من المواد الخام التي تصنع منها أو طريقة صنعها، بإحداث نظام محكم ودقيق ينظم أمورها ويسير شؤونها في ظل المراقبة الدائمة للصناع والتجار والأسواق. ويطلق على هذه الخطة "ولاية السوق" التي تجمع بين نظر شرعي وزجر سلطاني[٦٨]، وأشار ابن حيان إلى هذه التسمية في زمنه، حين تحدث عن عبد الله بن حسين بن عاصم والمهام التي تصرف فيها فقال: "والحسبة المعروفة عندنا بولاية السوق"[٦٩]. ويضيف الونشريسي عند تعريفه لها بقوله: "وصاحب السوق كان يعرف بصاحب الحسبة لأن أكثر نظره إنما كان فيما يجري في الأسواق من غش وخديعة ودين وتفقد مكيال وميزان وشبهة"[٧٠]. بينما شرح ابن عبدون ضرورة إقامتها للحاجة الملحة "لأن النّاس معوجون مغالبون أشرار"[٧١]. يظهر من هذه الإشارات أن لهذا النّظام دور مهم في المحافظة على متانة وجودة تلك المصنوعات ومدى تطبيق الشروط الشّرعيّة بتدخل الدولة لإقرار الأمر بالمعروف والنّهي عن المنّكر ضمن حدود الرقابة التي يتولاها محتسب المدينة.

والجدير بالذكر؛ أنّ ولاية السوق في الأندلس خضعت لتنظيم محكم مبيني على أسس وقواعد الخطاب الشّرعيّ وأحكام الفقه التي تكون من اختصاص الولاة أو القضاة في البحث عن الحل الشّرعيّ المتعلق بأحكام السوق، وقد وصف المقري هذه الخطة بقوله:" وأما خطة الاحتساب فإنها عندهم موضوعة في أهل العلم والفطن، وكأن صاحبها قاض، والعادة فيه أن يمشي بنفسه راكبا على الأسواق، وأعوانه معه، وميزانه الذي يزن به الخبز في يد أحد الأعوان"[٧٢]، وفي موضع أخر أضاف:" ولهم في أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما تتدارس أحكام الفقه"[٧٣]. فالاحتساب إذن هو ممارسة الرّقابة الإداريّة بتكليف من الدولة.

وتطبيقًا لهذه المبادئ فإنّ صاحب السوق بالأندلس يستعمل مختلف الوسائل لضبط مخالفات الصناع ومحاربة الغشّ بالتّصدي لهم، وفرض العقوبات كما حددها الفقهاء والمحتسبون حرصا منهم على السير الحسن للمعاملات التجارية، وحركيّة النّشاط في الأسواق وتفادي الأضرار بالدرجة الأولى، ونثمن ذلك بقول للسقطي:" ينبغي للمحتسب أن يتفقد أمورهم وصنائعهم ويمنعهم من مطال النّاس في حوائجهم لما في ذلك من تعطيلهم للنّاس عن أشغالهم وإضرارهم بهم"[٧٤]. وعليه يمكن تحديد هذه الأضرار من خلال كتب الحسبة في ثلاث مظاهر، الدخان الضّار، والرائحة الكريهة والصوت المزعج. ومن ثمة وجب إبعاد بعض الحرف والصناعات عن الوحدات السكنية والحرص على جمع الحرف المتشابهة في موضع معين.

إنّ الحديث عن نظافة المكان يجرنا إلى دراسة مختلف المخالفات التي توصي بها كتب الحسبة التي تضمنت شروط كلّ صناعة ومهنة، وواجبات القائمين بها والتزامهم جودة الصناعة وإتقانها، ومن تلك الإشارات على سبيل المثال لا الحصر منع حول الجامع من وجود بائع زيت[٧٥] والحجل والطير المذبوح[٧٦]. وللقضاء على الرائحة الكريهة تم إبعاد بائعي الحوت إلى مكان سوقهم بمعزل عن الطريق لما تعوده من رائحة[٧٧]. ومنع الخبّازون من مجاورة أهل الحرف القذرة كباعة السردين وأصناف الحوت والبياطرة والحجامين[٧٨]. ومن أجل تنظيم حركة المرور في شوارع المدينة والأسواق منع تجاور السلع المتضادة تفاديا لفساد السلعة وتسبب الأذى للمارة. وفي هذا الصدد منع الصباغون من نشر الثيّاب المصبوغة في الطريق لما فيه من تلوث للمارين[٧٩]. كما نهي عن اتخاذ أفران عليها لحماية المارة من الدخان[٨٠]، وطلب من الفخارين إزالة حوائجهم عنها[٨١] ومنع الخضارون والحصارون من طرح أزبالهم بها[٨٢]، لأنّها تعطل حركة السير في شوارع المدينة والأسواق.

ومما لا شك فيه؛ فإنّ السلطة الأموية تشددت في مراقبة الأسواق للحيلولة من تشويه الفضاء الطبيعي للمدينة وهو ما تعكسه ظاهرة التنظيم البيئي للمحافظة على البيئة الحضرية الّتي رسمتها السلطة الأموية من خلال مشاريعها العمرانية والتنموية.

(٦) تنظيم شبكة المياه

إنّ قضية جلب المياه إلى المدينة دفعت بالسلطة الأموية إلى استنباط تقنيات جديدة في استغلال المعادن في صناعة الأنابيب المعدنيّة عن طريق شبكة من القنوات أو المجاري الظاهرة فوق الأرض أو الجوفية. وكان يشرف على سلامتها وتوزيعها حفظة قوامون[٨٣]. وكانت القنوات من حجر في جوفها أنابيب الرصّاص لتحفظه من الدنس. ومن عناية الأمراء والخلفاء بماء الشرب وتوفيره لأهل المدن، ذكر المقري أن خلفاء بني أمية أجروا إلى قصر قرطبة المياه في قنوات الرصاص بقوله: " ثم ابتدع الخلفاء من بني مروان في قصرها البدائع الحسان، وأثروا فيه الآثار العجيبة، والرياض المونقة، وأجروا فيه المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة المكرّم، وأجروا في كل ساحة من ساحاته وناحية من نواحيه في قنوات الرّصاص تؤديها منها إلى المصانع صور مختلفة الأشكال من الذهب الإبريز والفضّة الخالصة والنحاس المموّه إلى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة في أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة"[٨٤].

وبنى الأمير محمد بن عبد الرحمن مدينة مجريط فوق مستودعات من المياه الجوفية، متقنة البناء ومحكمة الهندسة. وبالمثل، عرفت مدينة الزهراء امتداد أنابيب المياه إلى قرطبة، وكانت ترد من الجبل عن طريق قناة تظهر مرة وتختفي تحت الأرض حينا أخر[٨٥]. ومن جانب طهارة الماء وصيانة الطاقة المائية استخدم الرخام في صنع الأحواض لحفظ مياه الشرب في القصور والمساجد ولتزيين ساحات القصر[٨٦].

وتبعًا للتّطور الحضاري استخدمت المياه بكميات كبيرة في أغراض متنوّعة. فقد كانت تستخدم من أجل الشّرب والاستخدامات المنزليّة والرّي والصّرف والصّناعة والمساجد والحمامات ومن أجل الأعمال الجماليّة في البساتين والحدائق والنّوافير في القصور والدور. وبهذا فإنّ استغلال المعادن في موضعها ساعد على توسيع شبكة القنوات المائية بالمدن الأندلسية، التي تطورت بفضل عناية حكام بني أمية لها، لتسهيل نقلها إلى السكان من دون عناء مما شكل نوعًا جديدًا من الممارسة الصناعية، وتخفيف العبء على النشاط الصناعي وتغطية احتياجاته من الماء.

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

خاتمة

وأخيرًا ؛ فقد ساهم الأندلسيون في الإشراف المباشر على النشاط الاقتصادي ، وتنظيم الحرف المختلفة تنظيمًا يتكيف مع اهتمامات السلطة بالدرجة الأولى ، وتحديد ضروريات الرعية حتى يتسنى لأصحاب الأعمال اليدوية الممارسة الدائمة تحت حمايتها. وكان من واجباتها أيضا توسيع الفضاء الصناعي الذي نتجت عنه ظاهرة التخصص الحرفي ، ومحاولة تنظيم السوق للمحافظة على ترقية الصّناعات ومراقبتها بتعيين منصب "صاحب السوق" ، وتوسيعها حين تضيق بالمهن وحرصت على نظافة فضائها. وخصصت السلطة اهتماماتها في الأداء الإنتاجي بتشييد دور الصناعة في مختلف المدن الكبرى لتحقيق مشاريعهم العمرانية والحضارية أولاً ولتلبية أغراض السوق ثانيًا. كما انصب اهتمامهم في توسيع مراكز السيولة النقديّة ، وتنظيم أمور الرّي والسّقاية.

وبناء على ما سبق ؛ فإنّ الصّناعة الأندلسية شّكلت الحجر الأساسي في التقدم الحضاري الذي شغل السّلطة الأموية لتركيز دعائمها ، وحظيت الجهود المخصصة لهذا القطاع بالنصيب الأوفر من مشاريع اقتصادية منتجة تعود بالفائدة على الدولة والمجتمع ، وبذلك كانت تلك النهضة نتيجة لتظافر جهود القائمين على الأمر ، فقد غطت مدن الأندلس تحت إشراف السلطة كلّ مستلزمات المجتمع ، وغدت بذلك قرطبة والزهراء أهم منجزات العصر الذهبي ومصدر إبداع هندسي معماري وحشد صناعي يكشف عن مدى قدرة الأندلسيين على التصنيع وازدياد مستوى الإنتاجية وتغيير في التركيب السلعي مما انعكس على اقتصاد البلاد ثراء ورخاء.

الهـــــوامش:

(١) ابـن خلـدون ، عبـد الـرحمن بـن محمـد ، المقدمـة ، دار الفكـر ، بيـروت ، ط ١(٢٠٠٣)، ص ٣٥٠.

(٢) ابن حوقل ، أبو القاسم محمد بن علي النصيبي ، صورة الأرض ، دار مكتبة الحياة ، بيروت (د.ت). ص ١٠٩.

(٣) الحميري ، صفة جزيرة الأندلس من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة (١٩٣٧). ص١٨٣

(٤) ابـن سـعيد ، علي بـن مـوسى ، المغـرب في حلى المغـرب ، تحقيـق خليـل المنصور (منشورات محمد علي بيضون) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ (١٩٩٧)، ج٢ ، ص٤٢.

(٥) الحميري ، المصدر السابق ، ص٩٧.

(٦) ابن حيان ، السفر الثاني من كتاب المقتبس في أخبار بلد الأندلس ، تحقيق محمـود علـي المكـي ، السـفر٢ ، مركـز الملـك فيصـل للبحـوث والدراسـات الإسلامية(د.ت). ص٢٨١/ ابن عذاري ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، مكتبة دار صادر ، بيروت(د.ت) ، ج٢ ، ص٣٣٤ / ابن خلدون ، العبر ، ج٤ ، دار العلم للجميع ، بيروت (د.ت) ، ج٤ ، ص ١٣٠.

(٧) ابن حيان ، المصدر السابق ، ص ٢٩٠/ مجهول ، تاريخ الأندلس ، تحقيق عبد القادر بوباية ، دار الكتب العلمية ، بيروت (٢٠٠٧)، ص١٨٦ .

(٨) ابـن حيـان ، المقتبس ، تحقيـق بيـدرو شـالميتا ، المعهـد الإسـباني العربـي للثقافة ، مدريد ، كلية الآداب ، الرباط (١٩٧٩)، ج٥ ، ص٢٨٣.

(٩) ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج٤ ، ص١١٤.

(١٠) ابـن حيـان ، المقتبس في أخبار بلد الأندلس ، تحقيـق عبـد الرحمـن علي الحجي ، دار الثقافة ، بيروت(١٩٨٣)، ص٢٠٧.

(١١) زيغريد هونكة ، شمس العرب تسطع على الغرب ، ترجمة فاروق بيضون ، كمال الدسوقي ، دار صادر ، بيروت ، ط ١٠(٢٠٠٢)، ص ٥٠٠.

(١٢) محمود حسن منى ، المسلمون في الأندلس وعلاقتهم بالفرنجة ، دار الفكر العربي ، القاهرة (د.ت)، ص٢٣٣.

(١٣) مجهول ، تاريخ الأندلس ، ص١٨٦.

(١٤) محمود حسن منى ، المرجع السابق ، ص٢٣٣.

(١٥) ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص١٠٤.

(١٦) ابن حيان ، المصدر السابق ، تحقيق محمود علي مكي ، السفر٢ ، ص٢٩٢.

(١٧) مقديش محمود ، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار ، تحقيق علي الزاوي ، محمد محفوظ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط ١(١٩٨٨م)، م١ ، ص١٥٩.

(١٨) ديسم بن إسحاق من فرسان عمر بن حفصون ، ملك لورقة ، وضرب السكة باسمه ، وتمسك بمولاه عمر بن حفصون ، توفي بمرسية سنة (٢٩٣هـ/ ٩٠٦م) العذري ، أحمد بن عمر ، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك ، تحقيق الأهواني عبد العزيز ، منشورات معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد (١٩٦٥)، ص ١٢ ، ١١.

(١٩) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

(٢٠) ابن حيان ، المصدر السابق ، تحقيق بيدرو شالميتا ، ص٢٤٤.

(٢١) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، تحقيق حسين مؤنس ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢(١٩٧٥).ج١ ، ص ٣٧٨ / حسن الحلاق حسن ، العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى(الأندلس ، صقلية ، الشام) ، الدار الجامعية ، بيروت (١٩٨٦)، ص ٣٠ ، ٣١ / حسن الحلاق حسن ، دراسات فـي تـاريخ الحضـارة الإسـلامية ، دار النهضـة العربيـة ، بيـروت ، ط ٢ (١٩٩٩)، ص ٢٨٤.

(٢٢) ابـن غـالب الغرناطي ، قطعـة مـن كتـاب فرحـة الأنفـس عـن كـور الأنـدلس ومدنها ، تحقيق عبد البديع لطفي ، نشر مجلة معهد المخطوطات العربية ، مصر(١٩٥٦)، م ١ ، ج١ ، ص ٢٩٣ / العذري ، المصدر السابق ، ص٩٦./ الحميري ، المصدر السابق ، ص ٢٤./ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت (د.ت) ، ج٣ ، ص ١٣٠./ ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، دار المعارف ، القاهرة (د.ت)، ج١ ، ص ١٠٤.

- Ahmed Razi ,La Description de L' Espagne, Provencal ,Al-Andaus ,Vol 12.Paris,1953. ,P. 94.

(٢٣) العذري ، المصدر السابق ، ص ٥٥.

(٢٤) محمد بن أحمد بن جبير ، رحلة ابن جبير ، دار الكتاب اللبناني المصري ، بيروت(د.ت) ، ج ١ ، ص ٩٦.

(٢٥) الزهـري ، كتـاب الجعرافيـة ، تحقيـق محمـد حـاج صـادق ، مكتبـة الثقافـة الدينية ، القاهرة(د.ت). ، ص ١٠٢.

(٢٦) ابن جبير ، المصدر السابق ، ج ١ ،ص ٩٦.

(٢٧) ابن حيان ، المقتبس من أخبار أهل الأندلس ، تحقيق محمود على مكي ، دار الكتاب العربي ، بيروت (١٩٧٣)، ص٢٧٦-٢٧٧.

(٢٨) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق إسماعيل العربي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر(١٩٨٩)، ص ٦٢.

(٢٩) ابـن عـذاري ، البيـان المغـرب ، ج٢ ، ص ١٥٥. تقـع دار الصـناعة بقرطبـة شمالي القصر الخلافي ، بسبب تسمية أحد بابيه من الجهة الشمالية بباب الصناعة. السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية(١٩٩٧)، ج١ ، ص ١٩٣.

(٣٠) الحميري ، الروض المعطار ، ص ١١١.

(٣١) كونستبل أوليفيا ريمي ، التجارة والتجار في الأندلس ، تعريب عبد الله فيصل ، مكتبة العبيكات ، بيروت (٢٠٠٢)، ص١٩٢.

(٣٢) المقري ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت(٢٠٠٤)، ج٢ ، ص ٢٠٢.
(٣٣) الحميري ، المصدر السابق ، ص ١٢٤.
(٣٤) الإدريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة (٢٠٠٢)، م٢ ، ص ٥٥٨.
(٣٥) ابن خلدون ، المصدر السابق ،ج٤ ، ص ١٤٤ ./ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، النهضة العربية ، بيروت (١٩٦٩)، ص١٦١.
(٣٦) ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٣٤٥ / الزهري ، كتاب الجغرافية ، ص ٨٢.
(٣٧) مجهول ، تاريخ الأندلس ، ص٢٠٥.
(٣٨) مانويل جوميث مورينو ، الفن الإسلامي في إسبانيا ، ترجمة السيد عبد العزيز سالم وعبد البديع لطفي ، الدار المصرية ، للتأليف والترجمة ، القاهرة (١٩٧٧)، ص٣٥٥.
(٣٩) السيد عبد العزيز سالم ، تحف العاج الأندلسية في العصر الإسلامي ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية (د.ت)، ص٢٩.
(٤٠) عبد الله بن عبد المحسن التركي ، بحوث ندوة الأندلس ، مقال الكحلاوي محمد محمد ، توقيعات الصناع على التحف المعدنية والعاجية. دار المعرفة الجامعية ، مصر ، ط(١٩٩٤م)، ص١٢٢.
(٤١) ابن حيان ، المصدر السابق ، تحقيق عبد الرحمن حجي ، ص٦٦.
(٤٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، تحقيق سيد كسروي حسن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١(٢٠٠٣م)،ج٢ ، ص ٤٠-٤١.
(٤٣) ابن حيان ، المصدر السابق ، ص٦٦.
(٤٤) لم تشر المصادر إلى ترجمة خلف ، فقد ورد اسمه على توقيعات التحف العاجية. وكانت العلب المنسوبة إليه من إنتاج مصنع مدينة الزهراء في عهد الخليفة الحكم المستنصر. ابن عذاري ، المصدر السابق ،ج٢ ، ص ٢٨٥ / السيد عبد العزيز سالم ، تحف العاج الأندلسية في العصر الإسلامي ، ص ٤٢ / قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، ص١٣٣.
(٤٥) تولى فائق النظامي في عهد الخليفة الحكم المستنصر منصب صاحب البرد والطراز ، فلما مات هذا الخليفة تآمر مع رأس طائفة الفتيان الصقالبة جؤذر صاحب الصاغة والبيازة على مبايعة المغيرة أصغر أبناء الخليفة عبد الرحمن الناصر بالخلافة بدلا من هشام بن الحكم لصغر سنه. واستطاع االمنصور بن أبي عامر من تدبير أمر الصقالبة ، فنفي فائق النظامي إلى الجزائر الشرقية ، فمات هناك / ابن عذاري ، المصدر السابق ،ج٢ ، ص٣٨٧ ، ٣٩٣ .
(٤٦) ابن بشكوال ، كتاب الصلة في تاريخ علماء الأندلس ، تحقيق صلاح الدين الهواري ، المكتبة العصرية بيروت ، ط١(٢٠٠٣م) ، ص٣٨.
(٤٧) ابن حيان ، المصدر السابق ، تحقيق بيدرو شالميتا ،ج٥ ، ص ٣٨٣.
(٤٨) المصدر نفسه ، تحقيق عبد الرحمن الحجي ، ص ٢٠٧.
(٤٩) المصدر نفسه ، تحقيق بيدرو شالميتا ،ج٥ ، ص ٣٨٣ .
(٥٠) ابن حزم ، طوق الحمامة في الألفة والألافة ، تحقيق ياسين الأيوبي ، المكتبة العصرية ، بيروت (٢٠٠٣م)، ص ٧٠ / القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ،ج٥ ، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ، المؤسسة المصرية العامة(د.ت)، ص ٢١٤.
(٥١) الطاهري أحمد ، دراسات ومباحث في تاريخ الأندلس عصري الخلافة والطوائف ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، ط 1 (١٩٩٣)، ص١١٧.
(٥٢) ابن حيان ، المصدر السابق ، ص ٤٤٤.
(٥٣) السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة ، ج١ ، ص ١٨١.
(٥٤) ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٥٧ .
(٥٥) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ١٣١.
(٥٦) مجهول ، وصف جديد لقرطبة ، مخطوط في جغرافية الأندلس ، تحقيق حسين مؤنس ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد (١٩٦٥-١٩٦٦)، م١٣ ، ص ١٦٨.
(٥٧) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس ، دار النهضة العربية ، بيروت (١٩٨١)، ص٢٩٨.
(٥٨) الحميري ، المصدر السابق ، ص١٨٣.
(٥٩) العذري ، المصدر السابق ، ص ٨٦ .
(٦٠) مجهول ، وصف جديد لقرطبة ، ص ١٧٠.
(٦١) المقري ، نفح الطيب ، ج٢ ، ص ٣٣٦.
(٦٢) ابن عبدون ، رسالة في القضاء والحسبة ، تحقيق ليفي بروفنسال ، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ، (١٩٩٥)، ص ٤٣.
(٦٣) المصدر نفسه ، ص ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٧/ ابن عبد الرؤوف ، آداب الحسبة والمحتسب ، تحقيق فاطمة الإدريسي تحت إشراف مصطفى الصمدي ، دار ابن حزم ، بيروت ، ط ١ (٢٠٠٥)،ص ٧٥، ٨٥.
(٦٤) الونشريسي ، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب ، تحت إشراف محمد الحجي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت (١٩٨١)، ج٧ ، ص ٤٨٢.
(٦٥) ابن حيان ، المصدر السابق ، تحقيق عبد الرحمن الحجي ، ص ٦٦.
(٦٦) المصدر نفسه ، ص ٧١ ، ٧٠.
(٦٧) نفسه ، ص ٦٧ ، ٦٨.
(٦٨) الهروس مصطفى ، المدرسة المالكية الأندلسية إلى نهاية القرن (٣هـ/ ١٠م) نشأة وخصائص ، ط(١٩٩٧)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المملكة المغربية ، ص ٢٥٤.
(٦٩) المقتبس ، تحقيق محمود على المكي ، ص ١٧٦.
(٧٠) المعيار المعرب ،ج ١٠ ، ص ٧٧.
(٧١) ابن عبدون ، المصدر السابق ، ص ٢٠.
(٧٢) المقري ، نفح الطيب ، ج١ ، ص٢١٩، ٢١٨.
(٧٣) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.
(74) Abu'Abd allah Muhammad B.Abi Muhammad As-Sakati de Malaga. Un Manuel Hispanique De Hisba. Texte Arabe ,Introduction . Par Colin et Lévi —Provençal .Paris, 1930, P.62.
(٧٥) ابن عبدون ، المصدر السابق ، ص ٤٧، ٤٤.
(٧٦) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.
(٧٧) ابن عبد الرؤوف ، آداب الحسبة والمحتسب ، ص ٨٥.
(٧٨) المصدر نفسه ، ص ٧٥.
(٧٩) نفسه ، ص ١٠٦.
(٨٠) نفسه والصفحة نفسها.
(٨١) نفسه ، ص ١٠٧.
(٨٢) عاشور سعيد عبد الفتاح ، عبد الحميد سعد زغلول ، العبادي أحمد مختار ، تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ، دار المعرفة الجامعية ، القاهرة (١٩٩٨). ص ٣٤١.
(٨٣) المقري ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ٤٦٤ .
(٨٤) الحميري ، المصدر السابق ، ص ١٧٩.
(٨٥) مانويل جوميث مورينو ، المرجع السابق ، ص٨٥.
(٨٦) مرزوق محمد عبد العزيز ، الفنون الزخرفية في المغرب والأندلس ، دار الثقافة ، بيروت (د.ت)، ص١٤٣.

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

أضواء على العلاقات التجارية الجزائرية الأورومتوسطية خلال النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد

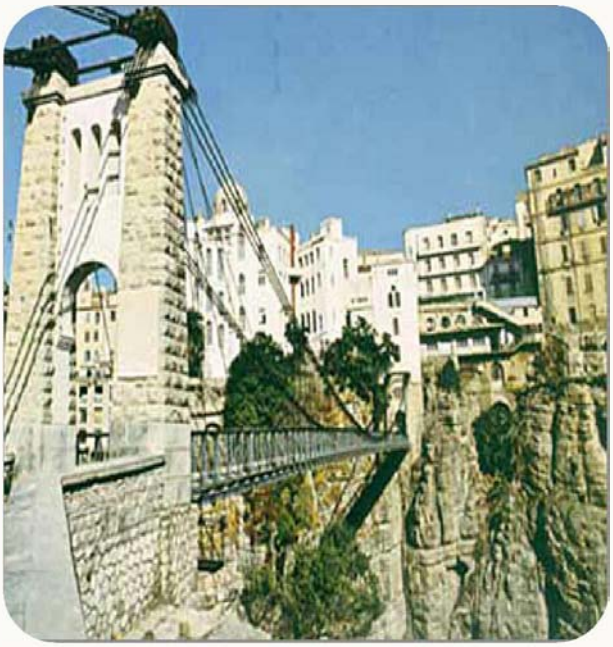

مدينة قسنطينة (Cirta) وضواحيها أنموذجا

خالدية مضوي
أستاذة التاريخ القديم-قسم التاريخ
كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية
جامعة معسكر - الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
خالدية مضوي، أضواء على العلاقات الجزائرية الأورومتوسطية خلال النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد: مدينة قسنطينة (Cirta) وضواحيها أنموذجا.- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث عشر؛ سبتمبر ٢٠١١. ص٨٥ – ٩٠. (www.historicalkan.co.nr)

مقدمة

نحاول من خلال هذا المقال تسليط الضوء على الدور التجاري الذي لعبته مدينة قسنطينة (Cirta) عاصمة المملكة النوميدية وضواحيها كمدينة الخنق (Tiddis) والخروب في عهد الملك ماسينيسا (Massinissa) (٢٠٣ - ١٤٨ ق.م)، وذلك على صعيد العلاقات التجارية الخارجية التي ربطتها بدول ضفة البحر الأبيض المتوسط محاولين الإجابة على الإشكالات التالية: ما هي البواعث التي أدت إلى ازدهار تجارة مدينة قسنطينة (Cirta) في مستهل العهد النوميدي دون غيرها من مدن المملكة النوميدية، ما هو تاريخ بداية هذه العلاقات، وهل هي معاصرة للملك ماسينيسا أم أنها سابقة له، وكيف كانت طبيعة هذا التعامل، فهل كان مباشرًا أم أنه كان يتم عن طريق الوسطاء التجاريين، وما هي السلع والبضائع التي كانت محور هذا التبادل التجاري.

أولاً: العوامل المساعدة على ازدهار التجارة

توفرت في قسنطينة (Cirta) عاصمة المملكة النوميدية عناصر هامة لتحقيق نشاط تجاري مزدهر وهي تكمن في ما يلي:

١- الموقع الفلكي والإقليمي:

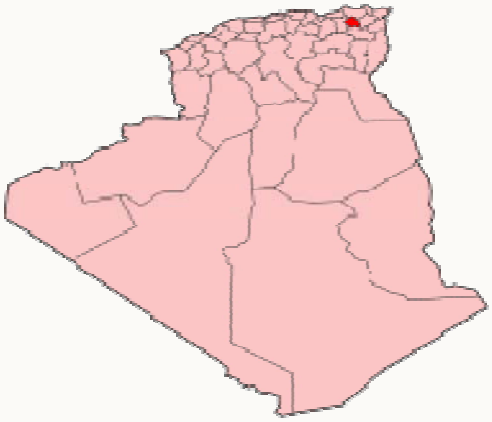

تقع قسنطينة (Cirta) فلكيًا على خط عرض ٢٣ ، ٣٦ شمالاً وخط طول ٣٥، ٧ شرقًا، أما جغرافيًا فهي تقع شمال شرق الجزائر على الحافة الشمالية للأطلس الصحراوي وهي بذلك تحتل منطقة متميزة بالنسبة لإقليم الشرق الجزائري، بحيث أنها لا تبعد إلا بحوالي ٨٧ كيلومتر عن سكيكدة (Rucicade)، وبـ ١١٨ كلم عن عنابة (Hippo Regius)، وهما المدينتين الواقعتين على ساحل البحر الأبيض المتوسط شمالاً، وبـ١٥٦ كلم عن باتنة، ١١٧ كلم عن قالمة (Calama)، ١٢٥ كلم عن سطيف (Sitifis)، ١٤٩ كلم عن جيجل (Igilgili) ، ١٩٨ كلم عن تبسة (Teveste) ، ٢٣٥ كلم عن بسكرة (Vescera) في الصحراء جنوبًا، كما أنها لا تبعد عن الجزائر العاصمة (Icosium) إلا بـ٤٣٠ كلم ، وعن تونس(Tunes) بحوالي ٤٧٦ كلم ، وعن طرابلس (Oea) بـ١٥٦٠ كلم ، فهي بطبيعة هذا الموقع تعد قريبة من الساحل كما تعتبر بوابة للشرق الجزائري ومنفذا للصحراء.[١]

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

٢- الموقع الموضعي:

تقع المدينة فوق الصخرة على جانبي وادي الرمال وبومرزوق ، تحف بها العوائق والمنحدرات الشديدة من كل جهاتها ، فأهم عامل حدد موضعها هو سهولة الدفاع عنها ، بالإضافة إلى توفر المياه الضرورية للشرب ، وهذه المزايا تدخل على نفوس السكان الأمن والآمان وتساعدهم على ممارسة مختلف أوجه نشاطهم ، كما تجذب التجار والحرفيين للاستقرار بها ، وهذه الخصائص جعلت منها منطقة استقرار بشري قديم أكدته الحفريات التي قام بها علماء الآثار الفرنسيين والتي أرجعت استقرار الإنسان بها إلى العصر الحجري القديم الأسفل حوالي ٦٥٠ ألف سنة قبل الميلاد ، كما أظهرت للوجود أدوات من الحصى المشذبة اكتشفت بهضبة المنصورة والتي تعتبر من بين أقدم الأدوات التي استخدمها الإنسان على وجه الأرض.[٢]

٣- وقوعها وسط إقليم غني إقتصاديًا:

ومما زاد في أهمية الموضع هو وجوده وسط منطقة مبادلات واسعة تقع على حافتي الصحراء والتل ، تمر بها القوافل والمسالك التجارية ، وهذا ما أعطى لموضعها ميزة فريدة من نوعها ، فهي قريبة من الجبال التلية في الشمال والسهول العليا الصالحة لزراعة الحبوب والغنية بحقول الزيتون والأشجار المثمرة ، بالإضافة إلى الثروة الحيوانية. وهكذا فقد جعلت كل هذه الأبعاد منها مدينة ذات أهمية خاصة في عملية الإتصال بين المدن المختلفة وأهلتها لأن تكون مدينة تجارية تتميز بسوق استهلاكية كبيرة من أهم مظاهرها عملية التجميع والتوزيع.[٣]

٤- مركز السلطة والحكم:

حيث مارست قسنطينة (Cirta) وظيفة العاصمة في مملكة نوميديا مدة ١٥٧ سنة (٢٠٣ – ٤٦ ق. م)، كما أنها استفادت من الاستقرار السياسي الناجم عن طول فترة حكم معظم الملوك النوميديين خاصةً الملك ماسينيسا (Massinissa) الذي حكم لمدة ٥٥ سنة (٢٠٣ - ١٤٨ ق.م)، وابنه مكيبسا (Micipsa) الذي دام حكمه ٣٠ سنة (١٤٨- ١١٨ ق. م)، الذي نتج عنه ازدياد الإنتاج الزراعي ، وهو ما نجم عنه تطور التقنيات الحرفية المحلية ، ويعد محتوى نقوش المعبد البوني بالحفرة بعاصمة المملكة كرتا المصدر الوحيد الذي وفر لنا معلومات أمكن من خلالها التعرف على العديد من الحرف التي انتشرت بها في الفترة الممتدة ما بين القرن الثالث والثاني قبل الميلاد ، حيث ذكرت لنا قائمة لأسماء الحرفيين كصانعي التماثيل والخزافين[٤] والنجارين[٥] والناقشين والبنائين[٦] وغيرها من الحرف التي تدل على مدى حركية النشاط الحرفي الذي كانت تشهده المدينة والمناطق القريبة منها ، مثل الخنق (Tiddis)، مما أدى إلى انتعاش المبادلات التجارية ، خاصةً بعد زوال الاحتكار القرطاجي وفتح ماسينسا لموانئ المدن الساحلية أمام التجار الأجانب الذين حققت لهم هذه التعاملات أرباحًا طائلة ، كانت وراء التماثيل التي أقامها هؤلاء التجار لهذا الملك ، ومن بينها ذلك التمثال الذي شيده أحد التجار الرودسيين بجزيرة ديلوس بين سنة ١٨٠ ق.م و١٦٠ ق.م تخليدًا لذكرى إحدى الصفقات المربحة.[٧]

٥- الدور الذي لعبته شبكة الطرق في المجال التجاري:

حيث ساهمت في تنشيط التبادل التجاري الداخلي بين مدن المملكة ، وسمحت للمدن الساحلية بتصريف منتجاتها نحو الداخل ، مثلما ساهمت في نقل المنتجات الزراعية لاسيما الحبوب من المناطق الداخلية نحو الموانئ لتبحر بها السفن إلى جهات خارجية ، بحيث كان مينائي عنابة (Hippo Regius) وسكيكدة (Rusicade) منفذًا لعاصمة المملكة كيرتا على البحر ، يتم عبرهما تصدير منتوجات وسلع إقليمها إلى بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط.[٨]

ثانيًا: بداية وطبيعة العلاقات التجارية الخارجية

تجدر الإشارة إلى ؛ وجود علاقات تجارية مبكرة بين عاصمة المملكة النوميدية قسنطينة (Cirta) ودول البحر الأبيض المتوسط كالجمهورية الرومانية ، دويلات المدن الإغريقية ، غاليا ، إسبانيا وجزر البليار ، بحيث تؤكد المخلفات المادية كفخار ، المسكوكات ، الأدوات الفضية وبرونزية ، الأمفورات وغيرها من اللقى الأثرية التي وجدت بالمدينة والضواحي التابعة لها كمدينة الخروب الواقعة على بعد ١٤ كلم إلى الجنوب الشرقي ، ومدينة الخنق (Tiddis) الواقعة على بعد 23 كلم شمال غرب قسنطينة ، على وجود سلع متوسطية ، يرجع تاريخها إلى القرن ٦ ق.م [٩] . إلا أننا نجهل إن كان هؤلاء التجار قد وصلوا في تلك الفترة المبكرة إلى المنطقة ، وفي انتظار ما ستكشف عنه المعطيات الأثرية ، يفترض تعرف السكان المحليين على هذه السلع عن طريق التجار القرطاجيين الذين لعبوا دور الوساطة التجارية التي وثقت لها بنود المعاهدة التي وقعت بين الجمهورية الرومانية والدولة القرطاجية في مطلع القرن السادس قبل الميلاد(٥٠٩ ق.م)، بحيث حظرت على سكان شمال إفريقيا مختلف أوجه التعامل التجاري واقتصرت العملية على الحليف القرطاجي الذي تحكم في تسيير التجارة مع دول البحر الأبيض المتوسط[١٠] ، ومنذ ذلك التاريخ أصبح التجار الأوروبيون يجلبون سلعهم إلى قرطاجة ومن ثمة ينقلها هؤلاء إلى مختلف موانئ بلاد المغرب.

تواصل العمل بهذه الوتيرة حتى توقيع معاهدة زاما في سنة ٢٠١ ق.م التي أنهت الحرب البونية الثانية وفرضت على السلطات القرطاجية عدم توقيع المعاهدات دون استشارة السلطات الرومانية ، كما سمحت للمملكة النوميدية بالتعامل المباشر معها[١١] ، ومع عهد الملك ماسينيسا (٢٠٣ . ١٤٨ ق.م) تزايدت أهمية هذا التعامل حينما بسط نفوذه على موانئ المدن الساحلية النوميدية التي كانت تابعة لقرطاجة سابقًا ، فعمل على إنشاء أسطول بحري تمثلت مهامه في حماية سواحل المملكة ونقل السلع والبضائع ، كما فتح أبواب مملكته للتجار الأجانب كالإيطاليين الدين وفدوا إلى مختلف المدن الداخلية والساحلية كقسنطينة (Cirta) وتالا (Thala)، والكاف(Sicca veniria)، وزاما (Zama Regia)، وباجة (Vaga)،[١٢] بالإضافة إلى التجار الرودسيين والأثينيين ، من بينهم ذلك التاجر الأثيني الذي أقام تمثالاً من المرمر لماسينيسا(Massinissa) بجزيرة ديلوس مما نقش عليه جملة يقول فيها " أنه كان صديقا للملك" ، وقد ساهمت هذه الجهود لاحقًا في ظهور جاليتين في قسنطينة (Cirta) أغلب عناصرها من التجار ورجال

دورية إلكترونية، محكمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الأعمال إحداهما إغريقية ، وأخري إيطالية[١٣] ، وخلافًا لذلك لا توحي المعطيات المتوفرة بين أيدينا بتنقل التجار النوميد إلى هذه المناطق غير أن هذا لا ينفى وصول البضائع النوميدية إليها عن طريق هؤلاء التجار الذين قدموا إلى قسنطينة والمملكة النوميدية لاقتناء حاجيات مجتمعاتهم[١٤] .

ثالثًا: المبادلات الخارجية

١- المبادلات التجارية مع دويلات المدن الإغريقية:

كشفت التنقيبات الأثرية التي أجريت بالعديد من أحياء مدينة قسنطينة (Cirta) وحتى الضواحي التابعة لها على عدد كبير من القطع الخزفية التي يرجع تاريخها إلى القرن السادس قبل الميلاد ، وبعض الأدوات البرونزية التي تنسب إلى نفس الفترة كتلك التي وجدت بالخنق (Tiddis)[١٥] ، وخمس قطع نقدية عثر عليها بقسنطينة ، هي الآن محفوظة بمتحف سيرتا: قطعتان من أتروريا ، واحدة تحمل صورة ليسيماك "Lysimaque" ملك تراقيا (٣٢٤ ق.م - ٢٨٢ ق.م) ، قطعة من أتيكا وواحدة من تمنوس بإيوليديا وقطعتين نقديتين للملك الإغريقي بروسياس (Prusias) الذي حكم في الفترة الممتدة بين سنة ١٨٣/ ١٢٩ ق.م[١٦] . وتتمثل السلع التي استوردتها وصدرتها مدينة كيرتا وضواحيها في:

(أ) الواردات:

الخمر:

تحتل هذه المادة مرتبة الصدارة بحسب ما تدلنا عليه الأمفورات (Amphorae) الرودسية التي نقل فيها كتلك الأمفورات الثلاثة التي اكتشفت بالمعبد البوني بالحفرة بقسنطينة[١٧] (انظر الشكل رقم ١) واحدة من ورشة كليونيموس " Cleonymos" مؤرخة مابين سنة ٢٢٠ – ١٨٠ ق.م والثانية من ورشة الكسيادس "Alexiades" مؤرخة في سنة ٢٠٠ ق.م والثالثة من ورشة أوتوكراتس " Autocrates مؤرخة بين سنة ١٨٩ – ١٦٧ ق.م ، وتلك المكتشفة بكدية عاتي (أنظر الشكل رقم ٢) وغيرها مما عثر عليها بالعديد من مدن المملكة ، نذكر من بينها الخنق (Tiddis) حيث وجدت بها أمفورة تنسب لأواخر القرن الثاني قبل الميلاد ومطلع الأول أنتجت بورشة هيبوكراتس (Hypocrates)[١٨] ، وواحدة بالضريح الملكي بالخروب جلبت من ورشة صوداموس (Sodamos)يرجع تاريخها إلى سنة ١٨٠ ق.م[١٩] .

الشكل رقم (١) أمفورات إغريقية اكتشفت بالمعبد البوني بالحفرة بقسنطينة محفوظة بمتحف سيرتا الوطني

الشكل رقم (٢) أمفورة رودسية اكتشف بكدية عاتي محفوظة على مستوى متحف سيرتا الوطني

المصابيح:

كانت المصابيح من ضمن البضائع التي لقيت رواجًا في أسواق مدينة قسنطينة(Cirta)، بحيث وجدت بها في مطلع القرن العشرين مصابيح إغريقية يعود تاريخها إلى القرن الثاني قبل الميلاد[٢٠] ، تلتها مجموعة أخرى كشفت عنها التنقيبات الأثرية التي أجريت بالمدينة سنة ١٩٦٠م بسفح الشاطئ الصخري الغربي الموجود عند منفذ وادي الرمل كتلك المكتشفة بكدية عاتي[٢١] ، دون أن ننسى تلك التي عثر عليها بتيديس (Tiddis) إثر الحفريات التي أجريت بالمدينة سنة ١٩٥٨[٢٢] .(أنظر الشكل رقم ٣)

الشكل رقم (٣) مصباح إغريقي دائري الشكل اكتشف بتيديس محفوظ على مستوى متحف سيرتا الوطني

الأواني الفضية:

تعتبر الأواني الفضية الإغريقية والأدوات البرونزية من السلع الكمالية التي أقبلت عليها العائلة المالكة النوميدية ، كتلك التي دفنت بالضريح الملكي بالخروب[٢٣] (أنظر الشكل ٤) وقد ضمت:

- ميدالية برونزية عليها صورة الإله بوسيدون (Poséidon) نبتون إله البحر جالس ، يحمل شوكة ثلاثية – رمز الإله – في يده اليسرى وفي يده اليمنى قوقعة بحرية.
- أربع ميداليات أخرى ، إثنان لم يبق منهما إلا محيطهما والبقية في حالة جيدة ، حيث تمثل رسوماتهما رؤوس أيل ولبؤة.

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

- طست أو مزهرية كبيرة من الفضة قطرها ٢٧, ٠ سم ومبخرة عطرية من فضية.
- عدة قطع يعتقد أنها بقايا مرآة ، يد أداة إبريق من الفضة ، خرز أو مثقب [٢٤].

هذا وإن الباحثة خديجة منصوري لا تستبعد أن تكون الأواني الفضية والسسلل الذهبية التي يقول عنها أثيني (Athénée) أنها زينت موائد الولائم التي كانت تقام بقصر ماسينيسا ضمن السلع الإغريقية التي استوردها هذا الملك [٢٥].

الشكل رقم (٤) الجزء الأيمن يمثل قسم من الأواني الفضية المكتشفة بضريح الخروب وهي محفوظة على مستوي متحف سيرتا الوطني

(ب) الصادرات:

إننا لا نتوفر على الشواهد المادية أو الأدبية التي يمكننا من خلالها التوثيق لصادرات المدينة والوقوف على حجم تبادلاتها مع دويلات المدن الإغريقية وباقي دول البحر الأبيض المتوسط ، ولهذا لا يمكننا دراسة صادرات مدينة قسنطينة(Cirta) إلا من خلال صادرات المملكة النوميدية في عهد الملك ماسينيسا على اعتبارها حاضرتها ومركز تجميع وتوزيع المنتوجات المختلفة ، بحيث تمثلت الصادرات في:

الحبوب:

اعتمدت نوميديا في مجال التصدير نحو موانئ البحر المتوسط على الحبوب التي احتلت المركز الأول في قائمة المواد والسلع المصدرة ، حيث كانت لحبوب نوميديا شهرة كبيرة في كل أرجاء البحر المتوسط ، وقد كان إقليم كيرتا في مقدمة المناطق المصدرة لكميات معتبرة من الحبوب خاصة القمح الصلب والشعير ، وتعتبر الأرقام الواردة في كتاب تيتوس لفيوس " Titius Livius" أحسن دليل على كمية القمح التي أرسلها ماسينيسا إلى الإغريق ، فلقد بلغت في سنة ١٩٨ ق.م ٢٠٠,٠٠٠ صاع من القمح (١٤٠٠٠قنطار) لتموين الجيوش الإغريقية المحاربة في بلاد الإغريق ، ثم ٥٠٠,٠٠٠ صاع من القمح (٥٦ ٠٠٠ قنطار) و ٣٠٠,٠٠٠ صاع من الشعير (٩٠٠ ٢٨ قنطار) سنة ١٩١ ق.م ، كما أرسل في سنة ١٧١ ق.م القمح إلى الجيوش الإغريقية التي كانت تحارب برسس" Perses" [٢٦]، وتبرع هذا الملك خلال هذه الحرب وبالضبط سنة ١٧٩ ق.ع بحوالي ٢٧٩٦ صاع من القمح ما يعادل حوالي (١١٦٠٠ قنطار) لجزيرة ديلوس ، بيعت بمبلغ قدره عشرة آلاف دراخم لصالح معبد أبولون [٢٧].

الخيول والفيلة:

يشير تتيوس لفيوس (Titius Livius) إلى المساعدات العسكرية التي قدمها ماسينيسا(Massinissa) للإغريق خلال حرب مقدونيا والتي كان من ضمنها عدد معتبر من الخيول والفيلة ، بحيث أرسل في سنة ٢٠٠ ق.م ألف فرس للمشاركة في الحرب التي خاضتها روما ودول المدن الإغريقية ضد فيليب ملك مقدونيا ، و(٢٠٠) فرس ، و(١٠) فيلة في سنة ١٩٨ ق.م ، و(٥٠٠) فرس ، و(٢٠) فيلا في سنة ١٩١ ق.م لتعزيز صفوف الجيش الإغريقي الذي كان يحارب أنتيوشوس "Antiochus" ملك المملكة السلوقية ، و(١٠٠٠) فرس بقيادة إبنه ميزاجين "Misagene" لمساعدة القوات الإغريقية في حربها ضد برسس"Perses" ابن الملك فيليب الخامس ملك مقدونيا سنة ١٧١ ق.م. [٢٨]

الشديمات:

وهي نوع من القردة بدون ذيل اشتهر بها المغرب القديم ومضيق جبل طارق ، وفي هذا الصدد يذكر أثيني (Athénée) أن الملك ماسينيا(Massinissa) كان لطيفًا في مباحثاته مع التجار الإغريق الذين وفدوا إلى المملكة لشرائها. [٢٩]

العاج وخشب العصفية:

يفيدنا غزال St.Gsell [٣٠] بمعلومات نقلها عن سويداس" Suidas" مفادها أن هذا الملك أهدى إلى رودس العاج وخشب العصفية ، غير أن الباحثة خديجة منصوري كانت قد تساءلت إن كان الأمر قد اقتصر على إهداء كمية معينة كدفعة أولى ، أم تلتها كميات أخرى بيعت إليها. [٣١]

٢- المبادلات التجارية مع الجمهورية الرومانية:

(أ) الواردات:

الخمور:

دلتنا المخلفات المادية المكتشفة في القرن العشرين عن المنتوجات التي أقبل عليها سكان مدينة قسنطينة (Cirta)، والتي تمثلت بالدرجة الأولى في الخمر الذي تأكده بقايا الامفورات الكمبانية التي نقل من خلالها والتي اكتشفت في المعبد البوني بالحفرة ، وتلك المكتشفة بضريح الخروب وهي تحمل أختام ورشات كمبانية مؤرخة بالقرنين الثالث والثاني قبل الميلاد. [٣٢]

الفخار:

اكتشفت بقاياه في العديد من أحياء المدينة كبقايا فخار كمباني أسود اكتشف من طرف بارتي (A.Berthier) بالمعبد البوني بالحفرة (أنظر الشكل رقم ٥)، تلتها مجموعة أخرى من الفخار الكمباني المكتشفة من طرف نفس الباحث بسيدي مسيد ، من بينها كأس صغيرة محتومة بأربع نخيلات وكوب كمباني مؤرخ بالنصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد ، [٣٣] وصحن مصنوع من الطين الأحمر [٣٤].

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الشكل رقم (٥) الجزء السفلي عبارة عن قطع فخارية كمبانية سوداء اللون اكتشفت بالمعبد البوني بالحفرة بقسنطينة محفوظة بمتحف سيرتا الوطني

المصابيح:

شكلت المصابيح جزء من السلع التي أقبل عليها سكان مدينة كيرتا (Cirta) بحسب ما تدلنا عليها بقايا المخلفات التي وجدت بالمدينة، كتلك المكتشفة في الناحية الشمالية الغربية لمنحدر القصبة والتي عثر عليها دوبريج (Debruge) في سنة١٩١٦ أثناء تنقيباته الأثرية في محطة ما قبل التاريخ لكهف الحمام والتي نقش على قاعدة اثنان منها اسما صاحبا الورشة التي جلبت منها وهما فابيوس "Fapeus" و كلوسوك "C . Closvc,".[٣٥]

(ب) الصادرات:

الحبوب:

يفيدنا تتيوس لفيوس (Titius livius) بأرقام هامة عن حصيلة المبادلات التجارية التي تمت بين االجمهورية الرومانية والملك ماسينيسا، وتأتي في مقدمتها الحبوب التي كانت السلطات الرومانية في أمس الحاجة إليه لتموين جيوشها المقاتلة في مختلف الجبهات، بحيث إذ أرسل هذا الملك في سنة ٢٠٠ ق.م إلى الجيوش الرومانية المحاربة في مقدونيا ٢٠٠,٠٠٠ صاع من القمح ما يعادل (١٤ ٠٠٠ قنطار) و٢٠٠,٠٠٠ صاع من القمح (٥٠٠ ١٠ قنطار)، وبعث إلى روما في سنة ١٩١ ق.م ٣٠٠,٠٠٠ صاع من القمح، و ٢٥٠,٠٠٠ صاع من الشعير، وأرسل في سنة ١٧١ ق.م القمح إلى الجيوش المحاربة في مقدونيا، كما بعث إلى الجيش المقدوني ١ ٠٠٠ ٠٠٠ صاع من القمح (٧٠٠ ٠٠٠ قنطار).[٣٦]

الخيول والفيلة:

لقد أرسل الملك ماسنيسا إلى الرومان في سنة ١٩٣ ق.م ٨٠٠ فرس لإعانتهم في حربهم ضد الليقوريين، كما زود روما في سنة ١٧٠ ق.م بـ ١٢٠٠ فرس و١٢ فيلا [٣٧]، وبعث ٣٠٠ فرس و١٠ فيلة لمساعدة القنصل الروماني في إسبانيا في حملته ضد الإيبيريين.[٣٨]

٣- المبادلات التجارية مع إسبانيا وجزر البليار:

عرف التبادل التجاري بين جنوب إسبانيا ومدن المملكة النوميدية نشاطًا ملحوظًا، بحيث استورد خلالها التجار النوميديون العديد من السلع تمثلت في الخمور بيتيكيا (Betiquia) واللوزيتانيا (Lusitania)، والتي تشهد عليها بقايا الأمفورات المهيأة لتقلها المكتشفة بمختلف مدن المملكة ومن بينها قسنطينة (Cirta)[٣٩]، أضف إلى ذلك المواد الفخارية ؛ المصابيح، أصواف الماشية، الجلود والمعادن لاسيما الرصاص والبرونز اللذان استخدما في صناعات التماثيل، بينما كانت تصدر إليها بيض النعام[٤٠]، وقد تم العثور على ٧٥ قطعة نقدية إسبانية بقسنطينة (Cirta)، والخنق (Tiddis)[٤١] وقطع أخرى حاملة لاسم جزر البليار اكتشفت بالخنق (Tiddis)[٤٢]. كما اكتشفت مجموعة معتبرة من النقود النوميدية البرونزية والفضية في مدينة قادش (Gades) مؤرخة بفترة حكم الملك ماسينيسا بالجنوب الإسباني[٤٣] دليلاً على أهمية النشاط التجاري الذي كان يربط الطرفين والذي دعمه إقامة بعض التجار الإسبان بالعاصمة كيرتا وميناء روسيكادا، وبالمقابل أقام تجار نوميديون بموانئ إسبانيا بغرض ممارسة التجارة[٤٤].

٤- المبادلات التجارية مع غاليا:

كانت جنوب غاليا كذلك حاضرة في ميدان التبادل التجاري مع قسنطينة (Cirta)، وهذا ما تؤكده تلك القطع النقدية الغالية المكتشفة بها[٤٥]، وكسر الفخار المختوم الذي عثر على نماذج منه بالخنق (Tiddis)[٤٦].

خاتمة

لقد لعبت مدينة قسنطينة (Cirta) دورًا تجاريًا متميزًا في المبادلات الداخلية والخارجية وانفتحت على عوالم البحر الأبيض المتوسط، وما كانت لتنعم بذلك لولا استفادتها من العديد من المميزات كالموضع الحصين عسكريًا والمدعم بالإمكانيات الاقتصادية، والاستقرار السياسي، والإدارة الحكيمة، وهي كلها أسباب تفسر لنا الدور الهام والخطير الذي اضطلعت به المدينة على مر العصور، ولولاها لكانت مجرد سوق محلية شبيهة بمعظم المدن الداخلية التي ظهرت ببلاد المغرب، والتي لم ترق إلى المكانة التي وصلت إليها قسنطينة.

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الهوامش:

1.محمد الهادي العروق ، مدينة قسنطينة ، دراسة في جغرافية العمران ، الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، ١٩٨٤ ص ص ١٤ .١٦.

2- Balout (L), Algérie préhistorique. Paris, Arts et Métiers graphiques, 1958, p 23.

٣ .محمد الهادي عروق ، نفس المرجع ، ص ١٨ .

4 - Berthier (A), Charlier (R), Le Sanctuaire punique d'El Hofra à Constantine .Paris, Arts et Métiers graphique, 1955. , p45 n48

5- Ibid, p81 n96.

6 - Ibid, p40 n4, p80 n92.

٧.منصوري (خ)، " ماسينيسا ودول المدن الإغريقية من خلال البقايا المادية التي وجدت بالخروب وضواحيها" ، حوليات المتحف الوطني للآثار ، العدد ١١ ، ص ١٠١.

8- Camps (G), Aux origines de la berbèrie, Massinissa ou les débuts de l'histoire, Libyca ar - ép, T VIII, 1960, p 200

9- Charène(CH) , Les relations commerciales de la Numidie et de la Maurétanie Césarienne avec Rome : notes préliminaires, L'Africa romana XV, Tozeur, 2002, Roma , p 9736 ; Les

منصوري (خ) ، المرجع السابق ، ص 100.

10- Pallottino (M), Relations entre Etrusque et Carthage du VII Siècle avant J.C nouvelles données et essais de périodisation, C.T, X, 44, 1963, P25.

11- Louis(P), 1912, Le Travail dans le monde romain. Paris, 1912, p28 ; Camps (G), 1961, Monuments et rites funéraires protohistorique. Paris, 1961, pp396 — 398 ; Decret (F), Fantar (M.H), L'Afrique de Nord dans l'antiquité (Des origines au V siècle. Paris, Payot, 1981, p 12.

12 — Sallustius, XV, 36, La guerre de Jugurtha, traduit par Alfred Ermon .Paris, Les Belles Lettres, 1941.

13 -Bertrandy (F), La communauté gréco-latine de Cirta (Constantine), capitale du royaume Numide pendant le II siècle et le premier moitié du premier siècle, Latamus, 1997, p4903.

١٤.منصوري (خ) ، المرجع السابق ، ص ١٠٢.

15- Gsell(St), Histoire ancienne de l'Afrique du Nord (H.A.A.N), T 4 , Réimpression de l'édition 1921 -1928. 0tto ZellerVerlag Osnabruck, 1972, pp 152- 155, 161.

16 - Hinglais(U), , Catalogue du musée archéologique de Constantine , R.S.A.C, 38, 1904, p 207 n 3800 — 3801, P208 n 3806, p209 n 3808 — 3809.

منصوري (خ) ، المرجع السابق ، ص 99

17- Charlier(R) , Berthier (A) ,op.cit, p 232 ; Hinglais(U) ,op .cit , p299.

18— Lassus (J), L'Archéologie Algérienne en 1958, libyca, ar. ep, VII, 1959, p296.

19 - Bonnel (L), Monument gréco punique de la Souma, R.S.A.C, 49. 1915, p169.

20-Gsell (St), Exploration scientifique de l'Algérie. Texte explicatif des planches, 1912, p126 pl 130 n 11- 12.

21- Lassus, (J), op.cit, p 296.

22- Bertrandy (F), Cirta, Encyclopédie Berbère, XII, Aix en Provence, Edisud, 1989, p 1967

٢٣. يقع ضريح الخروب على بعد ١٤ كلم جنوب شرق مدينة قسنطينة و٣ كلم غرب مدينة الخروب يبلغ ارتفاعه الحالي ٦ أمتار ، يعتقد أنه ضريح للملك ماسينيسا.

24- Thépinier (A), Réflexions et suppositions au sujet de découvertes faites à la Souma, R.S.A.C, 51. 1917, p 228

25 - منصوري (خ) ، ٢٠٠٢ ، ص ص ١٠٠ .١٠١.

26-Titius Livius, Histoire romaine ; XXXVI, 27, 2 ; XXXVI, 4,8 ; XLII, 20, Ed W. Weissenborn et H.J Muller, 1962.

27- Homelle, Les comptes de Demarès, Bulletin de Correspondance Hellénique, VI, 1882, pp10-15.

28- Ibid, XXXI, 19, 4; XXXII, 27, 2, XXX, 4, 8; XLII, 62.

29- Athénée, Ptolémée Evergete dans Fragmanta historicum graecorum, III, XII, 16, p 187 n8 Athénée, Ed, C. Muller

خديجة منصوري ، المرجع السابق ، ص ١٠٢.

30-Gsell (St), H.A.A.N, T3, p 307

٣١. منصوري (خ) ، المرجع السابق ، ص١٠٢.

Gsell (St), H.A.A.N, T3, p150. ١٠٢32-Berthier (A), Charlier (R), op.cit, p

33-Berthier, A ; Charlier, R, op.cit, p229; Id, un habitat punique à Constantine, Ant. Afr, T 16,1980, p23.

34- Debruge (A), La grotte des Pigeons à Constantine, R.S.A.C, 50,1916, p15

35-Ibid, p15.

36- Titus Livius, XXXI, 19, 4 ; XXXII, 27, 2 XXXV, 11, XXXVII,3, 1,4,8; XLIII, 6.

37- Id, XLV, 13-14.

38 - Gsell (St), H.A.A.N, T3, p311.

39- Etienne (R), Histoire et Archéologie de la Péninsule Ibérique antique, chronique III, 1978 — 1982, R. E.A, LXXXIV, 1982, pp 257-258.

40- Charène(CH), Les relations commerciales de la Numidie et de la Maurétanie Césarienne avec l'Espagne pendant le haut empire : notes préliminaires, Africa romana XVI, Rabat, 2004, Roma.2006, pp 1414.

41- Ibid, p1414.

42- Gsell (St), H.A.A.N, T4, p15.

43- Troussel (L), Le trésor monétaire de Tiddis, R.S.A.C, 66, 1948, p138.

44- Charrier (L), Description des monnaies de la Numidie et de la Maurétanie .Bone, 1882, pp 9 — 11; Gsell (St), H.A.A.N , T3, p 157.

45- Camps (G), op.cit, pp 199- 200 ; Lassus (J), op.cit, p261.

46- Charrier (L), op .cit, p 10.

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

دخول المذهب المالكي إلى الأندلس

"وعوامل انتشاره فيها"

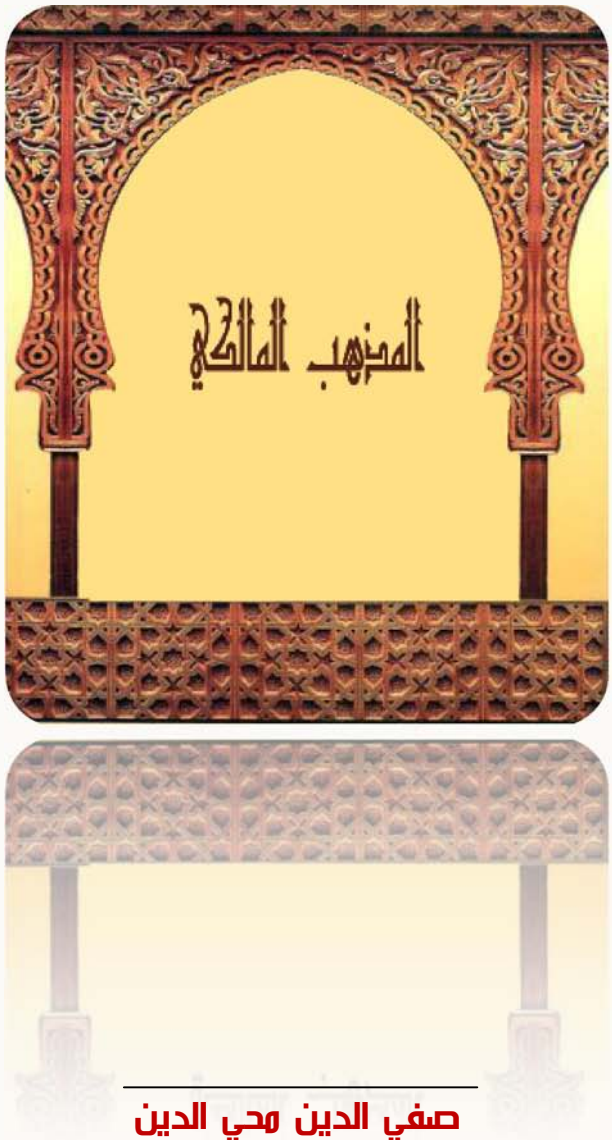

صفي الدين محي الدين
أستاذ مساعد قسم "ب"
جامعة معسكر
الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
صفي الدين محي الدين، دخول المذهب المالكي إلى الأندلس وعوامل انتشاره فيها.- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث عشر؛ سبتمبر ٢٠١١. ص ٩١ – ٩٥.
(www.historicalkan.co.nr)

مقدمة

عرفت الأندلس، بعد افتتاحها، انتشار المذهب الأوزاعي، نسبة إلى صاحبه عبد الرحمان بن عمرو بن يحمد من قبيلة أوزاع[١] (٨٨-١٥٧هـ/ ٧٠٧- ٧٧٤م)[٢]، إذ كانت الفتيا بالأندلس تدور برأيه، ويعود ذلك إلى أسباب أبرزها:

- عِظم أمر الأوزاعي في الشام، بحيث كان أمره في الشاميين أعز من أمر السلطان[٣]، ولأن غالبية العرب الذين شاركوا في فتح الأندلس والذين استوطنوها فيما بعد، كانوا من الشاميين فإنهم أدخلوا معهم هذا المذهب.
- تبني الحكام الأمويين في الأندلس للمذهب الأوزاعي، وبخاصة عبد الرحمان بن معاوية الملقب بالداخل (حكم ١٣٨- ١٧٢هـ/ ٧٥٦-٧٨٨م) وابنه هشام الملقب بالرضا (حكم ١٧٢- ١٨٠هـ/ ٧٨٨-٧٩٦م)[٤]، فأصبح المذهب الأوزاعي في عهدهما المذهب الرسمي للأندلس.

ولكن مع نهاية القرن الثاني وبداية الثالث الهجريين/ نهاية الثامن وبداية التاسع الميلاديين تراجع مذهب الأوزاعي تاركًا المجال للمذهب المالكي الذي انتشر في أرجاء الأندلس كلها. وهنا تبرز أمام الباحث إشكاليتان هما: مَن أدخل المذهب المالكي إلى الأندلس؟ ومتى؟ وما هي أهم العوامل التي ساعدته على الانتشار في الأندلس؟ وسنحاول من خلال هذا العرض الإجابة على هاتين الإشكاليتين اعتمادًا على الإشارات التي وردت في المصادر.

تختلف المصادر التاريخية حول تحديد شخصية الفقيه الذي أدخل المذهب المالكي إلى الأندلس، والفترة التي تم فيها ذلك، فالمستشرق الإسباني أنجل جنثالث بالنثيا يرى أن مسألة تحديد من أدخل المذهب المالكي إلى الأندلس تبقى غامضة[٥]، ويسانده في ذلك إحسان عباس الذي يقر بصعوبة تحديد الفقيه الذي أدخل المذهب المالكي إلى الأندلس[٦]، إلا أن الأمر يتأرجح بين فقيهين اثنين هما الغازي أو الغاز بن قيس (ت ١٩٩ هـ/ ٨١٤م)،[٧] وزياد بن عبد الرحمان المعروف بشبطون (ت سنة ٢٠٤هـ/ ٨١٩م)[٨]. ومن خلال قراءة متأنية لمجموعة من النصوص التراجمية والتاريخية، يصبح بإمكاننا استجلاء الأمر ولو جزئيًا، بعرض عدد من الاستنتاجات والقرائن والمتمثلة في:

- أن الغازي بن قيس اكتفى بإدخال الموطأ في صورته الأولى، أي عندما كان الإمام مالك معتكفا على تأليفه[٩]، ذلك لأن رحلة هذا الفقيه إلى المشرق وأخذه عن الإمام مالك تمت في صدر إمارة عبد الرحمان الداخل[١٠] أي في نهاية الثلاثينات وبداية الأربعينات من القرن الثاني الهجري، ثم عاد إلى الأندلس في أيام نفس الأمير[١١].
- أن الغازي بن قيس أخذ، أثناء تواجده في المشرق، عن الأوزاعي (ت ١٥٧هـ/ ٧٧٤م)، وعن عبد الملك بن جريج (٨٠ – ١٥٠هـ/ ٦٩٩ – ٧٦٧م)[١٢]، مما يدل على أنه عاد إلى الأندلس قبل سنة ١٥٠هـ/ ٧٦٧م، أي قبل وفاة ابن جريج الذي يعتبر أحد شيوخه.
- أن مالك بن أنس انتهى من تأليف الموطأ بعد وفاة الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور (حكم بين ١٣٦ و ١٥٨هـ/ ٧٥٤ – ٧٧٥م)[١٣].
- أن الإمام مالك بن أنس ظل يتعهد كتابه الموطأ بالتنقيح والتهذيب والتحري طيلة أربعين سنة إلى غاية وفاته سنة ١٧٩هـ/ ٧٩٥م.[١٤]

دورية إلكترونية، محكمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

وبذلك يمكن القول ؛ بأن الغازي بن قيس أدخل إلى الأندلس كتاب الموطأ في صورته الأولى ، وذلك قبل سنة ١٥٠هـ/ ٧٦٧م ، أي قبل أن يتولاه الإمام مالك بالتهذيب والتنقيح. أما بشأن زياد شبطون فتتفق المصادر على أنه أدخل موطأ مالك مثقفا[١٥] ومكملا ومتقنا بالسماع[١٦] ، ولم يكتف بذلك ، بل أدخل أيضًا علم السنن ومسائل الحلال والحرام ووجوه الفقه والأحكام[١٧] ، أي أنه أخل الفقه المالكي[١٨] ، ولقب بفقيه الأندلس[١٩] ، ومفتي الأندلس.[٢٠]

مما سبق يمكننا أن نقول بأن الغازي بن قيس اكتفى بإدخال موطأ مالك في صورته الأولى ، غير المنقحة ، أما شبطون فقد أدخل الموطأ كاملا منقحا ، لا يختلف عن الموطأ الذي رواه يحيى بن يحيى الليثي (توفي سنة ٢٣٤هـ/ ٨٤٨م)[٢١] عن مالك ، والدليل على ذلك أن يحيى المذكور شك في سماع بعض أبواب في كتاب الإعتكاف من الموطأ ، فأثبت روايته فيها عن زياد شبطون[٢٢] ، مع العلم أن رواية يحيى بن يحيى للموطأ ، تعتبر إلى حد الآن ، إحدى أشهر الروايات.

ومن خلال هذه المعطيات ، نخلص إلى القول بأن ما قام به شبطون كان مكملا لما قام به ابن قيس ، إذ يرجع الفضل إلى هذا الأخير في إدخال الموطأ إلى الأندلس ، وتعريف الأندلسيين به ، بحيث أقرأه لعدد من الطلبة الذين كانوا يتحولقون حوله[٢٣] ، ومن المحتمل أن يكون شبطون أحدهم ، لأن أهل الأندلس تعودوا على أخذ الموطأ في بلدهم قبل التوجه نحو إفريقية أو المشرق.

أما دخول المذهب المالكي إلى الأندلس ، فقد تم بطرقة تدريجية منذ إدخال الغازي بن قيس للموطأ قبل سنة ١٥٠هـ/ ٧٦٧م ، أي أثناء حكم الأمير عبد الرحمان بن معاوية ، كما رحل عدد من الفقهاء الذين إلى المشرق وأخذوا عن مالك وغيره ، وعادوا إلى الأندلس بعلم غزير ، وعملوا على نشر المذهب المالكي ، نذكر منهم ، إضافة إلى الغازي بن قيس وزياد شبطون ، محمد بن يحيى السبئي[٢٤] ، وحفص بن عبد السلام السرقسطي (ت قريبا من ٢٠٠هـ/ ٨١٥م)[٢٥] ، وأخاه حسان بن حفص[٢٦] ، وسعيد بن عبدوس (ت ١٨٠هـ/ ٧٩٦م)[٢٧] ، وسعيد بن أبي هند يكنى أبا عثمان[٢٨].

وفي عهد الأمير الحكم الربضي (حكم ١٨٠-٢٠٦هـ/ ٧٩٦-٨٢٢م) تحولت الفتيا إلى المذهب المالكي[٢٩] ، وتحديدًا بعد هيج الربض سنة ٢٠٣هـ/ ٨١٩م[٣٠] ، فأصبح بذلك المذهب المالكي هو المذهب الرسمي للدولة في الأندلس ، ويعود الفضل في ذلك إلى يحيى بن يحيى الليثي[٣١] الذي جلس لتدريس الفقه المالكي ونشره في أوساط طلبة العلم ، ولمنصبه كمستشار للأمير الحكم فيما يخص تولية القضاة.

فهذه الجلة من الفقهاء الذين تتلمذوا على يد الإمام مالك ، عملوا على نشر المذهب المالكي في الأندلس مستفيدين من عدة عوامل سهلت عليهم هذه المهمة ، ولعل أبرز هذه العوامل ما يلي: يذكر ابن خلدون في مقدمته سببين لانتشار المذهب المالكي في المغرب والأندلس ، فيقول متحدثًا عن أهل المغرب والأندلس: « لما أن رحلتهم كانت غالبا إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم ، والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج إلى العراق ، ولم يكن العراق في طريقهم ، فاقتصروا عن الأخذ عن علماء المدينة وشيخهم وإمامهم يومئذ مالك وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده ، فرجع إليه أهل المغرب والأندلس وقلدوه دون غيره ممن لم تصل إليهم طرقته ، وأيضا فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي كانت لأهل العراق ، فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة ».[٣٢] ابن خلدون يشير هنا إلى سببين اعتبرهما رئيسين ، ذلك لأنه خصهما بالذكر دون غيرهما من الأسباب: السبب الأول: ويتمثل في انتشار المدارس الفقهية المالكية على طريق الحجاج المغاربة والأندلسيين ، وبخاصةً مدرسة القيروان التي كان من أبرز فقهائها الذين عملوا على نشر المذهب المالكي ، أسد بن الفرات (١٤٥-٢١٤هـ/ ٧٦٢-٨٢٩م)[٣٣] ، وأبو سعيد سحنون التنوخي (١٦٠-٢٤٠هـ/٧٧٧-٨٥٤م) ، صاحب أشهر مدونة في الفقه المالكي في الغرب الإسلامي[٣٤] وغيرهما ، ومدرسة مصر التي كانت تضم جلة من الفقهاء ، أبرزهم عبد الله بن وهب القريشي (١٢٥-١٩٧هـ/٧٤٣-٨١٣م) ، جمع بين الفقه والحديث وله عدة مؤلفات[٣٥] وعبد الرحمان بن القاسم العتقي (١٣٢-١٩١هـ/ ٧٥٠-٨٠٦م) من أجل أعماله تأليفه للمدونة التي أصبحت مرجعًا رئيسًا لكل من يريد أن يتفقه في المالكية[٣٦] ، وأبو عمرو أشهب بن عبد العزيز (١٤٥-٢٠٤هـ/ ٧٦٢-٨١٩م) فقيه الديار المصرية في عهده[٣٧] وغيرهم.

فقد كان المغاربة والأندلسيون ، وهم في طريقهم نحو البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج ، يمرون بالقيروان ومصر فيحتكون بالفقهاء المالكية في هاتين الحاضرتين فيتأثرون بهم ، ثم يصلون إلى الحجاز التي كان يسيطر عليها الإمام مالك ثم تلاميذه من بعده ، وهذا كله في غياب أية منافسة من المذاهب السنية الأخرى التي كانت بعيدة عن طريق الحجيج المغاربة والأندلسيين ، وإلى ذلك يشير المقدسي بقوله :«... ألا ترى أن الأوزاعي كان من أئمة الفقه وقد بطل مذهبه لهذا المعنى ، فلوكانا على سابلة الحاج لنقل مذهبيهما أهل الشرق والغرب...[٣٨] » ، وهذا العامل كان له أبلغ الأثر في انتشار المذهب المالكي في الأندلس.

ومن الأندلسيين الذين اغتنموا فرصة التوجه إلى الحج للتفقه في المذهب المالكي ، نذكر ابن الجنازة إسماعيل بن سعيد[٣٩] الذي أخذ دروسا في الفقه المالكي في مصر وفي القيروان ، وأحمد بن سعيد بن حزم[٤٠] الذي تشرب بالمذهب المالكي في مكة وفي مصر وفي القيروان ، وعاد إلى الأندلس بعلم غزير ، وأحمد بن محمد بن هارون الأنصاري[٤١] الذي سمع بمكة وبمصر وبالقيروان ، وغير هؤلاء كثير.

السبب الثاني: الذي يسوقه ابن خلدون هو التماثل الذي كان بين سكان الحجاز من جهة والمجتمع المغربي والأندلسي من جهة أخرى آنذاك ، إذ كان يطغى على هذه المجتمعات ، من وجهة نظر هذا العالم ، الطابع البدوي الذي سهل انتقال المذهب المالكي إلى المغرب والأندلس.

فهذا الطرح ، إن كان ينطبق على المغرب ، فإنه حتما لا ينطبق على الأندلس التي كان لها نصيبها من التحضر ، إذ شهدت قيام حضارات عديدة أبرزها الحضارة القوطية ، التي ورث المسلمون جزءًا هامًا منها ، كما أن مؤسسي الدولة الأموية هناك لم يكونوا بدوًا ، بل كانوا أصحاب حضارة راقية في المشرق ، نقلوا معهم إلى الأندلس بعضًا من مظاهرها ، كما لا ينطبق ذلك على مصر مهد الحضارة الفرعونية والحضارة القبطية ، فلا يمكن بحال من الأحوال القول بأن البداوة عمل من عوامل انتشار المذهب المالكي.

وجاء في رسائل ابن حزم[٤٢] ما يلي: « مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان: مذهب أبي حنيفة: فإنه لما ولي قضاء القضاة أبو يوسف كانت القضاة من قبله ، فكان لا يولي قضاء البلاد

دورية إلكترونية، محكمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

من أقصى المشرق إلى أقصى أعمال إفريقية إلا أصحابه والمنتمين إلى مذهبه ، ومذهب مالك بن أنس عندنا فإن يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان ، مقبول القول في القضاة ، فكان لا يلي قاض في أقطارنا إلا بمشورته واختياره ، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه ، والناس سراع إلى الدنيا والرياسة ، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به ، على أن يحيى بن يحيى لم يل قضاء قط ولا أجاب إليه ، وكان ذلك زائدا في جلالته عندهم ، وداعيا إلى قبول رأيه عندهم...».[٤٣]

يشير ابن حزم في هذا النص إلى سببين هامين ، أولهما سَمْت الفقهاء المالكية وزهدهم في المناصب التي كانت تعرض عليهم ، مما زاد من قبول هؤلاء الفقهاء لدى الحكام الذين تقربوا منهم واتخذوهم مستشارين ، وهذا زياد شبطون الذي رفض تولي القضاء في عهد الأمير هشام الرضا ، فأعجب هذا الأخير به وقال:« لَيْتَ النَّاس كزِيَادٍ ، حتَّى أُكفى حب أهْل الرَّغبَة في الدنْيا»[٤٤] ويحيى بن يحيى الليثي الذي كان يشاوره الأمير الحكم بن هشام في تولية القضاة.

وربما عاد عزوف هؤلاء الفقهاء عن تولي القضاء إلى تأسيهم بشيخهم مالك بن أنس ، الذي رفض تولي أي منصب للعباسيين ، وذلك ما زاد من إجلال الخاصة والعامة له ، إلا أن بعضهم كانت له حظوة لدى حكام الأندلس. ففي عهد الأمير الحكم بن هشام كان القضاة لا يُعينون ولا يُقالون إلا بمشورة يحيى بن يحيى الليثي.

والسبب الثاني ، حسب ابن حزم ، هو تولي عدد من فقهاء المالكية خطة القضاء ، التي تأتي ، من حيث الأهمية ، في الدرجة الثانية بعد الإمارة[٤٥] ، إضافة إلى أهميتها الدينية ، فالقاضي يبت في القضايا والنوازل التي تعرض عليه وفق المذهب الذي يتبعه ، وهو بذلك يفرض على الناس ، بطريقة أو بأخرى ، إتباع مذهبه.[٤٦]

إلى جانب ذلك ، هناك عوامل أخرى كان لها دورها في انتشار المذهب المالكي في الأندلس ، نوجزها فيما يلي:

- ثناء الإمام مالك على الحكام الأمويين في الأندلس ، وبخاصة الأمير هشام بن عبد الرحمان ، فلمّا وصفه زياد بن عبد الرحمن للإمام مالك قال مالك:« ليت الله تعالى زين موسمنا بمثل هذا»[٤٧]. فكان لهذا الثناء وقعه في نفوس الأمويين ، وبخاصة الأمير هشام الذي بدأ يتقرب من الفقهاء المالكية ويتودد إليهم ، فلما مر بسعيد بن أبي هند[٤٨] ، وهو أحدهم ، قال له: « لقد ألبسك مالك ثوبًا جميلاً»[٤٩] ، كما أراد أن يولي زياد شبطون القضاء ، فرفض هذا الأخير. ويمكن القول بأن قصر مدة إمارة هشام ، والتي تقدر بحوالي ثمان سنوات فقط ، هي التي حالت دون ترسيم المذهب المالكي في الأندلس ، وأرجئ ذلك إلى إمارة ابنه الحكم.
- الصفات الحميدة التي اتصف بها فقهاء المالكية الأندلسيون ، أبرزها الزهد والورع والجهاد والقوة مثل أحمد بن خلوف[٥٠] ، وبعضهم كان مجاب الدعوة مثل بقي بن مخلد[٥١] وعتاب بن هارون[٥٢] ، كما كان يغلب على أغلبهم الوقار والهيبة ، وهذه الأوصاف أكسبتهم احترام الخاصة والعامة لهم ، كما مكنتهم من التأثير في المجتمع الأندلسي ، وساهمت بذلك في انتشار المذهب المالكي.
- بلوغ فقهاء المالكية شأوًا كبيرًا في العلم ، فقد تناولوا الموطأ بالدراسة والشرح ، من بينها كتاب في شرح الموطأ ليحيى بن إبراهيم بن مزين (ت سنة ٢٦٠هـ/٨٧٤)[٥٣] ، وكتاب "تفسير الموطأ" لعبد الملك بن حبيب(١٧٤- ٢٣٨ هـ / ٧٩٠ - ٨٥٣ م)[٥٤] وغيرهما. كما ألف هذا الأخير كتابه الموسوم " الواضحة " التي أصبحت أصلا ثانيا إلى جانب الموطأ ، فعكف عليها أصحاب الأندلس وتناولوها بالشرح والحفظ ، وظلوا كذلك إلى أن ألف محمد بن أحمد بن عبد العزيز العتبي (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م)[٥٥] كتبه المسماة " العتبية " ، فاعتمدها أهل الأندلس وهجروا الواضحة وما سواه[٥٦] ، ولا يمكن في هذا المجال حصر مؤلفات فقهاء المالكية نظرا لكثرتها ولتعدد فنونها. إضافة إلى ذلك ، فإنهم كانوا يقومون بنشر مذهبهم عن طريق تلقينه ، إلى جانب علوم أخرى ، لطلبة العلم.
- شخصية الإمام مالك بن أنس ، كان لها دور هام في انتشار مذهبه في الأندلس وفي غيرها من مناطق العالم الإسلامي ، إذ يعتقد المالكية أن عالم المدينة المقصود من وراء الحديث المنسوب إلى النبي ﷺ والذي نصه: « يضربون أكباد الإبل ويطلبون العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة »[٥٧] هو الإمام مالك.[٥٨]

وقد ساق القاضي عياض في كتابه ترتيب المدارك جل ما يتعلق بأوصاف الإمام مالك الخَلْقية والخُلُقية ، وأقوال أهل العلم فيه ، مما يدفع إلى الاعتقاد بأن المذهب المالكي هو الأولى بالإتباع من المذاهب السنية الثلاثة الأخرى ، وما يؤيد ذلك أن كبار الفقهاء المعاصرين له قد عدَّلوه ، وعلى رأسهم سفيان بن عيينة(١٠٧- ١٩٨ هـ/ ٧٢٥- ٨١٤ م)[٥٩] الذي قال ، عند بلوغه وفاة الإمام مالك ،:« ما تُرك على الأرض مثلُه.. مالك إمام ، ومالك عالم أهل الحجاز ، ومالك حجة في زمانه ، ومالك سراج الأمة ، وما نحن ومالك ، إنما كنا نتبع آثار مالك...»[٦٠] وقال الإمام الشافعي (١٥٠- ٢٠٤ هـ/ ٧٦٧- ٨٢٠ م)[٦١] -وهو أحد تلاميذ الإمام مالك-: « إذا ذُكر العلماء فمالك النجم ، ولم يبلغ أحد في العلم مبلغ مالك لحفظه وإتقانه وصيانته...»،[٦٢] وكان يقول عنه الإمام الأوزاعي: « عالم العلماء وعالم أهل المدينة ومفتي الحرمين »[٦٣] ، وقال فيه الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤- ٢٤١هـ/ ٧٨٠- ٨٥٥م)[٦٤]:« مالك سيد من سادات أهل العلم ، وهو إمام في الحديث والفقه ، ومَن مثلُ مالك متبعٌ لآثار من مضى؟ مع عقل وأدب ...».[٦٥]

هذه الشهادات من لدن أئمة المذاهب السنية الثلاثة الأخرى وبعض كبار علماء هذه الأمة ، كان لها تأثير كبير في تقبل سكان الأندلس خاصة للمذهب المالكي ، وانتشاره بالتالي في هذا الجزء من العالم الإسلامي. فالعوامل التي سبق لنا ذكرها تفاعلت وأدت إلى انتشار المذهب المالكي في أوساط الخاصة والعامة على حد سواء ، وجعلت من الأندلس قلعة مالكية منيعة ، تحطمت عند أسوارها كل المذاهب الأخرى ، إذ لم يفلح أي مذهب من الدخول والاستقرار في الأندلس أمام المقاومة المستميتة التي كان يبديها فقهاء المالكية خاصة. وظلت الأندلس مالكية إلى غاية سقوط مملكة بني الأحمر بغرناطة على يد المسيحيين سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م ، والذي يمثل نهاية الوجود الإسلامي في الأندلس.

خاتمة

بعد هذا العرض يمكننا القول ؛ بأن الأندلس كانت بحق المركز الرئيس للمالكية في العالم الإسلامي ، بعد تعرض المذهب المالكي لبعض الأزمات في المناطق الأخرى التي كان ينتشر بها. فقدْ فَقَدَ المذهب المالكي سيطرته على مصر نتيجة مزاحمة المذهب الشافعي

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

لـه ، لأن صاحبه استقر بمصر من ١٩٩ إلى ٢٠٤هـ/ ٨١٤-٨١٩م ، وهذا ما سمح لـه بتكوين مدرسة فقهية جلبت إليها أعدادًا من المصريين. أما في إفريقية والمغرب ، فقد تعرض المذهب المالكي لأزمة خانقة كادت أن تقضي عليه ، وتتمثل في قيام الدولة العبيدية أو الفاطمية الشيعية التي تأسست بإفريقية (تونس) سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م ، ثم انتقلت إلى مصر سنة ٣٦٠هـ/٩٦٩م ، وخلال هذه الفترة عانى فقهاء المالكية في إفريقية والمغرب من التقتيل والتشريد والسجن والتعذيب على يد حكام هذه الدولة. وبقيت الأندلس في منأى عن هذه الأزمات ، وساهمت في ثبات المذهب المالكي في المغرب.

وقد أنجبت الأندلس فقهاء أجلاء ضالعين في الفقه المالكي ، كان لهم نشاط علمي حثيث ، تمثل أساسًا في إثراء الفقه المالكي بمؤلفات ذات قيمة علمية كبيرة ، من أمثلتهم أبو الوليد الباجي (٤٠٣-٤٧٤هـ/ ١٠١٢-١٠٨١م)[٦٦] ، وابن الطلاع محمد بن الفرج (٤٠٤-٤٩٧هـ/ ١٠١٤-١١٠٤م)[٦٧] ، وأبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الجد (٤٥٠-٥٢٠ هـ/ ١٠٥٨-١١٢٦م)[٦٨] ، والحفيد (٥٢٠-٥٩٥هـ/ ١١٢٦-١١٩٨م)[٦٩] ، ولا يسع المجال هنا لذكر كل فقهاء المالكية الأندلسيين ، وجرد كل مؤلفاتهم. كما تجب الإشارة في هذا المقام إلى الدور الذي لعبه هؤلاء الفقهاء في الذب عن المذهب المالكي في الأندلس ومنع تسلل أي مذهب آخر إليها ، وظل الأمر كذلك إلى غاية سقوط مملكة غرناطة.

الهوامش

(١) أوزاع أو الأوزاع اسم قرية على مقربة من باب الفراديس من دمشق ، ينظر الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، مؤسسة ناصر للثقافة ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٠ ، ص ٦٣.

(٢) ابن حبان البستي ، مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار ، تحقيق مرزوق علي إبراهيم ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع المنصورة ، ط١ ، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م ، ص ٢٨٥ ، ٢٨٦. وشمس الدين الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنووط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٩ ، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م ، ج٧ ص١٠٧ وبعدها ، رقم ١٠٦٣. ومحمد بن سعد ، الطبقات الكبرى ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ط١ ، ١٩٦٨ ، ج٧ ص ٤٨٨. وابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر بيروت ، ط١ ، ١٩٧١ ، ج٣ ص ١٢٧.

(٣) خير الدين الزركلي ، الأعلام ، دار العلم للملايين ، ط١٥ ، ماي ٢٠٠٢ ، ج٣ ص ٣٢٠.

(٤) المقري التلمساني ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر بيروت ، ط١ ، ١٩٦٨ ، ج٣ ص ٣٢٠.

(٥) أنجيل جنثالث بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمه حسين مؤنس ، مكتبة الثقافة الدينية ، د. ت ، ص٤١٧.

(٦) إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي(عصر سيادة قرطبة)، دار الثقافة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٦٠ ، ص ٢٤.

(٧) ترجمته في: القاضي عياض ، ترتيب المدارك وتقريب المسالك ، ضبطه وصححه محمد سالم هاشم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م ، ج١ ص ١٩٩- ٢٠٠ — الضبي ، بغية الملتمس ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م ، ج٢ ص ٥٧٥ رقم ١٢٧٦ — الحميدي ، جذوة المقتبس تحقيق روحية السويفي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م ، ص٢٩١ رقم ٧٤٨.

(٨) ترجمته في: ابن الفرضي ، تاريخ علماء الأندلس ،تحقيق روحية السويفي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م ، ص١٣١و ١٣٢ ، رقم ٤٥٨ - القاضي عياض ، المصدر السابق ، ج١ ص ٢٠٠ وبعدها — الضبي ، المصدر السابق ، ج١ ص٣٧٢ رقم ٧٥٣ — الحميدي ، المصدر السابق ، ص ١٩١ ، ١٩٢ رقم ٤٣٩ (مع اختلاف في تحديد سنة وفاته).

(٩) القاضي عياض ، المصدر السابق ، ج١ ص ١٩٩.

(١٠) ابن الفرضي ، المصدر السابق ، ص ٢٧٢.

(١١) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق وتعليق إسماعيل العربي المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ١٩٨٩ ، ص٤١.

(١٢) الزركلي ، المرجع السابق ، ج ٤ ص ١٦٠. الذهبي ، المصدر السابق ، ج ٦ ص ٣٢٥ وبعدها.

(١٣) القاضي عياض ، المصدر السابق ، ص ١٠١. وبالنسبة لترجمة أبي جعفر المنصور ، يمكن العودة إلى الذهبي ، المصدر السابق ، ج٧ ص ٨٣ وبعدها ، رقم ١٠٥٢ — الزركلي ، المرجع السابق ، ج ٤ ص ١١٧.

(١٤) القاضي عياض ، المصدر السابق ، ج١ ص ١٠٢-١٠٣.

(١٥) المصدر نفسه ، ج١ ص ٢٠٠.

(١٦) المقري ، المصدر السابق ، ج ٢ ص٤٦ —

(١٧) القاضي عياض ، المصدر السابق ، ج١ ص ٢٠٠.

(١٨) الضبي ، المصدر السابق ، ج٢ ص ٥٧٥ — الحميدي ، المصدر السابق ، ص ٢٩١.

(١٩) القاضي عياض ، المصدر السابق ج١ ص ٢٠١.

(٢٠) الذهبي ، المصدر السابق ، ج٩ ص ٣١١.

(٢١) أشهر فقهاء الأندلس ، أخذ الموطأ عن مالك ولازمه حتى آخر أيامه ، وهو صاحب أشهر رواية لهذا الكتاب. يمكن العودة إلى: ابن الفرضي ، المصدر السابق ، ص ٤٣١ ، رقم ١٥٥٦ — الحميدي ، المصدر السابق ، ص ٣٤٥و ٣٤٦ ، رقم ٩٠٩ — الذهبي ، المصدر السابق ، ج ١٠ ص ٥١٩ ، رقم ١٧٣٠ — القاضي عياض ، المصدر السابق ، ج١ ص ٣١٠ وبعدها.

(٢٢) ابن الفرضي ، المصدر السابق ، ص٤٣١.

(٢٣) القاضي عياض ، المصدر السابق ، ج١ ص ١٩٩.

(٢٤) ابن الفرضي ، المصدر السابق ، ص ٢٩٤ رقم ١٠٩٦.

(٢٥) ابن الفرضي ، المصدر السابق ، ص ١٠٣ ، رقم ٣٦٥ — الحميدي ، المصدر السابق ، ص١٧٣ ، رقم ٣٨٢.

(٢٦) ابن الفرضي ، المصدر السابق ، ص ١٠١ ، رقم ٣٥٩ — الحميدي ، المصدر السابق ، ص ١٧١ ، رقم ٣٧٢.

(٢٧) ابن الفرضي ، المصدر السابق ، ص ١٣٧ ، رقم ٤٧١ — الحميدي ، المصدر السابق ، ص٢٠٤ ، رقم ٤٧٦.

(٢٨) ابن الفرضي ، المصدر السابق ، ص١٣٦ رقم ٤٦٩ — الحميدي ، المصدر السابق ، ص ٢٠٧ ، رقم ٤٨٦.

(٢٩) ابن حيان القرطبي ، السفر الثاني من كتاب المقتبس ، تحقيق محمود علي مكي ، مركز فيصل للبحوث وللدراسات الإسلامية ، د.ت. ص١٩٩.

(٣٠) حسين مؤنس ، شيوخ العصر في الأندلس ، دار الرشاد ، القاهرة ، ط١ ، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧ ، ص ١٥.

(٣١) لقبه الإمام مالك بعاقل الأندلس ، أصله من قبيلة مصمودة البربرية ، صاحب إحدى أشهر روايات الموطأ ترجمته عند المقري ، المصدر السابق ، ج٢ ص٩.

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

(٣٢) عبد الرحمان بن خلدون ، المقدمة ، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة ، مراجعة سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م ، ص ٥٦٨.

(٣٣) أبو عبد الله أسد بن الفرات بن سنان ، قاضي القيروان وفاتح صقلية ، ومصنف الأسدية في الفقه المالكي ، ينظر: أبو العرب تميم ، طبقات علماء إفريقية ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، د.ت. ص٨١..٨٣ - أبو بكر المالكي ، رياض النفوس ، تحقيق بشير البكوش ، دار الغرب الإسلامي ، ط٢ ، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م ، ج١ ص ٢٥٤.

(٣٤) القاضي عياض ، المصدر السابق ، ج١ ص ٣٣٩ وبعدها — ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج٣ ص ١٨٠ وبعدها — أبو العرب تميم ، المصدر السابق ، ص ١٠١ - الزركلي ، المرجع السابق ، ج٤ ص٥.

(٣٥) القاضي عياض ، المصدر السابق ، ج١ ص٢٤٣ وبعدها — ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج٣ ص٣٦ - الزركلي ، المرجع السابق ، ج٤ ص ١٤٤.

(٣٦) القاضي عياض ، المصدر السابق ، ج١ ص ٢٥٠ وبعدها — الزركلي ، المرجع السابق ، ج٣ ص ٣٢٣.

(٣٧) القاضي عياض ، المصدر السابق ، ج١ ص ٢٥٩ وبعدها — الزركلي ، المرجع السابق ، ج٣ ص ٣٣٣.

(٣٨) شمس الدين المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، وضع حواشيه محمد أمين الضناوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٣م/ ١٤٢٤هـ ، ص ١٣٠.

(٣٩) ابن الفرضي ، المصدر السابق ، ص ٦٦ رقم ٢٢٢.

(٤٠) المصدر نفسه ص ٤٦ رقم ١٤٢.

(٤١) المصدر نفسه ، ص ٥٩ رقم ١٩٥.

(٤٢) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم أبو محمد الظاهري (٣٨٤- ٤٥٦هـ/ ٩٩٤- ١٠٦٤م) عالم الأندلس وأحد أئمة الإسلام ، له عدة مؤلفات في علوم مختلفة ، ترجمته عند الحميدي ، المصدر السابق ، ص ٢٧٧ رقم ٧٠٨ — الضبي ، المصدر السابق ، ج٢ ص ٥٤٣ ، رقم ١٢٠٨ - المقري ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٧٧.

(٤٣) ابن حزم ، رسائل ابن حزم الأندلسي ، تحقيق إحسان عباس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط٢ ، ١٩٨٧ ، ج٢ ص٢٢٩.

(٤٤) الخشني ، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ، صححه ونشره السيد عزت العطار الحسيني ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط٢ ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م ، ص١٤ - ابن الفرضي ، المصدر السابق ، ص ٢٩٤.

(٤٥) الخشني ، المصدر السابق ، ص١١.

(٤٦) توجد أمثلة عن مالكيين عينوا قضاة في الأندلس في عهد الدولة الأموية ، ذكرهم ابن الفرضي ، منهم أحمد بن موسى بن أحمد أبو بكر بن الإمام ، ص ٥٧ ، رقم ١٨٨ ، وحزم بن غالب الرعيني ، ص ١٠٢ رقم ٣٦١.

(٤٧) ابن القوطية ، المصدر السابق ، ص ٤٦ - المقري ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٣٧.

(٤٨) يكنى أبا عثمان ، أصله من طليطلة ، رحل ولقي مالك بن أنس الذي كان يسميه الحكيم ، ترجمته عند ابن الفرضي ، المصدر السابق ، ص١٣٦ رقم ٤٦٩ —الحميدي ، المصدر السابق ، ص ٢٠٧ ، رقم ٤٨٦.

(٤٩) ابن القوطية ، المصدر السابق ، ص ٤٧.

(٥٠) ابن الفرضي ، المصدر السابق ، ص ٦٢ رقم ٢٠٦.

(٥١) نفسه ، ص٨٦ ، رقم ٢٨٣.

(٥٢) نفسه ، ص ٢٤١ ، رقم ٨٨٨.

(٥٣) الحميدي ، المصدر السابق ، ص ٣٣٧ ، رقم ٨٨٠

(٥٤) ابن الفرضي ، المصدر السابق ، ص ٢٢١ ، رقم ٨١٦ —الحميدي ، المصدر السابق ، ص ٢٥٠ ، رقم ٦٢٨.

(٥٥) ابن الفرضي ، المصدر السابق ، ص ٢٩٧ ، رقم ١١٠٤ — الحميدي ، المصدر السابق ، ص ٣٦ ، رقم ٥.

(٥٦) ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص ٥٦٩.

(٥٧) أبو عبد الرحمان أحمد النسائي ، السنن الكبرى ، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداوي وسيد كسروي ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط١ ، ١٤١١هـ/ ١٩٩١ ، ج٢ ص ٤٨٩.

(٥٨) القاضي عياض ، المصدر السابق ، ج١ ص ٣٣.

(٥٩) محدث الحرم المكي ، الإمام الكبير ، حافظ العصر ، شيخ الإسلام ، كان إماماً عالماً ثبتاً حجة زاهداً ورعاً مجمعاً على صحة حديثه وروايته ، وحج سبعين حجة ، تنظر ترجمته عند الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، المصدر السابق ، ج٨ ص ٤٥٤ وما بعدها — ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج٢ ص ٣٩١ — الزركلي ، الأعلام ، ج٣ ص١٠٥.

(٦٠) القاضي عياض ، المصدر السابق ، ج١ ص ٣٤- ٣٥.

(٦١) عالم العصر ، ناصر الحديث ، فقيه الملة ، صاحب إحدى المذاهب السنية الأربعة ، ترجمته عند: الذهبي ، المصدر السابق ، ج ١٠ ص ٥ إلى ٩٩ — ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج٤ ص١٦٣ إلى ١٦٩ — الزركلي ، المرجع السابق ، ج٦ ص٢٦.

(٦٢) القاضي عياض ، المصدر السابق ، ج١ ص ٦٢.

(٦٣) المصدر نفسه ، ج١ ص ٣٥.

(٦٤) صاحب أحد المذاهب السنية الأربعة ، إمام المحدثين ، كان يحفظ مليون حيث ، ينظر ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج١ ص ٦٣ إلى ٦٥ — الذهبي ، المصدر السابق ، ج١١ ص ١٧٧ وما بعدها — الزركلي ، المرجع السابق ، ج١ ص ٢٠٣ — ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ط١ ، ١٩٦٨ ، ج٧ ص ٣٥٤ و٣٥٥.

(٦٥) المصدر نفسه ، ج١ ص٦٢.

(٦٦) أحد كبار فقهاء المالكية في الأندلس في عصر ملوك الطوائف ، له مؤلفات قيمة منها: "إحكام الفصول في أحكام الأصول" ، وكتاب "المنتقى" وهو في شرح موطأ مالك ، وشرح "المدونة" ، وناظر ابن حزم صاحب المذهب الظاهري ابن سعيد المغربي ، المغرب في حلى المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط٤ ، د.ت ، ج١ ص٤٠٤.

(٦٧) فقيه مالكي له مؤلفات أهمها "نوازل الأحكام النبوية" ، وله كتاب في الشروط " أو "الوثائق " وله " سند في موطأ يحيى " ابن بشكوال ، الصلة ، اعتنى به ووضع فهارسه صلاح الدين الهواري ، المكتبة العصرية ، صيدا- بيروت ، ط١ ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م ، ص٤٤٢ ، رقم ١٢٤٢ — ابن سعيد المغربي ، المصدر السابق ج١ ص١٦٥.

(٦٨) فقيه عالم حافظ للفقه عارف بالفتوى على مذهب مالك ، له عدة مؤلفات من بينها ، "الفتاوى" و"البيان والتحصيل" وغيرهما ، ينظر ابن بشكوال ، المصدر السابق ، ص ٤٥٠.

(٦٩) فقيه الأندلس وعالمها ، لم ينشأ في الأندلس مثله كمالا وعلما وفضلا ، ألف في الفقه والفلسفة والطب وغيرها من العلوم ، ينظر ابن الأبار ، التكملة لكتاب الصلة ، تحقيق عبد السلام الهراس ، دار الفكر ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م ، ج٢ ص ٧٣ و٧٤ — ابن سعيد ، المصدر السابق ، ج١ ص ١٠٤.

الأستاذ صفي الدين محي الدين في سطور:

شهادة البكالوريا: جوان ١٩٧٨. شهادة الليسانس: سبتمبر ١٩٨٤ ، تخصص تاريخ. شهادة الماجستير: جوان ٢٠٠٨ ، تخصص تاريخ وحضارة الأندلس. مسجل للسنة الثانية في تحضير رسالة الدكتوراه. عضو في مخبر للبحث العلمي بجامعة معسكر ، بعنوان: الأوقاف في الجزائر خلال العصر الوسيط. شارك في الملتقى الوطني حول " المدن التجارية في الجزائر عبر العصور" الذي عقد بجامعة معسكر يومي ١٧-١٨ مارس ٢٠١٠.

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

القصيدة الأندلسية
صدى الإنجازات والانتكاسات

آمنة بن منصور
أستاذة الأدب الأندلسي والحضارة المتوسطية
جامعة تلمسان - الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
آمنة بن منصور ، القصيدة الأندلسية: صدى الإنجازات والانتكاسات.- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث عشر ؛ سبتمبر ٢٠١١. ص ٩٦ – ١٠٠.
(www.historicalkan.co.nr)

مقدمة

كان الشاعر العربي الجاهلي لسان قبيلته وبوقها الإعلامي الذي يحكي مثالبها ويتغنى بأمجادها ، فيرهب أعداءها ويفحم خصومها ، وهو ما جعله يحظى بمكانة عالية ما دام يتحدث بلسان قبيلته " فإذا انشغل عنها بنفسه ، لم يعد له ذلك المقام الرفيع ؛ كما كان شأن عنترة الذي شغل في شعره بنفسه عن قبيلته ، وشغل بقضيته الشخصية أكثر مما شغل بقضايا القبيلة ومصالحها"[١] فعنترة صوت الفرد ، وعمرو بن كلثوم صوت القبيلة التي يتردد صداها في كل أشعاره ، هو القائل:

ألا لا يَجْهَلَن أحَدٌ عَلَيْنا فنَجْهلَ فَوقَ جَهلِ الجَاهِلينا[١١]

وبعد تفكك النظام القبلي وجد الشاعر متسعًا ليعبر عن خلجات نفسه دونما قيود ، فراح يفخر بشجاعته وبسالته حتى إذا لم يجد بم يفخر فخر لمجرد الفخر ، بل إن هناك من الشعراء من أعلنوها صراحة أنهم يفخرون بأنفسهم لا بأقوامهم ، كما فعل المتنبي حين قال:

لا بقَوْمِي شرُفتُ بلْ شرفوا بي وبنَفسِي فخرتُ لا بِجُدُودي[١٢]

هكذا بدأت النزعة القبلية ، أو لنقل الوطنية تخفت ، وأصبحنا نجد في كل شاعر عنترة ، أما عمرو بن كلثوم فلا نكاد نجد له أثرًا ، وقد يعزى السبب إلى كون البلاد العباسية جمعت أجناسًا كثيرة جاءت من كل البقاع ، لذلك لم تعد تعني لها الوطنية والانتماء الشيء الكثير ، ولأجل هذا لا نجد في الشعر العربي المشرقي القديم قصائد تمجد الوطن وتحكي بطولاته وحتى انتكاساته ، اللهم إلا النزر القليل ، ومن ذلك صرخة ابن الرومي حين سقطت البصرة وقد صور في قصيدته العصماء خراب المدينة وتشرد أهلها ، وما لحقهم من شر و هوان ، فقال:

ذادَ عَن مُقْلَتي لذيذَ المَنامِ شغلها عَنه بالدّموعِ السِّجَامِ
أيّ نومٍ مِنْ بعدِ ما حَلّ بالبَصْرَة ما حلّ من هَنَاتِ عِظام ؟
أيّ نومٍ من بعدِ ما انْتَهَكَ الزّنْجُ جِهاراً مَحَارِمَ الإسلام ؟[١٣]

كما نسجل موقف أبي تمام في فتح عمورية حين أنشد:

السّيفُ أصْدق إنْباءً مِنَ الكُتبِ في حَدّهِ الحَدّ بيْن الجدّ واللعِبِ[١٤]

ولا ننسى المتنبي في قصائده التي سجل فيها بطولات سيف الدولة ، غير هذا لا نكاد نجد قصيدة تصور الملاحم أو حتى الانهزام ، بيد أن الأمر يختلف في الأندلس ففيها الشعر الذي خلد الوقائع ، والانجازات الأندلسية ، وفيها كذلك القصائد التي أدمت الأفئدة الحية.

مما لا ريب فيه ؛ أن القرن الخامس الهجري هو أكثر القرون خطورة في التاريخ الأندلسي ؛ ففيه " أصبحت الأندلس دولاً متعددة ، لكل دولة حاكم وإدارة وجيش وحياة أدبية وفكرية شبه مستقلة ، وأصبحت العلاقات بين الحكام قائمة على التحرز و الحذر ، وإنفاق الأموال في بناء الحصون."[٦] فكيف تقوم أمة لسان حالها التشتت ؟ هذه الفرقة وهذا التشتت ، هو الذي نحا بالمسلمين في الأندلس منحى آخر غير الذي ترسّمه فاتحوها ، وصانعو حضارتها ، فملوك الأندلس كان أول همهم ترسيخ جذورهم في مماليكهم ، وضمان بقائهم فيها ، الأمر الذي جعل أعين الطامعين والطامحين من يهود ونصارى تتربص بهم بأعين لا تنام ، "فانهيار الخلافة وبروز ملوك الطوائف بدل الكثير من

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

العلاقات التي كانت قائمة بين مختلف أصحاب الأديان في الجزيرة ، وهذا التبدل المقرون بانعدام الأمن والطمأنينة دفع جماعات من اليهود للرحيل إلى الشمال"[٧] ، حيث أخذوا في التحالف مع النصارى ضد المسلمين.[*]

هكذا ؛ ضعف حال المسلمين وتجرأ عليهم أعداؤهم ، وما كانوا ليفعلوا ذلك من قبل ، وسيف المنصور بن أبي عامر يقض مضجعهم ، وهو القائل:

رَمَيتُ نفسِي هَولَ كلِّ كَرِيهَةٍ ... وخاطرْتُ والحُرّ الكريمُ مُخاطِرُ
وإنّي لَزجّاءُ الجُيوش إلى الوَغى ... أسُودٌ تلاقِيها أسُودٌ قوادِرُ[٨]

وكانت أولى الملمات التي أصابت المسلمين" سقوط بربشتر (٤٥٦هـ) على يد الأردمانيين ، وقد أثارت تلك الحادثة مشاعر الفقيه الزاهد ابن العسال ، فصور في إحدى قصائده ما حل يومئذ فقال:

ولقدْ رَمَانا المُشركُون بَأسْهم ... لمْ تُخْطِ لكنْ شأنُها الإصْمَاءُ
هَتكوا بِخَيْلِهم قصُورَ حَرِيمِها ... لمْ يَبق لا جَبلٌ و لا بطحاءُ
مَاتتْ قلوبُ المُسلمينَ برُعْبهم ... فَحُماتُنا في حَربِهم جُبناءُ[٩]

فابن العسال يصور فضائع الإسبان و جرائمهم ، كما ينقم على من تولوا أمر البلاد فتقاعسوا عن حمايتها ، جبنًا وخوفًا ، وهذا السميسر يخاطب أولئك الملوك الذين ضيعوا الأندلس فقال:

نـادِ المُلـوكَ و قـلْ لَهُـم ... مَـاذا الـذي أحْـدَثتمُ
أسْـلمْتم الإسْـلام فـي ... أسْـر العِـدا وقعـدْتمُ
لا تنكِـرُوا شـقَّ العَصـا ... فعصَـا النبـيّ شـققتمُ[١٠]

وكانت الكارثة الثانية سقوط طليطلة (٤٧٨هـ)، وهي " من حيث نتائجها أعظم خطرًا من سابقتها بكثير ، وبها يرتبط التحول الخطير الذي تم في التاريخ الأندلسي فأدى إلى دخول المرابطين ، ثم إلى سقوط دول الطوائف واندثارها"[١١] ، ويعود ابن العسال مجددًا ، ولكن هذه المرة ليس لبكاء بربشتر ، بل لدعوة الأندلسيين إلى الرحيل من الأندلس ، فلا جدوى في البقاء بعد سقوط طليطلة ، يقول:

يـا أهـلَ أنـدلسٍ حُثـوا مَطـيَّكُم
فمَـا البقـاءُ بهـا إلاّ مِـنَ الغَلـطِ
الثـوْبُ ينسـل مِـن أطرافِـهِ وأرَى
ثـوبَ الجَزيـرة مَنسُـولا مِـن الوَسَـطِ
ونَحـنُ بَـيْن عَـدوٍّ لا يُفارِقنـا
كَيف الحَياةُ مَع الحَيّاتِ في سَفَـطِ[١٢]

ولئن كان ظاهر كلام ابن العسال انهزاميا إلا أنه ، في واقع الأمر ، كان ينظر بعين العواقب ، فالعبرة بالخواتيم ، وهو يدرك أن سقوط هذه المدينة الاستراتيجية في يد الإسبان سوف تقوي شوكتهم. وفي المعنى نفسه يقول شاعر آخر:

يـا أهـلَ الأنـدلسِ رُدّوا المُعـارَ فـمَا
فـي العُـرْفِ عَاريَـاتٌ إلا مُـرَدّات
ألـمْ تـرَوا بَيْـذقَ الكُفـارِ فَرْزَنَـهُ
وشَـاهُنا آخِـر الأبيـات شهْـمَات[**][١٣]

فالأندلس في نظر الشاعر وديعة ولا بد أن ترد الودائع ، ولعل أكثر القصائد إيلاما تلك التي ينسبها المؤرخون إلى شاعر مجهول ، وفيها يقول:

لَثُكْلَـكِ كَيـفَ تبتسِـمُ الثغُـورُ ... سُـرُورًا بَعـدَما يئسَـتْ ثغُـورُ ؟
طليْطلـة أبـاحَ الكُفـرُ مِنهـا ... حِمَاهَـا إنّ ذا نَبـأ كبـيرُ
و كانـت دار إيمـان و علـم ... معالمهـا التـي طمسـت تنـيرُ
فعَـادتْ دارَ كُفـرٍ مُصْـطفاةٍ ... قـد اضْـطربَتْ بأهْليهـا الأمُـورُ
فيـا أسَـفاهُ يـا أسَـفاهُ حُزنـا ... يُكـرِّرُ مـا تكـرّرَت الدّهـُورُ[١٤]

وبعد أن بكى الشاعر مصاب طليطلة ، راح يذكّر بأن ما أصابها فبما قدمت أيدي المسلمين ، يقول:

أنـأمَنُ أن يَحُـلّ بنـا انتِـقام ... وفينَـا الفِسْـقُ أجْمَـع و الفُجُـور
وأكـلّ للحَـرَام ولا اضْطِـرَارٌ ... إليـهِ فيَسْـهَل الأمْـرُ العَسِـير
يَـزولُ السّـترُ عَـن قـوْمٍ إذا مَا ... على العِصْيَان أرْخِيت السُّتُور[١٥]

يرى الشاعر أن الجزاء من جنس العمل ، فالفسق والعصيان والفتن هي التي عجلت بسقوط صرح من صروح الإسلام ، ثم أخذ بعدها يعاتب قومه الذين خنعوا وخضعوا فقال:

كفـى حُزنًـا بـأنّ النـاسَ قـالَوا ... إلـى أيْـنَ التّحَـوّلُ و المَسِـير ؟
أنَتْـرُكُ دُورَنـا و نَفِـرّ عَنْهـا ... ولـيْسَ لنـا وَرَاء البَحْـر دُور ؟
ولا ثـمّ الضّـياعُ تـرُوقُ حُسْـنا ... نُباكِرُهـا فيُعْجبُنـا البُكـور[١٦]

والشاعر لا يدعو بأي حال إلى الاستسلام بل إلى القتال ، فإما الانتصار وإما الشهادة ، يقول:

ولا تجْنحْ إلى سِلْم و حَارِبْ ... عَسَى أنْ يُجْبَر العَظمُ الكسِير[١٧]

وحين لم يلق آذانا صاغية دعا بصوت عال فقال :

ألا رَجُـلٌ لـهُ رَأيٌ أصِـيل ... بـهِ مِمّـا نُحـاذِرُ نَسْـتجير
يَكِـرُّ إذا السُّـيوفُ تناوَلتـهُ ... وأيْـنَ بنـا إذا وَلّـتْ كـرُور[١٨]

وعلى الرغم من كل ذلك ، فإن الشاعر لم يفقد الأمل في النصر والفرج ، قائلاً:

ونرْجُـو أن يُتـيحَ اللهُ نَصْـرا ... علـيْهم إنّـه نِعْـمَ النّصِـير[١٩]

وفي هذه الظروف العسيرة نظر الملوك ذات اليمين وذات الشمال ، فلم يجدوا بدًا من الاستنجاد بالقائد المرابطي يوسف بن تاشفين[***] ، وكان المعتمد بن عباد السباق إلى عقد التحالف على الرغم من معارضة البعض[****] ، ووقعت معركة الزلاقة ضد الاسبان بقيادة أذفونش ، فكان النصر حليف المسلمين ، وقام ابن وهبون يصور كيف هرب القائد الإسباني في جنح الظلام ، فقال:

نضَـا أدْرَاعَـه واجْتَـابَ لَـيْلا ... يَـودّ لـوْ أنّ طـولَ الليـلِ عَـام[٢٠]

وقال ابن بسام في وصف يوسف بن تاشفين وهو يخوض المعركة:

وواصَلَ السّيرَ إلى الزّلاّقَة ... وساقهُ ليَومِها ما سَاقه
للهِ درّ مِثلِها مِنْ وَقعَةٍ ... قامَت بنَصْر الدّين يَومَ الجُمعَهْ
وثَلّ للشرْكِ هُناكَ عَرْشه ... لمْ يُغْنِ عَنهُ يَومَهُ أذفُنْشهْ[١١]

وقال أبو جعفر البلنسي الوقشي نزيل مالقة في مدح يوسف بن تاشفين:

رِدي حَضْرَة المُلكِ الظّليلِ رِوَاقُهُ ... لعَمْري ففِيهَا تُحْمَدِينَ وُرُودا
بِحَيْث إمَام الدّينِ يُوسع فضْلَه ... جَمِيع البَرَايا مُبْدئًا ومُعِيدا
أعَادَ إلَيْها الأنسَ بعدَ شرُودِه ... وأحْيا لنَا ما كانَ مِنهُ أبيدا[١٢]

ولم يفت المعتمد أن يشيد بيوم العروبة وبصانع أفراحها فقال:

وقلْبي نَزُوعٌ إلى يُوسُف ... فلولا الضّلوعُ عليهِ لطارا
ويَوم العُروبة ذدْت العِدى ... نَصَرْتَ الهُدى وأبَيْتَ الفِرَارا
ولولاك يا يُوسُف المُتّقى ... رَأيْنا الجَزيرَة للكُفرِ دَارا[١٣]

ولا يكتفي المعتمد بالثناء على آسره وسالب ملكه، بل ويبشره بالثواب الذي سيلقاه في الدار الآخرة فيقول:

سَتلقى فِعَالكَ يَومَ الحِساب ... تُنشرُ بالمِسْكِ مِنْك انْتِشارا
وللشهَدَاءِ ثناءٌ عليْك ... بحُسْنِ مَقامِكَ ذاكَ النّهَارا[١٤]

وقد لاقت معركة الزلاقة الكثير من التبجيل والتمجيد لدى الشعراء، لا لأنها الوقعة الوحيدة التي انتصر فيها المسلمون، فما أكثر ما انتصروا على النصارى، ولكن لأن توقيتها جاء في مرحلة حرجة من التاريخ الأندلسي، هذه الفترة التي شهدت سقوط أكثر من مدينة أندلسية، فضلاً على الهزائم المتتالية التي أصبحت تنبئ بسقوط للأندلس وشيك، فكانت الزلاقة البصيص الذي أعاد للأندلسيين شيئًا من الأمل. يقول ابن وهبون ساخرًا من أذفونش بعد هزيمته يوم الزلاقة:

فأيْن العجب يا أذفونش هلاّ ... تَجَنّبتَ المَشيَخة يا غُلام
سَتسْألكَ النّساءُ و لا الرّجالُ ... فخبّرْ ما وَرَاءكَ يا عِصَام
أنامَ رِجَالَكَ الأشقونَ ؟ كلاّ ... وهلْ يُلفَى بلا رَأس مَنام[١٥]

ثم يصور كيف أن الأرض المستوية أمست هضبة لكثرة الجثث عليها، فيقول:

وصارُوا فوْق ظهْرِ الأرْضِ أرْضا ... كأنّ وِهَادَها مِنهُ رُكام
عَديدٌ لا يُشارِفه حِساب ... ولا يَحْوي جَمَاعَتَه زمَام
تآلَفَت الوُحُوش عَليه ... فمَا نَقصَ الشرَابُ ولا الطعَام[١٦]

وبقدر ما سعد المسلمون بانتصارات الزلاقة بقدر ما توجس ملوك الطوائف من عواقبها، فقد رأوا شدة بأس المرابطين في القتال وانتابهم الخوف من أن يستولوا على ملكهم، ولما أعمت شهوة الملك أبصارهم راحوا يتحالفون مع العدو " فقد قام ابن بلقين صاحب غرناطة بمكاتبة ألفونسو السادس. وبادر بتحصين قلعته، فنقده السميسر قائلاً:

صَاحِب غرناطة سَفيهٌ ... وأغْلم النّاسِ بالأمُور
صَانَعَ أذفونش و النّصَارَى ... فانْظرْ إلى رأيه الدّبير
وشادَ بُنيانَهُ خِلافا ... لطاعَةِ اللهِ والأمِير[١٧]

كذلك فعل المعتمد بن عباد وابن الأفطس والقادر بن ذي النون[٢٨]، فكانوا كما قال ابن العسال:

لولا ذنوبُ المُسْلمينَ و أنّهُم ... رَكبُوا الكَبائرَ ما لهُنّ فنَاء
ما كانَ يُنصرُ للنصَارى فارسٌ ... أبَدا عليْكم فالذنوبُ الدّاء[١٨]

ولم تدم فرحة الزلاقة طويلاً حتى سقطت بلنسية سنة ٤٨٨ هـ فكانت ضربة أخرى تلقاها مسلمو الأندلس، وقد عبر ابن خفاجة عن هذه الفاجعة، فقال:

عاثتْ بسَاحَتكِ الظّبا يا دارُ ... ومَحَا مَحَاسِنكِ البلَى والنارُ
أرْضٌ تقاذفَت الخُطوبُ بأهْلهَا ... وتمَخّضَت بخرَابهَا الأقدار
كَتبتْ يدُ الحُدثان في عَرصاتِها ... لا أنتِ أنتِ ولا الدّيارُ الدّيار[١٩]

وممن عبر عن هذا المصاب الجلل، الشاعر ابن عميرة " الذي أكثر من القول في هذا الباب، حتى ليمكن أن نعده أكثرهم رثاء للفردوس المفقود وفي رثاء بلنسية:

يا لكِ عَهْدًا مَضى و مُرْتبعا ... كانَ بهِ العَيشُ مِثلهُ أخضَر
فأينَ مِنا مَنازِل عَصَفَت ... ريحٌ عَليها مِن العِدى صَرْصَر
ودُونَ شُقر و دُون زُرقتِه ... أزرَق يَحكي قناه أو أشقر

إن ابن عميرة كغيره من الشعراء، عندما يعود بذاكرته إلى الوراء تراءى له طبيعة بلاده كقطعة من الجنة التي حرم منها مواطنوه، وأصبحوا يكتوون بنار الغربة التي تتوقد وتتوهج باستمرار في أعماقهم".[٣١] فقد هال الشاعر الأندلسي مصاب الأندلس وهو يرى مدنها تسقط تباعًا، فراح يصرخ مستنجدًا المسلمين في ربوع المعمور، كما فعل ابن الأبار الذي استنجد بأبي زكريا بن أبي حفص، فقال:

أدركْ بخَيلكَ خيلَ الله أندلسا ... إن السّبيل إلى مَنْجَاتها دَرَسَا
وهبْ لها مِن عَزيز النّصْر ما التمسَت ... فلم يزلْ مِنكَ عِزّ النّصر مُلتمسا
يا للجَزيرة أضحَى أهلَها جُزرا ... للحَادثاتِ وأمْسى جدّها تعسا
مَدائن حلّها الإشرَاك مَبتسِما ... جَذلانَ وارتحَل الإيمانُ مُبتئسا
يا للمَساجد عادتْ للعِدى بيعا ... وللنّداءِ غدًا أثناءها جَرَسا[٢٠]

فابن الأبار يخاطب الأمير الحفصي خطابا مفعما بالمعاني الدينية، لعله يحرك فيه نخوة الجهاد وليس غريبًا " فالأدب الأندلسي كان يتنفس في جو مشبع بالثقافة الدينية التي تتجلى في مواكبة الشعر لحركة الجهاد، والتحريض على اليقظة، ورد كيد العدو، والقضاء على أسباب الفرقة والنزاع ".[٣٣]

ويواصل ابن الأبار استنجاده في قصيدة أخرى، فيقول:

نادتكَ أندلسٌ فلبّ نداءَها ... واجْعل طوَاغيتَ الصّليب فداءها
تلكَ الجَزيرة لا بَقاءَ لهَا إذا ... لمْ يَضمَن الفتحُ القريبُ بقاءَها
إيهٍ بلنسِية وفي ذكْرَاكِ ما ... يُمْري الشؤونَ دِمَاءها لا ماءها
عَجَبا لأهلِ النارِ حلّوا جَنّة ... مِنْها تمُدّ عَليْهم أفياءَها
جرّدْ ظباك لمَحْو آثارِ العدى ... تقتل ضَرَاغمها وتسْبِ نساءها
أوْلوا الجَزيرَة نصْرة إنّ العِدى ... تبْغي على أقطارِهَا استيلاءها[٢٦]

ولم يتوقف الشاعر الأندلسي عن الاستنجاد وطلب العون حتى سقطت آخر معاقل المسلمين، وقد أورد المقري أبياتًا لأبي عبد الله محمد الفازازي يعبر فيها عن حال الأندلس إذ ذاك، يقول:

الرّومُ تضربُ في البلادِ وتغنمُ ... والجُورُ يأخذُ ما بقيَ والمَغرَم
والمالُ يُوردُ كلّه قشتالة ... والجُندُ تَسْقط والرّعية تُسلم
أسَفِي على تلكَ البلادِ وأهْلِها ... الله يلطفُ بالجميع ويرْحَم[١٥]

هكذا؛ توالت النكبات وبدأ العد التنازلي لسقوط الأندلس نهائيًا، فسقطت سرقسطة، وشاطبة، وقرطبة، ومرسية، وإشبيلية، ولم تجد صرخات الشعراء صدى لها. وممن رثى المدن الأندلسية التي سقطت في يد الإسبان أبو البقاء الرندي في شعر يتصدع له الحجر، فقال:

لكل شيء إذا ما تم نقصان
فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول
من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقي على أحد
ولا يدوم على حال لها شان
أين الملوك ذوو التيجان من يمن
وأين منهم أكاليل وتيجان؟
وأين ما شاده شداد في إرم
وأين ما ساسه في الفرس ساسان؟
كأنما الصعب لم يسهل له سبب
يوما ولا ملك الدنيا سليمان[١٠]

استهل الرندي قصيدته بمقدمة وعظية وقف فيها واستوقف على حال الماضين، وكيف أن الملك لا يدوم لأحد، و لكن هذا لا يمنع من أن يتفجع المرء ويتألم على فقد وطنه:

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له ... هوى له أحد وانهد ثهلان
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية ... وأين شاطبة أم أين جيان؟
وأين قرطبة دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان؟
وأين حمص وما تحويه من نزه ... ونهرها العذب فياض وملآن؟
قواعد كن أركان البلاد فما ... عسى البقاء إذا لم تبق أركان[١١]

وبعد أن فرغ من ذكر المدن الأندلسية كيف كانت وكيف أضحت، راح يعدد جرائم الإسبان في حق المسلمين، ناقمًا في الوقت نفسه على الذين تقاعسوا عن مد يد العون لإخوانهم فقال:

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم
قتلى وأسرى فما يهتز إنسان
ماذا التقاطع في الإسلام بينكم
وأنتم يا عباد الله إخوان
ألا نفوس أبيّات لها همم
أما على الخير أنصار وأعوان
يا من لذلة قوم بعد عزهم
أحال حالهم كفر وطغيان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم
لهالك الأمر واستهوتك أحزان
يا ربّ أم وطفل حيل بينهما
كما تفرق أرواح وأبدان
لمثل هذا يذوب القلب من كمد
إن كان في القلب إسلام وإيمان[١٢]

ولكن الرندي لم يدرك سقوط غرناطة، لأنه توفي سنة ٦٨٤ هـ، ولو أدركها لكرها وبكاها، كما بكى غيرها من حواضر الأندلس، غير أن المقري قد عني بذلك فأورد أبياتا للشاعر محمد العربي الذي شهد حصار غرناطة، قال فيها:

بالطبل في كل يوم ... وبالنفير نراع
وليس من بعد هذا ... وذاك إلا القراع
يا رب جبرك يرجو ... من هيض منه الذراع
لا تسلبنّي صبرا ... منه لقلبي ادراع[١٣]

خاتمة

هكذا؛ صورت القصيدة الأندلسية إنجازات الأندلسيين حينا، وانتكاساتهم حينا آخر، فالشاعر الأندلسي لم يقف بمنأى عن الأحداث التي عرفتها بلاده، كما لم تشغله نفسه وطموحاته عن المشاركة الحية والفاعلة، تجاه ما كان يحدث، فكان يشيد تارة ببطل أظهر استماتة في سبيل نصرة الدين، ولو لم يكن أندلسيا، لأن مصلحة الأندلس فوق كل اعتبار، أو بجيش رد كيد الكائدين، كما كان ينقم على شعبه وعلى الحكام لأنهم تقاعسوا فضيعوا البلاد والعباد، ثم إنه أبى إلا أن يطلق آخر زفراته التي اختلطت بزفرات أبي عبد الله الصغير، فرثى الأندلس وودعها وداع المغادر بلا رجعة.

الهوامش:

(١) عنترة بن شداد: فوزي محمد أمين: ١٧٢.
(٢) ٢-ديوان عمرو بن كلثوم، دار صادر، ط١، بيروت، ١٩٩٦: ٦٢.
(٣) ديوان المتنبي، دار الجيل، بيروت، دط/دت: ٢١.
(٤) ديوان ابن الرومي، شرح أحمد حسن بسج – ط١، دار الكتب العلمية، ١٩٩٤: ٣: ٣٣٨.
(٥) ديوان أبي تمام: تقديم: محي الدين صبحي، دار صادر، ط١، بيروت، ١٩٩٧: ١: ٩٦.
(٦) تاريخ الأدب الأندلسي – عصر الطوائف و المرابطين: إحسان عباس، دار الشروق، ط١، الأردن، ٢٠٠١: ٧.
(٧) الأندلسيون المواركة: عادل سعيد البشتاوي، المقطم للنشر و التوزيع، دط، القاهرة، ١٩٨٣: ٢٢٢.
* قرب القشتاليون اليهود وأولوهم مناصب مهمة، كما جعلوهم سفراءهم إلى ملوك الطوائف – ينظر: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين: ٢٢.

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

(٨) مطمح الأنفس ، و مسرح التأنس ، في ملح أهل الأندلس : الفتح بن خاقان ، تح : محمد علي شوابكة ، دار عمار مؤسسة الرسالة ، ط ١ بيروت ، ١٩٨٥: ٣٨٩.

(٩) الروض المعطار : الحميري ، مجلة التأليف ، مصر ١٩٣٧ : ٤٠ و ما بعدها.

(١٠) الذخيرة في محاسن الجزيرة: ابن بسام الشنتريني ، تح : سالم مصطفى البدري ، دار الكتب العلمية ، ط ١ لبنان ١٩٩٨ : ١: ٥٥٣.

(١١) تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف و المرابطين : إحسان عباس : ١٤٧.

(١٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : أحمد المقري ، تقديم : مريم قاسم الطويل ، يوسف علي الطويل ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، لبنان ، ١٩٩٥ : ٦: ١٢١.

**البيذق : بيذق الشطرنج ، فرزنه و صار فرزانا و هي الملكة في لعبة الشطرنج ، شهمات : من اصطلاحات لاعبي الشطرنج- محيط المحيط : حاشية طبعة عبد الحميد :٦: ١٣١.

(١٣) نفح الطيب : ٦ : ١٢٢.

(١٤) نفسه : ٦ : ٢٣٩-٢٤٠.

(١٥) نفسه : ٦: ٢٤٠.

(١٦) نفسه : ٦: ٢٤١.

(١٧) نفسه : ٦: ٢٤٢.

(١٨) نفسه : ٦ : ٢٤٢٥.

(١٩) نفسه :٦: ٢٤٢.

*** حين استنجد أهل الأندلس بالمرابطين قال يوسف بن تاشفين قولته الشهيرة " أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ، و لا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا بنفسي " – المعجب في تلخيص أخبار الأندلس و المغرب: عبد الواحد المراكشي ، دار الكتب العلمية ، ط ٢ ، لبنان ، ٢٠٠٥ : ٩٢.

**** أجاب المعتمد بن عباد من اعترض على التحالف مع المرابطين بقوله " والله لا يسمع عني أبدا أني أعدت الأندلس دار كفر " – تاريخ الفكر الأندلسي: آنجيل جنثاليث بالانثيا ، تر : حسين مؤنس ، مكتبة النهضة المصرية.

(٢٠) انتصارات يوسف بن تاشفين : حامد محمد الخليفة ، مكتبة الصحابة ، ط ١ ، الإمارات ، ٢٠٠٤: ١٥٣.

(٢١) الذخيرة : ١ : ٥٩٣.

(٢٢) نفح الطيب : ٦ : ٢٣٣.

(٢٣) ديوان المعتمد بن عباد ، تح : رضا الحبيب السويسي ، الدرا التونسية للنشر ، ١٩٧٨ :١٥٩.

(٢٤) نفسه : ١٦٨.

(٢٥) انتصارت يوسف ين تاشفين : ١٥٤.

(٢٦) نفسه : ١٥٤.

(٢٧) ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية: عن مقال للأستاذ جمعة شيخة – جامعة تونس - بعنوان النقد السياسي في الشعر العربي بالأندلس ، منشورات جامعة عبد الملك السعدي ، تطوان ، ١٩٩٣ : ١٠٧.

(٢٨) ينظر المصدر نفسه : ٢٠٤ وما بعدها.

(٢٩) نفسه : ٢٢٩.

(٣٠) نفح الطيب : ٦ : ٢١٤.

(٣١) الغربة والحنين في الشعر الأندلسي: فاطمة طحطح ، مطبعة النجاح الجديدة ، ط ١ ، الرباط ، ١٩٩٣.

(٣٢) ديوان ابن الأبار ، تعليق: عبد السلام الهراس ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المغرب ، ١٩٩٩: ٤٠٨-٤٠٩.

(٣٣) دراسات في الأدب الأندلسي: إحسان عباس ووداد القاضي وألبير مطلق ، الدار العربية للكتاب ط ٢ ، ليبيا/تونس ، ١٩٧٦ : ١٠.

(٣٤) ديوان ابن الأبار : ٣٥.

(٣٥) نفسه ، ٦ : ٢٢٤.

(٣٦) نفسه ، ٦ : ٢٤٣.

(٣٧) نفسه ، ٦ : ٢٤٣-٢٤٤.

(٣٨) نفسه ، ٦ : ٢٤٤-٢٤٥.

(٣٩) نفسه ، ٦ : ٣٠٤.

من إصدارات ٢٠١١ كتب

قراءة في تاريخ وحضارة أوربا "العصور الوسطى"

المؤلـــــــف:	أشرف صالح محمد سيد
تقـــــــديم:	أ.د.فتحي عبد العزيز محمد
التوزيـــــــع:	شركة الكتاب العربي الإلكتروني –بيروت
الطبعة الأولى:	إلكترونية، بيروت ٢٠٠٨
الطبعة الثانية:	ورقية، القاهرة ٢٠١١

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١١/١٥٦٤٥

يقدم هذا الكتاب قراءة لرحلة المجتمع الأوربي مع النظام الإقطاعي الذي ساد أوربا خلال الفترة من القرن التاسع وحتى القرن الرابع عشر، حيث كانت القواعد العامة للنظام تكاد تكون واحدة، لكن عند تطبيقها في دول أوربا المختلفة، أفرخت في النهاية أنظمة تختلف عن بعضها كل الاختلاف. فقد خرجت فرنسا من النظام الإقطاعي ملكية قوية، تمثلت في تعبير لويس الرابع عشر "أنا الدولة "، بينما خرجت إنجلترا "ملكية مقيدة"، الملك فيها يملك ولا يحكم، على حين خرجت ألمانيا من هذا النظام الإقطاعي دولة ممزقة بكل ما تعنيه الكلمة. وقد ركزت صفحات الكتاب على الدور الذي لعبته ألمانيا في التاريخ الأوربي الوسيط، متتبعة ذلك الصراع الطويل بين البابوية والإمبراطورية، من خلال خمسة مباحث؛ تلقي الضوء على المجتمع الأوربي في عصر الإقطاع، والدور الألماني في العصر الوسيط، وبرنامج الباباوات في السيادة الروحية على الكنيسة والسيطرة الزمنية على الدولة، بالإضافة إلى مشكلة التقليد العلماني في ألمانيا، وصولاً للحقبة الهوهنشتاوفنية في تاريخ الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الجيش الرستمي

"دعوى الغياب ومقتضى الحضور"

علي عشي
أستاذ التاريخ الوسيط
جامعة باتنة
الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
علي عشي ، الجيش الرستمي: دعوى الغياب ومقتضى الحضور.- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث عشر ؛ سبتمبر ٢٠١١. ص ١٠١ – ١٠٩.
(www.historicalkan.co.nr)

مقدمة

قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴾ (سورة الأنفال: ٦٠).

كانت الهزيمة في طبنة أمام عمر بن حفص سنة ١٥٥هـ[١]، نقطة تحول بارزة في تاريخ قيام الدولة الرستمية ، فقد رأى عبد الرحمن بن رستم أن ينسلخ عن قوى الصفرية المتضاربة التي لا تجمعها أهداف واحدة ، وفضل أن يعمل بمفرده معتمدا على نفسه وعلى التجمعات الإباضية التي تقف حوله في المغرب الأوسط. ورغم أن الدولة الرستمية (١٦٠-٢٩٦هـ/٧٧٦-٩٠٩م) حظيت بدراسات عديدة في المشرق والمغرب[٢]، إلا أنه تبقى بعض القضايا التاريخية التي تخصها تحتاج إلى تسليط الضوء أكثر والبحث فيها ، ومنها قضية غياب الجيش الرستمي المنظم ، والذي أدى إلي سرعة سقوطها على يدي أبي عبد الله الشيعي الفاطمي. حيث تعتبر هذه القضية محيرة فعلا ، حركت في داخلي دافع البحث في الموضوع ، لعلي أتوصل إلى نتائج تساهم في إثراء التاريخ الوطني ، وتصحيح بعض الأقوال والآراء التي ألصقت بالتاريخ الإباضي الرستمي.

وهنا يجدر بنا طرح إشكالية مهمة وهي لماذا لم يهتم الرستميون بالجيش رغم تكوينهم لدولة قوية سيطرت على أغلب المغرب الأوسط وجزء من الأدنى؟ وتندرج تحت هذه الإشكالية تساؤلات ذات دلالة ، منها لماذا سكتت المصادر الإباضية عن إمدادنا بمعلومات عن جيش الدولة الرستمية ؟[٣] وهو ما جعل بعض المستشرقين منهم ألفرد بل[٤] وأندري جوليان[٥] من أوائل المؤرخين اللذين أشارا إلى غياب الجيش الرستمي ، ودفعا بالعديد من المؤرخين الحاليين إلى اتباعهم بل ومحاولة تفسير نظريتهم؟ وكيف استطاعت الدولة الرستمية الحفاظ على كيانها مدة تفوق المائة والثلاثين سنة دون جيش؟ كيف حافظت على حدودها المترامية الأطراف حتى طرابلس؟ وكيف عقدت علاقات ندية ذات سيادة مع مختلف الدول المجاورة والمعاصرة لها إن كان ليس لها جيش وقوة تفرض ذلك؟

أهم الآراء التي وردت في الجيش الرستمي

إذا كانت العصور القديمة تميزت باستخدام تقنيات ووسائل بسيطة في الدفاع والجيش ، فإن العصور الوسطى قد تميزت بالفروسية كأهم نظام عسكري في البداية ، ثم كان لاكتشاف البارود[٦] أثر بالغ في اختراع الأسلحة النارية والمدفعية ، مما أدى إلى تطور أساليب القتال[٧] ، ومن هنا يجب حصر الفكر العسكري المتمثل في الجيش ومقوماته وتنظيمه وتركيبه في إطاره الزماني والمكاني ، فلا يمكن أن نقول بأن دولة ما لا تملك جيشا أو عدة وعتادا إلا بالرجوع للمقارنة والاستقصاء الخاص بتلك الفترة والعصر.

وأول من أورد نظرية أو فكرة افتقار الرستميين للجيش هو ألفرد بل الذي قال: "ووسط الرخاء الذي ساد حولهم ، وفي هدوء علوم الدين الأثيرة لديهم لم يعد الأئمة الرستميون في تاهرت يفكرون في الحرب ، وفي النضال الذي أتى في هذه النواحي بالمؤسس الكبير لدولتهم ، وهو ابن رستم ، وأهملوا في العناية بإعداد جيش يقدر ولو على الدفاع عن بلادهم وعاصمتهم ، ولهذا انهارت هذه في سنة ٩٠٩م حين هاجمتها جيوش الشيعة المبتدعة بزعامة الداعي أبي عبد الله الشيعي"[٨].

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية محكمة. ربع سنوية

ولكن المتمعن في كلامه يستشف منه تناقضا، حينما قال مفسرا سبب عدم تكوينهم للجيش، هو هدوء العلوم الدينية لديهم، فلم يصبحوا يفكرون في الحرب، ويقصد من كلامه أن الرخاء الاقتصادي جعلهم ينشغلون بالعلوم الدينية من تفسير وحديث وقرآن، ويهملون القتال، رغم أن من مبادئ الدين الإسلامي الجهاد في سبيله، وهي المبادئ التي خرج من أجلها الخوارج في البداية أصلا[٩]، فكيف يتم الآن إهمالها بسبب الدين وهو العامل الذي دفعهم للخروج أول مرة. وقد سار أندري جوليان على نهج ألفرد بل بقوله: "... ولكن رغم توالي الصدامات فإنه يبدو أن مجتمع تاهرت لم تغلب عليه النزعة الحربية، ذلك أن المعارك لا تسيل فيها الدماء كثيرة، فلا ملاحقة في الغالب للفارين ولا إجهاز على الجرحى، بل كان الخصوم يجنحون إلى التحكيم، وكان هذا ولا شك السبب في زوال مملكة بني رستم، ذلك أن الأئمة لم يوفقوا إلى تنظيم جيش عتيد، وما كادت جيوش الشيعة أن تشن هجومها حتى استولت على العاصمة من دون عناء"[١٠].

ونستشف من كلامه أن المجتمع التاهرتي الإباضي لم تغلب عليه النزعة الحربية، وهذا طبيعي لسببين أن المذهب الإباضي مذهب معتدل سلمي يحرم الاعتداء على الأسرى والجرحى، والسبب الثاني كون أغلب أئمة الرستميين من العلماء والفقهاء، لا من العسكريين الذين يعوضون النقص المعرفي بالقوة الجسدية فتغلبت القوة العقلية على قوة السيف، وهذا كله لا يعطينا تفسيرا واضحا لأنه كم من عالم فارس وكم من مجتمع مسالم إلا أنه لم يهمل إنشاء جيش قوي. وأندري جوليان يجزم أن هذا السبب هو الذي دفع بالدولة الرستمية إلى الهلاك والزوال، حيث لم يوفق الأئمة الرستميون في تكوين جيش عتيد، وهنا نتوقف قليلا لوصفه هذا الجيش بالعتيد، فهي سنة الله في خلقه حيث كيف يطالب من دولة في أواخر أيامها من فوضى وصراعات على السلطة وتفرقة عصبية قبلية[١١] أن يكون لها جيش عتيد، وهنا يلمح إلى أن الجيش كان موجودا لكنه ضعيف على حال الدولة وأيامها الأواخر.

أما الشيخ العلامة علي يحي معمر النفوسي فيقول: "فالدولة الرستمية هي الدولة والوحيدة في ذلك الحين، التي ليس لها جند قابع في الثكنات، ينتظر التعليمات، ويحلم بالمكاسب والغنائم من وراء الحرب والغارات"[١٢]. ورغم أنه إباضي من معقلهم الأصلي جبل نفوسة إلا أنه أصدر الحكم بغياب جيش يتمركز في الثكنات، وله تدريبات خاصة، وراتب محدد يكفل به عائلته وحاجاته ما دام لا يعمل، بل عمله الوحيد هو التدرب والحفاظ على تركيزه ونشاطه العسكري، وهنا نريد أن نوضح أن أغلب الدول التي عاصرت الدولة الرستمية كبني مدرار أو الأدارسة أو برغواطة، لم يكن لهم جيش نظامي متركز في الثكنات، باستثناء الدولة الأغلبية، إذن فهي حالة عامة ومظهر جلي على كل دويلات المغرب المستقلة.

مقومات توفر جيش قوي

ومن بين الأقوال التي وجدتها أقرب إلى الحقيقة قول شيخ بكري: "إن الرستميين لم يكن لهم جيش منظم في البداية، ولكن ابتداء من الإمام الثاني أصبحوا يملكونه، وإن كان صغيرا، ثم أن جيشهم لم يكن له دور بارز"[١٣]. وهو قول مقبول حيث عندما نزل عبد الرحمن بن رستم من جبل سوفجج التفت حوله القبائل الإباضية وشكل منها جيشا متطوعا، حيث يشير ابن الصغير عند حديثه عن وفد البصرة القادم على عبد الرحمن بالمساعدة المادية حيث قسموا الأموال، فجعلوا منه ثلثا في الكراع -يقصد به هنا الخيل-، وثلثا في السلاح، وثلثا في الفقراء[١٤]. والسلاح والخيل دليل على وجود جيش، لأنه يعد الركيزة الأساسية التي تستند إليها الدول عادة في تثبيت كيانها ورعايتها، سواء على المستوى الداخلي بحفظ النظام ودفع السكان إلى الالتزام بالأوامر والقوانين التي تسيرهم، أو على المستوى الخارجي بصد الأخطار التي تهددها، ورد الأعداء الراغبين في التوسع على حساب أراضيها.

لكن ابتداء من الإمام عبد الوهاب أصبح الجيش النظامي موجودا رغم عدم وصوله مصاف الجيوش القوية، إلا أنه استطاع أن يخمد كل الثورات التي ثارت ضده، حيث سمى ابن الصغير أتباع عبد الوهاب بالوهبية، وقال إنهم يسمون أيضا بالعسكرية وهم أهل العسكر، ويضيف أن جل من كان بتيهرت من النفوسيين يتسمون بهذا الاسم، فلا شك أن تكون هذه التسمية وظيفية وليست مذهبية، ويقصد بهم حماة الرستميين والإباضية، ولا أدل على ذلك من قول الإمام عبد الوهاب: "إنما قام هذا الدين بسيوف نفوسة وأموال مزاتة"، فنفوسة إذن كانت جندا وعسكرا للإمامة الرستمية[١٥]. ويشير دائما ابن الصغير أن الإمام عبد الوهاب خرج بجيش من الإباضية عد في عسكره ألف فرس أبلق لقتال بني أوس من هوارة[١٦]. ويضيف الدكتور إحسان عباس بقوله: "إن الصبغة العسكرية غلبت على عبد الوهاب، لحاجته إلى القضاء على الفتن وتوطيد أركان الدولة، بل والطموح إلى التوسع الخارجي، حتى اجتمع له من الجيوش ما لم يجتمع لأحد قبله"[١٧].

وبالنسبة للدكتور بحاز في كتابه الدولة الرستمية، فقد مر على موضوع غياب الجيش مر الكرام بتكرار نفس كلمات من سبقوه بقوله: "ثم يضاف إلى هذا كله - يقصد أسباب سقوط الدولة - عامل فقدان الجيش المنظم، إذ أن الرستميين أهملوا هذا الجانب رغم الفتن والثورات والحروب التي مرت بهم، وبقوا طوال عهدهم يعتمدون على المتطوعين الذين يكونون غالبا من الإباضية"[١٨]. فهو يقر أن الدولة بقيت في حروب وفتن، عكس ما ادعاه ألفرد بل وأندري جوليان بقولهما إن الهدوء والاستقرار ساهم في الابتعاد عن الجيش، كما أن الدكتور بحاز يذكر ببقاء الحروب والفتن[١٩]، التي تتطلب وجود جيش يفرض النظام واستمرار الدولة، فكيف يعقل أن تستمر الدولة كل هذه المدة في الفتن والحروب دون وجود جيش؟. أما محمد عيسى الحريري، فقد اكتفى بنقله كلام ألفرد بل وأندري جوليان، بقوله: "... عجز الرستميين عن اتخاذ خطوات عملية لإنقاذ نظامهم السياسي، لأن الرستميين لم يكن لديهم جيش ثابت يواجه هذه الأطماع، الأمر الذي دعاهم إلى اللجوء إلى الأساليب الملتوية كالتجسس[٢٠]، وتقديم الرشاوى[٢١]، والخداع فضلا عن الاغتيال السياسي"[٢٢].

لكن ما يعاب على هؤلاء الكتاب هو الاعتماد على أقوال المستشرقين دون تحليل أو تمحيص، فلا تخلو دولة من الدول سواء الحديثة أو القديمة من هذه المظاهر، وذلك من أجل تدعيم أركان الدولة وإزاحة كل المخالفين والمعارضين، وحتى هذه الأعمال لا تنفي وجود جيش نظامي للدولة قد يكون قليلا أو غير منظم بالشكل المطلوب لكنه موجود. وحتى الدول المعاصرة للدولة الرستمية لم يكن لها جيش ثابت نظامي، باستثناء الدولة الأغلبية التي استمدته كونها الممثلة الوحيدة للخلافة العباسية ذات التراث الحضاري والعسكري القديم، فإذا نظرنا إلى دولة بني مدرار أو دولة الأدارسة، فلا وجود لجيش حربي نظامي بالمعنى الحقيقي، ولا يمكن أن نطلق

دورية إلكترونية محكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

حكم غياب الجيش الرستمي لأن أبا عبد الله الشيعي دخل تيهرت وخربها دون مقاومة، لأن كل دويلات بلاد المغرب سقطت في يده وبكيفيات متقاربة رغم بعض المقاومات البسيطة، إلا أنه لم يتم الحكم على غياب الجيش الأغلبي أو الإدريسي. وكما هو معروف فنشأة الدولة عموما ليس سوى خطوة جديدة من خطوات عديدة في سبيل تحقيق الرفاه الحضاري من نشاط عمراني واقتصادي وحتى عسكري، فكيف بدولة نشأت على الجهاد[٢٣] أن تتركه وتتلهى بالحياة؟.

ومن أهم المعارك التي خاضتها الدولة الرستمية وترمز إلى وجود جيش منظم وقوي معركة طبنة سنة ١٥٥هـ ضد عمر بن حفص[٢٤]، ومعركة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ضد يزيد بن فندين وأتباعه النكارية سنة ١٧٢هـ/٧٨٧م[٢٥]، ثم ضد الواصلية من بني يفرن وبعض النكار، مع مساندة خارجية من الأدارسة، وكان ذلك سنة ١٧٣هـ، حيث دارت بين الفريقين معارك كانت الحرب فيها سجالا بين الطرفين[٢٦]، ثم حارب تجمعات قبائل مزاتة وسدراتة بعد تحريضهم من الواصلية[٢٧]، كما حارب عبد الوهاب قبيلة هوارة عند نهر أسلان وانتصر عليها انتصارا كبيرا[٢٨]، وحاصر طرابلس سنة ١٩٦هـ/٨١١م، مما اضطر عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب إلى عقد صلح واعتراف بسيادة الرستميين على المناطق الداخلية من طرابلس[٢٩]، وغيرها من الحروب، مع العلم أن حروب الدولة الرستمية دفاعية أو تأديبية بقمع العصاة والمتمردين، فهي جهاد فيه أجر كبير، فكل الرعية ترغب فيها، وكل من يستطيع حمل السلاح يسارع إليها[٣٠].

كما أنه كيف يعقل لدولة أن تصل حدودها لتشمل أغلب المغرب الأوسط وجزء من الأدنى دون جيش؟ بل أكثر من ذلك قاموا بتقسيم دولتهم إلى عمالات منها قفصة، وسرت، ونفزاوة، وقنطرارة، وجبل نفوسة، وقابس، وجبل دمر...[٣١]. كما وضع عبد الرحمن بن رستم نظاما للقضاء والشرطة وجباية الأموال[٣٢]، وواصل على نهجه خلفاؤه من الأئمة حيث أسس الإمام أبو اليقظان فرقة كاملة للقيام بأعمال الحسبة[٣٣]، فكيف بدولة اعتمدت على أنظمة محكمة استمدت بعضها من الأنظمة الفارسية والأخرى من العربية لا تهتم بإيجاد جيش قوي يحمي هذه الدولة وهذه الأنظمة وهذه الحدود المترامية؟.

وكيف للوالي العباسي في القيروان روح بن حاتم، أن يعقد معاهدة سلام وموادعة مع عبد الرحمن بن رستم عام ١٧١هـ/٧٨٧م[٣٤]، وهو ألد الأعداء له، إذا لم يكن قد أنس منه قوة تحميه وتحمي دولته، بل حرص على تجديد المعاهدة بعد وفاة عبد الرحمن بن رستم مع ابنه عبد الوهاب[٣٥]. ويضيف محمد عيسى الحريري: "وأصبحت الدولة الرستمية دولة قوية هابها جيرانها"[٣٦]. فالهيبة لا تأتي من فراغ بل من قوة يجسدها جيش قوي، كما يوضح محمد علي دبوز بقوله: "وكانت الدولة الرستمية أقوى دولة حربية في الجهة الغربية، فهي التي حمت الدولة الإدريسية، فلم يسر العباسيون للقضاء عليها، ولم يستطيعوا الدنو من حماها"[٣٧]، فمن مقومات وجود جيش لدولة ما خلال أي فترة زمنية هو توفر العدة والعدد والمال[٣٨]، إضافة إلى القيادة الحكيمة والظروف المتوترة، وكل هذه المقومات موجودة في الدولة الرستمية. فإذا بدأنا بالعدد والمقصود به توفر العنصر البشري فنجد الجيش الرستمي تكونه مختلف قبائل التحالف الإباضي وأساسه في البداية لماية ثم نفوسة[٣٩]، ثم بقية القبائل الإباضية البربرية المتحالفة كلواتة، وهوارة، وزناتة، ومطماطة. فيقول محمد علي دبوز: "وكانت قبيلة لماية وحدها، وهي قبيلة متوسطة في المغرب الأوسط إذا استنفرت للحرب تجند ثلاثين ألف مقاتل منها، وكانت هوارة ولواتة ومطماطة وغيرها من القبائل الكبرى تجند في النفير العام أكثر من ذلك"[٤٠].

أما بخصوص القيادة الشجاعة والحكيمة، وهذه صفة فطرية، وهبة من الله، تلعب الوراثة -كما يقول علماء النفس- دوراً كبيراً في نقلها من السلف إلى الخلف، وتعطيها لإنسان وتحرم منها آخر، وقد تتجلى الشجاعة في الجسد عند أناس، أو تتجلى في الرأي والفكر عند أناس آخرين، ولما كانت هذه الشجاعة فطرية فإن الأحداث والأيام والمعارك تنمّيها وتصقلها. وممارسة الحرب، وخوض المعارك من شأنها أن تؤصل الشجاعة في الشجاع، وتؤكد فيه نزعة الإقدام، ومبارزة الخصوم، بقلبٍ جسور، وعزيمة صادقة[٤١]، وهذه الخصائص تركزت في عبد الرحمن بن رستم وفي أبنائه وأحفاده من بعده كعبد الوهاب وأفلح، خاصة حسن الوعي بالمهمة الملقاة على عاتقهم المتمثلة في الحفاظ على الدولة، وتوصيل رسالتها في الحفاظ على المذهب الإباضي.

وفي هذا الشأن يقول محمد علي دبوز: "وقد اشتهرت في كل عهودها برجال كانوا فرسان المغرب وأبطاله العظام، منهم أيوب بن العباس في زمن الإمام عبد الوهاب، والعباس بن أيوب ابنه"[٤٢]. وقد حدث أيوب عن نفسه من غير مباهاة ولا مبالغة فقال: "لا أعلم لي مقابلا يبارزني فيما بين مصر وفارس"[٤٣]؛ يعني في المغرب الكبير كله، ومن فرسان المغرب في الدولة الرستمية أفلح بن عبد الوهاب وقد بلغ من بطولاته وشجاعته أن انتزع دفة من باب تيهرت، حاول جمهور من أهل المدينة ردها في مكانها فلم يقدروا... ومن فرسان المغرب في الدولة الرستمية كذلك بكر بن يبيدي، وبكر بن عبد الواحد، وكان من جيش أبي حاتم آخر الأئمة الرستميين. قال ابن الصغير: "وكان الخارجون مع أبي حاتم حماة البلد منهم رجل يعرف ببكر بن يبيدي"[٤٤].

ومن العناصر المدعمة أيضًا لوجود الجيش هو انتشار الصناعات المكملة، أو ما يعرف بالتسليح الحربي، والتي لها علاقة بما يحتاجه هذا الجيش، ويقوم الإعداد المادي للجيش خلال هذه الفترة على أربعة أسس هي: العنصر البشري، والمال، والمواد من حديد وخشب[٤٥]. وأغلب هذه المقومات موجودة عند الدولة الرستمية، حيث يوجد حدادون ماهرون سواء محليين، أو أندلسيين اهتموا بصناعة السيوف والسهام والخناجر والدروع[٤٦]، وكان لتوفر المواد الخام اللازمة لمختلف الصناعات أثره في وفرتها، كما تعددت المناجم التي أمدت الصناع بحاجاتهم ولوازم صناعتهم، ففي جبل أرزوا توفر معدن الحديد والزئبق[٤٧]، كما توفر معدن الحديد بالقرب من وهران[٤٨]، وحتى الصناعات الخشبية التي تميز بها شمال الدولة الرستمية مقارنة بجنوبها نظرا للطبيعة الجغرافية، ساهمت بشكل في تكوين قوة بحرية[٤٩]، أو مجموعة بحرية ولو بسيطة سواء لنقل الأشخاص بين سواحل الدولة أو نحو الدولة الأموية بالأندلس، أو في جزيرة جربة[٥٠].

ولعل توسيع الرستميين لرقعتهم الجغرافية شرقا، وضمهم لجبل نفوسة وجزء من طرابلس ساهم بقدر كبير في تموين الجيش عددا وعدة ومالا، وسمح لها بالاستفادة الدائمة من عديد الوسائل الحربية حتى الجديدة منها لانفتاح هذا الجزء على البحر وقربه من الدولة الأغلبية وكذا مصر. إضافةً إلى توفر الموارد المالية التي تدعم إنشاء

دورية إلكترونية محكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

جيش قوي من خلال التجارة المتطورة والرفاه الاجتماعي[٥١]، الذي صبغ الحكام والناس خاصة بعد عبد الرحمن بن رستم، إضافة إلى الضرائب التي كانت تدفعها القبائل خاصة نفوسة -حصة الأسد- إلى بيت مال المسلمين[٥٢]، جعلت الرستميين يشترون الخيول ليجعلوها من عتاد الحرب الذي يعتمد عليه جيشهم، ونستشف ذلك من قول ابن الصغير: "... ثم جالت الخيول فكان قتال شديد له غبار سد ما بين الخانقين، قال وعبد الوهاب ينظر يمينا وشمالا أو قلبا، فإذا صرف نظره ذات اليمين رأى فارسا فيقول من الفارس هذا قد أجفل الناس؟ فيقال له ابنك أفلح"[٥٣]. كما أن المساعدة المالية من قبل إباضية المشرق، حيث قال أبو زكريا: "... فأشاروا عليه أن يأخذها -أي المساعدة المالية- فيبثها في فقراء المسلمين وفي شراء السلاح والعدة"[٥٤].

وتستند الدولة الرستمية في إعداد جيوشها على اقتطاع جزء من ميزانية خاصة للتعبئة، فبحجم زيادة المداخيل أو نقصانها ينعكس على هذا الجهاز إيجابا أو سلبا، وبها تتحدد قوته وفعاليته. ولا ريب أن الدولة الرستمية قد استغلت هذا الثراء، في سند الدعوة، بل تعدته إلى المجالات العمرانية كبناء المستشفيات[٥٥]، والعسكرية مثل الإنفاق في شراء الأسلحة وبناء الحصون وتسديد رواتب الجند[٥٦]، وأقول هذا على سبيل التقدير والاستنتاج، لأن مصادرنا نفسها كانت صريحة في التحدث عن استغلال تلك الثروات الطائلة في الصراع بين فئات المجتمع التاهرتي. أما الجو السائد في الدولة الرستمية فقد كان جوا متوترًا في أغلب فترات الحكم، كان يشجع على استمرار التفكير في إنشاء جيش قوي من خلال التوتر الذي كان في البداية مع الأغالبة[٥٧]، ثم المساندة الإدريسية لبعض المعارضة الداخلية[٥٨]، أو الثورات المحلية ضد الحكم أو لأسباب فقهية دينية[٥٩]، أو لأطماع سياسية أو اقتصادية كالسيطرة على أراضي الكلأ والرعي.

تركيبة الجيش الرستمي

وبناءًا على كل ذلك ؛ يمكن أن نستنتج بأن الجيش الرستمي كان قوام تقسيمه لا يخرج عن النظام التقليدي الذي اعتمدته كل الدول الإسلامية المعاصرة لها سواء في المشرق أو المغرب، في تقسيم الجيش ثنائيا إلى قسمين:

أ- جيش نظامي:

قوامه العناصر التي اتخذت الجندية مهنة قارة، مشكلة بذلك النواة القاعدية للجهاز العسكري للدولة، ويقر الدكتور إحسان عباس بوجوده، لكنه ضعف في العهد الأخير للدولة بقوله: "ويبدو أن الجيش النظامي الذي كونه الإمام عبد الوهاب، كان قد ضعف أو مزقته الانتماءات المتضاربة"[٦٠].

ونستشف من قول ابن الصغير في وصفه لازدهار بنيان تيهرت في عهد أفلح، بقوله: "وكانت العجم قد ابتنت القصور، ونفوسة قد ابتنت العدوة، والجند القادمون من إفريقية قد بنت المدينة العامرة اليوم"[٦١]، فقد وصف مهنتهم بالجندية وهو دليل على وجود جيش نظامي ثابت، ليواصل ابن الصغير في وصفه لأحوال إمامة أفلح: "... وكانت الأجناد بطانة السلطان وأولاده وحشمه"[٦٢]، فهو يستدل بوجود جيش يحمي أسرار الدولة من خلال وصفه بالبطانة وهي السريرة، والأهل والخاصة، كما يقول في موضع آخر عندما يشرح سياسة أفلح وهي فرق تسد "... فلما رأى ذلك أرشى ما بين قبيلة ومجاورها، فأرشى بين لواتة وزناتة، وما بين لواتة ومطماطة، وما بين الجند والعجم"[٦٣]، وفي هذا الموضع أيضا يذكر الجند كوظيفة في الجيش، حيث بمرور الزمن انضاف إلى هذه الجيوش جند هاجروا من إفريقية[٦٤].

فكانت القوات النظامية أساسها القبائل المستقرة بتيهرت وضواحيها كقبيلة لواتة، ولماية، وزناتة، ومطماطة، وهوارة، إضافة إلى العجم[٦٥]، والعرب من الكوفيين والبصريين، وأهل إفريقية[٦٦]، ونفوسة المهاجرة. ويقول محمد دبوز: "وكانت كل قبيلة تسلح نفسها، وتستعد للحرب، لتتجنب داعي الإمام إذا استنفرها، ودعاها لحروبه المشروعة"[٦٧]، وهو دليل قاطع على وجود التسليح والتدريب في كل قبيلة واستعداد تام لأي حرب وهو ما يرمز لوجود جيش نظامي. ويلخص ذلك أستاذنا الكبير عبد الرحمن الجيلالي صراحة بأن الجيش الرستمي كان متكونا من العرب والعجم والبربر[٦٨]. ويظهر أن العرب من خلال كتاب ابن الصغير قد مثلوا فئة في الجند، لكنه لا يوضح صراحة من أين جاء العرب، بل نفهم من ثنايا الكلام أنهم من الكوفيين والبصريين وأنهم أقاموا أحياء وأسواقا ومساجد خاصة بهم، ثم يتحدث عن أهل إفريقية وأنهم كانوا من الجند، ويربط في حديثه عن الفتنة التي حدثت على عهد أفلح —دائما- بين العرب والجند كأنهم فئة واحدة[٦٩].

وبما أن الجيش يشكل من المجتمع التاهرتي، الذي هم نوعان، مستقرون داخل تيهرت ورحالة يقيمون خارج المدينة، وعلى رأس المستقرين قبيلة "نفوسة" التي مثلت في وقت من الأوقات العصب الأساسي للدولة، وأصلها من نفوسة الجبل هاجرت إلى تيهرت، أما قبيلة لواتة فمنذ مصاهرتها للإمام عبد الوهاب أضحت تلعب دورا مهما في الحياة السياسة[٧٠]، إلى أن طردتها هوارة من مدينة تيهرت، فسكنت حصنا لها معروفا[٧١]، ونستنتج من هذا الحادث أن هوارة كانت خارج تيهرت ثم دخلتها، كما يتحدث ابن الصغير عن صنهاجة أنها كانت في صف العجم[٧٢].

ب- جيش غير نظامي:

قوامه الرحل، وتمثله القبائل التي تقصد تيهرت وضواحيها لانتجاع الكلأ، في أيام الربيع[٧٣]، والمتطوعون، أو الأطراف المتحالفة مع الدولة من مختلف القبائل، فهم ينضوون تحت لواء التشكيلة العامة للجيش في حالة الحرب فقط، ويسرحون في حالة السلم[٧٤]، وقد حدد ابن الصغير الرحل، فمنهم مزاتة وسدراتة، حيث يقول: "إن قبائل مزاتة وسدراتة وغيرهما، كانوا منتجعين من أوطانهم التي هم بها من المغرب وغيرها من أشهر الربيع إلى مدينة تيهرت وأحوزها لما حولها من الكلأ"[٧٥].

وفي الأزهار الرياضية يشير إلى المهمات الظرفية للجيش بقوله: "ثم شرع الإمام في شراء الكراع والسلاح، وقوي بيت مال المسلمين بالذخائر الحربية ومهمات الدفاع الوقتية وتقوى الضعيف وانتعش الفقير"[٧٦]، حيث يشير الباروني إلى أن هناك مهمات الدفاع الوقتية أي التي تتغير من وقت إلى آخر وعادة ما تظهر في فترة الحرب. ويخصص للقسم الأول، أي الجند النظامي رواتب تمنح لهم شهريا أو مخصصات يومية بطريقة منتظمة، في حين يحصل القسم الثاني، على جزء من الغنائم، بناء على اتفاق مسبق يتم بين الدولة والمتحالفين معها من القبائل المختلفة، على غرار قبيلة لواتة وهوارة -قبل أن تدخل- وصنهاجة[٧٧].

دورية إلكترونية محكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

كما أنه يمكن استنتاج أن الجيش الرستمي امتاز بالتنظيم، وقوة التعبئة خاصة في الفترة الأولى من حكم الأئمة العظام، حيث تجيب عنه الأحداث عندما قاد عبد الرحمن بن رستم جيشا من الإباضية قوامه خمسة عشر ألف مقاتل لحصار طبنة أثناء الصراع مع أبي الحوص القائد العباسي في إفريقية[٧٨]. ثم ازداد الجيش تنظيما في عهد عبد الوهاب حيث يذكر ابن الصغير بقوله: "... فعبأ عبد الوهاب عسكره، ورتب قواده"[٧٩]، كما يضيف ابن الصغير بقوله: "... ثم تقدم قدما وهو في ذلك كله قاصدا بكتيبته نحو عدوه... فلم يزل كذلك وعلى ذلك حتى فض جميع القوم بكتيبته"[٨٠]. ونستنتج من قوله أن كان ينظم في كتائب يعين على كل كتيبة قائد، أو يقسم إلى طلائع حسب طبيعة جيش العدو[٨١]. كما يمكن أن نستنتج آلاته، ووسائل دفاعه من استخدام للسيوف[٨٢]، والدروع[٨٣]، وحتى النبال[٨٤]، وبنى الحصون[٨٥]، والقلاع، والبروج الحربية[٨٦]، واستخدم الخيول[٨٧]، واتخذ الرايات[٨٨].

أما القيادة العامة للجيش فتعتبر من المسؤوليات الكبرى في الدولة، نظرا لإسناد هذه المهمة لرجل كفء، فكان اللجوء إلى الاختيار الدقيق لقياداته أمرا بالغ الأهمية، لما يتحمله القائد من مسؤوليات في اتخاذ القرارات الصائبة، التي تجعل منه عنصرا فاعلا، يتصرف بحنكة عالية عند كل طارئ يعترض جيشه، وفي أغلب الأحيان كان الأئمة الرستميون يتولون قيادته العليا بخروجهم على رأسه، كما هو الحال مع عبد الوهاب[٨٩]، وأفلح، خاصة في الفترة الأولى لتثبيت أركان الدولة وتدعيمها، أو قد يكلفون واليا من ولاة الأقاليم التابعة للدولة كإقليم نفوسة أو طرابلس[٩٠]، أو يكلفون قاضي المنطقة بذلك[٩١]، خاصة في فترات السلم أو في الفترة الأخيرة من ضعف الدولة الرستمية.

وبخصوص تعداد الجيش، فقد امتلك الرستميون جيشا كبيرا في اغلب الفترات الأولى، اتسعت نشاطاته لتشمل حواضر الدويلة كلها، إلى جانب مهمته الرئيسية في تأمين الحدود، كما حدث في عهد الإمام عبد الوهاب الذي هدم المدينة الأغلبية الجديدة خوفا من غاراتهم القريبة، أو لفرض الأمن والاستقرار داخل الدولة بالتحكم في القبائل وفض النزاعات والمعارضة، مما جعل المصادر تذكر بعض تعداده بقولها: "جمع عبد الرحمن بن رستم خمسة عشر ألف"، أو قول ابن عذارى: "إن نفوسة منعت إبراهيم بن أحمد الأغلبي وكانت في عشرين ألف فارس"[٩٢]، أو قول ابن الصغير: "فاجتمع إلى عبد الوهاب أمم كثيرة وخلق عظيم"[٩٣]، وقوله خلق عظيم يبين مدى تعداد الجيش.

ورغم أن أغلب المصادر تميل إلى تضخيم الأعداد إلى أنها عموما تعطينا صورة عن الجموع الإباضية المجندة والزاحفة للقتال، وهذا يبرز بوضوح اتباع الرستميين لأسلوب التعبئة والدعوة للنفير[٩٤] والجهاد، حتى الاستنجاد بالقبائل المتحالفة، وهذا لا ينفي وجود جيش نظامي. وحتى الباروني يصف جيش أبي اليقظان بقوله: "فأمدوه ملبين دعوته عرمرم جامع لكل هماء"[٩٥]، حيث يصفه بالقوة، رغم أنه لم يحدد عدده كما فعل ابن الصغير، واكتفى بنعته بجموع عظيمة، غير أنه ما يفهم من سير الأحداث أن هذا الجيش كان من القوة ما جعله يرجح كفة أبي اليقظان مع القوة المضادة له، وكان أغلبه من قبيلة نفوسة التي قدمت يد المساعدة ولبت نداء الاستنجاد، ولم تتحدث المصادر الإباضية عن عودة جيش نفوسة إلى الجبل بعد انتهاء مهمته في تثبيت حكم أبي اليقظان والقضاء على الفتنة[٩٦]. ويقول محمد علي دبوز: "وقد خرجت هوارة يوما للحرب فعدوا في جندها ألف فارس أبلق - وهو الذي يجتمع فيه سواد وبياض، وهو نوع لا يكثر وجوده في الخيل- أما غير ذلك من ذي اللون الكثير فأضعاف هذا"[٩٧].

أما بخصوص الخطط العسكرية، التي تعد أحد أهم الدعائم الأساسية للفن الحربي، إذ يعد النشاط العملي للجنود في المعركة، ويعرف بفن خوض المعارك، أي مهارات توزيع المقاتلين في ميدان المواجهة باستعمال مختلف الأسلحة والوسائل المتاحة للمناورة عسكريا وسياسيا، لتكبيد العدو أكبر قدر من الخسائر، وتجنب دفاعاته المضادة قدر المستطاع[٩٨]. فمن أهم الخطط العسكرية والحربية، الطريق الذي اتبعه عبد الرحمن بن رستم للهرب من القيروان إلى جبل سوفجج رفقة ابنه عبد الوهاب، ثم تحصنه به[٩٩]، وتفطن عبد الوهاب لخطة يزيد بن فندين للفتك به[١٠٠]، واستنجاد الإمام عبد الوهاب من إباضية نفوسة، والدهاء العسكري الذي جعله يطلب منهم أربعمائة نفر، منهم مائة من الفرسان للمبارزة، ومائة مفسر، ومائة متكلم، ومائة فقيه عالم بفنون الحلال والحرام، لأنه درس جيدا عدوه من الواصلية[١٠١]، وأثناء حصار الإمام عبد الوهاب لطرابلس استخدم عدة خطط عسكرية، ورغم أن المؤرخين لم يذكروها إلا أن الشماخي يشير أن عبد الوهاب وجد متاعب كثيرة في أثناء الحصار بسبب عدم التكتم على الخطط العسكرية في معسكره[١٠٢].

وفي نفس النص لأبي زكريا الذي يتحدث فيه عن ثورة ابن فندين تبين لنا أن الجيش كان يقسم في بعض الأحيان حسب الحاجة، أو المعركة حيث خرج عبد الوهاب بجيشه من مدينة تيهرت، لكن ابن فندين تفاجأ بجيش آخر بقيادة ابن الإمام أفلح موجود بالمدينة ويدافع عنها مستخدما في جمعه أسلوب النفير[١٠٣]، لأنه لا يعقل المغامرة بكامل القوات في مواجهة واحدة، وترك المخاطر تهدد كيان الدولة في حال الهزيمة أو استغلال أطراف أخرى لتلك الظروف لصالحها.

أما في إمامة أفلح فقد وقعت معركة بين جنده بقيادة أبي عبيدة عبد الحميد، والمنشق عنه خلف بن السمح، استخدم فيها خططا عسكرية مهمة، ذكرها الدرجيني بقوله: "فلما قرب عسكره عسكر أبي عبيدة، تقدم رجل من أصحاب خلف ممن يرى تصويب أبي عبيدة وأصحابه تميل نفسه إليهم ويشفق عليهم، فقال لأبي عبيدة: تنح بأصحابك إلى سفح الجبل، فإن كانت الدائرة لكم أدركتم ما رجوتم، وأمنتم ما خفتم، وإن تكن عليكم كنتم في حصن ويضركم ذلك، فقال أبو عبيدة لأصحابه: هذه نصيحة قد أخرجها الله من عدوكم وعدوه، فأمر أصحابه بالتنحي، وأسندوا ظهورهم إلى الجبل، فظن خلف أن ذلك عن جبن وهلع... فاقتتلوا قتالا شديدا، وذلك عشية الخميس الثالث عشر من رجب سنة إحدى عشر ومائتين... وانهزم أصحاب خلف"[١٠٤].

كما وضعوا خطة عسكرية محكمة ضد عبيد الله الفاطمي عندما حاصر ورجلان سنة ٢٩٧هـ، وحاول منعهم من الماء حتى يهلكوا عطشا، عندما وضعوا قصعا كبيرة وملأوها زيتا ونصبوها على مواضع يراهم أهل العسكر، وجعلوا كأنهم يمنحون الماء ويصبونها للجمال تشرب، وكلما ضربت الجمال رأسها لتشرب وجدته زيتا فقنعت برؤوسها، وتنفض مشافرها، وتنثر أنوفها، فقال العسكر ما هذا إلا عن ماء جم، ففيم المقام؟ وارتحلوا[١٠٥].

أسباب تدهور الجيش الرستمي

وعمومًا يمكن تفسير أسباب تدهور الجيش في عهد الأئمة الأواخر إلى:

- يلخصها عبد الرحمن الجيلالي بقوله: "إن أكبر عامل في سقوط هذه الدولة هو اختلاف الكلمة بين الحكومة والشعب، وما انتشر عن ذلك يومئذ من الفتن والاضطرابات التي أضعفت من هيبة الحكومة أمام رعيتها، فتضعضعت بفقد جندها الحامي، مع إهمالها لتقوية الجيش"[١٠٦].
- تحطم قبيلة نفوسة التي كانت العمود الفقري للدولة في موقعة مانو[١٠٧]، سنة ٢٨٣هـ، ويعتبر النفوسيون الدرع الواقي للدولة والمادة العسكرية الأساسية، لهذا قال عنها الإمام عبد الوهاب: "إنما قام هذا الدين بسيوف نفوسة وأموال مزاتة"[١٠٨].

وأمام هذه الضربات المتلاحقة، انهارت نفوسة التي كانت تشكل عصب الدولة الرستمية الحساس، ولم تعد لها تلك القدرة الغنية على مواصلة إمداد تاهرت اقتصاديا وعسكريا[١٠٩]، ومنذ ذلك العهد لم تعد نفوسة توافي الرستميين بالإمدادات، وكان لذلك أعظم الأثر في ضعف الجيش الرستمي واضمحلال الدولة[١١٠].

- ولعل سبب عدم تكوين جيش لها في الفترة الأخيرة يعود إلى كثرة القبائل المنضوية تحت لواء الإباضية مما يصعب حتما جمعهم تحت قيادة واحدة وجيش واحد، وبضعف الأئمة تفشى نفوذ العصبيات القبلية، والطوائف المذهبية، حيث ازداد أثر هذه الطوائف وخاصة في أواخر عصر بني رستم[١١١]، حيث عجز الأئمة الأواخر على التوفيق بين مختلف القبائل، ودارت الصراعات بين محاور متنوعة، تمثل مصالح القبائل المتعددة، فكثرت ضروب الولاء وأنواع التحالفات، بحسب ما تمليه المصالح، فكان مما حال دون انصهار هذه العناصر في وحدة عسكرية واحدة لتشبثها بانتماءاتها القديمة، بل لجأ البعض نتيجة الحذر إلى بناء حصون يأوون إليها في أيام الفتن[١١٢].
- كما كان من الصعوبة بما كان اختيار الإمام ليجمع كل هذه المتناقضات القبلية، دون أن يكون ذلك لقبيلة على حساب الأخرى[١١٣]، فانعكس ذلك على الوحدة العامة وتكوين جيش من مختلف القبائل.

فيذكر بعض كتاب الإباضية أنه عندما مر أبو عبد الله الشيعي على تيهرت خرج إليه من فيها من وجوه فرق الشيعة، والواصلية، والصفرية، والمالكية، وقدموا له الشكاية في اليقظان ووعدوه بالإعانة بالمال والرجال، ورغبوه في استئصال هذه العائلة وانتزاع الأمر من أيديهم لأنه لا رجال ولا عسكر لليقظان ولا قوة له لإدبار الناس عنه بما وقع من قتل الإمام[١١٤]. وهذا دليل أن تحول النظام إلى الوراثي نتج عنه ظهور معارضة تزداد أو تضعف، أثرت في كيان الدولة وانعكس على الجيش. كما يبين نص الدرجيني أهمية الإمام في قوة أو ضعف الجيش بقوله: "ولما توفي عبد الوهاب تدانى العدو من تاهرت طمعا في الاستيلاء عليها، ورجوا الظفر بها وبأهلها، لما ظنوه من عجزهم عن المدافعة، إذ أضحوا بلا إمام"[١١٥].

- العجز الدائم عن التخلص من الطابع القبلي المستفحل في المجتمع المغاربي عموما، فالقبائل سواء العربية أو البربرية تشترك في خصائصها ومميزاتها، حيث كانت تعتمد على جيش من المتطوعين، لافتقارها إلى نظام حضاري راق، رغم ما أدخله الأئمة الرستميين الفارسيين في البداية من أنظمة حضارية فارسية ومشرقية[١١٦]. لكن صراع المصالح بين القبائل البدوية الطامعة في السلطة، ورغبات الفرس، وتطلعات الجند والعرب[١١٧]، لم تسمح بتوحيد صفوف الجيش وتنظيمه تحت قيادة واحدة وأساليب تدريب واضحة، وكما يقول أحد المؤرخين المحدثين بأن المجتمع الرستمي مجتمع بدوي تغلب عليه البداوة، ولذلك لم تقم فيه مؤسسات دولة بالمعنى الدقيق والمتعارف عليه لهذا المفهوم[١١٨]؛ خاصة المؤسسة العسكرية.
- انحياز الدولة الرستمية بنفسها عن الدخول في صراع مسلح مع من جاورها من القبائل أو الدول، ورغبتها في العيش في دعة وسلام.
- كما يورد الدكتور إحسان عباس لسبب مهم حسب النظرة السائدة في تلك الفترة، وهي النظرة الاجتماعية الاقتصادية أن سبب ضعف الدولة وبالتالي الجيش هو "نشوء طبقة كبيرة من الأثرياء تتحدى قدرة نفوسة على تطبيق الأحكام، وتمثل -رغم انقسامها أحيانا وتضارب مصالحها- قوة ضغط اقتصادي وسياسي"[١١٩]. ويضيف بقوله: "ويبدو أن الجيش النظامي الذي كونه الإمام عبد الوهاب كان قد ضعف أو مزقته الانتماءات المتضاربة، إذ لم نعد نسمع شيئا عن الجند بعد تحوله في صف العرب ضد العجم أيام أبي بكر"[١٢٠]. وهو بذلك يشير إلى الصراعات العرقية التي تنامت في أواخر الدولة بين العرب والعجم وبين البربر والعرب والعجم معا.

الخاتمة

إن أغلب الآراء الواردة في شأن الجيش الرستمي والمنكرة لوجوده، حكمت على الأمر بسطحية، أو من خلال النتيجة النهائية وهي سقوط الدولة الرستمية بسهولة في يد الفاطميين الشيعة. تتوفر الدولة الرستمية على كل مقومات وجود جيش نظامي وقوي، من عدة وقيادة شجاعة وحكيمة، وانتشار مختلف الصناعات المساهمة في توفر الأسلحة المتنوعة، إضافة إلى الرخاء المالي والاقتصادي للدولة، مما يسمح حتى باستيراد أو تمويل الجيش والتكفل بمرتبات الجند. وقد قسم الجيش الرستمي على غرار كل الدول المعاصرة لها إلى جيش نظامي ثابت قوامه العناصر التي اتخذت الجندية مهنة قارة لها، وجيش متطوع أثناء النفير، قوامه مختلف القبائل والرحل، كما امتاز الجيش الرستمي بالتنظيم والتعداد الكبير. أما أسباب تدهور الجيش الرستمي في عهد الأئمة الأواخر فيعود إلى ضعف شخصيتهم واختلاف الكلمة وانتشار الفتن والاضطرابات، وتحطم عصب الدولة وهي قبيلة نفوسة بعد موقعة مانو.

من خلال كل ما سبق يتضح في تقديري أن الدولة الرستمية لم تخل في فترة ما من جيش يحمي حدودها ويقيم سيادتها، بل بالعكس بلغ أقصى قوته وتطوره في عهد الإمام عبد الوهاب، وظهر الجيش بنوعه النظامي والمتطوع، ولكنه يختلف تطور نظام الجيش وقوته من فترة لأخرى ومن عهد لآخر، حسب استقرار الدولة وقوتها، والتي تستمدها من قوة أئمتها وكثرة مواردها أو اختلالها، كما أن الصراعات القبلية وحتى المذهبية، والاقتصادية والمكانة الاجتماعية، والعرقية، ساهمت في عدم وجود جيش دائم ومنظم وقوي في فترات لاحقة، خاصة في أواخر حياة الدولة الرستمية.

دورية إلكترونية محكمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الهوامش:

(١) بعثه الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بعد مقتل الأغلب بن سالم إلى إفريقية الذي وصلها سنة ١٥١هـ/٧٦٨م، وعرف بلقب هزارمرد والتي تعني ألف رجل، وهدأت الأحداث في عهده واستقرت الأمور طيلة ثلاث سنوات، فأغراه ذلك فأراد التوجه إلى طبنة قاعدة إقليم الزاب لتحصينها وحماية القيروان، فأحس عبد الرحمن بن رستم بخطر ذلك فنسق مع جماعات الخوارج والبربر وزحفوا نحو القيروان، فقتلوا حبيب بن حبيب المهلبي، ثم توجهوا نحو طبنة وحاصروها، فعمد عمر بن حفص إلى الحيلة لتفريق هذا الجمع، بإرشاء أخ أبي قرة الصفري الذي عاد بالجيش، فلم يبق إلا جيش عبد الرحمن بن رستم، الذي باغته وألحق به هزيمة، فتراجع إلى إقليم تاهرت، فكانت هذه الهزيمة نقطة تحول في تاريخ قيام الدولة الرستمية. محمد عيسى الحريري: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي -حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس-، دار القلم للنشر والتوزيع، ط٠٣، ١٤٠٨/١٩٨٧، ص٨٧-٩١.

(٢) منها دراسة الدكتور جودت عبد الكريم يوسف: العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، وكتاب الدكتور مسعود مزهودي: الإباضية في المغرب الأوسط، وكتاب الدكتور محمد عيسى الحريري: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، وكتاب الدكتور بحاز إبراهيم بكير: الدولة الرستمية -دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية-.

(٣) باستثناء إشارة خفيفة من أبي زكريا والباروني نقلا عنه، عند الخروج لاستقبال أبي عبد الله الشيعي الذي لم يجد مقاومة تذكر، أبو زكريا: كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط٠٢، ١٤٠٢/١٩٨٢، ص١٦٩؛ والباروني سليمان بن عبد الله النفوسي: الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، مطبعة الأزهار البارونية، مصر، بدون تاريخ، ج٢، ص٢٩٢.

(٤) ولد في سنة ١٨٧٣، اهتم بالأدب، ثم اتجه إلى التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي، واستلزم ذلك العناية بالآثار، والنقود والخزف، وصل إلى مراكش سنة ١٩١٤، وهو في تمام نضجه، وعاش في مدينة فاس، وأصدر كتبا عنها، ثم أقام بتلمسان، ثم عاد إلى مكناس سنة ١٩٤٢، وتوفي بها في ١٨ فبراير ١٩٤٥، وكانت أول دراسة في ميدان الدراسات الإسلامية عن الجزية، كما ألف ١٢ مجلدا وحوالي ستين مقالة، لكن أهم كتبه هو الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي. عبد الرحمن بدوي: مقدمة الترجمة لكتاب: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي -من الفتح العربي حتى اليوم-، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١، ص٦، ٧.

(٥) شارل أندري جوليان ولد في ٢ سبتمبر ١٨٩١، بمدينة كان الفرنسية، قدم إلى الجزائر وهو في الخامسة عشر من عمره، عمل ثلاثين سنة في التعليم الثانوي وستة عشر سنة في التعليم العالي، بمدرسة فرنسا لأقطار ما وراء البحار، وبمعهد الدراسات السياسية، وبالمدرسة القومية للإدارة وبجامعة السربون "قسم تاريخ الاستعمار"، مؤسس كلية الآداب بمدينة الرباط وعميدها (١٩٥٧-١٩٦١). ألف عدة كتب منها: تاريخ إفريقيا الشمالية من جزئين، وكتاب إفريقيا الشمالية تسير، والعديد من الكتب والمقالات. تراجع ترجمة له في كتابه إفريقيا الشمالية تسير، ترجمة المنجي سليم وآخرون، الدار التونسية للنشر، ١٣٩٦/١٩٧٦.

(٦) بداية اكتشاف البارود كانت بالصين حوالي ٦٠٠م، ثم انتقلت إلى العرب ومنهم إلى أوروبا. عزيزي عبد السلام: أكبر الاكتشافات والاختراعات في تاريخ البشرية، دار الإخوة مدني، الجزائر، ٢٠٠١، ص٣٦.

(٧) ش. أحمد: "الفكر العسكري الحديث"، مجلة الجندي، المركز التقني للاتصال والإعلام والتوجيه، الجزائر، ع ١١/٢٠٦ ديسمبر ١٩٩٩، ص٢١.

(٨) ألفرد بل: المرجع السابق، ص ١٥٠.

(٩) عند انهزام جيش العباسيين أمام أبي الخطاب المعافري أرسل الخليفة المنصور جيشا بقيادة ابن الأشعث، وقد عمل هذا الأخير على إرسال عيونه وجواسيسه إلى معسكر الإباضية، فجاءته الأخبار أنهم فرسان في النهار رهبان بالليل، يحبون الموت أكثر من حبهم للحياة، فعمد إلى الحيلة بالتظاهر بالرجوع مستغلا الشقاق الذي ثار بين زناتة وهوارة، فهزمهم وقتل أبا الخطاب في موضع تاورغا سنة ١٤٤هـ. أكثر تفاصيل لاحظ، أبو زكريا: المصدر السابق، ص٦٦-٦٨؛ وابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت، ج٤، ص٢٨١.

(١٠) شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٣، ج٢، ص٤٧.

(١١) الإباضية عندما استولى اليقظان بن أبي اليقظان على الحكم تبرؤوا منه واعتزلوه، ولم يعتبروه إماما من أئمتهم، وكانوا يبرؤون ممن دخل تحت طاعته ورضي بحكمه واعترف بإمارته. انظر علي يحي معمر: الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الرابعة: الإباضية في الجزائر، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٣٩٩/١٩٧٩، ص٦٣. لذلك كان أبو عبد الله الداعية الشيعي عندما اقتحم تيهرت، لم يخرج ضده أحد، بل أن المصادر الإباضية تذكر أن ابنة الإمام المقتول أبي حاتم "دوسرا" وأخاها هما اللذان استدعيا أبا عبد الله، وحرضاه على قتل اليقظان انتقاما لأبيهما. انظر أبو زكريا: المصدر السابق، ص١٢٢؛ وكذلك الباروني: المصدر السابق، ص٢٩٢.

(١٢) علي يحي معمر: المرجع السابق، ص ٥٠-٥١.

(13) Bekri Chikh: Le Kharijisme Berbère, Quelques Aspects du Royaume Rustumide, Annales de l'institut d études Orientales (A.I.E.O.), Université d Alger, T. XV, Alger, 1957, p. 73-75.

(١٤) ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق محمد ناصر وإبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٦/١٩٨٦، ص٣٥.

(١٥) المصدر نفسه، ص٤٥.

(١٦) نفسه، ص٥٤.

(١٧) إحسان عباس: "المجتمع التاهرتي في عهد الرستميين"، مجلة الأصالة، ع ٤٥/ماي ١٣٩٥/١٩٧٥، ص٢٤.

(١٨) بحاز إبراهيم بكير: الدولة الرستمية -دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية-، نشر جمعية التراث، القرارة، الجزائر، ط٠٢، ١٤١٤/١٩٩٣، ص١٣٠.

(١٩) بحاز إبراهيم بكير: نفس المرجع والصفحة.

(٢٠) عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم عندما أعيته الحيلة في قمع ثورة خلف بن السمح، بث العيون والجواسيس للإيقاع بين خلف وأتباعه، وأرسل إلى أتباع خلف سرا يمنيهم بالأموال والضياع. الباروني: المصدر السابق، ج٢، ص١٥٥.

(٢١) يقول ابن الصغير: "فلما رأى ذلك -أي أفلح- أرشى ما بين كل قبيلة ومجاورها، فأرشى بين لواتة وزناتة، وما بين لواتة ومطماطة، وما بين الجند والعجم، حتى تنافرت النفوس ووقعت الحروب، وصارت كل قبيلة ملاطفة لأفلح خوفا من أن يعين صاحبتها عليها". المصدر السابق، ص٢٧.

(٢٢) اغتال أبو بكر بن أفلح صهره محمد بن عرفة الذي كان وزيره وساعده الأيمن في إدارة شؤون الدولة، فأثار سخط الفقهاء وتبرمهم. ابن الصغير: المصدر السابق، ص٣٤.

(٢٣) ذكر الدرجيني في إمامة أفلح، وخلال الحرب التي وقعت بين جيشه بقيادة أبي عبيدة عبد الحميد الجناوي وأحد المنشقين وهو خلف بن السمح "فأمر أبو عبيدة أصحابه بالخروج، فخرجوا وهم في عدد قليل، ولكنهم أهل بصائر يموتون على ما بأيديهم من الحق، لا يأسفون على ما فاتهم من دنياهم، ولا يعدون زادا إلا تقواهم... وقد اختلف في عددهم فقيل سبعمائة، وقيل عدد أصحاب بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر...". الدرجيني: طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق الشيخ إبراهيم محمد طلاي، ط٢، بدون دار نشر، ولا سنة النشر، ج١، ص٧٢، وهو تعبير مهم جدا في حبهم للجهاد والآخرة تشبيها بصحابة الرسول "ص" في غزوة بدر.

(٢٤) لاحظ هامش رقم ٣ في هذا المقال.

(٢٥) قاد المعركة في غياب عبد الوهاب ابنه أفلح، حيث استطاع أن يقتل ابن فندين ويهزم أصحابه. الشماخي، أبو العباس أحمد بن سعيد: كتاب السير، طبعة حجرية، قسنطينة، الجزائر، ١٣٠١هـ، ص١٥٠. ويذكر الكتاب

دورية إلكترونية محكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الإباضية أن عدد القتلى بلغ اثني عشرة ألف قتيل. محمد عيسى الحريري: المرجع السابق ، ص١١٨. ثم انتقم النكارية بقتل ميمون بن عبد الوهاب ، فأرسل لهم هذا الأخير جيشا كبيرا فقتل أكثرهم ، فضعف أمرهم. الباروني: المصدر السابق ، ج٢ ، ص١١٤-١١٥.

(٢٦) الباروني: المصدر السابق ، ج ٢ ، ص١١٧.

(٢٧) ابن الصغير: المصدر السابق ، ص٤٧-٥١.

(٢٨) نفسه ، ص٥٢-٥٤.

(٢٩) ابن الأثير: المصدر السابق ، ج٥ ، ص٣٨٢.

(٣٠) محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير ، مؤسسة تاوالت الثقافية ، ليبيا ، ٢٠١٠ ، ج٣ ، ص٣٢٦.

(٣١) الباروني: المصدر السابق ، ج٢ ، ص١٦٥.

(٣٢) محمد عيسى الحريري: المرجع السابق ، ص٢٢٩.

(٣٣) أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر ، المطبعة العربية ، الجزائر ، ١٣٥٠هـ ، ص٢١.

(٣٤) ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، ج٤ ، ص١١٣ ؛ والباروني: المصدر السابق ، ج٢ ، ص٩٣.

(٣٥) ابن خلدون: المصدر السابق ، نفس الصفحة.

(٣٦) محمد عيسى الحريري: المرجع السابق ، ص١٠٧.

(٣٧) محمد علي دبوز: المرجع السابق ، ج٣ ، ص٣٢٦.

(٣٨) الإمامة عند الإباضية أربعة مراحل وآخرها إمامة الظهور ، التي لا يتم الإعلان عنها إلا إذا توفرت القدرة الكامنة في العدد والعدة. عدوان جهلان: الفكر السياسي عند الإباضية ، نشر جمعية التراث ، القرارة ، الجزائر ، بدون تاريخ ، ص٦٥ وما بعدها.

(٣٩) نفوسة: هي قبيلة من البربر البتر ، وذكر المؤرخون أن جدهم الأول هو مادغيس وتشعبت من ابنه "زحيك" بطون عديدة ، فقد ترك هذا الأخير أربعة أبناء ، هم "نفوس ، أداس ، ضرا ، لوا". وإلى نفوس تنسب قبيلة نفوسة ، وهناك من يرى أن نفوسة سميت بهذا الاسم لأن أفرادها أسلموا بنفوسهم دون داع قاهر ، والحقيقة أن القبيلة معروفة بهذا الاسم قبل قدوم الفاتحين العرب. مسعود مزهودي: جبل نفوسة من انتشار الإسلام حتى هجرة بني هلال إلى المغرب ، منشورات مؤسسة تاوالت الثقافية ، ليبيا ، ٢٠٠٦ ، ص٢٥.

(٤٠) محمد علي دبوز: المرجع السابق ، ج٣ ، ص٣٢٦.

(٤١) محمود الربداوي: "مقومات النصر" ، مجلة التراث العربي ، ع ٨٨/شوال ١٤٢٣هـ/كانون أول (ديسمبر) ٢٠٠٢ ، ص٠٨.

(٤٢) محمد علي دبوز: المرجع السابق ، ج٣ ، ص٣٢٦.

(٤٣) الباروني: المصدر السابق ، ص١٢٧.

(٤٤) ابن الصغير: المصدر السابق ، ص١٠٧.

(٤٥) هندي إحسان: الحياة العسكرية عند العرب أو الجيش العربي في ألف عام (٥٠٠-١٥٠٠م) -دراسة تاريخية عسكرية لنظم التعبئة وفنون القتال والأسلحة عند العرب منذ الجاهلية إلى الفتح الإسلامي- ، مطبعة الجمهورية ، دمشق ، ١٩٦٤ ، ص٧٦ ، ص٨٣.

(٤٦) ابن الصغير: المصدر السابق ، ص٣٦.

(٤٧) البكري ، أبو عبد الله: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، جزء من كتاب المسالك والممالك ، مطبعة الحكومة ، الجزائر ، ١٨٥٧ ، ص ٧٠.

(٤٨) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، ط٠١ ، ١٩٤٩ ، ص٣٥٧.

(٤٩) حيث يصف صاحب كتاب البلدان أن للدولة الرستمية حصنا كبيرا على ساحل البحر الأعظم ترسو به مراكب تاهرت ، يقال له "مرسى فروخ". اليعقوبي: كتاب البلدان ، طبعة ليدن ، ١٨٦٠ ، ص٧-١٤.

(٥٠) البكري: المصدر السابق ، ص٦١-٦٢ ، ٧٠.

(٥١) حيث قال الإمام عبد الوهاب: أنا وابن جرني وابن زغلين لأغنينا بيت مال المسلمين بما علينا من الحقوق الشرعية -الزكاة- ، فهو ذو ذهب وفضة ، وابن جرني فلاح عظيم كانت زكاته في السنة آلاف الأحمال من البر والشعير ، وابن زلغين ذو إبل وغنم له من ذلك ما يعد بمئات الألوف. الباروني: المصدر السابق ، ج٢ ، ص١٣٧.

(٥٢) محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب ، نشر وتوزيع دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط٠٢ ، ١٤٠٦/١٩٨٥ ، ص١٩٨.

(٥٣) ابن الصغير: المصدر السابق ، ص٥٤.

(٥٤) أبو زكريا: المصدر السابق ، ص٨٤.

(٥٥) إحسان عباس: المرجع السابق ، ص٣١.

(٥٦) كان الإمام عبد الوهاب يدفع مرتبات الجيش كغيرها من مرتبات القضاة ورجال الشرطة وغيرهم ، من مال الجزية وخراج الأراضي ، وتلك هي السنة التي سار عليها الإمام الأول عبد الرحمان. إحسان عباس: المرجع السابق ، ص٢٤.

(٥٧) لما ابتنى العباس محمد بن الأغلب مدينة العباسة بقرب تيهرت سنة ٢٢٧ هـ ، هدمها الإمام أفلح.

(٥٨) لاحظ أبو زكريا في وصفه لمحاربة الواصلية الذين كانوا أغلبهم من زناتة ومساندة الدولة الإدريسية لهم. أبو زكريا: المصدر السابق ، ص١٠١—١٠٣.

(٥٩) لاحظ فتنة النكار. ابن الصغير: المصدر السابق ، ص ٥٠-٥١.

(٦٠) إحسان عباس: المرجع السابق ، ص٣٤.

(٦١) ابن الصغير: المصدر السابق ، ص٦٢.

(٦٢) المصدر نفسه ، ص٦٣.

(٦٣) نفسه ، ونفس الصفحة .

(٦٤) إحسان عباس: المرجع السابق ، ص٢٤.

(٦٥) كلمة العجم وردت مرات عديدة في كتاب ابن الصغير ، لكن لا نعلم بالتحديد ماذا يقصد بها ، لكن بعكس ما قيل بأنهم من الفرس جاءوا لما سمعوا بحكم الرستميين لتيهرت لأنهم من نفس الجنس ، حيث ظهروا كفئة فاعلة ومؤثرة خاصة بعد مقتل ابن عرفة واندلاع الفتنة. قدور وهراني: "جوانب من التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لمدينة تاهرت من خلال كتاب ابن الصغير" ، مجلة التراث العربي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ع ١٠٦/٢٠٠٧ ، ص٢١٧.

(٦٦) ابن الصغير: المصدر السابق ، ص٦٢. ولم يحدد ماذا يقصد بأهل إفريقية فكل ما قاله أنهم كانوا من الجند.

(٦٧) محمد علي دبوز: المرجع السابق ، ج٣ ، ص٣٢٦.

(٦٨) عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام ، ديوان المطبوعات الجامعية ، ط٠٧ ، ١٩٩٤ ، ج١ ، ص١٦٦.

(٦٩) قدور وهراني: المرجع السابق ، ص٢١٨.

(٧٠) ابن الصغير: المصدر السابق ، ص٥٢.

(٧١) المصدر نفسه ، ص٨٥.

(٧٢) قدور وهراني: المرجع السابق ، ص٢١٧.

(٧٣) إحسان عباس: المرجع السابق ، ص٢٥.

(٧٤) كاستلان جورج: تاريخ الجيوش ، ترجمة كمال الدسوقي ، نشر مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ، مصر ، ١٩٥٦ ، ص٦٥.

(٧٥) ابن الصغير: المصدر السابق ، ص٤٧ ؛ والبكري: المصدر السابق ، ص٦٧.

(٧٦) الباروني: المصدر السابق ، ص٨٧.

(٧٧) ابن الصغير: المصدر السابق ، ص٥٢ ، ٨٥ ، ١٠٨.

(٧٨) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ج. س. كولان وإ. ليفي برفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، ط٠٢ ، ١٩٨٣ ، ج١ ، ص٧٥.

(٧٩) ابن الصغير: المصدر السابق ، ص٥٤ ؛ وأبو زكريا: المصدر السابق ، ص٩٣.

(٨٠) ابن الصغير: المصدر السابق ، ص٥٥.

(٨١) الباروني: المصدر السابق ، ج٢ ، ص١٦٦.

(٨٢) الباروني: المصدر السابق ، ج٢ ، ص٨٣. السيف أكثر الأسلحة شيوعا واستعمالا ، فهو سلاح هجومي ، والقوة الضاربة في يد الجندي باعتباره وسيلة فعالة في الدفاع عن الذات والمبارزة والقتال ، سواء لفرقة الفرسان أو المشاة ، فهو أداة خفيفة تلازم الفرد المجند أينما حل أو ارتحل في حالتي

دورية إلكترونية. محكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الحرب أو السلم. فرنان شنيدر: تاريخ الفنون العسكرية، ترجمة فريد أنطونيوس، منشورات عويدات، بيروت، ط١، ١٩٧٠، ص١١.

(٨٣) ابن الصغير: المصدر السابق، ص٨٠. الدروع هي سلاح لحماية الجسم كله، أو جزء منه تقيه من ضربات العدو، وتكون مصنوعة من الحديد أو البرونز أو من الجلود المقواة، المضاعفة الطبقات، وهي الأكثر تداولا لخفتها ولقدرة الجندي على الحركة السريعة وهو مرتديها. هندي: المرجع السابق، ص١٠٩.

(٨٤) ابن الصغير: المصدر السابق، ص٨٤.

(٨٥) المصدر نفسه، ص٨٣.

(٨٦) نفسه، ص٨٤.

(٨٧) أبو زكريا: المصدر السابق، ص١٥٧.

(٨٨) ابن الصغير: المصدر السابق، ص٨٠.

(٨٩) أبو زكريا: المصدر السابق، ص٩٩، ١٠٢. رغم الوصف الكثير لابن الصغير لتولي كل إمام ولأوضاعه إلا أنه لم يشر إلى مسؤولية الإمام في المقام الأول في الشؤون السياسية والحربية أي قيادة الجيش، مما يعزو إلى بساطة التفكير في اختيار الحاكم.

(٩٠) ذكر أبو زكريا أن إلياس أبو منصور كان عاملا على جبل نفوسة، وقد قاد الجيش بنفسه، "وكان أبو منصور في مسيرته إذا حل وقت الصلاة نقر في طبله ويقف أول العسكر لآخره ويصلي بهم ركعتين فيرتحلون". أبو زكريا: المصدر السابق، ص١٥٣.

(٩١) كان قاضي أبي منصور هو عمروس بن فتح وقد قاد جيشا، حيث أورد أبو زكريا قوله: "وبلغنا أن عمروس بن فتح كان في آخر المعركة يحمي الناس ويذود عنهم، ولم يقدروا عليه". أبو زكريا: المصدر السابق، ص١٥٧.

(٩٢) ابن عذارى: المصدر السابق، ج١، ص١٣٩.

(٩٣) ابن الصغير: المصدر السابق، ص٥٣.

(٩٤) أبو زكريا: المصدر السابق، ص٩٦. ويشير إليها محمد علي دبوز بقوله: "وكانت القبائل الكبرى تجند في النفير العام الكثير". محمد علي دبوز: المرجع السابق، ج٣، ص٣٢٦.

(٩٥) البارون: المصدر السابق، ص٢٩٦.

(٩٦) صالح معيوف: جبل نفوسة وعلاقته بالدولة الرستمية، منشورات مؤسسة تاوالت، ليبيا، ٢٠٠٦، ص٢٠٤-٢٠٥.

(٩٧) محمد علي دبوز: المرجع السابق، ج٣، ص٣٢٦.

(٩٨) أكرم ديري وآخرون: الموسوعة العسكرية، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٨١، ج١، ص٢٩٤.

(٩٩) أبو زكريا: المصدر السابق، ص٧١. هذا فضلا عن الخطة التي طبقها أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح رفقة عبد الرحمن بن رستم ورفاقه في اقتحام مدينة طرابلس، وبها عامل أبو جعفر المنصور، عندما عمدوا إلى وضع رجال مسلحين في جواليق لدخول المدينة ولما توسطوها، فتحوا الجواليق وخرج الرجال المسلحون واستولوا على مدينة طرابلس. أبو زكريا: المصدر السابق، ص٥٩.

(١٠٠) عمد ابن فندين إلى وضع رجل مسلح داخل صندوق مغلق وتظاهر رجلان من أتباع ابن فندين بأن بينهما خلاف حول هذا الصندوق، وأن كل منهما لا يأمن صاحبه عليه، وأنهما يريدان الاحتفاظ به عند الإمام، حتى ينتهي ما بينهما من خلاف، واتفق القوم مع صاحبهم الذي بداخل الصندوق على أن ينهض في الليل فيقتل عبد الوهاب، وعندما يتمكن من ذلك يؤذن لصلاة الصبح، فتكون هذه شرارة ينطلق بعدها أتباع ابن فندين فيضعون السلاح في أهل المدينة ويستولون على السلطة. الشماخي: المصدر السابق، ص١٤٩. وثارت الشكوك في نفس الإمام، فالصندوق ثقيل وقفله من الداخل، لذا وضع الإمام في فراشه رقا منفوخا وألقى عليه رداء أبيض، وفي الليل خرج الرجل فضرب الرق بالسيف، وهنا عاجله الإمام بضربة قاتلة ووضعه في الصندوق، وظل القوم حتى الصباح، ولم يسمعوا شيئا من صاحبهم، فاجتمعوا إلى الإمام وقالوا له اتفقنا نريد الصندوق، فوجدوا صاحبهم مقتولا فيه. أبو زكريا: المصدر السابق، ص٩٣-٩٥.

(١٠١) رغم أنه أرسلت له نفوسة أربعة أفراد بدلا من أربعمائة، وهم محمد بن يانس، ومهدي النفوسي، وأبو الحسن الأبدلاني، وأيوب بن العباس. الشماخي: المصدر السابق، ص١٥٥. لكن عند الدرجيني رواية تخفف من حدة هذه المبالغة بقوله "أرسل إلى أهل جبل نفوسة يستمدهم، طالبا منهم جيشا نجبا، يكون فيهم رجل مناظر عالم بفنون الرد على المخالفين، ورجل عالم بفنون التفاسير، ورجل شجاع يستعد لمبارزة الواصلي". الدرجيني: المصدر السابق، ج١، ص٥٦.

(١٠٢) الشماخي: السير، المصدر السابق، ص١٦٠.

(١٠٣) أبو زكريا: المصدر السابق، ص٩٦.

(١٠٤) الدرجيني: المصدر السابق، ج١، ص٧٤.

(١٠٥) أبو زكريا: المصدر السابق، ص٩٦.

(١٠٦) عبد الرحمن الجيلالي: المرجع السابق، ج١، ص١٧٦.

(١٠٧) مانو: قصر قديم بين قابس وطرابلس تقريبا. انظر الباروني عبد الله بن يحي النفوسي: رسالة العامة والمبتدئين إلى معرفة أئمة الدين، مطبعة النجاح، مصر، ١٣٢٤، ص١٧، هامش ١. حيث في موقعة مانو "فل حد سيوف نفوسة، وفنيت فيها أبطالهم". الباروني: الأزهار، ج٢، ص٢٨٠. إذ انهزم برجاله أمام الأغالبة، وأريقت دماؤهم في البحر حتى غلبت حمرة الدم على الماء. الشماخي: المصدر السابق، ص٢٦٨. وموقعة مانو وقعت سنة ٢٨٣هـ/٨٩٦م، حيث تختلف المصادر في أسبابها؛ فابن عذارى المراكشي يذكر أن سببها هو أن إبراهيم بن أحمد الأغلبي اعترضته نفوسة بين قابس وطرابلس ومنعته من الجواز، وكانوا في عشرين ألفا لا فارس معهم، فناصبهم الحرب وقاتلهم قتالا شديدا، حتى هزمهم وقتلوا أكثرهم. ابن عذارى: المصدر السابق، ج١، ص١٣٩. أما أبو زكريا فيذكر رواية أخرى، وهو أن إبراهيم بن الأغلب أنفذه الخليفة العباسي المتوكل (المعتضد عند بحاز: المرجع السابق، هامش ١٣٩) بعد أن وصلته أخبار نفوسة، وأن قيام دولة الفرس بتيهرت كان بهم. أبو زكريا: المصدر السابق، ص١٥٤-١٥٥. ولاشك أن ما أورده ابن عذارى هو الأصوب والأقرب للحقيقة، لأن وجهة سير ابن الأغلب كانت مصر وليس تيهرت. صالح معيوف: المرجع السابق، ص١٧٠. وعن خسائرها يتحدث أبو زكريا "أنه بلغنا عن الثقاة من أهل الجبل أن عدة من قتلاهم اثنا عشر ألف من نفوسة وثمانية آلاف من كان معهم من البربر وغيرهم، وفيهم أربعمائة عالم". المصدر السابق، ص١٥٦-١٥٧.

(١٠٨) أبو زكريا: المصدر السابق، ص١٥٥.

(١٠٩) ابن عذارى: المصدر السابق، ج١، ص١٣٠.

(١١٠) محمد عيسى الحريري: المرجع السابق، ص١٨٠.

(١١١) المرجع نفسه، ص٢٢٨. الأمر الذي دعا الإمام أبو اليقظان محمد إلى الانتقاص من سلطة بعض القبائل، التي كانت تستأثر بالمناصب العامة، وجعلها مشاعا بين كافة الفرق والطوائف من غير الإباضية. محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص٢٠٠.

(١١٢) إحسان عباس: المرجع السابق، ص٢٣.

(١١٣) ابن الصغير: المصدر السابق، ص٣١.

(١١٤) أبو زكريا: المصدر السابق، ص١٦٩. الباروني: الأزهار، ج٢، ص٢٩٢، ٢٩٣.

(١١٥) الدرجيني: المصدر السابق، ج١، ص٧٠.

(١١٦) يضيف الأستاذ بوزيان الدراجي "أن هذه القبائل لم يصل بهم الحال إلى مرتبة الملك القاهر، المتحكم في الرقاب... بسبب ضعف اللحمة، وبروز التناقضات المتعددة بين القبائل من جهة، وبسبب عدم حصول الغلبة لعصبية ما على بقية العصبيات المتحالفة من جهة أخرى". دول الخوارج والعلويين في بلاد المغرب والأندلس، دار الكتاب العربي، ٢٠٠٧، ص٢٦.

(١١٧) محمد عيسى الحريري: المرجع السابق، ص٢٢٨.

(١١٨) صالح معيوف: المرجع السابق، ص١٢٢.

(١١٩) إحسان عباس: المرجع السابق، ص٢٣.

(١٢٠) المرجع نفسه، ص٣٤.

دورية إلكترونية. محكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

موقع بناصا الأثري من الأصول إلى الجلاء الروماني

المؤلف : د. سيدي محمد العيوش
الناشر : Rabat Net Maroc
تاريخ النشر: الطبعة الأولى ٢٠١١
عدد الصفحات: (٣٣٤) - الحجم المتوسط (١٧ × ٢٤)

عرض
د. سيدي محمد العيوش
أستاذ التاريخ بالمدرسة العليا للأساتذة
الرباط - المملكة المغربية

الكتاب مقسم إلى ثلاثة أبواب:
الباب الأول: المظاهر التنظيمية والمعمارية والفنية لمدينة بناصا
الباب الثاني: الحياة الدينية والاجتماعية
الباب الثالث: المعطيات الاقتصادية
ملحق: نقائش المدينة

تقع مدينة بناصا إحدى مدن المغرب القديم على الضفة اليسرى لنهر سبو ، و تبعد بحوالي ١٧ كلم عن مدينة مشرع بلقصيري ، وبحوالي ٣٠ كلم عن المحيط الأطلسي ، تم تحديد موقعها من طرف الباحث شارل تيسوTISSOT وهي إحدى المستوطنات الرومانية التي أقامها أوكتافيوس في موريطانية. يندرج الاهتمام بموقع بناصا ضمن تحديد الأهمية التي كانت له ضمن مواقع المغرب القديم ، خاصةً وأن اختيار هذه النقطة من طرف الرومان لإقامة مستوطنة رومانية نابع من الأهمية الإستراتيجية والاقتصادية التي كانت له داخل مجال المغرب القديم ، على أنه لابد من الإشارة إلى أن إقامة هذا الموقع لا يرتبط بالوجود الروماني في المنطقة ، بل إن الكثير من الدلائل تشهد على وجود استقرار يعود إلى فترات سابقة عن القرن الثالث قبل الميلاد. وبالتالي فإننا سنميز في دراسة الموقع بين مرحلتين أساسيتين مرحلة سابقة عن الوجود الروماني ومرحلة رومانية. إن وجود المدينة في منطقة سهلية وعلى ضفة واد سبو مؤشر إيجابي ساعد على امتداد مجالها وازدهارها على الرغم من وقوعها في الداخل ، هذا ما يعكسه تنوع اللقى وكذا المآثر العمرانية التي استدعت جلب قطع الأحجار من جهات خارج مجال سهل الغرب.

الجوانب المعمارية

لقد كان الاعتقاد السائد قبل منتصف القرن العشرين أن موقع بناصا لم يعرف استقرارًا سابقًا عن الوجود الروماني ، غير أن عددا من الاستبارات أكدت عكس هذا الطرح. إن المشكل المطروح بحدة في بناصا هو كون المنطقة ، كانت ولمدة طويلة عرضة للفيضانات والتوضعات المتوالية ، وهو ما جعل المستويات القديمة مطمية تحت الإرسابات[١]. ورغم ما يعطى لهذه الإرسابات من أهمية في الغرب كما هو وارد في بعض الدراسات السابقة ، فإن بعض الدراسات الحديثة[٢] حاولت التأكيد على أن هناك استقرارًا نسبيًا في الغرب ، حيث أن تلك الإرسابات تبقى محدودة في المكان واستثنائية في الزمان ، وبالتالي يمكن الشك في أهمية السمك الذي ستعطيه ، خاصةً إذا أخذنا بعين الاعتبار شساعة المجالات المنبسطة لسهل الغرب.

ارتبط هذا السكن في بدايته بنشاط حرفي يتعلق بإنتاج الفخار كما يدل على ذلك وجود عدد من الأفران ، إلا أن المسألة التي لا زال يعتريها كثير من الغموض هي التي تهم النواة الأولى للاستقرار بالمدينة ، حيث تضاربت الآراء حول تحديد موقعها في الجهة الشمالية أو في الجهة الجنوبية ، ويظهر أن الميل إلى أحد الرأيين لا ينطوي على كثير من الصواب في غياب حفريات خاصة و أن عملية الجرد الجيوفيزيائي قد أكدت امتداد الموقع.

وتبقى لحد الآن معلوماتنا عن الفترة المورية منحصرة في نتائج الاستبارات التي عرفها الموقع خلال نهاية الخمسينات من القرن العشرين استبارات ١٩٥٥ و ١٩٥٦ ودراسة سيلفي جرارS.Girard التي قامت بتجميع نتائج استبارات سابقة والاستبارات التي يعرفها الموقع في قسمه الجنوبي في السنين الأخيرة من طرف بعثة مغربية فرنسية.

المدينة الرومانية

تتخذ مستوطنة بناصا في وضعيتها الحالية شكلاً طوليًا من الشمال إلى الجنوب ، حيث تظهر أغلب المباني متركزة على الواجهة الغربية للكاردو الرئيسي (الشارع الرئيسي العمودي) ويظهر أن تخطيط المدينة بالنظر إلى شكله الحالي ، مثله مثل غيره من المدن ، قد روعي فيه اعتبار عنصري الموقع والموضع. فالمدينة تم تشييدها على ضفة نهر سبو ، الذي تحدثت المصادر الأدبية عن صلاحيته للملاحة ، أما موضعها ، ففي سهل منبسط وعلى ضفة النهر ، الذي يستغل كوسيلة ملاحية ودفاعية ، هذا مع اعتبار الطرق البرية التي تربط المدينة بمدن أخرى مجاورة[٣] ، كل ذلك كان من عوامل ازدهار هذا الموقع.

غير أننا لا نتوفر على التصميم الكامل للمدينة ، وذلك لكون الحفريات لم تكشف إلا عن جزء من المدينة ، كما أن السور الذي يحيط بها ، والذي من شأنه أن يمنحها اتجاها يحدد لنا الشكل النهائي للمدينة ، لا نتوفر منه إلا على جزء في الناحية الجنوبية الغربية ، وجزء آخر كشفت عنه عملية الجرد الجيوفيزيائي في الجهة الجنوبية الشرقية. فما هو شكل المعمار السائد في المدينة ؟

دورية إلكترونية محكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

هناك محور متعامد ، تم هناك تقاطع شوارع شمالية جنوبية وأخرى غربية شرقية بزوايا قائمة ، وتمكن نظرة عامة على تصميم المدينة من القول بأن هناك نوعًا من الانتظام ، ذلك أن عددًا من البنايات تسير في اتجاه متوازي مع الطريق كما يظهر بالنسبة للشارع الرئيسي(الكاردو) مع مجموع المنازل ، فبنايات المدينة تنتظم في وحدات سكنية تتخذ أشكالاً مستطيلة ، محاطة في جوانبها الأربعة بشوارع متوازية ومتقاطعة.

تتوسط المدينة ساحة عمومية تتخذ شكلاً منحرفًا وإلى جانبها يوجد معبد متعدد المقصورات ، إضافةً إلى محكمة. كما تشتمل المدينة على أربعة حمامات عمومية تختلف من حيث المساحة ، أما باقي البنايات فهي عبارة عن منازل للسكن[٤] ، أو محلات تستغل لأغراض تجارية وصناعية.

– الساحة العمومية:

عرفت هذه البناية عدة تطورات ، إذ كانت في البداية عبارة عن ساحة تضم سوقًا يتردد عليه السكان لقضاء حاجياتهم اليومية ، ليصبح مع مرور الزمن ساحة المدينة الوحيدة وقلبها النابض.[٥] فمن مجال يتجمع حوله التجار في البداية إلى إقامة دكاكين واستعمال صف الأعمدة في فترة لاحقة. هذا التطور الذي عرفته هذه الساحة سيكتسي خصوصيات اختلفت حسب تصاميم المدن ، إذ سنجده يتوسط المجال الحضري في المدن ذات التصميم المستطيل عند التقاء الديكومانوس والكاردو ،[٦] غير أن هذه القاعدة ستعرف بعض الاستثناءات.[٧]

فوروم المدينة أو ساحتها عبارة عن ساحة مستطيلة لم يتم تحديدها بدقة ، وقد اعتبرها توفنو[٨] شبه منحرفة (٣٨م و٣٤م كقاعدة وارتفاع ٣٨م) ، وهو يقترب من فوروم دجميلة وسبيطلة.[٩] ومن مميزات ساحة المدينة العمومية أنها أقل اتساعًا في جهتها الشمالية الشرقية ، و يلاحظ أن المعايير التي وضعها فيتروفيوس لإقامة هذه الساحات لم يتم احترامها في فوروم المدينة ، إلا أن هذه المسألة تنسحب على العديد من المدن ، حيث تؤثر في تخطيط هذه الساحات اعتبارات محلية غالبًا ما تكون مجالية.

– البازيليك:

تمتد بازيليك المدينة على الواجهة الشمالية للفوروم ، حيث تتخذ شكلاً مستطيلاً مساحته ٩٤١,٠٦م^2 وبذلك فهي دون مساحة بازيليك وليلي التي تصل إلى ١٠٠٠م^2 والتي مقارنةً مع بناصا لم تشأ إلا خلال مرحلة لاحقة. تنفتح البازيليك على شارع بواسطة فتحة واسعة ، أرضيتها من بلاطات سميكة من الرخام الأبيض ، أما الجدران فمن أحجار كبيرة تحيط بها ركائز.[١٠]

– المعبد:

كانت كل مدينة توضع تحت حماية الآلهة لذا كان من اللازم توفير مقر لها ، والذي يشترط فيه أن يوضع على نقطة مرتفعة نظرًا لكون الاعتقاد السائد هو أن حماية الإله لا تتم بطريقة محكمة إلا على المجال الذي يمكن رؤيته.[١١] غير أن هذه المعابد اختلفت عبر الزمان والمجال في مكوناتها وهندستها. وقد صنف معبد بناصا ضمن المعابد الموريطانية التي تم الكشف عنها في عدة مواقع قديمة ، وهو اقتراح سبق أن تقدم به ج.بوب.[١٢] ينتصب هذا المعبد على بوديوم يتم الارتقاء إليه بأدراج جانبية ، يتخذ شكلاً منحرفًا ويتوفر على ست مقادس cellae تشغل تلثي المساحة ، في حين أن مقدمة الهيكل Le Pronaos فلها عمق ٤,٥٠م. يبقى الإشكال المطروح هو هل يمكن أن نعتبر هذا البناء كابتول المستوطنة ؟

– حمامات المدينة:

شكلت هذه البنايات موضوع عدد من الدراسات ، وتعتبر دراسة ر. توفنو و أ. لوكي أقدمها ، بل والوحيدة التي نتوفر عليها لحد الآن حول هذه البنايات ، غير أن البعض من هذه الحمامات تعاد دراسته من جديد ومع ذلك فإن النتائج لا زالت لم تظهر رغم مرور ما يزيد عن عقد من الزمن. فكل الحمامات التي كشفت عنها الحفريات لحد الآن في موقع بناصا هي مؤسسات عمومية ، وعددها أربع تتركز كلها في الجهة الغربية وهي كالتالي: (حمامات الغرب الكبيرة - وحمامات الشمال- وحمامات الغرب الصغيرة- وحمامات ذات الصباغة الحائطية).

تميزت حمامات المدينة بتواضع مساحاتها مقارنة مع حمامات مدن أخرى ، وعلى ذلك يظهر أن لعنصر المساحة دور ليس فقط في عدم وجود حمامات خصوصية ، ولكن كذلك في تنوع التصاميم فقد كان أكثرها شيوعًا هو التصميم المحوري أو التصميم الخطي. إن هذا العدد المهم من الحمامات مقارنة مع المساحة التي كشفت عنها الحفريات يعكس وجود ساكنة مهمة نسبيًا تسكن المدينة والتي يمكن أن تضاف إليها ساكنة بادية بناصا ، والتي من دون شك أنها كانت تتردد على هذه الحمامات خلال فترات معينة.

– العمارة الخصوصية "المنازل":

يميز فيها بين نوعين من المنازل: منازل ذات باحات معمدة ، وأخرى تتخذ أشكالاً تختلف حسب المساحة. ومن نماذج المنازل ذات الباحات المعمدة في بناصا نورد ، في الحي الشمالي ، منزل جني الخصوبة الذي تتوسطه باحة معمدة مساحتها ٢٤٠ م^2 مهدمة في جزئها الشمالي ، وقسم من الجزء الجنوبي الشرقي ، وتزين إحدى غرف هذا المنزل فسيفساء تظهر منها رصيعة تمثل سمامة جني الخصوبة ، يظهر عليها وجه صارم ملتفت إلى اليسار يمسك قرن الخصوبة الذي يوجد على كتفه ، ومن هذا القرن تخرج أزهار وثمار ، ويتضح من العلاقة بين البهو وقاعة الأكل في هذا المنزل وجود محور منحرف.

من المنازل الأخرى ذات الباحة المعمدة منزل نقد يوبا الذهبي فله شكل رباعي مضلع يتوفر على بابين أحدهما للراجلين ، والأخر للعربات ، وهو من المنازل الفريدة في بناصا التي تتوفر على بابين في حين أن الأمثلة كثيرة في وليلي وقد يكون لذلك علاقة بمساحة المنزل. إلى جانب هذه البنايات ذات الباحات المعمدة ، يمكن التعرف على نماذج سكنية أخرى ، نورد منها الأشكال التالية والتي نقدمها في بعض البنايات:

المنزل ذو الممر: في أقصى الجنوب ، له شكل طولي يتوسطه ممر ، تمتد على جانبيه مجموعة غرف يصعب تحديد وظائفها ولو أن انفتاح بعضها على الشارع يوحي بوظيفتها الاقتصادية. تضم بعض جدران هذا المنزل مواد معادة الاستعمال مما يوحي بأنه قد عرف تطورًا خلال تاريخه ، نجد مثل هذا النوع من المنازل في العديد من مدن موريطانية الطنجية. يطرح هذا النوع من المنازل إشكالاً في تاريخ العمارة ، ويخص مسألة ما إذا كان المنزل ذو الممر تقليدًا في فترة من فترات المدينة بحيث يوجد منزل ذا ممر وإلى جانبه منزل ذا باحة معمدة ، أم أنه متقدم شيئًا ما عن المنزل ذو الباحة ، خاصة وأننا نعلم

دورية إلكترونية محكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

في حالات متعددة أن المنزل كان في الأول منزلاً ذا ممر وتحول فيما بعد إلى منزل ذا باحة معمدة.

بناية ذات الاتجاهين: من البنايات الأخرى التي نقف عليها ، ما يمكن تسميته بالبناية ذات الاتجاهين ، بناية متميزة ذات شكل مربع لواجهاتها الخارجية وتحتوي على ما يشبه "أبراج" يصعب تحديد وظيفتها. أهم ما يميز هذا البناء أنه الوحيد في بناصا الذي استعمل فيه حجر الشيست ، وتبين من معاينة هذا البناء أنه قد بني على مرحلتين إحداهما تساير الاتجاه العام للمدينة.

إن ما يمكن أن نقوله عن منازل بناصا باختلاف أنواعها أنها بخصوصياتها المحلية تبقى أكثر تشابها مع منازل وليلي وتمجاد ، فالمنازل الرفيعة قليلة في بناصا مقارنة مع وليلي ، وهذا أمر طبيعي بالنظر لرقعة المدينتين ، كما أن المهندسين لم يتدخلوا في بنائها بل قاموا فقط بتوزيعها في مجموعات تقع بين عدة محاور[١٣] ، وهذا ما يفسر اختلافها من حيث الاتجاه و توزيع القاعات.

الحياة الدينية

أما الجانب الديني ، فيمكن رصده من خلال النقائش والتماثيل البرونزية ، أو الرخامية التي وجدت في المدينة ، وبذلك نميز بين العبادات الإغريقية الرومانية ، ممثلة في عدد من الآلهة مثل: جوبتر ، وجنون ، ومينيرف ، وميركور ، وباكوس ، وأبولون ، وفينوس. أما بالنسبة للعبادات الشرقية فيمثلها وجود عدد من الآلهة من بينهم سيبل (Cybèle) ، وإيزيس(Isis).

بالنسبة لسيبل تظل بناصا الموقع الوحيد الذي كشفت فيه الحفريات عن دليل مادي له علاقة بهذه المعبودة. يتعلق الأمر بنقيشة عثر عليها أثناء حفريات ١٩٥٤ ، عبارة عن إهداء ، تحية للإمبراطورية[١٤] وفيه يقدم دومفيرين معبدًا لسيبل ، قد يكون أحد أسلافهما حصل على الرومنة منذ عهد كلود[١٥] ، كما أن النص يكشف لنا عن أخوين كانا مكلفان بالإشراف على عمليات البناء ولا نجد فيه إشارة لهبات خاصة ، مما قد تفيد أن بناءه قد اعتمد فيه على نفقة المجلس المحلي[١٦].

أما إزيس فممثلة بنقيشة هي عبارة عن إهداء للإلهة[١٧] من طرف معتق ، وهذا الإهداء هو عبارة عن مدبح من الرخام عثر عليه بجانب الفورم يؤرخ بالقرن الثني والثالث حسب فيدمان VIDMAN (L.)[١٨].

إن دخول هذه العبادة الشرقية وانتشارها بصفة خاصة في موريطانية الطنجية ، وكما عبر عن ذلك كثير من الباحثين ، كان على يد الملكة كليوباترا سيليني وهو ما لخصه ر.توفنو فيما يلي: "ليس هناك ما يثير الاستغراب في أن الأتباع تبنوا عبادة الملكة كليوباترا ، وعندما تنشر الديانة الشرقية في الإمبراطورية ، فإنها تجد في بناصا الأرض المناسبة".[١٩]

أما العبادات المحلية ، فيمثلها نصب وحيد وجد بين أنقاض المخلفات الأثرية ، وهو ما يطرح معه أكثر من علامة استفهام ، خاصةً وأنه في وليلي تم العثور على مئات من هذا النوع ، لذا فإن هذه الندرة تطرح أمام الدارس مجموعة من الصعوبات ، وبالتالي تجعل باب التأويل مفتوحًا لمحاولة تقديم فكرة عن دلالة وجوده ، خاصةً وأن غياب نقيشة يمكنها أن تساعد في تحديد هذا النصب تزيد من صعوبة الأمور.

الحياة الاجتماعية

بالنسبة للحياة الاجتماعية يمكن التمييز بين ساكنة المدينة خلال الفترة المورية وساكنتها خلال الفترة الرومانية. إن المعطيات التي نتوفر عليها في شأن ساكنة المدينة خلال هذه الفترة تبقى في غالبها شبه منعدمة ، إلا ما كان من أمر النقيشتين التين أوردهما غالان في مجمعه واللتين تخصان شخصًا ليبيًا يدعى شنان(SNN).

فقد وجد هذا الاسم منقوشًا على قطعتي فخار في الفرن رقم ١ سنة ١٩٥٥ ، غير أن الاعتماد على بعض اللقى قد يمكننا من تلمس وجود ساكنة محلية من خلال وجود خزف محلي مصبوغ بزخارف متنوعة ، تمت الإشارة إلى مثيلات لها على قبور ليبية ، وإذا أضفنا إلى قطع هذا الفخار المصبوغ تعدد الأفران في موقع بناصا ، فإن ذلك يقودنا إلى الحديث عن وجود ساكنة محلية تعاطت هذا النشاط الحرفي خلال هذه الفترة من تاريخ الموقع ، علاوةً على هذا يمكن أن نظيف بعض الحلي الذهبية التي تم الكشف عنها خلال الحفريات ، والمتمثلة في رصيعة من ذهب ، وأقراط تعود إلى القرن السادس والخامس قبل الميلاد.[٢٠]

– ساكنة بناصا خلال الفترة الرومانية:

من خلال جرد النقائش التي وجدت بالموقع ، يلاحظ اختلاف في العدد بالنسبة لكل مجموعة ، فالأفارقة يمثلون نسبة ٣٩,١٣% يليهم الأشخاص الذين صعب تحديد أصلهم بنسبة ٣٣,٣٣% ثم المشارقة حيث كانت أغلب النقائش التي وردت عليها أسماء هؤلاء عبارة عن شهادات عسكرية ، يمثلون ١٣,٠٤% من مجموع السكان ، وفي الأخير نجد الأوربيين بنفس النسبة.

المعطيات الاقتصادية:

فرض تناول الجانب الاقتصادي في بناصا التعامل مع مجموعة من الآثار المادية إضافة إلى بعض الإشارات الواردة في النصوص وإن كانت تكتسي طابع العمومية. لقد كان اختيار مستوطنة بناصا داخل البلاد ووسط واحد من أخصب السهول المغربية يدخل ضمن إستراتيجية عسكرية واقتصادية. وعلى هذا الأساس فإن إقامة بناصا في منطقة سهلية خصبة مرتبطة بتوفير مجال لاستقبال وتوطين عدد من الجنود المتقاعدين خاصةً بعد انتهاء الحروب الأهلية[٢١] ، وهو ما يؤكده العدد المهم من الشهادات العسكرية التي وجدت في بناصا ، فنحن هنا أمام مستوطنة همت مجالاً فلاحيًا واسعًا على ضفتي سبو.

– الآثار المادية المرتبطة بالإنتاج الزراعي:

الأرحية: كشفت الحفريات في موقع بناصا عن أربعة عشر رحى يميز فيها بين أرحية من أحجام كبيرة وأخرى من أحجام صغيرة ، إضافةً إلى أن توزيعها غير متكافئ داخل الموقع إذ تتركز تسعة منها في القسم الشمالي للمدينة ، الضفة الشمالية للدوكومانوس الرئيسي ، وستة في الأنسولات الأربعة ، مقابل واحدة في الماكلوم ؟ وإثنتين في الحي الشمالي. يضاف إلى هذه الأرحية ، أرحية أخرى ذات حجم صغير وجدت داخل بعض المنازل ، مما قد يوحي بأن كل بيت كان يقوم بطحن وعجن خبزه. وجدت أغلب هذه الأرحية في الحي الشمالي الشرقي أي فيما يمكن تسميته بالحي الحرفي ، وذلك باعتماد عدد الأرحية والمخازن التي وجدت فيه.

دورية إلكترونية. محكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

المخابز: اعتبرت المخبزات صنفًا ثانيًا من الدكاكين يمكن التعرف عليها من خلال مرافقها المتمثلة في الفرن والمعجن والرحى ، غير أنه لا بد من الإشارة إلى أن هذه المخابز قد تضم كذلك مرافق أخرى كالمخازن ودكاكين بيع الخبز ، وفي هذه الحالة سنكون أمام مخبزة عمومية ، ويمكن التعرف عليها من خلال ضخامة المطحنة. وفي مقابل هذه المخبزات العمومية وجدت مطاحن أخرى داخل بعض منازل المدينة تميزت بصغر حجمها وهو ما يفيد الاستعمال المنزلي لهذا النوع. ومن بين المخابز التي وجدت بالمدينة ، مخبزة الحي الجنوبي الغربي ، عبارة عن غرفة طويلة مرتبطة بمنزل فينوس ، مبلطة في جزء منها بمربعات من الآجر يمكن أن نرى فيها قاعدة فرن ، كما وجد معجن من بين الأدوات الأخرى التي وجدت داخل هذه الغرفة.

معاصر الزيتون: لقد بلغ عددها[٢٢] إحدى عشر معصرة تمثلها عشرة ثقالات مقنطرة ، وثقالة أسطوانية ، تتوزع في الموقع بشكل غير متكافئ.[٢٣] يضاف إلى هذه العناصر وجود مجموعة من الصهاريج الصغيرة التي يمكن ربطها بمعاصر الزيتون ، ومن هذه المعاصر معصرة أنسولا ، ومعصرة بجوار حمامات الغرب الكبيرة.

تربية الماشية والصيد: وفرت المؤهلات الطبيعية لسهل الغرب إمكانية قيام حياة رعوية نشيطة ، فوجود العشب والماء سهلا التنقل الموسمي للرعاة في مجال اشتهر بوفرة الغطاء النباتي وتربية الماشية منذ فترة بعيدة ، يضاف إلى هذا ما يمكن أن توفره المرجات من مجال رعوي خصب خلال الفترات التي ينحبس فيها المطر ويقع تبييس للأعشاب في مجالات أخرى.

لقد توفرت مجموعة من المخلفات المادية في هذا الوسط البيئي مكنت من الإقرار بوجود تربية للماشية في منطقة بناصا ، منها عدد من القرون والأختام لرشم القطيع[٢٤] ، وكذا قرون الأبقار التي تم العثور عليها في الاستبار الذي أنجز سنة ١٩٥٦ ، وعظام حصان في الحي الجنوبي بجوار البناية ذات الاتجاهين.[٢٥] وهو ما يمكن اعتباره مؤشر عن هذا النشاط ، وشهادة عن ازدهار تربية الماشية.[٢٦]

بالنسبة للصيد نشير إلى الأهمية التي كانت لواد سبو والذي كان شريان الملاحة في سهل الغرب ، وشكل خزانًا لثروة سمكية خاصةً منها ما يتعلق بسمك الشابل والذي لم يختف إلا خلال عهد قريب في ظل ظروف بيئية غير ملائمة. هذا النوع من السمك كان خلال العصر القديم يصدر مملحًا مجففًا ،[٢٧] وتنحصر اللقى الأثرية المرتبطة بهذا النوع من النشاط فيما كشفت عنه الحفريات من عشرات الصنانير البرونزية ذات الأحجام المختلفة كشفت عنها الحفريات القديمة في الموقع.[٢٨]

أما الصيد البري ؛ فتشهد عليه عدد من أنياب الخنازير التي عثر عليها أثناء الاستبارات التي تمت في وقت سابق في المدينة. ومن اللقى الأخرى المرتبطة بهذا القطاع هناك بعض قطع بيض النعام خاصةً في المستويات السفلى ممزوجة مع لقى أخرى.

صناعة الفخار: من الأنشطة الحرفية التي ازدهرت بالمدينة نذكر خاصةً صناعة الفخار ، والتي كانت تتم في أفران لا زالت تشهد على ذلك ، ونميز فيه بين خزف يدوي ومدولب. ويفيدنا النوع الثاني في التأريخ وفي الوقوف على عملية التبادل التجاري ، ونميز في هذا الصنف بين نوعين: الأواني المنزلية والأمفورات.

المبادلات التجارية

تمثلها اللقى الأثرية المتمثلة في الخزف والأمفورات والتي تمكن من رصد التبادل الجاري بين بناصا وجهات أخرى سواء داخل موريطانية الطنجية أو خارجها. فقد قطعت هذه المواد مسافات كبيرة بين مناطق إنتاجها ومناطق توزيعها ، إلا أن ما يثير الانتباه في شأنها ، هو هل كان وصولها إلى موريطانية الطنجية بصفة عامة وبناصا على وجه الخصوص يتم مباشرةً من مناطق الإنتاج أو عبر وساطة معينة.

المبادلات الداخلية والواردات:

رغم أن موقع بناصا مفتوح على المواقع المغربية والمتوسطية الأخرى ، إلا أن عناصر هذه التجارة تبقى غير محددة سواءً بالنسبة للصادرات ، أو الواردات إذ لا نعرف من مواد المراكز الأخرى إلا ما كان من أمر أمفورات موقع القواس وبعض الأمفورات الأخرى[٢٩] ، حتى وإن كانت الظروف الطبيعية من موقع وسهولة اتصال ، إضافةً إلى اللقى النقدية عوامل توحي بوجود علاقات نشيطة بين هذه المراكز وبين بناصا. إن عدم توفر معطيات دقيقة عن المناطق التي تستقبل منتوجات بناصا ، يجعل من الصعوبة بمكان التكهن بمجال انتشار هذا الإنتاج.

أما بالنسبة لواردات بناصا من هذه المراكز فتبقى غير معروفة ، ويحتمل أنها كانت من مواد تعرضت للتلف ، على هذا الأساس فإن تحديد السلع المصدرة من بناصا ، أو الواردة عليها يبقى أمرًا صعبًا.

– العلاقات التجارية الخارجية:

شواهد هذه التجارة هي عبارة مواد فخارية تم ضبطها في الموقع سواء كانت أواني منزلية أو مواد أمفورية ، لكن ما تجدر الإشارة إليه هو أن هذه التجارة لا تتمثل فقط في المواد على اختلاف أنواعها ، فقد وجدت إلى جانبها مواد أخرى نجهل طبيعتها ، على أن ما يهمنا في هذه المواد الفخارية ليس هذه الأواني والأمفورات ، ولكن ما تحمله من منتوجات يمكن أن تساعدنا على أخذ فكرة عن المواد التي تصل إلى الموقع وإلى موريطانية بصفة عامة من جهات مختلفة ، خاصةً وأن موقع بناصا كان يسهل اتصاله بالبحر ، وذلك عبر موانئ محيطية كليكسوس ليتصل ببقية موانئ البحر الأبيض المتوسط ، ويعود هذا الاتصال إلى فترات سابقة عن الوجود الروماني بالمنطقة.

لا يرتبط قيام موقع بناصا الأثري بالوجود الروماني في المنطقة فقط ، بل إن الكثير من الدلائل تشهد على وجود استقرار ربما عاد إلى فترات متقدمة عن القرن الخامس قبل الميلاد. كما كشفت الحفريات في هذا الموقع أيضًا عن مخلفات لمؤسسات تنم عن ازدهار عمراني واجتماعي واقتصادي لهذا الموقع خلال الفترة الرومانية.

دورية إلكترونية. محكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الهوامش

(١) ذهب لوكوز في أطروحته إلى أن الآثار الأولى لوجود الإنسان مؤكدة في الطبقة الرملية التي تلي مباشرة التكوين الطيني الملاحي ، حيث يتعلق الأمر بفخار قد يعود للقرن الأول قبل الميلاد.

(٢) انظر مثلاً مقال إدريس الفاسي:

FASSI (D.), A propos du repérage archéologique dans une plaine d'inondation : la du Gharb, dans VI colloque international sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord (Pau octobre1993,118congrés), Ed. CTH1995, pp.292 - 297.

(٣) أنظر مقال عمار أكراز وآخرون:

AKERRAZ (A.), BROUQUIER-REDDE (V.), LENOIR (E.), L'occupation antique de la plaine de Gharb, dans VI colloque international sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord (Pau octobre1993,118 congrès), Ed .C.T.H.S , 1995, pp.235 - 291.

(٤) تنقسم هذه المنازل إلى منازل رفيعة ذات باحات معمدة ، تتكون من غرف تزينها أحيانا لوحات فسيفسائية ، وأخرى عادية تتكون من عدة غرف يتوسطها ممر.

(5) CAGNAT (R.), CHAPOT (V.), Manuel d'Archéologie Romaine, t.1, Paris, 1916, p.111.

(٦) شارعان رئيسيان أحدهما أفقي والآخر عمودي.

(7) GRIMAL (P.), Les villes romaines, Que sais-je, Paris,1961, p.57.

(8)THOUVENOT(R.), L'urbanisme romain dans le Maroc antique, Revista de la universidad complutense, dans Homenage à Garcia Bellido,18, 118, 1979, P.325

(9) BENBAAZIZ (S.), Les forums Romains en Tunisie- Essai de Bilan, Los Foros Romanos de las Provincias occidentales ,Madrid, 1987,P. 236.

(10) THOUVENOT (R.), Une colonie romaine Iulia Valentia Banasa, Paris 1941, p.12.

(11) GRIMAL(P.), Les villes, cit, p.21-22.

(12) BOUBE (J.), Documents d'architecture maurétanienne au Maroc, BAM,VII ,1967, p.340-352.

(13) THOUVENOT (R.), L'urbanisme romain dans le Maroc antique, dans Homenaje a Garcia y Bellido,4, Revista de la universidad comptulense, t. XVIII, 1979, p.345.

(١٤) حول عبارة (Prosalute) هناك من رأى فيها تحية روحية ، وهناك من أعطاها معنى الحفاظ على الأباطرة ، فأغلب الإهداءات قدمت تحية لهؤلاء:

- H. PAVIS-D'ESCURAC, La Magna, cit., p. 224.

(15) I.A.M., 2,93.

(16) H. PAVIS D'ESCURAC, La Magna, cit., p. 225.

(١٧) أن هذا العبد المعتوق يدعى لوكيوس أنطونيوس كاريطو ، وهو ينتمي إلى هيئة السيفيري: انظر I.A.M., 2,86

(18) VIDMAN (L.), Sylloge inscriptionum Religionis isiacae et Sarapiacae, Berlin, 1969, p. 333, n° 794.

(19) Ibid., p. 50 et 51.

(20) A.AKERRAZE.,TRUSZKAUSKI, De la d'élection, dans de l'Empire romain aux villes impériales, 6000 ans d'art du Maroc, Paris, 1990, p.116.

(21) R.REBUFFAT, Recherches sur le bassin du Sebou, «C.R.AI »., 1986 p.643 et 644.

(٢٢) نشير هنا إلى أننا سنعتمد على مصطلحين: معصرة عندما نكون أمام ثقالة وحوض أو حوضين ورحى ، وأداة معصرة عندما يتعلق الأمر بأحد هذه العناصر.

(٢٣) انظر: مقاربة لبعض مظاهر الحياة الاقتصادية في بناصا من خلال المواد الأثرية ، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية العدد (٤)، ٢٠٠٤ كلية الآداب والعلوم الإنسانية القنيطرة ، ص.١٣٩-١٤٩.

(24) A. JODIN, Banasa et le limes méridional de la Maurétanie Tingitane, « Actes du 85ème congrès National des sociétés savantes », Reims, 1970, p.37.

(25) S. GIRARD, Banasa préromaine , un état de la question, « Ant.afr » , 20 , 1984 , p.36.

(26) A.JODIN, Banasa et le limes, cit., p.37 ; S. GIRARD, Banasa préromaine, cit , p.36.

(27) A. LUQUET, Contribution à l'Atlas archéologique « B.A.M. »,9, cit., p.250.

(28) R. THOUVENOT (R.), Une colonie, cit., p.54 et 95 ; S.GIRARD, Banasa préromaine, cit., p.36.

(٢٩) يتعلق الأمر بأمفورات الكاروم قواس I و قواسII و قواسIII و قواس IV ، وكذلك أمفورات دريسل ٧-١١ (Dr.7-11)

الدكتور سيدي محمد العيوض في سطور:

من مواليد مدينة الرباط. دبلوم الدراسات العليا في التاريخ القديم بجامعة محمد الخامس – كلية الآداب والعلوم الإنسانية (الرباط – أكدال). دكتوراه في التاريخ القديم بجامعة مولاي إسماعيل – كلية الآداب والعلوم الإنسانية. عضو جمعية البحث التاريخي. عضو فريق البحث في مختبر منطقة الغرب الشراردة بني حسن ،كلية الآداب جامعة بن طفيل القنيطرة. عضو جمعية أصدقاء وليلي. له عدة مقالات في مجلات دولية ووطنية. شارك في عدة ندوات دولية ووطنية.

دورية إلكترونية. محكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الحركة الصوفية بالمغرب الأوسط
في القرنين الثامن والتاسع للهجرة
الرابع عشر والخامس عشر للميلاد

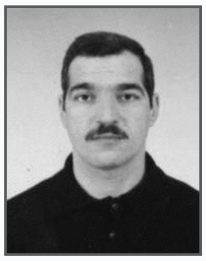

عرض

عبد القادر بوعقادة

أستاذ بقسم التاريخ — جامعة المسيلة
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط
إعداد: الطاهر بونابي
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة الجزائر ٢٠١٠
إشراف: الأستاذ الدكتور عبد العزيز فيلالي

مقدمة:

إن البحث في تاريخ المغرب الإسلامي اليوم يعتبر بلا شك من الميادين البحثية الشيقة والتي لا تزال بكرًا تتطلب بذل الجهد واستفراغ الوسع لأجل استجلاء واقع الحياة عامةً - السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعسكرية - والوصول إلى توضح الرؤى في قضايا بقيت لحد اليوم غامضة في مسار تاريخ المنطقة. وعلى الرغم من الصعوبات التي تميز الحقبة التاريخية الوسيطية من ندرة المادة الخام التي يعتمد عليها الباحث بسبب الإهمال ، أو الإتلاف ، أو عوامل تاريخية كهيمنة الممارسات الاستعمارية التي قُصد منها محو الهوية التاريخية لمجتمعات المغرب الإسلامي ، بالإضافة إلى صعوبات أخرى ليست مجالاً للتطرق في هذه الوقفة ، فإن جهود النخبة المغاربية تحاول أن تتجاوز هذه الموانع لتحقيق الهدف العلمي المنشود.

الواقع أن موضوع الحركة الصوفية يدخل ضمن الكتابة التاريخية للمغرب الأوسط (الجزائر) فترة العصر الوسيط ، هذا المجال والزمان طالما شغلا اهتمامات باحثي الآونة الأخيرة لما لوحظ من قلة الدراسات التي تهتم بالشأن المغرب- أوسطي ، وتنهض هذه الرسالة دليلاً على جدية هذا التوجه.

إن الباحث قد اقتحم مجالاً صعبًا يتطلب المتمرس والإطلاع على الشأن الصوفي ، حيث أخذ هذه الظاهرة (التصوف) ضمن الإطار الشامل للمغرب الإسلامي محاولاً الترجيح بين طرحين ؛ بين مَن يعتبر أن فترة القرنين ٨ ، ٩هـ هي مرحلة ضمور للفكر الصوفي وانحطاطه الذي يدخل ضمن حالة التراجع والانقباض الفكري والثقافي التي شملت بلاد المغرب الإسلامي ، وطرح آخر يثبت بدراسات أكاديمية جدّية المرحلة وثرائها بالفكر الصوفي وتنوع طقوسه وأشكاله بدليل تنوع وحجم المدونات الصوفية ، واقتحامها حقل الإصلاح الديني والاجتماعي من جهة ، ومن جهة ثانية صياغة فكر "الظاهرة الصوفية" ضمن المدرسة المالكية الأشعرية وطابعها الأصولي المقاصدي ، والمحافظة على حظ التلازم بين الشريعة والحقيقة.

كما سجل الباحث من خلال هذه الدراسة تهميش النموذج الصوفي المغربأوسطي ، سواء نماذج المدن التي كانت تابعة للحكم الحفصي (بجاية ، قسنطينة ، بونه) أو بالنسبة لرجال التصوف أثناء فترات الغزو المريني بالمنطقة الشمالية الغربية رغم العطاءات التي تمتع بها متصوفو المغرب الأوسط ودورهم في تحريك هذه الظاهرة شرقًا وغربًا. وهذا ما يطرح جملة من الإشكالات أبرزها مدى جدية ووعي دراسات الحركة الصوفية في ظل تغييب الظاهرة على مستوى المغرب الأوسط ، وهو جزء لا يتجزأ من بلاد المغارب ، بل إن الفضاء الجغرافي الواسع بالمغرب الأوسط من شأنه أن يكون جديرًا بالاهتمام لآثاره على الحركة الصوفية.

سعى الباحث بفضل أطروحته إلى إظهار زيغ المدرسة الكولونيالية التي اهتمت بالشأن الصوفي والتي اعتبرها غير منصفة ، حيث عملت على توظيف الظاهرة لأغراض منها محاولة إخضاع المقاومة الوطنية التي كان أغلب قادتها شيوخ طرق (مرابطين) ، وما زاد في زيغها هو افتقارها إلى المعلومات القبلية حول التصوف والأطوار المذهبية العقدية مع ضعف التحكم في المصطلحاتمما أدى إلى نسج طقوس وخرافات ، ذلك أن غاية هذه المدرسة هو تأكيد طابع الجبرية السالبة للإرادة والمضادة لأي نشاط من شأنه قلب الأوضاع.

ومع أن الباحث قد قيم الدراسات الصوفية الحديثة وجعلها في ثلاث مستويات هي: دراسات كبار الباحثين الجزائريين الذين سلطوا الأضواء على المعالم الكبرى للظاهرة الدينية وفتح منافذ يمكن الولوج من خلالها إلى الظاهرة الصوفية للمغرب الأوسط ، ويأتي في المستوى الثاني دراسات تناولت مشاهير الصوفية ومناحيهم في التصوف ، في حين أن المستوى الثالث تناول الظاهرة الصوفية كبعد ناجم عن أزمات اقتصادية وسياسة واجتماعية. مع أن ما يحصل خلال الأزمات هو تفعيل للواقع بريادة المتصوفة ، بالإضافة إلى عدم لجوء أصحاب هذا الطرح إلى استثارة النص الصوفي ، وعدم التعمق في الدلالات النظرية والتجريبية مما جعلهم يجانبون الصواب في طرحهم.

ورغم جدية هذا التقييم والترتيب فإن الجهود لا تزال أولية في دراسة الظاهرة الصوفية بالمغرب الأوسط ، ويمكن اعتبار الدراسات المذكورة بأنواعها مرحلة لا يمكن التغاضي عنها ، ولا تجاوزها في إطار المسعى الرامي إلى إخراجها من التهميش والنسيان والإهمال ، مع اعتبار ثاني هو النقلة النوعية التي تحققت بفضل نماذج كهذه الأطروحة الجادة.

إن خصوصية التصوف في المغرب الأوسط في القرنين ٨ ، ٩ هـ قد لفتت الانتباه إليه بعد أن تغيرت بنية الحركة الصوفية عما كانت عليه منذ القرن ٤هـ ، حيث تم استقطاب الفعاليات الدينية في القبيلة والمدنية فشملت العلماء ، والفقهاء ، والقضاة ، والشرفاء ، وتسربت الظاهرة إلى البيوتات العريقة مما أدى إلى ظهور التصوف النسائي ، وهو ما زاد من حجم البنية الموروثة ، كما جعل الظاهرة تسقط بظلالها على المشهد الديني والاجتماعي والثقافي.

دورية إلكترونية.محكّمة.ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

لقد لاحظ الباحث أن اقتحام صنف العلماء والقضاة للتصوف في هذين القرنين قد أدى إلى توجيه مسار الفكر الصوفي وإخضاعه لطبيعة الواقع ، كما اعتبرت هذه الفترة فترة حسم (ق ٨ ، ٩هـ) وضبط لمعالم الحركة الصوفية على يد الفقهاء ، ففي مدرسة تلمسان مثلاً تحول التصوف الفلسفي إلى تصوف عرفاني سني وتم تحصينه بآليات استشعار الحقيقة المتآلفة من التوحيد والعبودية والربوبية وصولاً إلى مرتبة الجمع والفرق على نهج الجنيدية ، ومزج نظرية الاتصال بعالم الشهادة بواسطة التأصيل العقلي للفرابي المتوفى سنة ٣٣٨هـ بتجربة تلقى الأنوار والفيض الإلهي على نهج ابن سينا (ت٤٠٨هـ) في بوتقة التوفيق بين العلم والإيمان وفق فلسفة ابن رشيد الحفير (ت ٥٩٥هـ) ، أي إضافة علم الباطن إلى العلوم الشرعية والعلوم العقلية في قالب ما اصطلح عليه بالرشدية الجديدة. أما في بجاية فقد حسم الفقهاء المتصوفة اختيارهم في نهج التلازم بين الحقيقة والشريعة عبر الجمع بين فقه العبادات وفق مذهب مالك وأسرار أحكامها ، والتي تم تغذيتها بالجوانب الروحية المغذية بدورها للقلب والعقل لتحقيق كمال الإنسان الأخلاقي ، وبذلك تم إدماج التصوف ضمن المنظومة المالكية الأشعرية.

كما تم مَن قبل هؤلاء الفقهاء الصوفية أيضًا دراسة وفرز أدبيات الطرق الصوفية ، واختيار ما يتساير والمنطلقات العرفانية النسبية والعقلانية الأصولية والمالكية الأشعرية لهاتين المدرستين — تلمسان وبجاية- مع مراعاة ما تتطلبه الخصوصية الحضارية لجغرافيا انتشارها في نطاق الشمال حيث المجتمع المدينة المتحضر.

وقدم الباحث جملة من الملاحظات التي تميز تصوف المغرب أوسطي في القرنين قيد الدراسة وأهمها:

- أنّ تطور الحركة الصوفية لم يكن على مستوى الفكر فحسب ، بل كان حتى على مستوى العمران حيث اعتبرت هذه المرحلة من أخصب المراحل تنوعًا في جانب المؤسسات الصوفية ، وتعدد وظائفها وحركية أجهزتها.
- وأنّ ظاهرة الصراع بين الصوفية والفقهاء ، أو الصوفية والسلطة قد غابت في هذه الفترة وهو بذلك لعله يسجل تعمد الفقهاء تجاوزهم لكثير من أعمال الصوفية التي كانت مثار الجدل والصراع ، على سبيل المثال موضوعات الذكر والكرامة والسماع.

في محاولة الباحث الجادة عمد إلى تأصيل التصوف فبحث عن جذوره واهتدى إلى تحقيب هذه الظاهرة بالمغرب الأوسط ، إذ أرجعها إلى المرحلة الجنينية انطلاقًا من زمن الظهور الإباضي ليعزز هذا المنحى بدور المثاقفة بين المشرق والمغرب من باب التأثير والتأثر ، وهو ما يظهر من خلال رحلات العلماء ، وولوج المؤلفات من وإلى المغرب الأوسط ، وعلى إثر هذا برزت المدرسة الصوفية المغرب أوسطية التي تطورت مبنى ومضمونًا إلى غاية ق ٨هـ. والحقيقة أن هذا التأصيل لموضوع تصوف المغرب الأوسط يحتاج إلى نوع من الحلحلة والتدقيق ثم التمييز بين الزهد والتصوف ، حيث أن إرجاع الظاهرة إلى عهد الإباضية الأولى قد يتصادم مع بعض القناعات التي تؤخر الظاهرة إلى ما بعد.

ولا شك أن اعتماد الباحث المنهج التاريخي في رصد بنية الحركة الصوفية هو مما أمكنه من إماطة اللثام عن كثير من المظاهر والسلوكيات ، فتحديد مصطلح الولي والصوفي والقطب والمرابط والنقيب والمريد والطريقة ، والتطرق إلى البيوتات الصوفية قد أعطى ملمحًا مفيدًا لهذه الظاهرة. كما لا يقل عن هذا أهمية رصد المنتوج الصوفي المكتوب والشفوي ، أو ما يعرف بالأدب الصوفي في تعريف الحركة الصوفية التي تغلغلت بفضل هذا نحو البنية القبلية بالبادية فضلاً عن الفعاليات الاجتماعية والدينية الفكرية بالمدينة.

يقرر الباحث أن المكون الصوفي انتهى إلى أشكال وتنظيمات كانت لها علاقاتها بالمجتمع والفقهاء والسلطة ، ومن خلال هذه التنظيمات تدرج المريد إلى درجة الصفاء ، فالطريقة المدينية ، والشاذلية ، والتازية ، والزروقية ، والراشدية ، والقادرية ، والرفاعية ، كلها مثلت التواجد الصوفي بالمغرب الأوسط وبقيت بفضل أجهزتها وهياكلها ورصيدها الموروث في تعاطيها مع المجتمع والنخبة والسلطة. ومع أن الأذكار والأوراد والوظائف قد تختلف من طريقة إلى أخرى إلاّ أن هناك طقوسًا مشتركة وحدت بينها في الغالب.

ومن أهم النتائج التي طرحها الباحث ، هي أن المدونات الصوفية المغربأوسطية في القرنين ٨ ، ٩هـ فيما يخص التوحيد العرفاني السني ، والحقيقة والشريعة ، وفي ضبط التصوف ، ونقد البدعة ، وتسنين وتقعيد طقوس التنظيمات الصوفية ، قد جعل الحركة الصوفية تستند إلى أطاريح ثابتة محلية أكثر من المراهنة على العناصر الخارجية ، وهو ما يعطي الانطباع بأن متصوفة المغرب الأوسط قد كان لهم تأثير على مستوى الظاهرة المدروسة في باقي بلاد المغرب الإسلامي.

أما فيما يخص التأهيل فإنه يحسب لصالح التصوف تأطيره للعرب الهلالية في منظومة دينية بعد أن عجزت كل المشاريع السياسية والمحاولات الفقهية منذ القرن٧هـ بقيادة السلطة أو الفقهاء بغية دمج هؤلاء في النسيج الاجتماعي المغربأوسطي ، وهو ما أدى إلى نوع من الاستقرار لهذه القبائل ، ويعكس ذلك مظاهر الزراعة والالتفات حول المعلم الديني (المدشر ، الزاوية ، الرباط) ، ثم الانتساب إلى الضريح المرابطي وهذا ما يبرز بأن الحركة الصوفية قد ملأت الفراغ الذي تركه كل من السلطة والفقيه.

خاتمة:

إن أطروحة الباحث الطاهر بونابي والتي تقع في أزيد من (٨٦٠) صفحة ، والمقسمة إلى جزأين ولكل جزء أبواب وفصول ، تعتبر بحق باكورة مدرسة تاريخية جزائرية حقيقية يمكن اعتمادها في استنطاق الظاهرة الصوفية ، نظرًا لما اعتمده الباحث من جهد ووسائل طيلة سنوات ، لأجل الوصول إلى المادة التاريخية الدفينة سواء على المستوى المحلي ، أو على المغربين الأقصى والأدنى (تونس) من خلال الزيارات المتكررة التي أوصلته إلى الكشف عن مجموع الكنوز التي أنجبها المغرب الأوسط ولا تزال رهينة المكتبات المغربية والتونسية ، والتي يجدر بنا الاعتناء بها وتقديرها لجهد ماض وفي سبيل الانطلاقة نحو مستقبل مشرق في مجال البحث التاريخي الهادف.

دورية إلكترونية.مُحكّمة.ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

التربية الجهادية عند المرأة المسلمة في صدر الإسلام

(١ – ١٣٢ هـ / ٦٢٢ – ٧٥٠م)

د.خالد يونس عبد العزيز الخالدي

أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك

الجامعة الإسلامية – غزة

دولة فلسطين

أحمد محمود الجدي

ماجستير التاريخ

الجامعة الإسلامية – غزة

دولة فلسطين

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

خالد يونس عبد العزيز الخالدي ، أحمد محمود الجدي ، التربية الجهادية عند المرأة المسلمة في صدر الإسلام (١- ١٣٢ هـ / ٦٢٢ – ٧٥٠م).- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث عشر ؛ سبتمبر ٢٠١١. ص ١١٧ – ١٢٤.

(www.historicalkan.co.nr)

الملف

This paper explores Muslim women's role in the up-bringing of their children at the beginning of the Islamic era. The outcome is evident in building a leading Islamic state. Muslim mothers raised their children to follow the principles of Islamic faith and to sacrifice for the sake of Allah and the newly-born nation. Muslim mothers are live-examples for their children teaching them: the Holy Quran and its sciences; worship of Allah; courage; values, morality and ethics; taking Mohamed (peace be upon Him) and the companions as their guides; and sacrifice for the sake of Islam (Jihad and martyrdom).

ملخص

بينت الدراسة أن المرأة المسلمة في صدر الإسلام قد لعبت دورًا مهمًا في صناعة الأجيال التي تفوقت عسكرياً وحضارياً على جيوش الإمبراطوريات المعاصرة لهم ، إذ قامت بتربية أبنائها تربية إيمانية جهادية ، بدأت منذ أن حملتهم بنية أن يكونوا مجاهدين في سبيل الله ، واهتمت بإرضاعهم من حليبها مدة كافية لكي تقوى أجسادهم ، وتصح عقولهم ، واهتمت بتعليمهم القرآن الكريم وعلومه منذ الصغر ، وعودتهم على العبادة والصدق والشجاعة والنجدة والمروءة ومكارم الأخلاق ، وحرصت على وعظهم ، وتزكية نفوسهم ، وتذكيرهم بالسيرة النبوية ، وسير الصحابة والتابعين ، كي يقتدوا بهم ، كما حرصت على إبعادهم عن حياة اللهو والترف ، وعلمتهم فنون القتال ، وحببت إليهم الجهاد والاستشهاد ، ودفعتهم إلى ميادين القتال ، وشجعتهم على حسن البلاء ، وكانت قدوة صالحة لهم في كل ما دعتهم إليه.

المقدمة

لعبت المرأة المسلمة في صدر الإسلام دوراً مهماً وأساسياً في تربية أبنائها تربية إيمانية جهادية ، وقد نجحت في هذه المهمة نجاحاً باهراً ، إذ كان للأجيال المؤمنة المجاهدة التي أنجبتها وربتها فأحسنت تربيتها ، دور كبير في إلحاق الهزائم بجيوش الأباطرة والملوك والحكام المتكبرين الظالمين ، الذين أصروا على أن يمنعوا نور الإسلام من الوصول إلى شعوبهم ، ونجح أبناؤها بحسن سياستهم ، وصدق جهادهم ، وعظمة أخلاقهم ، وقوة حجتهم ، وتمسكهم بمبادئهم ، في نشر دين ربهم ، في أرجاء الدنيا ، وفي إسعاد البشرية قروناً طويلة من الزمن ، بعدلهم وروعة حضارتهم ، التي جمعت بين الإيمان والعلم ، وبين القيم الأخلاقية السامقة ، والإنجازات المادية الكبيرة. وكان للمرأة المسلمة منهج خاص في التربية الجهادية ، يمكن استخلاصه من خلال الإشارات العديدة والمعلومات المتناثرة الواردة في مصادرنا الإسلامية ، وهذه مهمة الباحث في هذه الدراسة.

مبررات البحث

هناك أسباب عديدة دفعتنا إلى دراسة هذا الموضوع ، أهمها:

١- ندرة الدراسات التاريخية العلمية الأكاديمية التي تناولت الموضوع بالرغم من أهميته.

٢- نجاح المرأة المسلمة في صدر الإسلام في تربية جيل تفوق عسكرياً وحضارياً على جيوش الإمبراطوريات القوية المعاصرة له ، يدفعنا إلى التعرف إلى المناهج والأساليب التربوية التي اعتمدتها تلك المرأة في تربية أبنائها ، وأسهمت في هذا التفوق والنصر.

٣- جمع المعلومات المتعلقة بهذا الموضوع المهم ، وإخراجه في دراسة علمية يسهل على المرأة المسلمة اليوم أن تعرف وتقتدي ، وما أحوجنا إلى أمهات يعلمن ويعملن ويحسن العمل والتربية.

منهج البحث

اعتمد الباحث على المنهج التاريخي الوصفي والتحليلي الذي يقوم على جمع الروايات التاريخية من مصادرها الأصلية المتنوعة ، سواء أكانت تاريخية أم شرعية أم أدبية ، ودراستها ، واستخدامها في معالجة الموضوع.

التربية الجهادية عند المرأة المسلمة في العهد النبوي

لقد بدأت التربية الجهادية عند المرأة المسلمة ، حتى قبل أن تحمل بأولادها ، إذ كانت نساء المسلمين وأزواجهن يعقدون النية على إنجاب فرسان أبطال يجاهدون في سبيل الله ، ويتفانون في خدمة دينهم وأمتهم ، قبل أن يحدث الحمل بهم ، استجابة للنبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم الذي أرشدهم إلى ذلك ، فقال: " قال سليمان بن داود-عليهما السلام: لأطوفن الليلة على مائة امرأة أو تسع وتسعين كلهن يأتي بفارس يجاهد في سبيل الله ، فقال له صاحبه قل إن شاء الله ، فلم يقل إن شاء الله ، فلم يحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل ، والذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعون".![1]

كما حرصت النساء المسلمات على إرضاع أولادهن من حليبهن مدة كافية ، وألا يحملن حمل غيل قبل أن يأخذ أولادهن نصيباً وافراً من الرضاعة الطبيعية ، حتى تصح أبدانهم ، وتكون قادرة على تحمل أعباء الجهاد عندما يشبوا ، وقد فعلن ذلك استجابة لأمر النبي صلى الله عليه وسلم القائل:" لا تقتلوا أولادكم سراً ، فوالذي نفسي بيده إن الغيل[2] ليدرك الفارس على ظهر فرسه حتى يصرعه"[3] ، والقائل: "يا أيها النساء ويلكن لا تقتلن أولادكن ، فإن الغيل يدرك الفارس فيدعثره عن فرسه"[4] ، وقد تحدث العلماء عن ذلك ، وأوضحوا أن الطفل الرضيع إذا أصبحت أمه حاملاً ، فإن ذلك سيؤثر على لبنها إذا اغتذى به طفلها الرضيع ، فيبقى الطفل ضاوياً[5] ، فإذا صار رجلاً وركب الخيل ، فركضها أدركه ضعف الغيل ، فزال وسقط عن متونها ، فكان ذلك كالقتل له[6] ، ومن أجل إنجاب أبناء أصحاء أذكياء علماء أقوياء يصلحون للجهاد ؛ اهتمت المرأة المسلمة بغذائها أثناء مرحلة الحمل استجابة لتوصية النبي صلى الله عليه وسلم القائل:" أطعموا حبالاكم اللبان[7] ، فإن يكن في بطن المرأة غلام خرج عالماً غازياً ذكي القلب شجاعاً سخياً ، وإن يكن ما في بطنها جارية حسن خلقها"[8].

لقد نبع اهتمام المرأة المسلمة بتربية أبنائها تربية جهادية من خلال حبها للجهاد في سبيل الله ، وإدراكها لأهميته وفضله العظيم ، وقد لاحظ النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحب للجهاد فعززه ، وأرشدها إلى أن قيامها بدورها كأم مربية ، وكزوجة عابدة صالحة ، سيحسب لها جهاد في سبيل الله ، فعن أنس أن النساء أتين النبي صلى الله عليه وسلم فقلن: يا رسول الله ذهب الرجال بالفضل يجاهدون ولا نجاهد ، قال: مهنة إحداكن في بيتها تدرك جهاد المجاهدين إن شاء الله"[9] ، وعن ابن عباس قال: جاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله أنا وافدة النساء إليك ، هذا الجهاد كتبه الله على الرجال ، فإن يصيبوا أُجروا ، وإن قتلوا كانوا أحياء عند ربهم يرزقون ، ونحن معشر النساء نقوم عليهم ، فما لنا من ذلك ؟ قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أبلغي من لقيت من النساء ، أن طاعة الزوج ، واعترافاً بحقه ، يعدل ذلك ، وقليل منكن من يفعله"[10] ، ووفدت أم رعلة القشيرية إلى رسول الله-صلى الله عليه وسلم- وكانت ذات لسان وفصاحة ، فقالت: "السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، وإنا ذوات الخدور[11] ، ومحل أزر[12] البعول ، ومربيات الأولاد ، وممهدات المهاد ، ولا حظّ لنا في الجيش الأعظم ، فعلمنا شيئاً يقربنا إلى الله-عز وجل-، فقال النبي صلى الله عليه

دورية إلكترونية. محكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

وسلم:" عليكن بذكر الله عز وجل آناء الليل وأطراف النهار ، وغض البصر ، وخفض الصوت"[١٣] ، وهذه ظبية بنت البراء تطلب من رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أن يعلمها تسابيح الجهاد ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: قولي سبحان الله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولله الحمد"[١٤].

لقد كانت المرأة المسلمة تولي ولدها منذ أن يولد تربية خاصة هادفة تسعى من خلالها إلى جعله مؤمناً قوياً قرآنياً مجاهداً ، فقد سأل الفضل بن زيد امرأة من الأعراب عن ابنها ، الذي أُعجب بمنظره ، فقالت له: "حملته والرزق عسر ، والعيش نكد ، حملاً خفيفاً ، حتى مضت له تسعة أشهر ، وشاء الله عز وجل أن أضعه ، فوضعته خلقاً سوياً ، فوربك ما هو إلا أن صار ثالث أبويه ، حتى أفضل الله عز وجل وأعطى ، وأتى من الرزق بما كفى وأغنى ، ثم أرضعته حولين كاملين ، فلما استتم الرضاع نقلته من خرق المهد إلى فراش أبيه ، فنشأ كأنه شبل أسد ، أقيه برد الشتاء وحر الهجير ، حتى إذا مضت له خمس سنين ، أسلمته إلى المؤدب ، فحفَّظه القرآن فتلاه ، وعلَّمه الشعر فرواه ، ورُغِّب في مفاخر قومه ، ولُقِّن مآثر آبائه وأجداده ، فلما بلغ الحلم ، واشتد عظمه ، وكمل خلقه ؛ حملته على عتاق الخيل ، فتمرَّس وتفرَّس ، ولبس السلاح ، ومشى بين بيوتات الحي ، وأصغى إلى صوت الصارخ"[١٥].

لقد دفعت النساء المسلمات أبناءهن إلى تعلم القرآن الكريم ، قناعة منهن بأثره الكبير في صناعة المؤمنين الرجال ، فهذه أم الفضل بنت الحارث تسمع ولدها يقرأ والمرسلات عرفا ، فتقول مشجعة له على حفظ القرآن وتلاوته:" يا بني لقد ذكَّرتني بقراءتك هذه السورة ، إنها لآخر ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها في المغرب"[١٦]. وهذا عمرو بن سلمة-رضي الله عنه- يقول:" إن قومي نظروا فلم يكن أحد أكثر قرآناً مني ، لما كنت أتلقى الركبان ، فقدموني بين أيديهم ، وأنا ابن ست أو سبع سنين ، وكانت عليَّ بردة ، كنت إذا سجدت تقلصت عني ، فقالت امرأة من الحي ، ألا تغطوا إست قارئكم ؟ فاشتروا فقطعوا لي قميصاً ، فما فرحت بشيء فرحي بذلك القميص"[١٧] ، ولولا أن عمراً وجد أماً شجعته على حفظ القرآن لما نجح في ذلك وتميز على قومه.

وعلّمت المرأة المسلمة أبناءها سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وغزواته ، ليتأسوا بجهاده ، فهذه أم سعد بنت سعد أم خارجة بن زيد تقول: " كنت يوم الخندق ابنة سنتين ، وكانت أمي تخبرني بعد أن أدركت ، عن أمرهم في الخندق"[١٨] ، وكانت أم سعد تدخل على خالتها نسيبة بنت كعب ، وتقول لها: يا خالة أخبريني ، فتخبرها أم عمارة عن خروجها يوم أحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسقي المجاهدين ، وتذب عن رسول الله ، وترمي بالقوس[١٩].

ولقد عوَّدت المرأة المسلمة في العهد النبوي أبناءها على العبادة منذ صغرهم ، لكي لا يجدونها شاقة عندما يكبرون ، فقد ذكرت الربيع بنت معوذ أنهن كنَّ يصوِّمْنَ صبيانهن ، ويذهبن بهم إلى المساجد ، ويجعلن لهم اللعبة من العهن[٢٠] ، فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطوهم إياها[٢١]. وكانت بعض النساء يأخذن أطفالهن إلى موسم الحج ، ويشرفن على أدائهم لهذا النسك ، بالرغم من صغر أعمارهم ، فقد لقي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ركباً بالروحاء[٢٢] ، فقال:" من القوم ؟ قالوا المسلمون ، فقالوا من أنت ؟ قال: رسول الله ، فرفعت إليه امرأة صبياً ، قالت: ألهذا حج ؟ قال: نعم ولك أجر"[٢٣].

كما نشَّأت الأم المسلمةُ في العهد النبوي أبناءها على الخلق الحسن ، فهذه أم عبد الله بن بسر تريد أن تغرس في ولدها الصغير عبد الله خلق الكرم والعطاء ، فترسل معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطف من العنب ، فيأكله ، ثم تتابع الأم ما فعل ولدها ، فتذهب إلى رسول الله وتسأله:" هل أتاك عبد الله بقطف ؟ قال: لا ، ويروي عبد الله بن بسر الحادثة فيقول:" فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رآني قال: غُدَرٌ غُدَر"[٢٤].

كما تابعت المرأة المسلمة أبناءها ، وكانت تعزز سلوكهم الحسن ، وتمدحهم وتثني عليهم إذا أحسنوا ، ولا يخفى الأثر الإيجابي لهذا التعزيز في التربية. فعن عبد الملك بن عمير قال: " كان غلام بالمدينة يكنى أبا مصعب ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم وبين يديه سنبل ، ففرك سنبلة ، ثم نفخها ، ثم دفعها إليه ، فأكلها ، وكانت الأنصار تعير من يأكل فريكة السنبل ، فلما دفعها النبي صلى الله عليه وسلم إليه لم يردها عليه ، قال أبو مصعب: ثم قمت من عنده غير بعيد ، ثم رجعت إليه فقلت يا رسول الله: ادع الله أن يجعلني معك في الجنة ، قال من علمك هذا ؟! قلت: لا أحد قال: أفعل ، فلما ولَّيتُ دعاني ، قال: أعِنِّي على نفسك بكثرة السجود ، فأتيتُ أمي فسألتني ، فقلت: كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فأتي بسنبل ، ففرك منه سنبلة بيديه المباركتين ، ثم نفخه بريقه المبارك ، ثم دفعها إليَّ ، فكرهتُ أن أردَّه ، فقالت: أحسنتَ ثم أتَيْتُه فدعا لي"[٢٥].

وربت النساء المسلمات أبناءهن على كتم الأسرار وخاصة أسرار رسول الله-صلى الله عليه وسلم- ، وأسرار الدعوة الإسلامية ، فعن أنس بن مالك قال: كنت مع الغلمان فمر علينا النبي عليه السلام ، فسلم علينا ، ثم بعثني في حاجة ، وجلس في جدار أو في ظل حتى أتيته فأبلغته حاجته ، فلما أتيت أم سليم ، قالت ما حبسك اليوم ؟ قلت: بعثني النبي صلى الله عليه وسلم في حاجة ، قالت: ما هي ؟ قلت: إنها سر ، قالت: فاحفظ سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال: فما حدثت بها أحداً قط"[٢٦].

وكانت المرأة المسلمة قدوة لأبنائها في كتم الأسرار ، فهي تحفظ السر حتى عن أقرب الناس إليها ، وأكثرهم ثقة بالنسبة لها ، فهذه أم المؤمنين عائشة يدخل عليها أبوها ، وهي تجهز الطعام لرسول الله الذي عزم على غزو قريش ، وأمرها أن تجهزه وتخفي أمره ، فيقول لها:" يا بنية لم تصنعي هذا الطعام ؟ فسكتت ، فقال: أيريد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغزو ؟ فصمتت ، فقال: " يريد بني الأصفر ؟-وهم الروم- فصمتت ، قال: فلعله يريد أهل نجد ؟ فصمتت ، قال: فلعله يريد قريشاً ؟ فصمتت ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له:" يا رسول الله أتريد أن تخرج مخرجاً ؟ قال نعم ، قال: فلعلك تريد بني الأصفر ؟ قال: لا ، قال: أتريد أهل نجد ؟ قال: لا ، قال: فلعلك تريد قريشاً ؟ قال: نعم"[٢٧].

وقد علمت المرأة المسلمة فضل الدعاء وأثره في صلاح الأبناء ، فتوجهت بعضهن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليدعو لأولادهن ، أو يحنكهم ، فهذه أم حسان ابن شداد تذهب بابنها إلى رسول الله-صلى الله عليه وسلم- ليدعو له ، فتوضأ رسول الله وفضُل من وضوئه ، فمسح وجه ولدها ، وقال: اللهم بارك لها فيه"[٢٨] ، وهذه أم سليم تذهب بعبد الله بن طلحة بعد ولادته ليحنكه ، وكان معها تمرات عجوة ، فأخذ رسول الله-صلى الله عليه وسلم- بعض ذلك التمر ، فمضغه ، فجمع بزاقه ، فأوجره ، فتلمظ الصبي[٢٩].

دورية إلكترونية، محكمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

ولكي تزداد ثقة الولد بنفسه ، وتعلو همته ، كانت الأم تختار لولدها اسماً أو كنية تدفعه إلى الشجاعة والإقدام ، فهذا علي بن أبي طالب يفخر بتسمية أمه له بالأسد ، ويحرص أن يكون أسداً من أسود الله ، وكان يقول:" أنا الذي سمتني أمي حيدرة[٣٠] ، كليث غابات كريه المنظرة ، أوفيهم بالصاع كيل السندرة[٣١]"[٣٢]. وكانت تنفره من الجبن ، وتبغضه إليه ، تقول أم المؤمنين عائشة-رضي الله عنها-:" إذا خشي أحدكم من نفسه جبناً فلا يغزو[٣٣] ، وتقول:" إن لله خلقاً قلوبهم كقلوب الطير ، إذا خفقت الريح خفقت معها ، فأف للجبناء.[٣٤]

وكانت المرأة المسلمة تدفع أولادها إلى بيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، استعجالاً بالخير لهم ، ورغبة منها في أن يصبحوا مجاهدين في سبيل الله عندما يبلغوا سن الرشد ، وكان الأولاد يقبلون على البيعة بحماس شديد ، ويطالبون بالمشاركة في القتال قبل البلوغ ، روى البخاري في صحيحه ، أن أم عبد الله بن هشام زينب بنت حميد ذهبت به إلى رسول الله-صلى الله عليه وسلم- فقالت:" يا رسول الله بايعه ، فقال رسول الله: هو صغير ، ومسح رأسه ودعا له"[٣٥] ، وعن الهرماس بن زياد قال: مددت يدي إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وأنا غلام ليبايعني ، فلم يبايعني[٣٦] ، وعن أسماء بنت أبي بكر ، زوج الزبير بن العوام قالت: جاء عبد الله بن الزبير وهو ابن سبع سنين أو ثمان ليبايع رسول الله-صلى الله عليه وسلم- وأمره بذلك الزبير ، فتبسم رسول الله ، حين رآه مقبلاً ، وبايعه"[٣٧].

لقد دفعت المرأة المسلمة بأبنائها إلى ميادين المعارك للمشاركة فيها نصرة لله ورسوله ، فهذه عفراء بنت عبيد النجارية الصحابية تدفع بأبنائها السبعة معوذ ومعاذ وعوف وإخوتهم لأمهم إياس وخالد وعاقل وعامر للجهاد في معركة بدر[٣٨] ، وكان لولدها الصغير معاذ ، ومعه معاذ بن عمرو بن الجموح ، شرف قتل أبي جهل ، يقول عبد الرحمن بن عوف:"بينا أنا واقف في الصف يوم بدر ، فنظرت عن يميني وشمالي ، فإذا أنا بغلامين من الأنصار ، حديثة أسنانهما ، تمنيت أن أكون بين أضلع منهما ، ففمزني أحدهما ، فقال يا عم: هل تعرف أبا جهل ؟ قلت: نعم ما حاجتك إليه يا بن أخي ؟ قال أُخبرت أنه يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا ، فتعجبت لذلك ، ففمزني الآخر ، فقال لي مثلها ، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس ، قلت: ألا إن هذا صاحبكما الذي سألتماني ، فابتدراه بسيفيهما ، فضرباه حتى قتلاه ، ثم انصرفا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه ، فقال: أيكما قتله ؟ قال كل واحد منهما: أنا قتلته ، فقال: هل مسحتما سيفيكما ؟ قالا: لا ، فنظر في السيفين فقال: كلاكما قتله"[٣٩].

وهذا عمير بن أبي وقاص يذهب يوم بدر إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليجاهد فيرده لصغر سنه ، فيبكي عمير ، فيجيزه النبي ويعقد له أبوه حمائل سيفه ، يقول عمير:" ولقد شهدت بدراً ، وما في وجهي شعرة واحدة أمسحها بيدي"[٤٠]. وهذه امرأة دفعت لابنها بالسيف يوم أحد ، فلم يطق حمله ، فشدته على ساعده بنسعة[٤١] ، ثم أتت به النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالت يا رسول الله هذا ابني يقاتل عنك ، فقال النبي:" أي بني ها هنا ، فأصابته جراحة ، فصرع ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال: أي بني ، لعلك جزعت ؟ قال: لا يا رسول الله"[٤٢].

ولكي يكون أبناؤهن مجاهدين أشداء على الكفار ، ربتهم أمهاتهم على الخشونة والفروسية ، وأبعدنهم عن التنعم والترف ، عملاً بوصية النبي عليه الصلاة والسلام القائل:" إياكم والتنعم فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين"[٤٣] ، فهذه صفية بنت عبد المطلب تنشئ ولدها الزبير على الخشونة والفروسية ، وتجعل لعبه في بري السهام وإصلاح القسي ، ودأبت على ضربه ضرباً مُبَرِّحاً ، حتى إذا عوتبت في ذلك من قبل أحد أعمامه الذي قال لها: ما هكذا يُضرب الولد ، إنك تضربينه ضرب مبغضة لا ضرب أم ، فارتجزت قائلة: "من قال أبغضتِه فقد كذبْ ، وإنما أضربه لكي يُلَبْ ، ويَهزمُ الجيشَ ويأتي بالسلَبْ "[٤٤].

كما ربينهم على الثبات على الحق إذا ما تعرضوا لأذى المشركين ، فهذه أم عبد الله [ذو البجادين][٤٥] ، يأتيها ولدها عبد الله مسلماً وقد جرده المشركون من إزاره ، فقطعت بجاداً لها قطعتين ، فائتزر بواحد وارتدى الآخر ، وكانت لا تفوته غزوة غزاها رسول الله-صلى الله عليه وسلم- ، وهو الذي قال عنه رسول الله:" إنه أواه ، وذلك لأنه رجل كان يكثر من ذكر الله بالقرآن والدعاء ويرفع صوته[٤٦] ، ومات ذو البجادين يوم تبوك ، ودفنه رسول الله-صلى الله عليه وسلم- بيده ، ولما فرغ من دفنه ، استقبل القبلة رافعاً يديه يقول:" اللهم إني أمسيت عنه راضياً فارض عنه وكان ذلك ليلاً"[٤٧].

التربية الجهادية عند المرأة المسلمة في العهدين الراشدي والأموي

واصلت المرأة المسلمة في العهدين الراشدي والأموي تربية أبنائها تربية إيمانية جهادية ، وظلت تخرج للأمة المجاهدين الأبرار الأبطال ، ولذلك فإن حركة الفتح والنصر ونشر الإسلام استمرت, حتى وصل المسلمون ودينهم إلى الشام ومصر والمغرب والأندلس وخراسان وبلاد ما وراء النهر وبلاد السند والهند.

وقد ظلت المرأة المسلمة في هذين العهدين تولي التربية العقائدية الأخلاقية جل اهتمامها ، لأنها تدرك أنها الأساس في إعداد القادة والجنود الناجحين المنتصرين ، فهي تحثهم على طلب العلم ، إدراكاً منها أن العلم يدفع صاحبه إلى الجهاد وإلى كل الفضائل ، تقول أم سفيان الثوري محرضة ابنها سفيان على طلب العلم:" يا بني اطلب العلم ، وأنا أكفيك بمغزلي ، وتقول: يا بني إذا كتبت عشرة أحرف ، فانظر هل ترى نفسك زيادة في مشيك وحلمك ووقارك ، فإن لم يزدك فاعلم أنه لا يضرك ولا ينفعك"[٤٨].

وكانت الأم ترسل أبناءها إلى الكتاب ، ليتعلموا القرآن والعلوم الدينية ، فقد تنازع أبو صبي عند بعض الحكام ، فخيره بينهما ، فاختار أباه ، فقالت له أمه:" سله لأي شيء يختار أباه ، فسأله ، فقال: أمي تبعثني كل يوم للكتاب يضربني ، وأبي يتركني للعب مع الصبيان ، فقضى به للأم ، قال: أنت أحق به".[٤٩] وهذه عثامة العمياء تحث ابنها على أداء الصلاة في وقتها بأسلوب مؤثر ، فيدخل عليها يوماً وقد صلى ، فتقول له:" أصليتم أي بني ؟ فيقول: نعم ، فقالت:

عثام مالك لاهية	حلت بدارك داهية
أبكي الصلاة لوقتها	إن كنتِ يوماً باكية
وابكي القرآن إذا تلي	قد كنتِ يوماً تالية
تتلينه بتفكر	ودموع عينك جارية
فاليوم لا تتلينه	إلا وعندك تالية
لهفي عليك صبابة	ما عشتِ طول حياتية[٥٠].

دورية إلكترونية محكمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

وكانت المرأة تعظ أبناءها ، لترقق قلوبهم ، وتشحذ نفوسهم ، وتقربهم إلى الله ، وترغبهم في الآخرة ، وتزهدهم في الدنيا ، يروى أن امرأة عابدة ، وعظت ابنها يوماً فقالت: "ويحك يا بني ، احذر بطالات الليل والنهار ، فتنقضي مهلات الأعمار ، وأنت غير ناظر لنفسك ، ولا مستعد لسفرك ، ويحك يا بني ما من الجنة عوض ، ولا في ركوب المعاصي ثمن من حلول النار ، ويحك يابني ، مهّد لنفسك قبل أن يحال بينك وبين ذلك ، وجِدّ قبل أن يجِدَّ الأمر بك ، واحذر سطوات الدهر ، وكيد الملعون عند هجوم الدنيا بالفتن وتقلبها بالعبر ، فعند ذلك يهتم التقي كيف ينجو من مصائبها ، ثم قالت: بؤساً لك يا بني إن عصيت الله وقد عرفته وعرفت إحسانه ، وأطعت إبليس وقد عرفته وعرفت طغيانه "[٥١].

وروى ابن سعد أن امرأة حدثته عن فاطمة بنت الحسين ، فقالت:" إنها كانت تسبح الله بخيوط معقود فيها[٥٢] ، وقد اجتمعت يوماً مع ابنها محمد بن عبد الله بن عثمان وقالت:" يا بني إنه ما نال أحد من أهل السفه بسفههم ، ولا أدركوا ما أدركوا من لذاتهم ، إلا وقد أدركه أهل المروءات بمروءتهم ، فاستتروا بستر الله "[٥٣]. وحذرت أم ابنها من الركون إلى زهو الشباب فكانت تعظه:" يا بني إن إن لك يوماً ، فاذكر يومك ، فلما نزل به أمر الله أكبت عليه أمه ، فجعلت تقول: قد كنت أحذرك مصرعك هذا يا بني ، فأقول: إن لك يوماً فاذكر يومك ، فقال: يا أمه إن لي رباً كثير المعروف ، وإني لأرجو أن لا يعذبني اليوم بفضل معروفه ، ويلي إن لم يغفر لي "[٥٤]

لقد نجحت الأم المسلمة في أن تزرع خشية الله تعالى في قلوب أبنائها ، حتى وهم صغار ، فهذا عمر بن عبد العزيز يبكي وهو صغير ، فتسأله أمه عن سبب بكائه ، فيقول: ذكرت الموت ، فتبكي معه[٥٥]. لقد أثمرت هذه التربية الإيمانية التي بدأتها الأمهات مع أولادهن من مرحلة الطفولة ، فأدت إلى صناعة رجال يخشون الله حق الخشية ، كعمر بن عبد العزيز ، الذي وصل إلى الخلافة ، فصار مثالاً للحاكم الزاهد العادل الذي نجح في أكبر تجربة إصلاح وتغيير عرفتها الأمة خلال عهده الذي لم يتجاوز السنتين وخمسة أشهر[٥٦].

وحرصت المرأة المسلمة على اصطحاب أبنائها إلى صحابة رسول الله-صلى الله عليه وسلم-ليدعو لهم بالخير ، فهذه خيرة مولاة لأم سلمة تُخرج ابنها الحسن إلى الصحابة ، فيدعون له ، وكان في جملة من يدعو له عمر بن الخطاب ، يقول:" اللهم فقِّهْ في الدين ، وحَبِّبْهُ إلى الناس "[٥٧].

ولشخصية الأم أثر كبير في أولادها ، فبإمكانها أن تشجع ولدها على الجهاد وتدفعه إليه ، وبإمكانها أن تخوفه أو تمنعه ، فقد روي " أن محمد بن طلحة أراد أن يغزو ، فجاءت أمه إلى عمر ، فأخبرته ، فأمره أن يطيع أمه ، ثم أراد أيضاً في زمن عثمان ، فجاءت أمه إلى عثمان ، فأخبرته ، فأمره عثمان أن يجلس ، فقال: إن عمر أمرني ولم يجبرني ، فقال: لكني أجبرك "[٥٨]. ولشخصيتها أيضاً أثر وراثي في أبنائها ، فالأم تنجب أبناء يحملون صفاتها ، فقد روي "أن عبد الملك بن مروان سابق بين سليمان ومسلمة ابنيه-وكان مسلمة هجيناً-[أمه أعجمية] فسبق سليمان ، فقال عبد الملك: ألم أنهكم أن تحملوا هجناءكم على خيلكم يوم الرهان فتدرك ؟ "[٥٩].

وكان معاوية بن أبي سفيان إذا نوزع الفخر بالمقدرة ، وجوذب المباهاة بالرأي ، انتسب إلى أمه ، فصدع بذلك أسماع خصمه ، ومن قوله لابن الزبير في سجال الفخر:" أنا ابن هند ، إن أُطلقت عقال الحرب ، أكلتُ ذروة السنام ، وشربت عُنفوان المكرع[٦٠] ، وليس للآكل إلا الفلذة[٦١] ، ولا للشارب إلا الرنق[٦٢]"[٦٣].

ولم يقتصر دور المرأة المسلمة على البناء الإيماني والأخلاقي لأبنائها ، بل اهتمت بتدريبهم على فنون القتال ، وتحريضهم على حسن البلاء في القتال ، فقد ناولت أم ولدها الصغير سيفاً ، فرآه قصيراً ، فقال: إنه قصير يا أماه ، فقالت: تقدم يا بني خطوة يطل "[٦٤] ، وعندما هم المسلمون بفتح قلعة رأس العين[٦٥] ، وصل إلى المدينة غلام اسمه جميل بن سعد الداري ، وكان أرمى خلق الله بالنبل ، فقال لأمه العجوز التي جاءت تشيعه قبل المعركة:" يا أماه ، أريد أن أجاهد هذا اليوم في الله حق جهاده ، فلعلي ألحق بإخواني وجدي ، الذين قتلوا بين يدي رسول الله-صلى الله عليه وسلم- ثم ودعها وسار ، فقالت: يا بني سر والله ينصرك ويؤيدك "[٦٦].

وهذه أم تخرج مع ولدها وبنتها من اليمن إلى الشام تشجيعاً له على الجهاد في سبيل الله ، وسمعت البنت أخاها يقول: "إنما أذهب لأقاتل لمرضاة الله عز وجل ، وقد سمعت معاذ بن جبل يقول: إن الشهداء عند ربهم يرزقون ، فقالت له أخته: كيف يرزقون وهم أموات ؟ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله تعالى يجعل أرواحهم في حواصل طيور الجنة ، فتأكل تلك الطيور من ثمار الجنة وتشرب من أنهارها ، فتغدوا أرواحهم في حواصل تلك الطيور ، فهو الرزق الذي جعله الله لهم ، فلما كان قتال قيسارية خرج ذلك الغلام إلى القتال بعد أن ودع أمه وأخته وداع الموت ، وقال لهم نجتمع على حوض رسول الله صلى الله عليه وسلم "[٦٧] ، وقاتل حتى استشهد[٦٨].

ووظفت المرأة المسلمة عاطفة الأبناء نحو آبائهم الشهداء في تشجيعهم على جهاد الأعداء ، فهذه أسماء بنت عميس الخثعمية تحرض ولدها عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الذي استشهد أبوه سنة(٨هـ=٦٢٩م) في معركة مؤتة ، إذ كان عبد الله عندما كبر وترعرع يقول لأمه:" يا أماه ما فعل بأبي ؟ ، فتقول: ياولدي قتله الروم ، فكان يقول: لئن عشت لآخذن بثأره "[٦٩].

وشجعت النساء المسلمات أبناءهن على القتال في المعارك الكبرى ، حتى وهم صغار ، ففي معركة اليرموك قال معاذ بن جبل:" يا معاشر المسلمين من أراد فرساً يقاتل عليه في سبيل الله فهذا فرسي وسلاحي ، فجاءه ولده عبد الرحمن وقال: أنا يا أبت ، وكان غلاماً لم يحتلم ، فلبس السلاح وركب الجواد"[٧٠] ، وما كان لهذا الغلام الصغير أن يتجرأ على القتال في معركة فاصلة كمعركة اليرموك لولا حصوله على حظ وافر من التربية الإيمانية الجهادية ، ولا عجب أن يكون هذا الغلام مقداماً ، وهو يرى أباه في ساح الوغى ، ويرى ابنة عم أبيه أسماء بنت يزيد بن السكن وهي تقتل سبعة من الروم بعمود فسطاطها[٧١].

وقد مارست المرأة المسلمة التربية الجهادية لأبنائها من خلال إسداء النصائح العسكرية المهمة ، والتي حصلت عليها من خلال تجاربها الخاصة وتجارب الآخرين ، فهذه أم الذيال العبسية توصي ابنها ، وكان من أشد العرب ، فتقول:" يا بني لا تنشب في الحرب ، وإن وثقت بشدتك ، حتى تعرف وجه المهرب منها ، فإن النفس أقوى شيء إذا وجدت سبيل الحيلة ، وأضعف شيء إذا يئست من الحيلة ، وأحمد الشدة ما كانت الحيلة مدبرة لها ، واجلس مع من تحارب جلسة الذئب ، وطر منه طيران الغراب ،فإن الحذر زمام الشجاعة ، والتهور عدو الشدة "[٧٢].

كما مارستها من خلال الاهتمام بأولاد الشهداء ، وتعزيز ثقتهم بأنفسهم ، بتذكيرهم بما أعده الله لآبائهم من أجر ، ولهم كأبناء شهداء من شفاعة ومغفرة ، فيشبوا وهم راغبون في أن يسلكوا درب آبائهم ، فقد حدَّث ابن رباح الذماري قال:" دخلنا على أم الدرداء ، ونحن أيتام صغار ، فمسحت رءوسنا ، وقالت: أبشروا يا بَنيّ ، فإني أرجو أن تكونوا في شفاعة أبيكم [٧٣] ، فإني سمعت أبا الدرداء يقول:" سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم- يقول: الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته "[٧٤].

لقد حبّبت النساء المسلمات أبناءهن في الجهاد والاستشهاد ، ودفعنهم إلى هذا الطريق ، وقد فعلن ذلك حباً لأولادهن ، ورغبة في الخير لهم ، وقناعة يقينية بأن الاستشهاد أقصر الطرق إلى الجنة ونعيمها. وهذه أم إبراهيم الهاشمية وهي من نساء البصرة العابدات تسمع خطبة لعبد الواحد بن زيد البصري يصف فيها بشعر جميل حورية من الجنة ، فتقول له:" يا أبا عبيد ألست تعرف ولدي إبراهيم ، ورؤساء أهل البصرة يخطبونه على بناتهم ، وأنا أضن به عليهم ، فقد والله أعجبتني هذه الجارية ، وأنا أرضاها عِرساً [٧٥] لولدي ، فكرر ما ذكرت من جمالها...فخذ ولدي معك في هذه الغزوة ، فلعل الله يرزقه الشهادة ، فيكون شفيعاً لي ولأبيه يوم القيامة ، فقال لها عبد الواحد: لئن فعلت لتفوزن أنت وولدك وأبو ولدك فوزاً عظيماً ، ثم نادت ولدها...وقالت أي بني أرضيت بهذه الجارية زوجة ببذل مهجتك في سبيله وترك العود في الذنوب ؟ فقال الفتى: إي والله يا أماه رضيت أي رضى ، فقالت اللهم إني أشهدك أني زوجت ولدي من هذه الجارية ببذل مهجته في سبيلك ، وترك العود في الذنوب ، فتقبله مني يا أرحم الراحمين ، ثم انصرفت فجاءت بعشرة آلاف دينار ، وقالت: يا أبا عبيد هذا مهر الجارية تجهز به ، وجهز الغزاة في سبيل الله ، وانصرفت فابتاعت لولدها فرساً جيداً ، واستجادت له سلاحاً... وقالت له: أي بني إذا أردت لقاء العدو فتكفن بهذا الحنوط ، وإياك أن يراك الله مقصراً في سبيله ، ثم ضمته إلى صدرها ، وقبلت عينيه ، وقالت يا بني لا جمع الله بيني وبينك إلا بين يديه في عرصات [٧٦] القيامة ، قال عبد الواحد: فلما بلغنا بلاد العدو ، ونودي في النفير ، وبرز الناس للقتال برز إبراهيم في المقدمة ، فقتل من العدو خلقاً كثيراً ، ثم اجتمعوا عليه فقتل ، قال عبد الواحد: فلما أردنا الرجوع إلى البصرة قلت لأصحابي: لا تخبروا أم إبراهيم بخبر ولدها ، حتى ألقاها بحسن العزاء ، لئلا تجزع فيذهب أجرها ، قال فلما وصلنا البصرة ، خرج الناس يتلقوننا ، وخرجت أم إبراهيم فيمن خرج ، قال عبد الواحد: فلما بصرت بي قالت:" يا أبا عبيد هل قبلت مني هديتي فأهنأ ، أم ردت عليّ فأعزى ، فقلت لها: قد قبلت والله هديتك ، إن إبراهيم حي مع الأحياء يرزق ، قال: فخرت ساجدة لله شكراً ، وقالت: الحمد لله الذي لم يخيب ظني ، وتقبل نسكي مني ، وانصرفت ، فلما كان من الغد ، أتت مسجد عبد الواحد ، فنادته: السلام عليك يا أبا عبيد ، بشراك ، فقال: لا زلت مبشرة بالخير ، فقالت له: رأيت البارحة ولدي إبراهيم في روضة حسناء ، وعليه قبة خضراء ، وهو في سرير من لؤلؤ ، وعلى رأسه تاج وإكليل ، وهو يقول لي: يا أماه أبشري فقد قبل المهر ، وزفت العروس "[٧٧].

وروى أبو قدامة الشامي [٧٨] حادثة مشابهة حيث قال: " كنت أميراً على الجيش في بعض الغزوات ، فدخلت بعض البلدان ، فدعوت الناس إلى الغزو ، ورغبتهم في الثواب ، وذكرت فضل الشهادة وما لأهلها ، ثم تفرق الناس ، و ركبت فرسي وسرت إلى منزلي ، فإذا أنا بامرأة من أحسن الناس تنادي يا أبا قدامة فقلت: هذه مكيدة من الشيطان فمضيت ولم أجب ، فقالت: ما هكذا كان الصالحون ، فوقفت فجاءت ودفعت إلي رقعة وخرقة مشدودة وانصرفت باكية ، فنظرت إلى الرقعة فإذا فيها مكتوب إنك دعوتنا إلى الجهاد و رغبتنا في الثواب ولا قدرة لي على ذلك ، فقطعت أحسن ما في وهما ضفيرتاي ، وأنفذتهما إليك لتجعلهما قيد فرسك ، لعل الله يرى شعري قيد فرسك في سبيله فيغفر لي ، فلما كانت صبيحة القتال فإذا بغلام بين يدي الصفوف يقاتل ، فتقدمت إليه ، وقلت: يا فتى أنت غلام غر راجل ولا آمن أن تجول الخيل فتطأك بأرجلها ، فارجع عن موضعك هذا ، فقال أتأمرني بالرجوع وقد قال الله تعالى:" يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ، و مأواه جهنم و بئس المصير "[٧٩].

فحملته على هجين كان معي ، فقال: يا أبا قدامة أقرضني ثلاثة أسهم ، فقلت: أهذا وقت قرض ؟ فما زال يلح علي حتى قلت: بشرط إن منَّ الله بالشهادة أكون في شفاعتك ، قال: نعم ، فأعطيته ثلاثة أسهم ، فوضع سهماً في قوسه ، وقال: السلام عليك يا أبا قدامة ، ورمى به فقتل رومياً ، ثم رمى بالآخر ، وقال السلام عليك يا أبا قدامة ، فقتل رومياً ، ثم رمى بالآخر ، وقال: السلام عليك سلام مودع ، فجاءه سهم فوقع بين عينيه ، فوضع رأسه على قربوس سرجه ، فتقدمت إليه و قلت: لا تنسها ، فقال: نعم ، ولكن لي إليك حاجة ، إذا دخلت المدينة فأت والدتي وسلم خرجي إليها وأخبرها ، فهي التي أعطتك شعرها لتقيد به فرسك ، وسلم عليها ، فإنها العام الأول أصيبت بوالدي وفي هذا العام بي ثم مات ، فحفرت له ودفنته ، فلما هممنا بالانصراف عن قبره قذفته الأرض فألقته على ظهرها ، فقال أصحابي: إنه غلام غر و لعله خرج بغير إذن أمه ، فقلت: إن الأرض لتقبل من هو شر من هذا ، فقمت وصليت ركعتين ودعوت الله عز وجل ، فسمعت صوتاً يقول: يا أبا قدامة اترك ولي الله ، فما برحت حتى نزلت عليه طيور بيض فأكلته ، فلما أتيت المدينة ذهبت إلى دار والدته فلما قرعت الباب خرجت أخته إلي ، فلما رأتني عادت وقالت: يا أماه هذا أبو قدامة ليس معه أخي ، فقد أصبنا في العام الأول بأبي ، وفي هذا العام بأخي ، فخرجت أمه إلي فقالت أمعزياً أم مهنئاً ، فقلت: ما معنى هذا ؟ فقالت: إن كان مات فعزني ، وإن كان استشهد فهنئني ، فقلت: لا بل مات شهيداً ، فقالت: له علامة فهل رأيتها ؟ قلت: نعم لم تقبله الأرض ، ونزلت الطيور فأكلت لحمه ، وتركت عظامه فدفنتها ، فقالت: الحمد لله ، فسلمت إليها الخرج ففتحته فأخرجت منه مسحاً وغلاً من حديد ، وقالت: إنه كان إذا جنه الليل لبس هذا المسح ، وغل نفسه وناجى مولاه ، وقال في مناجاته احشرني في حواصل الطيور ، فقد استجاب الله دعاءه "[٨٠].

إن هذه الروايات بمجموعها لتدل دلالة واضحة على الدور التربوي العظيم الذي قامت به المرأة المسلمة في صدر الإسلام ، وهي تذكرنا بنساء فلسطين المسلمات اللائي اقتدين بالجيل الأول من نساء الصحابة والتابعين ، وصرن يربين أولادهن تربية جهادية ، ويدفعنهم إلى طريق الجهاد والاستشهاد ، حتى أنجبن جيلاً من المجاهدين والاستشهاديين ، استطاع أن يقهر المحتلين الصهاينة ، ويوجه إليهم الضربات الموجعة ، ويهز أركان كيانهم المغتصب ، ويجعل القدس أقرب من أي وقت مضى إلى التحرير ، وما أحوج عالمنا العربي والإسلامي إلى أمهات ونساء يقتدين بالصحابيات والتابعيات ،

دورية إلكترونية محكمة ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

فيصلحن أنفسهن ، ويحسِنَّ تربية أبنائهن ، ويصنعن للأمة رجالاً يتحقق على أيديهم النصر والتحرير والتمكين.

الخاتمة والنتائج

توصل الباحث إلى العديد من النتائج أهمها:

- تبدأ التربية الجهادية عند المرأة المسلمة قبل مرحلة الحمل بنية إنجاب المجاهدين في سبيل الله.
- حرصت المرأة المسلمة على إرضاع أولادها رضاعة طبيعية ، ومدة كافية حتى تقوى أبدانهم ، ويحسنوا الجهاد عندما يشبون.
- حب المرأة المسلمة للجهاد ، وإدراكها للأجر الذي ينتظر المجاهدين والشهداء ، جعلها تهتم بالتربية الإيمانية الجهادية ، وتدفع بأبنائها إلى ميادين الجهاد والاستشهاد.
- أدركت المرأة أن المجاهد الذي لا يهزم هو المجاهد الرباني ، فنشّأت أبناءها على الإيمان والعلم وحفظ القرآن والصدق والعبادة وحسن الخلق وكتم الأسرار.
- حرصت المرأة المسلمة على إبعاد أبنائها عن التنعم والترف ، وتعويدهم على الخشونة والتحمل ، وتدريبهم على مختلف فنون القتال منذ سن مبكرة.
- كانت المرأة المسلمة تربي أولادها من خلال الموعظة المؤثرة والقدوة الحسنة ، وتعليمهم سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وسير التابعين والصالحين.
- كانت نساء الشهداء يحرضن أولادهن على سلوك درب الآباء من خلال تحريضهم على الكفار الذين قتلوا آباءهم.
- لم تغفل المرأة المسلمة أي شيء يمكن أن يجعل من ولدها مجاهداً ناجحاً ، حتى أنها كانت تقدم له النصائح العسكرية التي تنفعه في ميدان القتال.
- حببت المرأة المسلمة أولادها في الجهاد من خلال تذكيرهم بما أعده الله للمجاهدين والشهداء من أجر عظيم.
- ظهرت في صدر الإسلام نماذج رائعة لأمهات دفعن أولادهن إلى طريق الجهاد والاستشهاد ، يجب أن يُقتدى بهنَّ في هذا العصر وكل عصر.

الهوامش

(١) البخاري ، صحيح البخاري ، ج٣ ، ص١٠٣٤.
(٢) الغيلة: هو أن ترضع المرأة وهي حامل. ينظر: ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج٣ ، ص٤٠٢ ؛ ابن منظور ، لسان العرب ، ج١١ ، ص٥١١.
(٣) أبو داوود ، سنن أبي داوود ، ج٤ ، ص٩ ؛ ابن حنبل ، مسند أحمد ، ج٦ ، ص٤٥٧ ؛ ابن حبان ، صحيح ابن حبان ، ج١٣ ، ص٣٢٣.
(٤) ابن حبان ، صحيح ابن حبان ، ج١٣ ، ص٣٢٣.
(٥) ضاوياً: ضعيفاً نحيفاً قليل الجسم. ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، ج١٤ ، ص٤٨٩ ؛ الرازي ، مختار الصحاح ، ج١ ، ص١٦١.
(٦) العظيم أبادي ، ج١٠ ، ص٢٦٠.
(٧) اللبان: جمع لبن. ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، ج١٣ ، ص٣٧٣.
(٨) العسقلاني ، لسان الميزان ، ج٦ ، ص٢٨٦ ، وفيه قال زنجويه: هذا حديث منكر تفرد به محمد بن عكاشة بإسناد صحيح ؛ ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج٥٤ ، ص٢٢٩.
(٩) أبو يعلى الموصلي التميمي ، أحمد بن علي بن المثنى ، معجم أبي يعلى ، ج٦ ، ص١٤٠.
(١٠) الهيثمي ، مجمع الزوائد ج٤/ص٣٠٥ .
(١١) الخدر: هو الستر يمد للجارية في ناحية البيت.ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، ج٤ ، ص٢٣٠.
(١٢) الأزر: القوة ، وقيل: الظهر ، وقيل: الضعف ، ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، ج٤ ، ص١٨.
(١٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج٧ ، ص٣٢٠ ؛ العسقلاني ، الإصابة ، ج٨ ، ص٢٠٤.
(١٤) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج٧ ، ص١٧٩ ؛ العسقلاني ، الإصابة ، ج٨ ، ص٩.
(١٥) الأبشيهي ، المستطرف في كل فن مستظرف ، ص٢٥٠.
(١٦) البخاري ، صحيح البخاري ، ج١ ، ص٢٦٥ ؛ مسلم ، صحيح مسلم ، ج١ ، ص٣٣٨ ؛ ابن حبان ، صحيح ابن حبان ، ج١ ، ص١٣٩.
(١٧) البخاري ، صحيح البخاري ، ج٤ ، ص١٥٦٤ ؛ ابن حنبل ، مسند أحمد ، ج٥ ، ص٧١.
(١٨) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج٨ ، ص٣٥٩.
(١٩) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج٤ ، ص٣٤ ؛ العسقلاني ، الإصابة ، ج٨ ، ص١٤٠.
(٢٠) العهن: الصوف المصبوغ ألواناً.ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، ج١٣ ، ص٢٧٩.
(٢١) البخاري ، صحيح البخاري ، ج٢ ، ص٦٩٢ ؛ مسلم ، صحيح مسلم ، ج٢ ، ص٧٩٨.
(٢٢) الروحاء: قرية جامعة لمزينة على ليلتين من المدينة. ينظر: البكري ، معجم ما استعجم ، ج٢ ، ص٦٨١ .
(٢٣) مسلم ، صحيح مسلم ، ج٢ ، ص٩٧٤.
(٢٤) البخاري ، التاريخ الكبير ، ج٢ ، ص٣٣٩.
(٢٥) الهيثمي ، مجمع الزوائد ج٩ ،ص٣٩٩.
(٢٦) ابن أبي شيبة ، مصنف ابن أبي شيبة ، ج٥ ، ص٢٢٩.
(٢٧) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج٤ ، ص٢٨٦.
(٢٨) العسقلاني ، الإصابة ، ج٢ ، ص٦٦.
(٢٩) ابن حنبل ، مسند أحمد ، ج٣ ، ص١٠٥.
(٣٠) حيدرة: الأسد. ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، ج٤ ، ص١٧٤.
(٣١) السندرة: مكيال واسع كبير. ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، ج٤ ، ص١٧٤ ؛ ابن الأثير ، النهاية في غريب الحديث ، ج٢ ، ص٤٠٨.
(٣٢) أبو عوانة ، مسند أبي عوانة ، ج٤ ، ص١٠٦.
(٣٣) الخراساني ، كتاب السنن ، ج٢ ، ص٢٤٧.
(٣٤) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج١ ، ص١٢٤.

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

(٣٥) ج٢ ،ص٨٨٥.
(٣٦) الطبراني ، المعجم الأوسط ، ج٣ ، ص٦٣ ؛ الذهبي ، ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، ج٥ ، ص١١٥.
(٣٧) مسلم ، صحيح مسلم ، ج٣ ، ص١٦٩٠.
(٣٨) الزرقاني ، شرح الزرقاني ، ج٣ ، ص٢٤.
(٣٩) البخاري ، صحيح البخاري ، ج٣ ، ص١١٤٤ ؛ مسلم ، صحيح مسلم ، ج٣ ، ص١٣٢٧.
(٤٠) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج١ ، ص ٩٧ ، المروزي ، السنة للمروزي ، ج١ ، ص٤٧.
(٤١) النسعة: سير مضفور يجعل زماماً للبعير وغيره ، وقد تنسج عريضة ، تجعل على صدر البعير. ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، ج٨ ، ص٣٥٢.
(٤٢) ابن أبي شيبة ، مصنف ابن أبي شيبة ، ج٧ ، ص٣٧١.
(٤٣) ابن حنبل ، مسند أحمد ، ج٥ ، ص٢٤٣ ؛ الهيثمي ، مجمع الزوائد ، ج١٠ ، ص٢٥٠.
(٤٤) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج١ ، ص٤٥ ؛ العسقلاني ، الإصابة ، ج٢ ، ص٥٥٤.
(٤٥) البجاد: كساء مخطط من أكسية الأعراب. ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، ج٣ ، ص٧٨.
(٤٦) ابن حنبل ، مسند أحمد ، ج٤ ، ص١٥٩ ، الهيثمي ، مجمع الزوائد ، ج٩ ، ص٣٦٩.
(٤٧) الأصبهاني ، حلية الأولياء ، ج١ ، ص١٢٢.
(٤٨) ابن الجوزي ، صفوة الصفوة ، ج٣ ، ص١٨
(٤٩) ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد ، ج٥ ، ص٤٧٥.
(٥٠) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ج٦٩ ، ص ٢٦٧ ؛ ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، ج٤ ، ص٢٩٨.
(٥١) ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، ج٢ ، ص٥٢٩-٥٣٠.
(٥٢) الطبقات الكبرى ،ج٨ ، ص٤٧٤.
(٥٣) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ج ٧٠ ، ص٢٢.
(٥٤) الأصبهاني ، ج٢ ، ص٣٢٦.
(٥٥) الذهبي ، سير أعمال النبلاء ، ج٥ ، ص١١٦ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج٩ ، ص١٩٢.
(٥٦) الخالدي ، تأملات في التاريخ والحياة ، ص
(٥٧) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج٩ ، ص٢٦٦.
(٥٨) الخراساني ، السنن ، ج٢ ، ص١٦٤.
(٥٩) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج٣ ، ص٢٩٨.
(٦٠) عنفوان المكرع: أول الماء. ينظر: ابن الأثير ، النهاية في غريب الحديث ، ج٣ ، ص٣٠٩.
(٦١) الفلذة: القطعة من الكبد واللحم.ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، ج٣ ، ص٥٠٢.
(٦٢) الرنق: ماء كدر به تراب. ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، ج١٠ ، ص١٢٦.
(٦٣) الجاحظ ، البيان والتبيين ،ج٢ ، ص٩٨.
(٦٤) أبو خليل ، اليرموك ، ص٧.
(٦٥) رأس العين: ضيعة من أعمال الرها. ابن أبي جرادة ، بغية الطلب في تاريخ حلب ج٩ ، ص٤١٥.
(٦٦) الواقدي ، فتوح الشام ، ج٢ ، ص١٣٥.
(٦٧) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٢٥.
(٦٨) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٢٥-٢٦.
(٦٩) المصدر نفسه ، ج١ ، ص٩٠.
(٧٠) المصدر نفسه ، ج١ ، ص١٩٩ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ،ج٨ ، ص٣١٢ ، العسقلاني ، الإصابة ، ج٥ ، ص٤٧.
(٧١) ابن الضحاك ، الآحاد والمثاني ،ج٦ ، ص١٢٨.
(٧٢) ابن النحاس ، مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ، ج٢ ، ص ١٠٨٠-١٠٨١.
(٧٣) الطبري ، تفسير الطبري ، ج١٦ ، ص١٢٨ ؛ الأزدي ، مسند الربيع ، ج١ ، ص٣٨١ ؛ الهيثمي ، موارد الظمآن ، ج١ ، ص٥١٧.
(٧٤) الترمذي ، سنن الترمذي ، ج٤ ، ص١٨٧ ؛ ابن حبان ، صحيح ابن حبان ، ج١٠ ، ص٥١٧.
(٧٥) عرس الرجل: امرأته. ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، ج٦ ، ص١٣٦.
(٧٦) العرصات: العرصة هي كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء. ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، ج٧ ، ص٥٢.
(٧٧) ابن النحاس ، مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ، ج١ ، ص٢١٥ ، ٢١٨ ؛ ابن الجوزي ، صفوة الصفوة ،ج٣ ، ص٣٨-٣٩.
(٧٨) أبو قدامة: هو الفلسطيني الرملي البكاء كان غازيا بعين زربة حكى عن سليمان الخواص(ت: حوالي ١٧٠هـ) روى عنه أحمد بن سهل الأردني.ينظر: ابن أبي جرادة ، بغية الطلب في تاريخ حلب ج١٠ ، ص٤٥٩٦.
(٧٩) سورة الأنفال ، آية١٥-١٦.
(٨٠) ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، ج٤ ، ص١٩٨_٢٠١ ؛ ينظر: ابن أبي جرادة ، بغية الطلب في تاريخ حلب ، ج١٠ ، ص٤٥٩٧-٤٥٩٩ .

الدكتور خالد يونس الخالدي في سطور:

بكالوريوس في الاقتصاد الإسلامي ، من جامعة أم القرى بمكة المكرمة ، سنة١٩٨٦م. ماجستير في التاريخ من الجامعة الأردنية ، أغسطس ١٩٩١. دكتوراه في التاريخ من جامعة بغداد- أغسطس ١٩٩٩م. أستاذاً مساعداً في الجامعة الإسلامية بغزة- كلية الآداب- قسم التاريخ اعتباراً من (أغسطس ١٩٩٩- يناير ٢٠٠٥). أستاذاً مشاركاً في الجامعة الإسلامية بغزة- كلية الآداب- قسم التاريخ اعتباراً من (يناير ٢٠٠٥) حتى الآن. رئيس قسم التاريخ والآثار في الجامعة الإسلامية بغزة (سبتمبر ٢٠٠١ – أغسطس ٢٠٠٣). نائب عميد كلية الآداب (سبتمبر ٢٠٠٥ – يوليو ٢٠٠٧). مؤسس ورئيس مركز التأريخ والتوثيق الفلسطيني ، المتخصص في التأريخ لجهاد الشعب الفلسطيني بكافة فصائله ضد الاحتلال الصهيوني. عضو مجلس إدارة مركز المستقبل للدراسات والبحوث سابقاً. رئيس دائرة شئون اللاجئين في قطاع غزة وهي مؤسسة أهلية تعنى بقضية اللاجئين الفلسطينيين.

من تاريخ الفن

حالة إلهام

للفنان الفرنسي غِيوم سِينياك، ١٩١١

بقلم

أسماء صلاح

كاتبة وباحثة في علم الاجتماع
كلية الآداب – جامعة القاهرة
المشرف الفني على دورية كان التاريخية

في لحظة ما .. تأتي الفكرة .. فتفتح الباب للإبداع .. وعندها ينطق العقل كلمة "وجدتها" ومن ثم يقدم لنا المبدع أعمالاً رائعة .. تُرى !! ما الذي يحدث في تلك اللحظة ؟ وما الذي يفجر ينابيع الإبداع ؟ إنه "الإلهام" حين يجتاح المرء حالة شعورية فريدة .. كتلك الحالة التي تعيشها بطلة تلك اللوحة الرومانسية الرقيقة ، التي أبدعها الفنان "غِيوم سِينياك" Guillaume Seignac سنة ١٩١١.

اشتهر الفنان الفرنسي "غِيوم سِينياك" (١٨٧٠ - ١٩٢٤) في عصره بجمال لوحاته ، وهذا ما جعله أحد أهم الفنانين الذين حرصوا على عرض أعمالهم بانتظام في صالون باريس ، ونال على بعضها العديد من الجوائز. كما كان هواة الفنّ وجامعو التحف الفنية من الأوربيين والأمريكيين مفتونين باقتناء مناظره التي لا ينقصها الجمال والرومانسية وسعة الخيال. ومنذ تسعينات القرن الماضي انتعش الطلب مجددًا على لوحاته في وقت أعيد الاعتبار للفنّ الأكاديمي ورموزه الكبيرة.

تتلمذ "غِيوم سِينياك" على يد الفنان "ويليام بوغورو" William Bouguereau (١٨٢٥ – ١٩٠٥)، وتأثر كثيرًا بأسلوبه الأكاديمي وبطريقة اختياره لمواضيع لوحاته. وربما كان هذا أحد الأسباب في أن اسم "سينياك" غير معروف كثيرا اليوم ، فلوحاته تكاد تكون نسخة طبق الأصل من لوحات "بوغورو". وهذا ما جعله فنان يفتقر إلى الأصالة والتجديد إلى حدٍ ما ، وعذره في ذلك أنه لم يجد في زمانه رسّاما جديرا بالمحاكاة والتقليد خيرا من أستاذه الذي لم يتردّد بعض النقاد اليوم في وصفه بأنه أحد أعظم الرسّامين الذين عرفهم تاريخ الفن.

وبين البراءة والفتنة انطلقت لوحات "سينياك" لتأخذ مكانها في عيون التقليديين والحداثيين على حدٍ سواء. واشتملت جميعها على نساء جميلات صامتات أو متأمّلات في طبيعة زهرية لا تخلو أحيانًا من صور لنوافير وكراسي وأباريق من الرخام. وفي لوحتنا "حالة إلهام" Inspiration لنا فتاة شابّة تجلس في حالة تأمل وسط طبيعة خضراء ، ويبدو أنها بانتظار الإلهام الذي يأخذ هيئة ملاك صغير بجناحين وملامح بريئة. يجلس الملاك على الطرف العلوي للكرسي الذي تجلس عليه المرأة ، ويهمس في أذنها بكلمات قد تكون المفتاح الذي يساعدها على رسم لوحة أو كتابة قصيدة ما.

تتميز تلك اللوحة بتناغم ألوانها ورقّة تفاصيلها ، فضلاً عن التوازن الدقيق والمحسوب بين الخطوط الناعمة والألوان الدافئة والظلال الرقيقة ، والملابس المنسدلة مرسومة بطريقة غاية في البراعة والرقّة. ويذكرنا وجه المرأة بالجمال المثالي الذي كان الرسّامون يستقونه من النماذج الرومانية واليونانية القديمة ، مما يؤكد تأثر "سينياك" بأسلوب رسّامي عصر النهضة الإيطالي الذين كانوا يولون أهمية كبيرة للتوليف المتناغم ، إلا أن أستاذه "بوغورو" ظل الحاضر الأكبر في كل ضربة فرشاة ، بل وحتى في الفكرة التي تتناولها هذه اللوحة.

وترجع فكرة التأمّل والإلهام في الرسم إلى نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ، ففي ذلك الوقت كان الرسّامون يركزون على الأفكار والانفعالات الذهنية المختلفة كالتأمّل والصمت والإلهام والتذكر والعزلة وغيرها من الحالات التي تتناول المسائل العاطفية والروحية. وأحيانا كانت رسوماتهم مرتبطة بتأثيرات دينية أو شعرية أو فلسفية. وكان بعض الأدباء والفلاسفة يعتقدون بأن التأمل هو أساس الوعي والإبداع. كما أن الأعمال الفنية العظيمة ليست سوى نتاج للتأمّل الذي يفضي بدوره للإلهام ومن ثم الإبداع.

دورية إلكترونية، محكّمة، ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

The first Arabic Refereed Journal Published in Electronic Format, Specialized in Historical Studies and Research

كان التاريخية

Founded in 1429 AH

www.kanhistorique.org
www.historicalkan.co.nr

ISSN: 2090 – 0449

Fourth Year - Issue (13) September 2011 | Shawwal 1432

The Journal Issued Quarterly By : Junior Historian Series